

موسوعة عالم الأديان

كل الأديان . المذاهب . الفرق . البدع في العالم

14



موسوعة عالم الأديان

كُلُّ الأديان والمذاهب والفرق والبدع في العالم

الكنيسة المارونية

مجموعة من كبار الباحثين

بإشراف

ط. ب. مفرج

موسوعة

عَالَمُ الْأَدْيَانِ

كُلُّ الْأَدْيَانِ وَالْمَذَاهِبِ وَالْفِرَقِ وَالْبَدْعِ فِي الْعَالَمِ

الجزء الرابع عشر

الكنيسة المارونية

NOBILIS

جميع الحقوق محفوظة للناشر

طبعة أولى - ٢٠٠٤

طبعة ثانية - ٢٠٠٥

إسم المجموعة : موسوعة عالم الأديان

كُلُّ الأديان والمذاهب والفرق والنبذع في العالم

إسم الكتاب : الكنيسة المارونية

الجزء : الرابع عشر

انمؤف : مجموعة من كبار الباحثين بإشراف ط. ب.

مفرج

قياس الكتاب : ٢٨ × ٢٠

مكان النشر : بيروت

دار النشر والتوزيع : NOBILIS

تلفاكس : ٥٨١١٢١ - ١ - ٩٦١

٥٨١١٢١ - ٣ - ٩٦١

يُمنع نسخ أو اقتباس أيّ جزء من هذه المجموعة أو خزنه في نظام معلومات
إسترجاعي أو نقله بأيّ شكل أو أيّ وسيلة إلكترونية أو ميكانيكية أو بالنسخ
الفوتوغرافي أو التسجيل أو غيرها من الوسائل، دون الحصول على إذن خطّي مسبق
من الناشر.

المحتويات

الفصل الأول

الموَارِنَةُ وَنِسْبَتُهُمْ

الموَارِنَةُ - ص ١١؛ نِسْبَةُ المَوارِنَةِ - ص ١٤؛

إِسْمُ مارُون - ص ١٤؛

مار مارُون - ص ٢٣؛ تَلَامِيذُ مار مارُون وتَلْمِيذَاتُهُ - ص ٣٣؛

دَيْر مارُون - ص ٣٩؛ رُهَبان دَيْر مارُون خَلْقِيديون - ص ٤٢.

الفصل الثاني

الموَارِنَةُ بَيْنَ البِيْزَنْطِ والإِسْلامِ

في العَهْدِ الهِرَقْلِيّ - ص ٦١؛

رُهَبان دَيْر مارُون والقَوْلُ بالمَشيئَةِ الواجِدَةِ - ص ٦٣؛

في بَدَايَةِ الفَتْحِ الإِسْلامِيِّ - ص ٦٧؛ المَوارِنَةُ في لُبْنان - ص ٦٩؛

بَطْرِيْكِيَّةُ أنطاكيَّة بَعْدَ الفَتْحِ الإِسْلامِيِّ - ص ٧٣.

الفصل الثالث

البطريرك يوحنا مارون

نسب يوحنا مارون - ص ٧٧؛

يوحنا مارون أسقف على جبيل والبترون - ص ٨٦؛ يوحنا مارون البطريرك

الأنطاكي ص ٩١؛ يوحنا مارون في لبنان - ص ٩٥؛

كفرحي بعد أنطاكية - ص ١٠١؛ وفاة يوحنا مارون وقداسته - ص ١٠٥؛

رد التشكيك بحقيقة البطريرك يوحنا مارون - ص ١١٠.

الفصل الرابع

الموارنة بعد يوحنا مارون

بعد يوحنا مارون - ص ١١٩؛ البطارقة - ص ١١٩؛

الأمراء والمقنمون المردة ص ١٢٦؛ في الحقبة العباسية - ص ١٣٦.

الفصل الخامس

الموارنة بين الفرنجة والمماليك

بين الفرنجة والمماليك - ص ١٤٥؛ التقسيم الإداري للمناطق اللبنانية في الحقبة

الصليبية - ص ١٤٦؛ حقيقة علاقة الموارنة بالفرنجة - ص ١٤٩؛ بطارقة الموارنة

في الحقبة الصليبية - ص ١٥٧؛ نشوء "مؤسسة" البطريكية - ص ١٦١؛

العمشيتي في روما - ص ١٦٤؛ خلفاء العمشيتي - ص ١٦٩؛

أمراء الحقبة ومقدموها - ص ١٧٣.

الفصل السادس

في زمن المماليك

نكبة الموارنة - ص ١٧٩؛ البطارقة الموارنة في زمن المماليك ص - ١٨٢؛
القضاء على أعوان الصليبيين - ص ١٨٦؛ إنحصار في بلاد جبيل - ص ١٩٢؛
بطارقة الحقبة المظلمة - ص ١٩٦؛ المطران جبرائيل ابن القلاعي - ص ٢٠٤؛
المقتمية بين الصليبيين والعثمانيين - ص ٢٠٧.

الفصل السابع

الحقبة العثمانية

الموارنة في بداية الحقبة العثمانية - ص ٢١٣؛ من المقتمية إلى المدبرية - ص ٢١٧؛
بطارقة بداية الحقبة العثمانية - ص ٢٢٢؛ إسطفانس الدويهي - ص ٢٤١؛
بطارقة القرن الثامن عشر - ص ٢٤٣؛ المجمع اللبناني - ص ٢٤٤؛
صراع على البطريكية - ص ٢٤٥؛ البطريك إسطفان ومشكلة هندية - ص ٢٤٧.

الفصل الثامن

تبدلات سياسية بداية القرن التاسع عشر

تبدلات سياسية - ص ٢٥٥؛ تداعيات الصراع بين البطريك والأمير - ص ٢٥٨؛
في عهد القائمقاميتين - ص ٢٦٤؛ البطريك مسعد وأحداث ١٨٦٠ - ص ٢٦٨؛
الموارنة وعهد المتصرفية - ص ٢٧٨.

الفصل التاسع

الموارنة والوطن اللبناني المعاصر

في الوطن اللبناني المعاصر - ص ٢٨٥؛

آخر بطاركة القرن التاسع عشر وأول بطاركة لبنان الكبير - ص ٢٨٥؛

البطريرك الحويك رائد لبنان الكبير - ٢٨٧؛ الموارنة والجمهورية اللبنانية - ص ٢٩٥؛

بطاركة الجمهورية - ٢٩٧؛ البطريرك أنطون عريضة - ص ٣٠٢؛

"بطريرك العرب" مار بولس المعوشي - ص ٣٠٩؛

البطريكية المارونية والحرب اللبنانية - ص ٣١٧؛

المارونية ولبنان اليوم - ص ٣٢٦.

الفصل العاشر

من النسك إلى الرهبانيات والمدارس

نسك الموارنة - ص ٣٣١؛ رهبانيات الرهبان الموارنة - ص ٣٣٩؛

نشوء الرهبانيات المارونية - ص ٣٤٠؛ الرهبانية المارونية المريمية - ص ٣٤٣؛

الرهبانية المارونية اللبنانية - ص ٣٤٥؛ الرهبانية الأنطونية - ص ٣٤٩؛

جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة - ص ٣٥١؛

رهبانيات الرأهيات الموارنة؛ الرأهيات اللبنانية المارونيات - ص ٣٥٥؛

الرأهيات الأنطونيات - ص ٣٥٧؛ رأهيات القلبيين الأقدسيين - ص ٣٦١؛

رأهيات العائلة المقدسة المارونيات - ص ٣٦٣؛ رأهيات الصليب - ص ٣٦٥؛

رأهيات القديسة تريزيا - ص ٣٦٧؛ رأهيات القربان الأقدس المرسلات - ص ٣٧٠.

الموارنة ونسبتهم

الموارنة؛ نسبة الموارنة؛ إسم مارون؛

مار مارون؛ تلاميذ مار مارون وتلميذاته؛

دير مارون؛ رهبان دير مارون خلقيدونيون.

الموارنة

إذا أردنا أن نعرّف بالموارنة، من حيث المعتقد، قلنا إنهم ينتمون إلى كنيسة سريانية خلقيدونية أرثوذكسية كاثوليكية.

فهي سريانية من حيث النشأة والجغرافيا والتاريخ؛ وخلقيدونية أرثوذكسية من حيث المعتقد المستقيم بصفتها أتبعت، منذ الأساس، المجمع المسكونية السبعة التي نظمت العقيدة المسيحية، وتعترف بها الكنيسة المسكونية الأرثوذكسية. وتتميز الكنيسة المارونية عن سواها من الكنائس ذات الأصول المحلية: السامية المشرقية، بأنها كانت دائما من المتمسكين بمقررات المجمع المسكونية، عندما كانت الكنائس المحلية تختلف في الرأي مع مقررات المجمع الكنسية، ابتداءً من المجمع النيقاوي سنة ٣٢٥، ووصولاً إلى المجمع المسكوني السادس الذي انعقد سنة ٦٨٠ في القسطنطينية لبت موضوع الطبيعة الواحدة: المونوفيزية. وقد دفعت الكنيسة المارونية غالباً ثمن هذا التمايز والالتزام. وكان أفضح اضطهاد تعرض له رهبان مار مارون سنة ٥١٧ يوم حاول المونوفيزيون، بإيادة الإكليروس الماروني تماماً؛ وهي كاثوليكية لأنها تخضع لسلطة خليفة بطرس الجالس على كرسي روما منذ العام ٦٧ لميلاد المسيح.

ويشكل لبنان قاعدة الكنيسة المارونية منذ نهاية القرن السابع، وتحديدًا منذ سنة ٦٨٥، حين تسنم يوحنا مارون سدة بطريركية أنطاكية، ونقل مقر البطريركية إلى دير مار مارون كفرحي، بدل أنطاكية، التي كان جلوسه فيها مستحيلاً، لأسباب أمنية

وسياسية سيّأتي شرحها. وأضحى ذلك الدير، في الوقت نفسه، بديلاً عن دير مار مارون، على ضفاف العاصي، الذي دكّه سنة ٦٩٤ جند يوستينيانوس الثاني، الأمبراطور البيزنطي (٦٦٩ - ٧١١)، الذي خرج على العقيدة الأرثوذكسية وقال بالمشيئة الواحدة^١. وقد تعاقب على الكرسيّ البطريركيّ المارونيّ في لبنان، منذ ذلك التاريخ بلا انقطاع، ستّة وسبعون بطريركاً. فعمرت هذه الكنيسة الوطنية، حتّى الآن، أكثر من ثلاثة عشر قرناً. وشاركت بشكل رئيسيّ، مع مجموعات وطنية أخرى، في تأسيس الوطن اللبناني، الذي يعتبر أعرق كيان سياسيّ إجتماعيّ حديث بين الدول العربيّة جمعاء. ولا يزال لبنان الموئل الرئيسيّ للموارنة الذين يبلغ عددهم اليوم في الشرق، بحسب بعض الدراسات، حوالي ثمانمئة وخمسين ألف نسمة، أكثرهم في لبنان، والباقيون في سورية وقبرص^٢. يضاف إليهم ملايين المنتشرين في أصقاع الأرض، الذين حافظ بعضهم على انتمائه للكنيسة المارونية، بينما اتّبع بعضهم الآخر كنائس أخرى، لعدم وجود كنائس مارونية في المناطق التي يتوطنون^٣. فقد عرف الموارنة خلال حكم المتصرفيّة هجرة كبيرة بدأت في سبعينات القرن التاسع عشر ونشطت بين نهايته وبداية القرن العشرين. وكانت الأسباب الرئيسيّة لهذه الهجرة،

١ - المشيئة الواحدة: بدعة مسيحية ظهرت في القرن السابع، قال أصحابها بأنّ في المسيح مشيئة واحدة، عرفت بالمونوثلية، حرّمها المجمع القسطنطيني الثاني.

٢ - إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت، ١٩٨٨)؛ السّمك محمّد، الأقليات بين العروبة والإسلام، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٠) ص ٢٤.

٣ - أعطت التقديرات الأخيرة للإحصاء الذي أجراه "المركز الكاثوليكي للإعلام" للموارنة المتحدرين من أصل لبناني في القلّات الخمس، ما يفوق العشرة ملايين مارونيّاً، نظراً إلى أنّ أبناء الأجيال المتعاقبة التي راحت تنصهر مع الوقت في المجتمعات المقيمين فيها، بحيث لا يوجد كاهن أو أسقف ماروني يجمع شمل مؤمنيه، ويوحّد صفوفهم، ويحرّز تماسكهم الديني والوطني، تتقطع علاقة هؤلاء مع الوطن الأم، وينضمّون إلى المجتمعات المسيحية اللاتينية، ويصبح لولادهم ولحفادهم تابعين لتلك الكنائس المحليّة. راجع: صفيّر الأب د. بولس، عميد كليّة اللاهوت في جامعة الروح القدس، وحافظ المكتبة البطريركيّة المارونية، في بحث بعنوان: الكنيسة المارونية، في كتاب: تاريخ الكنيسة، ط ٢، دار المشرق (بيروت، ١٩٩٧) ص ٣٣٨.

رداءة الحالة الإقتصادية التي خلفتها الحروب الأهلية، وساعد على استفحالها ضيق رقعة الجبل اللبناني المنفصل عن المدن الساحلية الكبرى وعن السهول الزراعية في البقاع وعكار، وطموح اللبنانيين اللامحدود. وكانت هجرة هؤلاء إلى الأميركتين حيث نشأت لهم جاليات أصبحت، مع المتحدرين من أولئك الرواد الأولين، تعدّ أعداداً مضاعفة لأولئك الذين لا يزالون في لبنان. ولكن أكثر أبناء تلك الجاليات قد تخلّى عن مارونيته وامتزج في الكنائس المحلية حيث أقام. أمّا في بلدان الانتشار، فقد أدت الهجرة الحديثة إلى أوروبا والأميركتين وكندا وأستراليا وبعض الدول الأفريقية إلى نشوء كنائس مارونية نامية.

أمّا مجمل عدد أتباع الكنائس التابعة لروما، مجتمعة، في البلاد العربية، بمنّ فيهم الموارنة، فلا يتعدّى المليونين، بحسب إحصاءات جرت في العقد الأخير من القرن العشرين^١. فيما يبلغ عدد مجمل المسيحيين في البلاد العربية، بحسب تلك الإحصاءات، نحو ثمانية ملايين نسمة، أكثريتهم الساحقة من أقباط مصر.

وفي دراسة ميدانية شاملة وموسّعة أجريناها على مدى ثلاثين سنة حول أصول العائلات المارونية، تبين لنا أنها تتحرّر من أصول عربية وسريانية، وبعضها من بقايا الصليبيين الذين بقوا في الشرق بعد انكسار دولتهم، وجلّ هؤلاء فرنسيو الأصل، ومنهم عدد قليل من أصول إيطالية وإنكليزية. أمّا الأكثرية الساحقة من مجمل الموارنة فمن أصول عربية^٢.

١ - إبراهيم د. سعد الدين، المجتمع والدولة، مرجع سابق، السّكّ محمّد، الأكلت، مرجع سابق ص ٢٤.

٢ - مفرّج طوني، العائلات اللبنانية أصول وفروع، سلسلة في ٢٦ مجلّدًا، صدر منها: بنو المشروقي أصول وفروع، دار بيوغرافيا (بيروت، ١٩٩٩)، والسلسلة الهاشميّة في لبنان، ثلاثة مجلّدات قيد الطبع، عن دار بيوغرافيا (بيروت، ٢٠٠٣).

نِسْبَةُ المَوَارِنَةِ

إجتهد البعض في نسبة الموارنة، فقال بعضهم بأنهم منسوبون إلى مارون الناسك، وبعضهم الآخر بأنهم إنما نسبوا إلى البطريرك يوحنا مارون، وقيل غير ذلك أيضًا. سنحاول، في ما يلي، الغوص في أساس هذه النسبة وأصولها.

إِسْمُ مَارُون

فيما يعتبر بعض علماء اللغات السامية القديمة أن "مارون"، إسم علم سرياني، هو تصغير تحبب لكلمة "مارونا" MĀRŪNA التي تعني: السيد والشريف والمقدم^١، شرح البطريرك إسطفانوس الدويهي^٢ أصل لفظة "مارون" ومعناها فقال: إنها منقولة من اللغة السريانية، وإن معناها يَخْتَلَف باختلاف لفظها، فإن ضُمَّ أولها ولُفِظَتْ "مُرون" MORŪN، كان معناها "السيد" و"الرب". وإن فُتِحَ ولُفِظَتْ "مَرون" MARŪN، كان معناها "المرزبة"^٣، و"الفأس"، و"المرّة"^٤. وهاتان اللفظتان، على ما توجبهُ قواعد اللغة السريانية، إذا صُغِرَتَا، صارت الأولى "مُرونا" MORŪNA، والثانية "مَرونا" MARŪNA؛ وإذا جُزِمَ المثني، صارت الأولى "مُرون" MORŪN، والثانية "مَرون" MARŪN؛ وتعيّن، حينئذٍ، أن يكون اللفظ علمًا شخصيًا. ولكن عند نقل اللفظة إلى اللغة العربية، حُوِرَتْ من "مُرون" MORŪN، أي "السيد الصغير"، إلى صيغة "مارون" بزيادة الألف، لكون

١ - فريحة د. أنيس، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، الجامعة الأميركية في بيروت (بيروت، ١٩٥٦) ص ٣١٠.

٢ - الدويهي البطريرك إسطفانوس، تاريخ الطائفة المارونية، تحقيق رشيد الخوري الشرتوني، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، ١٨٩٠) ص ١٣.

٣ - المرزبة: أداة تستعمل لكسر الحجارة.

٤ - المرّة: أداة لقلب الأرض ونقبها.

النقل يُخرج الأشياءَ عن أصولها. وبالنَّظر لشرف هذا الإسم في المعنى، وخفَّته في اللفظ، سمِّي به كثير من القدماء، وخاصةً في بلاد الشام. كما أُطلق اللفظ اسمًا لمدن وقرى كثيرة منتخبة، من جملتها ما جاء في كتاب "يشوع بن نون"^١ في الحديث عن "بلاد إفرائيم" أنه كان فيها مدينةً جليلة تُدعى "مارون" وكانت عين البلاد وتخت الملك نفسه، ولكن لما أقام الإسرائيليون بمدينة "شمرون" نقلوا تخت ملكهم إليها. وكان الملك الذي يسوس تلك البلاد يسمونه "ملك شمرون ومارون"^٢. وفي بلاد "الشقيف" من نواحي صيدا سُمِّيَت بها الاسم، وهما: "مارون الراس"^٣ المبنية على قمة "جبل عاملة" في الجنوب اللبناني، و"مارون الركين"^٤ المبنية على أرض خصبة بقرب نهر الليطاني، وتدلُّ آثار القريتين على أنهما كانتا مدينتين حصينتين. ولا يستبعد الدويهي أن تكون "مارون الركين" هي نفسها "المدينة الجليلة" التي نكرها "يشوع بن نون" في الفصل الحادي عشر من كتابه. وهناك مدينة أخرى اشتهرت باسم "مارون" في نواحي أنطاكية، أنجبت القديس "ملكوس"، وجلس على كرسي أسقفيتها "ديماس" و"دورشيماس" اللذان حضر أحدهما مجمع أفسس سنة ٤٣١، والآخر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١، وجلس عليها قبلهما "تيموتاؤس" صديق القديس "يوحنا فم الذهب" (٣٤٧ - ٤٠٧). وكان هناك قريتان في جبل لبنان إسماهما مارون، الأولى في أرض بلدة "حراجل" في قضاء

١ - يشوع بن نون: من سبط إفرائيم، خادم موسى وخلفه، أدخل البرانيين أرض كنعان وقاد جيشهم في محاربة العمالة فلتجأ الأردن ودخل أريحا؛ راجع: سفر الخروج، ١٧: ٨ - ١٤.

٢ - سفر يشوع، الفصل الثاني عشر.

٣ - مارون الراس: هي اليوم في قضاء بنت جبيل على متوسط ارتفاع ٩٠٠ م. عن سطح البحر، اكتشف على مسافة ٥٠٠ متر جنوبيها مغارة أثرية على جدرانها نقوش غارقة في القمم لم يحدد تاريخها، كما عُثِر في أرضها على بعض الأواني الخزفية.

٤ - نعتقد أنها المعروفة اليوم باسم مروحين في قضاء صور، فيها أطلال قصر بلاط الأكردي الذي ما زالت أعمدته قائمة بشكل عمودي مُتَت عليها أعمدة بشكل أفقي، وفي نطاق البلدة مدافن منحوتة في الصخر.

كسروان، والثانية على ضفة نهر ابراهيم من بلاد جبيل. وفي البلاد التركية مدينة اشتهرت بهذا الاسم، مدحها القدماء بأشعارهم وأشادوا بطيبة خمرها. وفي الأندلس مدينة حملت اسم "مورون" عند السواحل الإسبانية. وهذا القدر كافٍ في ما ذكرناه من أسماء المدن والقرى.

ويذكر الدويهي من أبرز الذين حملوا اسم مارون، قبل المسيحية، ملك مصر "مارون مونيّس". وكذلك "فيرجيليوس"^١ اللاتيني الشهير. وبعد انتشار المسيحية انتشر اسم مارون ومورون بشكل واسع. وممن حمله: القديس الشهيد "مارون الشمّاس"^٢؛ والقديس "مورون" الأخائي^٣ الذي عاش في عصر الملك "داقيوس"^٤؛ والقديس "مورون"^٥ أسقف "قريطش"^٦. وجاء في الكتب السريانية ذكر "لأخوين فاضلين هما: ابراهيم ومارون، نشأ في قرية "قلش" من بلاد آمد التي باتت تُعرف باسم "ديار بكر". وقد أثر ابراهيم التتسك في قمة جبل كثير الثلج في أحد أديار "إيجيل" حيث أقام

١ - فيرجيليوس VIRGILIUS (٧١ - ١٩ ق.م): أعظم شعراء روما، ألف "الرعائيات" و"الفلاحيات" وملحمة "الإنيادة".

٢ - القديس مارون الشمّاس (ت ١١٢): قُضى شهيداً، عيده في ١٥ نيسان (إبريل).

٣ - القديس مورون الأخائي (ت ٢٥٣): كاهن مسيحي، قبض عليه أنثيثار والي أخاتيا يوم عيد الميلاد فأخرج من الكنيسة وجرح لحمة بأظفار حديدية ثم زجّ به في آتون مضطرم فظهر منه صحيحاً سالماً بتيابه. ثم سلخوا من جلده سيوراً وأطلقوا عليه الوحوش الضارية فلمل من أذاها. عندها قتل الوالي نفسه غيظاً. نقلوه إلى مدينة كيريقوس حيث ضربوا عنقه بالسيف، تعبد له كنيسة الروم في ١٦ آب (أغسطس).

٤ - داقْيُوس DECIVS (٢٠١ - ٢٥١): قائد روماني، نادى به جنوده أمبراطوراً بعد انتصاره على القوط، حكم ٢٤٨ - ٢٥١، اضطهد للمسيحيين.

٥ - القديس مورون الأسقف: أسقف جزيرة كريت، عاصر الأمبراطور داقْيُوس ٢٠١ - ٢٥١، ونسبت إليه معجزات في حياته منها حبسه جري النهر المتدفق بكلمته ثم إطلاقه بإيماء عكازه، توفي عن عمر يناهز المائة، تعبد له كنيسة الروم والكنيسة الأرمنية في ٨ آب (أغسطس)، يسمّيه الارمن مارون.

٦ - قريطش أو كريت CRÈTE : جزيرة يونانية في المتوسط، اشتهرت قديماً بمدينةها التي انتشرت على سواحل المتوسط للشرقية.

عشرين سنة، ثم ارتقى عموداً ثُبَّت فوقه ثلاثين عامًا، نال بعدها موهبة الشفاء وزجر الشياطين عَمَّن كان يقصده^١. فيما تقشَّف مارون في جوف شجرة نخرة، وكان يلزَم الوقوف على قدميه ليلاً ونهاراً ويقهر نفسه ويقسرها على المثول تحت انحدار الثلج وهبوب الرياح والعواصف حافي القدمين. ولمَّا توفي إبراهيم، أنزله المؤمنون عن العمود، وارتقى مارون إلى مكانه مواظبًا على الصوم والصلوات المتواترة إلى أن قضى نحبه ولحق ربّه، وقد نُسبت إليه كرامات كثيرة، "منها أن رجلاً عديم الأولاد لجأ إلى دعائه فأنحلَّ عقم امرأته وولدت ابناً سَميَ مارون تبعهً لوصية البار لها. أمّا الذي دوّن أخبار مارون وأخيه إبراهيم ونسب إليهما مكرّات لا تحصى، فاسمه يوحنا، وقد وجد الدويهي مخطوطه في "تير ما يوحنا حراش" من أعمال كسروان، وجاء في المخطوط أن يوحنا نفسه هذا، "كان ابن رجل يولد له أطفال يموتون في تمام عمر السنتين، فلما بلغ يوحنا عمر إخوته الراحلين، أدركه العارض المعهود، وغشي عليه، فحملة والداه، بايمان، وذهبا به إلى مارون الذي أمر بأن يُطعم الطفل من طعام الإخوة وكان عدسًا، فلما استطعم الصبي بمذاقه صحا من إغمائه وبرئ ثم نما وانتشى". ولم يغفل الدويهي ذكر "مارون الأياني" الذي قال إنه كان شماسًا للقديس "قلابيانس"^٢ بطريرك أنطاكية، وكان منتصرًا للمجمع الرابع مع معلمه. وقيل إن أصل مارون هذا من قرية "معراب" من نواحي كسروان^٣.

١ - هذه الطريقة في التتمك فوق عمود منسوبة إلى القديس سمعان العمودي الأكبر (نحو ٣٨٩ - ٤٥٩) الذي تتمك ٣٧ سنة على عمود في جبل سمعان بقرب حلب، ثم قلّده في ذلك اتباع.

٢ - قلابيانس أو قلابيانس، ولحقه المقصود بطريرك القسطنطينية وليس أنطاكية ٤٤٦ - ٤٤٩، وهو قلابيانوس الثاني الذي عاش (٤١٨ - ٥١٢) نفي إلى البتراء لتمسكه بالإيمان الأرثوذكسي ضد لوطيخا ٤٤٨.

٣ - معراب: قرية في كسروان من أعمال قضاء كسروان الفتح في جبل لبنان بجوار غوسطا.

لقد أراد الدويهي، من خلال هذا العرض، تبيان أن اسم مارون كان شائعاً في الماضي. والردّ على بعض الاجتهادات التي نسبت الموارنة إلى غير مارون. ومنها 'اجتهادان لكل من "بارونيوس"^١ و"الصهيوني"^٢ اللذين ذهبا إلى أن الموارنة نُسبوا إلى مدينة "مارون" المجاورة لأنطاكية^٣. وقد عارض الدويهي هذه النسبة لأنه "غير منقول عنها (مدينة مارون) أنه قام منها رأس مشهور لهذه الأمة" ولأنّ الموارنة "لم يسكنوها حيناً ما حتّى ينتسبوا إليها". كما ردّ ما ذهب إليه "جماعة من اليعقوبيّة (السرّيان المونوفيزيّين) إلى أن الموارنة يُنسبون إلى "مارون الأياني"، وهذا غلط صريح لكون مارون الأياني مات شماساً كما يذكر عنه ابن القلاعي^٤. علماً بأنّ "مارون الأياني قد تقدّم يوحنا مارون بأكثر من مئة وخمسين سنة، وفي زمانه لم يكن الخلاف قد انبثّ بين الملكيّين والموارنة". كما عارض الدويهي رأي "السرّيان أتباع يعقوب البرادعي"^٥، القائل بأنّ الموارنة يُعرّون إلى البطريرك يوحنا مارون؛ ورأي سعيد بن البطريق^٦

١ - فيسار بارونيوس (١٥٣٨ - ١٦٠٧): كرينال وعالم ليطالي، طبق النقد العلمي في تاريخ الكنيسة، له "الحوليات الكنسية".

٢ - جبرائيل الصهيوني SIONITA (١٥٧٧ - ١٦٤٨): من علماء الموارنة، ولد في إهدن لبنان ودرس في روما، درّس اللغات الشرقيّة في المعهد الملكي في باريس واهتمّ بنشر التوراة المتعنّدة اللغات ١٦١٤ ونشر الآثار العربيّة التي منها "جغرافية الإديسي" و"الغرامطيق العربي".

٣ - سيعود الدويهي ليوضّح في مكان آخر أنّ بارونيوس قد تردّد في النسبة المارونيّة ما بين أمرين متقاربين، فقال: هذه النسبة إمّا أن تكون إلى مارون المدينة التي هي متاخمة لأنطاكية، وإمّا أن تكون راجعة إلى البارّ مارون الذي انتشرت قداسته في صقع جبل قورش واشتهر رهبان ديريه بالطوم وحسن الديانة في نواحي سورّيّة الثانية على النهر العاصي.

٤ - المطران جبرائيل ابن القلاعي اللخدي (١٤٤٧ - ١٥١٦): عالم كنسي لبنانيّ مارونيّ، ولد في لحف من أعمال بلاد جبيل، تعلّم في القدس عند الفرنسيّسكان وترهب عندهم، انتقل إلى روما حيث حصلّ العلم ١٤٧١ - ١٤٩٢، أرسلته روما إلى لبنان ١٤٩٢ - ١٤٩٦ حيث حارب البدع التي كانت متفشية في الشرق وكانت تحلّول إخضاع الموارنة، انتقل إلى قبرص حيث جلس على كرسي أسقفيتها وفيها توفّي ١٥١٦، سيّمتي الكلام عنه لاحقاً.

٥ - راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٦ - سعيد بن البطريق (٨٧٧ - ٩٤٠): هو أوطيخيوس بطريرك الإسكندريّة على الملكيّين ٩٣٣ - ٩٤٠، كان طبيباً ومجدلاً ومؤرخاً، له مختصر في التاريخ العام إلى سنة ٩٣٨ سمّاه "نظم الجواهر" طبع في أكسفورد ١٦٤٢، وله أيضاً "كتاب البرهان".

القائل بأنه "كان في عصر موريق^١ رجل راهب يقال له مارون وكان يقول إن لسيدنا المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة وفعلاً واحداً، فأفسد مقاله الناس، وأكثر من تبع مقالته أهل "حماة" و"قنسرين"^٢ و"العواصم"^٣ وجماعة من أهل الروم، فسُمي الناس التابعون لدينه والقائلون بمقالته مارونيين، أي منسوبين إلى مارون. فلما مات مارون بنى أهل مدينة حماة ديراً بحماة وسموه دير مارون". وقد ردّ الدويهي هذا الزعم بحجة أنه، في هذه الحالة، يجب أن يسمّى مارونياً كل من تمسك ببدعة المشيئة ومن انتصر لها أمثال: "قورس" بطريرك الإسكندرية، و"تاودورس" أسقف "قاران"، و"مقاريوس" بطريرك أنطاكية، و"أونوريوس" بابا روما، و"سرجيوس" والمتخلفين بعده على كرسي القسطنطينية، وكذلك "هرقل" ملك الروم. ورغم هذا الخطأ الواضح المعالم، فقد نقل أكثر المؤرخين اللاحقين رأي سعيد بن البطريق من دون تمحيص، كما فعل بعض مؤرخي الملكيين أمثال "بولس الراهب الأنطاكي"، و"سليمان بن حسن الغزي" وغيرهما، كما فعل بعض مؤرخي الموارنة "الغرباء"^٤ أمثال "أبي الفضل عبدالله"^٥

١ - موريق أو موريقيوس: إمبراطور بيزنطي ٥٨٢ - ٦٠٢، حارب الفرس والسلافيين، أعاد تنظيم الإمبراطورية والجيش، ثار عليه الجيش وقتله مع أولاده وأحلّ مكانه فوكس.

٢ - قنسرين: كانت مدينة شهيرة في سورية في جنوب غرب حلب على طريق القوافل بين حلب وأنطاكية، حصتها سلوقس نيكاتور (٣٥٥ - ٢٨٠ ق.م) وسمّاها "خلفيس انبيلوم"، فتحها أبو عبيدة ٦٣٧، خرّبها الإمبراطور البيزنطي باسيلئوس الثاني ٩٦٣ فقلّ سيف الدولة سكّنها إلى حلب، جندّها الأمراء بنو بسيس التتوخيون، خرّبها عن آخرها تاج الدولة في أواخر القرن الحادي عشر، عرفت لاحقاً باسم "سكي حلب".

٣ - العواصم: فيما ذكر الدويهي أنها بجزار قنسرين، جاء في المراجع الكلاسيكية أن العواصم أو الثغور، هي الحصون التي شيّدها الخلفاء على الحدود بين بلاد المسلمين وبلاد البيزنطيين شمالي سورية في القرن التاسع، منها طرسوس وأنه ومرعش وملطية.

٤ - المقصود بذلك الذين أرخوا الموارنة من غير الموارنة.

٥ - لا شك في أن المقصود هو عبدالله بن الفضل الأنطاكي المعروف بلقب الفتح (ت بعد ١٠٥٢): شمل ملكي نشأ في أنطاكية، اشتهر بترجمته عن اليونانية من كتب الموعظ والمقالات لأباء الكنيسة لا سيما ليوحنا الذهبي الفم، كما ترجم المزمير فطبت في دير مار يوحنا الصابغ في الخنشارة ١٧٣٥، له أيضاً مؤلفات دينية وفلسفية ولاهوتية منها كتاب المنفعة الكبير، وكتاب المنفعة الصغير.

و"توما الكفرطابي"^١ و"عبد الله بن الطيّب" الذي كان قسيساً في العراق ومات سنة ١٠٤٣ وسواهم.

يضيف الدويهي إلى هؤلاء، العديد من الكتاب الذين نسبوا المواردنة إلى دير مارون أو ماران، مستندين إلى ما جاء في كتاب "الهدى"^٢ المحرّر بيد "مسعود الشبطيني" سنة ١٣٤٥ في "ماغوصة"^٣ قبرص، من "أنّ المارونية منسوبة إلى دير مارون أو ماران وتفسيره في اللغة العربية "دير ربّنا" لأنّ صفة هذا الدير عجيبة، وموقعه في أرض حماة قريباً من نهر العاصي، وكان رهبانه ثمانمائة راهب، ولأجل هذا سمّوا مارونيين أو مارانيين. ولعدم معرفة الأكثرين بمعنى هذا الاسم وأصله قالوا: إنّ الرهبان المواردنة تعود نسبتهم إلى الأب القديس الطاهر مار يوحنا بطريرك أنطاكية". ويستنتج الدويهي: "بما أنّ ابن البطريق قد زعم في كتابه أنّ مارون مبدع المشينة الواحدة هو ربّ هذا الدير... تمسك الملكية بقوله، وادّعوا أنّ البطريق يوحنا مارون كان تابعاً لهذا الرأي، وهذا وجه الإفتراق ما بين الملكيّ والماروني"^٤.

١ - توما الكفرطابي: كان مطرناً على كفرطاب وعلى الرعيّة التي في خارج العاصي نحو ١٠٨٩، له كتاب "المقولات"، وكتاب "الفصول العشرة".

٢ - كتاب الهدى: عبارة عن مجموعة قوانين كنسيّة كانت دستوراً للطائفة المارونيّة وغيرها، ترجمه إلى العربيّة سنة ١٠٥٨ عن أصله السرياني القديم جدّاً المطران داود الماروني الطيبي، وصرح في المقدمة بأنّه "إنّما اضطرّ إلى ترجمته لأنّ للشعب الماروني لأصبح لا يحسن فهم لغته الأصليّة"، وبالأستد إلى هذه العبارة فهم أنّ تأليفه بالسريانيّة كان في أواخر القرن التاسع، أمّا مؤلفه فمجهول. نسخة كتاب "الهدى" الأصليّة نقلها السمعاني من لبنان إلى روما وهي محفوظة في المكتبة الفاتيكانية تحت العدد ١٣٣، وقد ظهرت نسخ من هذا المؤلّف القيم لعبت بها الأيدي وهي بالتالي غير موثوقة. وقد وصل إلينا من هذا الكتاب عدّة نسخ؛ راجع: داغر الخوراسقف يوسف، بطاركة المواردنة، المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت، ١٩٥٧) ص ٧٠.

٣ - ماغوصة: هي فاماغومستا أو فاماغومستا FAMAGUSTA: مدينة على ساحل قبرص الشرقي، كانت سابقاً عاصمة الجزيرة، فيها جالية مارونيّة.

٤ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص ١٠ - ١١.

ويضيف الدويهي أنّ "أصحاب هذا الزعم الواهي، بذلوا مجهودهم بالمراسلات والعظات المزوّرة كي يستعطفوا بها قلوب أهل لبنان وينقلوهم عن التمسك بالمشيئتين كما تلوح به كتبهم، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً"^١. ويذكر أنّ "ديونيسيوس بن صليباً"^٢ و"جماعة من اليعقوبية (السريان المونوفيزيين) المتأخرين ذهبوا أيضاً مذهب ابن البطريق لقراءتهم كتبه، وكتب توما الكفرطابي". وأنّ "غوليلمو الإفرنجي"^٣ أسقف مدينة صور، "قد اتّبّع رأي ابن البطريق لكونه اطّلع على تاريخه واقتدى بنصّه كما هو ظاهر كلامه في فاتحة كتابه "استنقاذ أرض الميعاد"، حيث ذكر أنّ مارون الراهب أبدع مقالة المشيئة الواحدة، وأنّ المجمع السادس^٤ ما التأم إلّا طعناً فيه وردّاً عليه وعلى من قال بقوله، وأنّ الموارنة استمروا متمسكين بهذه البدعة نحواً من خمسمائة سنة أي حتّى سنة ١١٨٤، ثمّ اهتدوا أخيراً بضوء الكنيسة الجامعة على يد "أوماريكو الإفرنجي" بطريرك أنطاكية". وقد وافق غوليلمو على زعمه بعض العلماء الغربيين الذين وقفوا على كتابه^٥. على أنّ الكردينال المؤرّخ "بارونيوس" أنكر على غوليلمو قوله بأنّ الموارنة ينتسبون إلى "مارون الراهب المبدع"، ذلك أنّ بارونيوس هذا كان قد طالع كتب البيعة بأسرها، فلم يجد لهذا القول فيها أثراً. ولمّا رأى بطلان ذلك الزعم، تردّد في النسبة المارونية ما بين أمرين متقاربين، كما ذكرنا سابقاً، فقال: بأنّ هذه

١ - تبحر العبارة قلقة في مكتبها فكان الناسخ أغفل كلاماً قبلها واكتفى بنكرها.

٢ - ديونيسيوس بن الصليبي: أسقف مرعش ثم منبج ثم آمد اليعقوبي ١١٥٤ - ١١٧١، له مؤلفات دينية عديدة بالسريانية والعربية، اشتهر بتفسيره للكتاب المقدس.

٣ - غوليلمو الإفرنجي: لا شك في أنّ المقصود هو غليوم للصوري (١١٣٠ - ١١٨٣): مؤرّخ دولة الفرنج في الشرق، ولد في صور وصار رئيس أساقفتها على اللاتين.

٤ - للمجمع السادس: هو مجمع القسطنطينية الثالث، عقد ٦٨١ وحرّم المونوتيلية.

٥ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ١١.

النسبة "إمّا أن تكون إلى مارون المدينة المتاخمة لأنطاكية، أو أنها عائدة إلى البار مارون الذي انتشرت قداسته في صقع جبل قورش، واشتهر رهبان ديرهِ بالعلوم وحسن الديانة في نواحي سورية الثانية على نهر العاصي. ووافقه على ذلك أكثر علماء الفرنجة المتأخرين، وجماعة من كبار علماء الموارنة، كالصهيوني* والخوري "مرهج بن نمرون"^١ وغيرهما. وفي سنة ١٦٠٨، أمر البابا بولس الخامس (١٦٠٥ - ١٦٢١) بأن تُحرّر سيرة القديس مارون في بدء كتاب القديس السرياني الذي طُبِع في روما، كما التمس منه تلاميذ المدرسة المارونية هناك^٢.

ويقول الدويهي "إن الرأي المعولّ عليه، والموافق لتسليم الكنيسة المارونية، والمقبول من البيعة الرومانية، كما هو واضح من كتب صلوات الموارنة التي طُبعت في روما بأمر رؤساء البيعة المقدسة، فهو رأي المطران جبرائيل ابن القلاعي* القائل بأن الموارنة "تلقّبوا بهذا اللقب من البار مارون بطريرك أنطاكية العظمى"^٣، كما هو ظاهر من مضمون سيرته حين دخل البطريرك بنفسه مدينة روما الكبرى، وتثبت من خبر الكرسي الروماني. ولما رجع إلى أنطاكية كرسيه، استعاد كثيرين من تلاميذ "مقاريوس الأراطيقي"^٤ ومن الملة "اليقويّة"^٥ إلى الإيمان المستقيم. وأنذر وبشّر

١ - راجع: الباني مرهج بن نمرون، أصل الموارنة وديانتهم، (روما، ١٦٩٧).

٢ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، المرجع السابق.

٣ - المقصود البطريرك يوحنا مارون.

٤ - هو البطريرك مكاريوس: سُنّي بطريركا على أنطاكيا ٦٧١ - ٦٨٠، قال بالمشيئة الواحدة، أقام في القسطنطينيّة، حرّمه المجمع السادس ٦٨٠ وخلعه ونفاه إلى روما لتمرّده على المجمع المسكوني. أمّا "الأراطيقي" فالقصود بها "الهرطوقي" نسبة إلى "الهرطقة" عند المسيحيين، أي البدعة في الدين.

٥ - اليقويّة: نسبة إلى يعقوب البرادعي أسقف لها ٥٤١ - ٥٧٨، اعتبر للمؤسس الحقيقي للكنيسة السريانيّة المونوفيزيّة التي حملت اسمه عرفاً؛ راجع الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

بحقيقة الطبيعتين والمشيئتين. ثم دخل جبل لبنان وعزز شأن البابا وقبله أهل تلك البلاد بفرح وسرور. وهذه القصة نقلها "فرنسيسكس كوارسيموس" من اللغة العربية إلى اللغة اللاتينية وطبعها في كتابه المشهور سنة ١٦٣٤ في أخبار الأراضي المقدسة^١.

مار مارون

في بحث معمق حول نشأة المارونية، لعالم بحاثه ماروني معاصر: الراهب الماروني اللبناني الأبّاتي بولس نعمان^٢، في مجال التساؤل حول "أيّ مارون هو الذي بُني على اسمه دير مارون في "حمص"^٣ إثر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥٢، يقول: إنّ حاملي هذا الاسم هم كثر في سوريا. بيد أنّ التقليد الماروني يحزو اسم مارون هذا إلى الأكثر شهرة بين حامليه، إلى ناسك "التاريخ الديني" لـ"ثيودوريتس"^٤. غبطة

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ١١ - ١٢.

٢ - نعمان الأبّاتي بولس، المارونية لاهوت وحياة - من جبال قورش إلى سهول أفاميا، تعريب أمين مرعي، نشر مكتبة جامعة الروح القدس (الكلليك - لبنان، ١٩٩٢) ص ٢٥.

٣ - كان دير مار مارون على مسافة بضعة كيلومترات من أفاميا وغير تابع لأيّ قرية أو مدينة، ما يجعل ممكناً إمكانية نسبته بسهولة إلى أفاميا أو إلى حمص، أي إلى البلاد المجاور أو إلى العاصمة أو المقاطعة، كما نقول اليوم، مثلاً، دير كفرحي في البترون. مع الملاحظة إلى أنّ أفاميا كانت تقع في منطقة حمص، وبينما يذكر نعمان أنّ المسافة بين أفاميا ومدينة حمص نحو ٨٨ كلم، جاء في "منجد الأعلام" أنّ تلك المسافة نحو ٤٥ كلم.

٤ - ثيودوريتس THEODORÉTOS (نحو ٣٩٣ - ٤٦٦): لسقف قورش ٤٢٣، ككتب سرياتي، قلوب المونوفيزية في المجمع الخلقيدوني، له مقالات وتاريخ للكنيسة، اتهم بالنسطورية ٤٤٩ فاضطرّ إلى مغادرة كرسيه الأسقي ليعود إلى دير قرب أفاميا فشارك كثيرين من شيعته قورش معه، حرمت مؤلفاته ٥٥٣؛ لمعرفة المزيد عن ثيودوريتس راجع: نعمان الأبّاتي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٧٥ - ١٣٦.

بطريك السريان الأرثوذكس، يعقوب الثالث، عني بجمع حاملي هذا الاسم على اختلافهم في مقاله عن "ساويروس وربيان دير مارون"^١. إنَّما، من الواضح أنَّ المقصود هنا راهب يتمتَّع ببعض الشهرة في الأوساط الرهبانية في سوريا الشمالية، متوفَّ قبل عام ٤٥٢، لأنَّ مجرد إطلاق اسم على دير، يهدف، عادة، إلى تأكيد أو إشهار تكريم ذكرى راهب قديس وفضائله. ويبدو أنَّ مارون "التاريخ الديني" لـ"ثيودوريتس" وحده يوفي بهذه الشروط، بينما الآخرون الذين طُرحت أسماؤهم وُجدوا بعد هذا التاريخ^٢.

كذلك يخلص الدويهي إلى أن أجلَّ من اشتهر باسم مارون، هو الأب الطاهر والقديس النبيل، الذي شرف بلاد قورش^٣ وسائر المشرق بقداسته وصنَّع معجزاته. أمَّا عن تاريخي ولادة ووفاة القديس مارون، فيقول نعمان^٤ أنَّ التَّاريخين لم يحدِّدا إلى الآن، ويضيف: يعتقد "تيلامون" أنَّ مارون كان إمَّا تلميذًا أو نذًّا

١ - يورد الأبائي نعمان هنا الحاشية التالية: راجع: المجلَّة البطريركية، ٢ (١٩٦٣) عدد ١٢، ص ٧٠ - ٨٢.

٢ - يورد الأبائي نعمان في الحاشية هنا أسماء هؤلاء المشاهير الذين حملوا اسم مارون على الشكل التالي: - مارون: مراسل ساويروس الأنطاكي (٥١٢ - ٥١٨)، راجع الآباء الشرقيين، مجلَّد ١٢ و ١٤، منشورات بروكس، مجلَّد (١) ص ١٩٦ وما يتبع؛ - مارون: مراسل يعقوب السروجي (٥١٢+) راجع أوليندر، يعقوب السروجي، الرسائل (لوند، ١٩٣٩)؛ - مارون: قارئ أنازارب، راجع أ. هونيغمان، أساقفة واسقفيات مونوفيزية (لوفان، ١٩٥١) ص ٦٤، عدد ١٤ - مارون: ناسك قضاء أميد، راجع حياة الآباء والنسك للشرقيين، مجلَّد (١) ص ١٦٥ - مارون: رئيس دير الشرقيين في جبل "الرها"، نفاه يوستينوس (٥١٨ - ٥٢٢) راجع زكريا ريتور، للتاريخ الكنسي، منشورات أ.ي. بروكس في CSCO، عدد ٨٣ - ٨٤، (باريس - لوفان، ١٩١٩ - ١٩٢١) مجلَّد ٢، ص ١٨١ - مارون: رئيس دير الشجرة في "داريا" الذي وُقع الرسالة الأرثوذكسية نحو سنة ٥٧٠، راجع وثائق مونوفيزية، منشورات أب. شابو في CSCO، عدد ١٧: ١٠٣ (باريس، ١٩٠٨) ص ٢٢٠؛ لخير^٢ - مارون التاريخ الديني (+٤١٠) راجع سوزومين، التاريخ الكنسي للآباء اليونان، ٢٨: فصل ١٦ عمود ١٤١٨ - ١٤١٩.

٣ - بلاد قُورُش أو خُورُش CYRRHUS: موضع قديم في سورية الشمالية قرب أعزاز في محافظة حلب اليوم، هي اليوم أنقاض كبيرة بالقرب منها مقام "الشيخ خورون". كان فيها مستعمرة سلوقية أدخلها الفاتح الروماني بومبيوس في حكم الرومان ٦٥ ق.م، ازدهرت فيها المسيحية، عرفت باسم "هاغوبوليس"، فتحها العرب ٦٣٧ ثم الصليبيون، دخلها نور الدين زنكي ١١٥٠، من أساقفتها "ثيودوريتس" المؤرَّخ.

٤ - نعمان الأبائي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٧.

١- "أسيبسيماس" الذي نال شهرة إبان حكم فالانس (٣٦٤ - ٣٧٨) أعني قرابة سنة ٣٧٠؛ نعرف، من ناحية ثانية، أن "يعقوب" و"ليمانوس"٢ بعد ذهابهما إلى عند مارون، مارسا حياة الهواء الطلق على مدى ٣٨ سنة. والحال، إذا ما سلّمنا بأن "التاريخ الديني"٣ وُضع نحو ٤٤٤ - ٤٤٥، فعلينا أن نستخلص أن مارون كان لا يزال على قيد الحياة قرابة السنة ٤٠٦ - ٤٠٧، وبالتالي، أن تورّخ وفاته بعد ٤٠٧ وقبل ٤٢٣.٤

في الواقع، عاصر القديس مارون، أسقف قورش ثيودوريّس*. وكان هذا كاتبًا سجل أحداثًا تاريخية كنسية عاصرها، وقد ذكر في مدوّنته "مارون الناسك" في عداد نساك أبرشيّته. وأوضح أن مارون اعتكف على إحدى القمم قرب هيكل وثني، حيث قضى حياته بالصلاة والتوبة. كما قال هذا الأسقف المؤرّخ المعاصر لمارون "إنّ الله قد منّ على الناسك مارون بالقدرة على الشفاء، وإنّ الناس كانوا يقصدونه للتبرّك ولالتماس الدعاء، وإنّ بعضهم تتلمذ عليه وسار على خطاه"٥. وإنّ "ثيودوريّس"، هذا، قد "أنصف بالصدق والقداسة، وفاق جميع أبناء عصره علمًا وغيره على انتشار الإيمان. وهو الممدوح والموصوف من الآباء في المجمع الخلقيدونيّ بالصفات الحسنة، وهي: البارّ الأرثوذكسيّ الكاثوليكيّ راعي الكنيسة ومعلّمها"، كما يقول الدويهي٦،

١ - أسيبسيماس: ناسك في قورش ذكره ثيودوريّس في تاريخه، اعتزل في كوخ حيث بقي مدة ستين سنة، سيم كاهنًا قبل وفاته ببضعة أيام فقط - عن نعمان، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦١.

٢ - "يعقوب" و"ليمانوس": ناسكّان قورشيّان من تلامذة مار مارون، ميّاتي التعريف بهما لاحقًا.

٣ - نذكر بأن "التاريخ الديني" المقصود هنا هو الذي وضعه الأسقف ثيودوريّس - المؤلف.

٤ - من المتفق عليه، عرفًا، بالاستناد إلى أكثر الموسوعات والمعاجم والمؤرخين، أن مار مارون توفّي حوالي سنة ٤١٠ - المؤلف؛ راجع: مسند البطريرك بولس بطرس، الدر المنظوم، مطبعة الرهبان اللبنانيين (١٨٦٣) ص ١٣٠ - ١٣١.

٥ - Théodoret, Hist. Ecc., XVI, XXI, XXII, XXX.

٦ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ١٧ - ١٨.

ويضيف عنه أنه "لم تأخذه رئاسته الأسقفية عن محاربة المبدعين وإرشاد المؤمنين، والطواف في البراري والقفار، وتدوين أخبار الآباء الأَطهار الذين كانوا مشهورين بالسيرة الملائكية. ومن جملة ما أثبت في تأليفه سيرة أبينا هذا الشائع الذكر والصيت، حسبما شاهده هو بعينه، ونقله عن تلاميذه، واستخبر الذين كانوا يعيدون عيده، وبموجب ما تحقق أيضاً من الذين شاهدوا معجزاته وآياته. فدوّن في الفصل السادس عشر من أخبار الآباء قائلًا^١ :

إني أضع سيرة القديس مارون الذي جمل جماعة القديسين المتوسّحين بالله. ولما أثر العيشة النسكية تحت جو السماء، ارتقى جبلاً شامخاً كان فيه هيكل للكفار يعبدون به الشياطين، فكرّسه هيكلًا لله، وأقام به كوخًا حقيرًا، إلا أنه لم يسكنه سوى مدّة وجيزة. ولم يقتصر على الأعمال النسكية المعتادة، لكنّه اخترع أعمالاً أعظم، لكي يجمع غنى الحكمة الكاملة^٢. فإنّ جزاء المحارب يكون على قياس عمله. ووهب الله الجوّاد مواهب الشفاء حتّى تسامع الناس بأخباره في جميع الآفاق، فتقاطروا إليه من كلّ صقع ومكان. وكانوا جميعاً قد علموا، بالاختبار، أنّ ما اشتهر عنه من الفضائل والعجائب صحيح. لأنّه كان يخدم عنهم اضطرام الحمى المتوقّدة بندى البركة وطلّ النعمة. وكانت الشياطين تفرّ من هول سطوته. فإذا كان الأطباء الحدّاق يعالجون الأدواء المختلفة بأدوية مميّزة، فهذا العظيم كان يعالج كافة الأمراض بدواء واحد، وهو الصلاة، لكون صلاة الأبرار مرهمًا عامًا في طبّ

١ - ذكر نعمان، في كتابه: المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، حاشية ص ٦٥، أنّ ثيودوريوس قصد حقًا إعطاء شهادة صادقة. وأضاف نعمان: لقد كتب لي مؤخرًا البروفيسور "بيار كاتيفه" أنّ نقّادًا صارمين كاثولائيّين، أقرّوا بالقيمة التاريخية لمؤلّف ثيودوريوس (التاريخ الكنسي). وأنّ "تيفتر"، مؤرّخ رهبان الشرق، يوليه تقديراً. ويتبع كاتيفه: لما من جهتي، فبقي أنوي نشر مقال حول روايات المعجزات عند ثيودوريوس، وسأبذل سمة الرزقة والآن عند المؤلف.

٢ - في كتابه: المارونية لاهوت وحياة، ص ٦٣، يقول الأبّائي بولس نعمان، في تعليقه على هذا النص: لا يختبر ثيودوريوس "النامسك مارون" الموجه الأوّل لأسلوب العيش هذا في الهواء الطلق فحسب، بل هو، إلى ذلك باحث ومومّن كلّ الحركة الرهبانية في القورشة.

العاهات. وما كفى أنه كان يبرئ الداء الجسداني فقط، بل الروحاني أيضاً. لأنه كان يداوي الأنفس بما يوافق شفاءها^١. يشفي واحداً من داء الشبح، وآخر من داء الغضب، وآخر يصف له دواء القناعة، ويعلم آخر قانون العدل، وآخر يحذره من الشره، وآخر يستفرغ منه الضجر، ويوقظ آخر من غفلة التواني، إلى غير ذلك من الأدوية النفسانية. والحاصل أنه أنمى بالتهذيب غراساً مباركة للحكمة السماوية. وبستان الفلسفة الناشئ، يومئذ، في سفح قورش، هو كان غارسه وفالحه. وإن قلت: وما هو ثمر هذا البستان؟ أجبتك: إن أول أثماره المونة، هو تلميذه يعقوب الذي استحق أن يجعل مصداق قول النبي: الصديق يزهر مثل النخل وينمو كالأرز في لبنان^٢. وغيره من التلاميذ الذين سيذكرون أخيراً إن شاء الله. غير أن المعلم القديس، في حين هذه الفلاحة الإلهية وشفاء الأنفس والاجساد معاً، انتقل من هذه الحياة المضطحة بمرض يسير. وحدث نزاع عظيم على جسده الطاهر ما بين أهل التقى، وقوي الجانب الواحد على الآخر، فخطفوه خطفة الباشق، وحبسوه أفضل من كنز ثمين^٣، وبنوا على جسده هيكلًا معظماً، وهم يبجلونه بالإكرام إلى يومنا هذا، ويصنعون له عيداً موقراً متلألئاً بالبهجة، ويتعممون بالفوائد التي يستمدونها

١ - في كتابه: المارونية لاهوت وحياة، ص ٦٥، يقول الأبتي بولس نعمان، في تطبيقه على هذا النص: هذه الشهادة الممهورة بتوقيع ثيودوريس تؤكد لا على الحكمة والقداسة والهباء الروحية عند مارون وحسب، بل إلى ذلك وقيل كل شيء على المواهب الطبيعية المميزة: معرفة عميقة بالنفس البشرية وبعض ثقافة.

٢ - مزمر ٩١: ١٣.

٣ - جاء في الأصل اللاتيني عند THÉODORET, HIST. ECC. ما ترجمته: وبينما هو مهتم بالعمل الإلهي وشفاء الأنفس والاجساد، تحمل مرضه إلى أن انتقلت روحه من هذه الحياة. فحدث عراك شديد إثر وفاته بين مجاوريه، إلى أن تمكن سكان البلدة المتاخمة الكثيرة العدد، الذين حضروا بأجمعهم، من هزيمة الآخرين، فلخطفوا الكنز المشتبه للغاية...؛ راجع: نعمان، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٦، حيث جاء: لقد بلغ تعلق الناس به (بمارون) مبلغاً، إذ إن خصاماً كبيراً وقع بين سكان القرى المحيطة للحصول على مقفاه وجثمانه. فسكان قرية "أهله بالكثير من السكان" ألقوا، بالقوة، في الاستيلاء على جسده وأودعوه في معبد، بعيداً عن قورش، وعلى الأرجح أيضاً بعيداً عن أقليميا. وهذا الحدث يتكرر كثيراً في "التاريخ الديني": فيعقوب، تلميذ مارون، أخذت ثيابه قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. ونرى في ذلك دليلاً على الإجلال الكبير الذي كان يكتنه الشعب لهؤلاء النمساك القديسين.

منه^١. وأمّا نحن الغائبين عنه، فنرجو منه البركة الجسيمة، وعوض مشاهدتنا ذاك الضريح، فنال منه الإتمام الصريح^٢.

وذكر الدوبيي أنّ "الروم يتلون هذه السيرة في كنيستهم في اليوم الرابع عشر من شباط (فبراير) وهو يوم تتكّاره عندهم. وكذا الرومانيون الذين أدرجوها بين أخبار الآباء القديسين. ويروى أنّ علماء الكنيسة الرومانيّة، أمثال "ليومان" و"لورنس" من "لابرا"، و"روسياد اليسوعي"، سَطَرُوا هذه السيرة بين أخبار القديسين. وأنّه كان بين البارّ مارون وبين "يوحنا فم الذهب"^٣ لحة المحبة والاتّفاق. ولما اختطف الروم يوحنا المذكور وأقاموه بطريركاً على المدينة المتملّكة (أنطاكية)، كان هذان القديسان مرتبطين بالصدّاقة الخالصة والوداد الكامل، وكانت بينهما مراسلات ومكاتبات. وعند انحطاط فم الذهب عن كرسيّ بطريركيّته وإبعاده إلى نواحي أرمينية^٤، تذكّر في ذلك الوقت المذهل حبّه القديم للأبنا^٥ مارون وليّه، فكتب إليه رسالة يلتمس فيها من الراهب الناسك في قمم الجبال دعاءً وابتهالاً، ويسأله أن لا يقطع عنه أخباره السارة، كما هو معلوم وواضح من رسالته المحفوظة إلى الآن، وهي السادسة والثلاثون من

١ - ذكر نعمان، المرجع السابق، أنّ في ذلك ما يشير إلى ميّزة أنّه قد أدّيت أيضاً لهذا القديس العظيم تكريمات شعبيّة ورسميّة بعد ثلاثين سنة لوفاته.

٢ - عن: الدوبيي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص ١٧ - ١٨ عن الأصل اللاتيني: THÉODORET, HIST. ECC.

٣ - يوحنا فم الذهب (٣٤٧ - ٤٠٧): قديس من أباء الكنيسة ومعلّمها، ولد في أنطاكية، مارس مدّة الحياة النسكويّة، بطريرك القسطنطينيّة ٣٩٨ - ٤٠٤، اضطهدته الأمبراطورة الفدوكيا المونوفيزيّة، ولقّب بالذهبيّ الفم وبفم الذهب لبلاغته، إليه تسبب الدليّتورجية أو مراسيم الخدمة الدنيّة المشهورة في الكنيسة البيزنطيّة. راجع تفصيل لوسع عنه في المجلّد التاسع من هذه الموسوعة.

٤ - نفّي يوحنا إلى كوكوز^١ ومنها راسل "مارون للكاهن التاسع" راجع: نعمان، المارونيّة لاهوت وحياء، مرجع سابق، ص ٦٥.

٥ - الأبنا: المخبر عن الله وما يتعلّق به تعالى. وهو لقب كان يطلق عند المسيحيّين الشرقيّين على خدام الدين الأبرار المميّزين بقواهم ومكرماتهم.

رسائله، وقد جاء فيها^١:

إلى مارون القسّ الراهب: وبعد، فإننا مرتبطون بك بعلاقة الصداقة والمودة ونشخصك كأنك حاضرٌ هنا، لكون بصيرة المحبة لا يصدها بُعد الطرقات الشاسعة ولا توهنها الأزمان المستطيلة. وكنا نودُّ أن نكتبك دفعاتٍ كثيرة ولكن مشغّات الطرقات وعدم وجدان (وجود) من يسير نحوكم منعنا (منعانا) عمّا في خاطرنا من مراسلاتكم. فنحنك بالسلام موضحين لك أنّنا نتذكرك دائماً وأنك نازلٌ في فؤادنا أينما كنا. فاهتمّ إذاً أيضاً بأن تكثر لنا من أنباء صحتك، بما أنّه ولو كنا من حيث الجسد بعيدين، فيسرنا كثيراً أن نسمع شيئاً عن عافيتك، وتنا لنا من ذلك سلوى كبيرة، وإن كنا مقيمين في البراري. وتطيب نفوسنا إذا بلغنا أنك حائز مزيد العافية. وإننا نسألك قبل كلّ شيء أن تقدّم لله الصلوات من أجلنا^٢.

واعتبر الدويهي أنّ "هذه الرسالة، على قصرها، ناطقة بما كان من شدة الولاء بين هذين البارّين، وبأنّ كلاهما كان يحنو على صديقه ... ويُسرّ الواحد بسلامة الآخر ويهشّ إلى أخباره ويأمل بالفرج من دعائه". ولا يستبعد الدويهي أن يكون "سبب هذه الصداقة هو أن يوحنا وُلد ونشأ بأنطاكية، ولما دخل المدارس تعرّف إلى البار مارون،

١ - الرسالة الصالحة والثلاثون من رسائل القديس يوحنا فم الذهب المنشورة في مجموعة الآباء اليونان، MIGNI؛ راجع: DIB

PIERRE, *L'EGLISE MARONITE*, 3 VOLS. (BEYROUTH, 1962-1973) 1: 41.

٢ - عن: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ١٩ - ٢٠؛ راجع: نعمان، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٥، حيث جاء أنّه بينما "شيفتر وكانيه" يرتابان في ذلك، فإنّ "تيلامون" لا يرى إلاّ "هذا المارون" الذي يمكن أن ترسل إليه هذه الرسالة. ويورد نعمان عدّة دلائل من شأنها أن تعزّز هذا الاعتبار، أهمّها أنّ القديس يوحنا فم الذهب قد "سبق وعرف مارون، دون شك، في سوريا قبل سنة ٣٩٨، وكوّن عنه فكرة سلبية، كما يفترض "تيلامون". ولأنّ فم الذهب كلن يطنى بالحياة الرهبانية للسورية بشكل خاص، وكان يُحسّ إزاءها، في ذلك الوقت بالذات وهو في المنفى، بتوقّ بالغ؛ فالسير التي عالجها توفّر عادة ملخصاً موقفاً عن الحياة الرهبانية في سوريا. إذا كان مارون هذا سورياً، فلا بدّ إلاّ أن يكون مارون "تاريخ الديني".

ووقعت في قلبه محبته. ولمّا تجرّد يوحنا لطريقة النسك وسلك السيرة الرهبانية مع هذا القديس، انتخب الله كلاً منهما لما هو أهله. فاسترجع يوحنا إلى أنطاكية وجعله عماداً لبيعته وأقامه بها واعظاً معلّماً، وحفظ البار مارون ناسكاً في القفار ليصيّرهما فردوساً مقدّساً". كما يضع لأساس تلك المعرفة احتمالاً آخر، و"هو أن يوحنا الطاهر، بعد ارتقائه كرسي البطريركية، قدم إلى بلاد سورية ليُنذر بها عبدة الشمس ويدعوهم إلى طاعة الإنجيل، فلعلّه، وقتئذٍ، اجتمع بهذا البار ورأى فضل سيرته الإلهية، فارتبط معه بالمودة الروحانية"^١.

برأينا، أن من أبرز الدلائل على أن القديس مارون الناسك هو أساس "المارونية"^٢، أن هذه الكنيسة، ما فتئت منذ القدم، في مختلف طقوسها وصلواتها وفي صميم تراثها العريق، تعتبر هذا القديس مؤسساً لمعتقداتها. كما أنها، بحسب الدويهي، "تذكره مراراً عديدة بتشريف وتبجيل زائد في الصلوات التي يقدّمها الشعب المؤمن. وفي القديم كان الشماسية، بعد ذكر الرؤساء والقديسين في خدمة القدّاس، يمدحون في صلواتهم السريانية النساك الذين جمّلوا البراري بالسيرة الملائكية"^٣. كما أن الكهنة، في يوم الأحد، عندما يلحّثون "الحساية"^٤ في اللحن "الأفرامي"، وهي المعينة للساعة التاسعة،

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٠.

٢ - نقول "أساس المارونية" ولا نقول "تسبّتها"، إذ برأينا أن الموارنة منسوبة، ككنيسة، إلى البطريرك الأنطاكي يوحنا مارون كما سيأتي.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، المرجع السابق، حيث جاء نصّ مديحة سريانيّ تحريه: ثم نذكر أيضاً جميع المتوحّنين الأطهار، الذين يتدأبّروهم الحسنة أرضوا لله، وكنتموا له للتضرّع عن علّة الشعب المؤمن: نولا، وأنطونيوس الطويلي، وياخوميوس، ومقاريوس، ويوحنا، وسمعان العمودي، وثاودوسيوس، ومار مارون الطويلي، وأرسانيوس، وشمعون، وأغسطوس، وموسيوس، وفولان، ودانيال العمودي.

٤ - الحساية: تدلّوين كنسيّة تشرح موضوع الصلاة المعينة، والكلمة من أصل سريانيّ "خسويو" معناها "شرح".

كما هو مقرر في نسخة "الشحيم"^١ الذي كتبه القس "باخوس"، والكتاب لم يزل باقياً في مدينة حلب إلى يومنا هذا، عندما يمدحون الآباء الأطهار الذين شرفوا بيعة الله بمسلكتهم، يدرجون هذا القديس الشريف في عدادهم وينشدون بمدحه قائلين بالسريانية ما تعريبه:

ومار مارون الطوباوي الهيكل الطاهر للروح القدس^٢ الذي تعب بكرم المسيح منذ الصبح إلى المساء^٣.

ويروي الدويهي عن مار مارون أنه:

كان، في كل أموره، حافظاً لكرامة رتبته مجلاً لمقامه بكل قداسة ولم يرتض أن يكون كغيره عناءً ونصباً، بل أحب أن يزيد غنى حكمته، فباشر أعمالاً أخرى غريبة. ولعظم اتقاد نار حبه لربه، وغيرته على خلاص نفسه، كان يلبس "المسح"^٤ على جسده النحيل. ويقتصر من الغذاء على قليل من الحبوب. ويقيم الصلاة وهو منتصب على الأقدام (قدميه). ويقدم الأسرار الإلهية عن الأحياء والأموات. ويطوف أحياناً البراري متفقداً الإخوة المضنكين بمجاهدة الحياة، والمضغوطيين بضيق المحابس، والمجاهدين تحت جو السماء، ويحضهم جميعاً على احتمال أتعاب الفلسفة الروحانية، ويستدعي نشاطهم إلى اكتساب الفضائل ليبلغوا بما يباشرونه مقام الكمال. وكان أحياناً يجول القرى ويتردد ما بين المدن ويستميل الكفار والمخالفين ويقودهم ببره^٥ الطاعة وزمام الخضوع، ويعظ المؤمنين لمحاربة

١ - الشحيم أو الشحيمة: كتاب صلاة كنسي يختص بصلوات الإكليركيين، والكلمة من أصل سرياني لها معنيان: "البسيط" و"المواد".

٢ - قال الدويهي: تلقبه (مارون) البيعة بهيكل روح القدس وذلك لأن الرب قنوس والقنوس لا يستريح إلا في القنيسين.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢١.

٤ - للمصح: جمعها أمساح ومُسوح: الكساء من شعر، ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تفتقاً وقهراً للجسد.

٥ - الليرة: جمعها بَرى وبُرات وبُرين، يقال: "أعطته الدنيا بُرتها" أي تمكّن فيها وحظي بها. ولعل المقصود هنا تمكّنه من فرض الطاعة.

الردائل وموالاة الفضائل، ويدعو الموسرين إلى الرحمة ولاسيما الذين أعرضوا عن الدنيا وشهواتها وأقبلوا على السيرة الملائكية. فأنطوت لذلك قلوب الجميع على حبه، وكانوا ينقادون لكلام الحياة الذي كان يفوه به وهو هشّ بشّ. والإله الجوّاد قد أقاض عليه عطاياه وأجزل مواهبه حتّى غدا شبيهاً بالرسل الأطهار، من حيث أنّه كان بمجرد وضع اليد والصلاة، يشفي الأدناف^١ ويبرئ المتخبّطين من الشيطان^٢.

وفي لمحة تاريخيّة مقتضبة عن المواردنة لعميد كليّة اللاهوت في جامعة الروح القدس، وحافظ المكتبة البطريركيّة المارونيّة، الأب د. بولس صفيّر^٣، جاء:

يُجمع المؤرّخون النقات^٤ على أنّ المواردنة هم، في امتداد جذورهم التاريخيّة، من الكنعانيّين والآراميّين الذين دانوا بالعقيدة المسيحية منذ الأجيال الأولى للنصرانيّة، وانتسبوا إلى القديس مارون الناسك كأب روحيّ، بعد أن اعتنق القسم الأكبر منهم الدين المسيحيّ على يده ويد تلامذته النساك الأقدمين. وقد عاش القديس مارون فوق قمة جبل قورش من جبل سورية الثانية في النصف الأخير من القرن الرابع، وتوفّي برائحة القداسة حوالى سنة ٤١٠.

١ - الننف: جمعها أدناف، المرض الثقيل الملازم، والمريض الذي لزمه المرض.

٢ - الديهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٢١.

٣ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

٤ - راجع الديهي البطريرك إسطفانوس، تاريخ الطائفة المارونيّة، نشرة رشيد الخوري لشرطوني (بيروت، ١٨٩٠)؛ الديهي البطريرك إسطفانوس، تاريخ الأزمنة، نشر الأب فردينان توتل اليسوعي (١٩٥٠)، ونشر الأبّي بطرس فهد (الكريم، ١٩٧٦)؛ الدبس المطران يوسف، الجامع المفصل في تاريخ المواردنة الموصّل، تقديم الأب ميشال الحايك، دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٧)؛ دريان المطران يوسف، لباب للبراهين الجليّة عن حقيقة أمر الطائفة المارونيّة (١٩١١)؛ ضو الأب بطرس، تاريخ المواردنة الديني والسياسي والحضاري، ظهر منه ستة أجزاء (١٩٧٠ - ١٩٨٠)، ثمّ ظهر جزء باللغة الانكليزية (١٩٨٤)، وترجمته باللغة الفرنسيّة (١٩٨٥)؛ ضوميط المطران ميخائيل، للموارنة (بيروت، ١٩٥٥؛ البستاني فولد لفرام، مار ملرون (بيروت، ١٩٦٥)؛ الصليبي د. كمال سليمان، الموارنة - صورة تاريخيّة، ملفّ النهار (بيروت، ١٩٦٩)، منطلق تاريخ لبنان (بيروت، ١٩٧٩)؛ نعمان الأب بولس، المارونيّة بين الدين والدولة، رأي في نزاع الشرق الأوسط (كسليك - لبنان، ١٩٧٠)؛ DIB P., HISTOIRE DE L'EGLISE (MARONITE, 3 VOLS. (BEYROUTH, 1962-1973).

تَلَامِيذُ مَارَ مَارُونٍ وَتَلْمِيذَاتِهِ

لم يكن لمار مارون، في خلال حياته، إلا تلاميذ "الهواء الطلق"^١. وقد استند الباحثون إلى مؤلف ثيودوريتس: "التاريخ الديني"^٢، لمعرفة التلامذة الأوائل لمار مارون. وأجمع القدماء والمحدثون منهم على أن أشهر التلاميذ الذين عاصروا مار مارون، اثنان: "يعقوب" المعروف بالقدّيس يعقوب الكبير القورشي، و"ثيمناسوس". واعتبر الدويهي أن الذين اتّبَعوا طريقة البارّ مارون في التمسك بالعراء إنما هم جميعًا تلاميذ مار مارون أو مشايعوه في طريقته أو متابعوه في سيرة تلاميذه. وأشار إلى أن عدد تلاميذه الذين ذكر بعضهم ثيودوريتس في "التاريخ الديني" يكاد لا يحدّ لكثرتهم، لأنهم كانوا منبثين في بلاد قورش ما بين الجبال والمدن والقرى المحيطة بها. والبعض من تلاميذه ماتوا قبل معلّمهم والبعض استمرّوا في الحياة بعده^٣.

كان يعقوب ناسكًا وشّحه بالثوب الرهباني للمرّة الأولى الناسك المعاصر لمارون: زايناس^٤. وجاء عن يعقوب أنه "أثر في عامّة أموره أن يتلمذ للقدّيس مارون، حتّى احتشد كل فضيلة شريفة... وربّما زاد عليه نساكًا وقشفاً"^٥. ويروي الدويهي نقلًا عن

١ - نعمان، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٩.

٢ - ذكر نعمان، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٩، أن ثيودوريتس هو المرجع الوحيد الذي يتكلّم عن مارون وتلاميذه.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٢ - ٢٣؛ حول هذا الموضوع راجع: نعمان، مرجع سابق، المارونية لاهوت وحياة، ص ٦٧ - ٧٢.

٤ - زايناس: كاهن ناسك معاصر لمارون وصديق له، ذكره ثيودوريتس في تاريخه، أوصى مارون تلاميذه بأن يفتنوه بجوار زايناس لكنّ تطلّح للناس برفاقه منع تلاميذه من إتمام وصيته؛ راجع نعمان، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٧ - ٦٨.

٥ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٧٣.

ثيودريٲس أن "يعقوب حبس نفسه أولاً بمكان ضحك، ثم تحول من هناك إلى جبل بعيد عن المدينة، حيث مكث في العراء، وأشاع لذلك الجبل الخامل الذكر سمعة وكرامة عظيمتين، حتى بلغ من شرفه أن ترابه صار يؤخذ هدية إلى البلاد البعيدة تبركاً وطلباً للشفاء. ولما اتخذه يعقوب مسكنًا، لم يشأ أن يقيم فيه تحت سقف أو داخل حظيرة أو خيمة، بل اتخذ فيه موضعًا قفراً وأخذ يتجدد على اختلاف الصقيع والحر ليلاً ونهاراً. ويلبس الحديد الثقيل على جسده. ويستعمل القليل من العدس المبلول غذاء. وحين قصده ثيودريٲس* كان قد مضى عليه في ذلك الجهاد نحو ثمان وثلاثين سنة، فرأى منه ما يدهش العقل عجبًا، وكان قد حظي من قبل الله بالنعمة الوافرة وأكرم بصنيع الآيات والمعجزات... وصار مثلاً صالحاً يقتدي به كثيرون ممن صنعوا مكرمات عديدة^١. وقد أخذ الناس ثيابه، تبركاً، قبل أن يلفظ أنفاسه^٢ الأخيرة. ثم انتقل إلى الرب بسلام. وموقع تذكره في ٢٠ من شباط (فبراير)^٣.

أما التلميذ الشهير الآخر من تلامذة مار مارون الأوائل: ليمناوس، وهو أيضاً قديس، فقد جاء عنه أنه بدأ تلميذاً لـ"تالاسيوس" الذي بنى "أساتيكون" على تلة مجاورة لـ"تيلاما"، ثم قصد بعد ذلك مارون حيث وجد زميلاً له يدعى يعقوب. وتوجه إلى قمة أخرى تشرف على قرية "تارغالا"^٤ حيث أوى إلى حظيرة من دون سقف، يحوطها جدار صغير من حجارة غير متماسكة بالكلس. فترك للسور باباً كان دوماً مطلياً

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٣ - ٢٤.

٢ - راجع: نعمان، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٣، ٦٧، ٦٨، ٨٥، ٨٩، ٩٦، ١١٦، ١٤٠، ١٤١، ١٥٤.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٣ - ٢٤؛ ولاحظ الدويهي هنا "أن الأباء الذين غُتوا بنكر قصص القديسين وترجمهم كتبوا أولاً سيرة البار ملرون في شباط (فبراير) ثم أثبتوا سير تلاميذه بعده في الشهر نفسه وفي الشهر الذي يليه، وقد ألدوا بذلك أنه كما تقمهم في الدعوة والزمان ينبغي له أن يتقمهم في الرتبة والمكان".

٤ - هكذا أوردتها نعمان، بينما عرّبها الدويهي باسم "جرجلة".

بالصالح، لم يكن يفتح قط للزوّار. وقد جمع ليمانوس جمهوراً من العميان، اضطروا إلى التسول، فبنى لهم ملاجئ إلى كل جانب من محبسته شرقاً وغرباً، وفرض عليهم أن يقطنوا فيها ويمجدوا الله... وانزوى معهم يحثهم دون انقطاع على إنشاء المزامير والتسبيحات للرب^١. وكان ليمانوس يخاطب الواردين إليه من خلال "كوّة في الجدار، ويعزيهم عن أحزانهم، فبجّله الله أخيراً بهبة المعجزات الفائقة، حتّى إنّه ضاهى الرسل بآياته لكونه كان يشفي كل مرض". ونقل الدويهي عن ثيودريّس ما يقشعر له البدن عن صبر ليمانوس على ما عانى من أمراض وتعرّض لنهش الوحوش الضارية. وختم بأن يوم تذكّره محدّد في الثاني والعشرين من شباط (فبراير)^٢.

ومن الذين اعتبروا من التلاميذ المبكرين لمار مارون: يوحنا الناسك، الذي كان لا يزال حيّاً لما زار ثيودريّس جبل النساك، فروى عنه أنّه أقام أولاً في ذلك الجبل، ثمّ انتقل إلى كهف إلى جهة الجنوب وأقام به خمسة وتسعين يوماً صابراً على تقلب الصيف والشتاء. انتقل بعدها إلى جبل يلي الشمال، وأقام به خمساً وعشرين سنة في العراء، وكان طعامه خبزاً وملحاً، ولباسه مسحاً شعريّاً مسمّرة به صفائح حديد ثقيلة. وكان شفوفاً على الناس لا على ذاته. وكان أحد أصدقائه غرس له شجرة لوز بالقرب من مرقده، فعندما طالت وغلظت أمر باستئصالها لئلاً يتمتّع بظلّها يسيراً^٣. كما تحدّث ثيودريّس عن "موسى الرابض على قمّة تشرف على قرية راما"^٤. وأنطيوخس

١ - راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٣ و ٧٠.

٢ - للدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٣ - ٢٤؛ راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٦ - ٦٨، ٧٠ - ٧١.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٥.

٤ - نعمان الأباتي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٧؛ قابل: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٥، حيث ترجم لاسم القرية إلى "راماص".

العجوز الذي يقاوم، رغم ضعفه، ببطولة توازي بطولة الشبان^١. وقد ذكر الدويهي مع "أنطيوخس"، "أنطونيوس"، ووصفهما بالمجاهدين اللذين اختارا السيرة النسكية وهما على حد من سن الشيخوخة، فأحدهما شاد له جداراً صغيراً في بهرة الصخرة، وثانيهما ارتقى جبلاً شامخاً. وكنا عاكفين على الصلاة والسهر ومنصبين على أقدامهما ليلاً ونهاراً، صابرين على الجوع وقلة القوت. وحدد الدويهي تواريخ ذكر هؤلاء الأربعة: يوحنا وموسى وأنطيوخس وأنطونيوس، في الثالث والعشرين من شهر شباط (فبراير). وأضاف أن من مثل هؤلاء كثيرون ممن خدموا ربهم تحت جو السماء، حسبما روى ثيودريتس في العدد الثالث والعشرين حيث قال: إن أبطالاً آخرين كثيرين غير هؤلاء عكفوا على الجهاد في البراري والصحاري ولم يتيسر لنا أن نكتب ترجمة واحد فواحد منهم^٢.

وإضافة إلى زابيناس الذي جئنا على ذكره سابقاً، وهو الذي كان معاصراً وصديقاً لمار مارون^٣، والذي يقول فيه كتاب "المروج" في الثالث والعشرين من شباط ما مؤداه: أن هذا البار قد بنى له مسكناً في بعض الجبال الشاهقة ليروض ذاته بالأتعاب النسكية إلى حد انتهاء الشيخوخة، من غير أن يهمل شيئاً من الثبات والمداومة على الصلاة المتصلة. والذين كانوا يزورونه كان يخاطبهم برفق وقتاً يسيراً، ثم يرتد إلى صلاته عاكفاً على خطاب الباري تعالى. ولما أضناه الكبر والضعف وعجز عن الوقوف أخذ يتوكأ على عصا. وكان مار مارون يحب زابيناس حباً شديداً ويقره لسنه وطهارته، ويدعوه أباً ومعلماً، وقدوة الفضائل، ويرسل الذين كانوا يقصدونه إليه

١ - نعمان الأبطي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٧.

٢ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٥.

٣ - راجع: نعمان الأبطي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٨.

ليستمدوا منه البركة. حتى إنه أرسل إليه تلميذه يعقوب ليلبس من يده اللباس الشعري. ولهذا أوصى تلاميذه أن يدفنوه من بعد موته في قبر زابيناس. وخلف زابيناس من بعده تلاميذ أشهرهم "بوليكرونوس"^١ و"موسى"^٢ و"مميانس"^٣ الواقع تذكّارهم مع معلّمهم في الثالث والعشرين من شباط (فبراير)^٤. وهناك ذكر ليعقوب آخر، انقطع للنسك بقرب قرية "سوزان" وهو ابن تسعين سنة، فتجرّد عن الدنيا تجرّدًا حقيقيًا وزهد في مخالطة الناس ومعاشرتهم، ولم يكن يستعمل نارًا ولا مصباحًا، ولم يدع أحدًا يراه أصلًا، ومن قصده كان يخاطبه من وراء جدار محبسته. وروى ثيودريّس عن أن آخرين كثيرين اختاروا أن يتشبّهوا بمن سبق ذكرهم... "ليس في مدينتنا فقط، بل في كلّ مدينة وقرية تليها. وهناك آخرون مثل البار سمعان العمودي* وغيره، تركوا مواطنهم وآثروا المسكنة النسكية والعيشة القشفة في ذروة الجبل العجيب، وفي نواحي قورش، إقْدَاءً بسيرة البار مارون وتلاميذه"^٥.

وما يُدهشنا في هذا المجال، أن "هذا الأسلوب في الحياة النسكية، لم يمارسه الرجال وحدهم. إذ كان ثمة أيضًا، في القورشيّة، حركة رهبانيّة نسائيّة. وقد اكتفى أسقف قورش ثيودريّس، بكتابة حياة الراهبة القديسة الرائعة "دومنيا"، نظيرة مارون، التي لم تنفك تسكب دموعًا على خطاياها: ثيودريّس بذاته مسح لها دموعها، وذكر

١ - ممّا سجّله ثيودريّس عن بوليكرونوس أنّه جمع فضائل زابيناس باستقصاء بليغ، ومن يراه قلنا ما طال ليلة متجهّذاً في صلاته مرتفعاً إلى الله لاهجاً بالإنهيات كان يحكم أنّه يشاهد زابيناس نفسه، ولهربه من المجد الفارغ نزع عن جسده ما كان يثقله من الحديد، واعتضد أصل شجر ضخمة كان يلقيه على منكبه ليلاً ونهاراً في صلاته إلى أن يقرع باب قلايته طارق فيطرحه حينئذٍ عنه. ونسبت إليه مكرّمات منها أنّه دفع الجذب والغلاء بصلاته، وصيّر خابية تفيض زيتاً.

٢ - نقل الدوبيي عن ثيودريّس قوله في "موسى البار" و"مميانس" أنّهما اقتصا فضائل الاب بوليكرونوس واكتفيا بسيرته حتى كأنهما لبسا جسمه وانتشبا بروحه ونسك على القرب منهما البار "اسكلايوس".

٣ - الدوبيي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٢٦ - ٢٧.

٤ - الدوبيي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٢٧.

عنها أنها عزمت على أن تقتفي حياة مارون، فبنت كوخاً صغيراً من القش في بستان والدتها...، وأظهرت ذاتها أمام عيون الناس جميعاً، رجالاً ونساءً، دون أن تنتظر هي إلى وجه أحد، أو تدع أحداً يشاهد وجهها، إذ إن ثوبها كان يسترها بكليتها، وهي منحنية باستمرار حتى ركبتيها... ويقول ثيودريّس: هي ساعدت، بكامل قدرتها، جنود يسوع المسيح هؤلاء الشجعان، الذين تحدّث عنهم سابقاً، وكثيرين آخرين لم أت على ذكرهم إطلاقاً^١. ذلك أن دومنينا كانت ابنة والدين حسيبين موسرين، وقد تتسكت بعد وفاتها، وكانت تتفق من مال أمها وإخوتها على هؤلاء الأبرار. وموقع تذكّرها في اليوم الأول من شهر آذار (مارس)^٢.

إقفت نساء كثيرات أعمال دومنينا، وأعمال راهبتين هما: "مارانا" و"كيرا"^٣ اللتين كانتا تتمرسان أيضاً، بهذا الأسلوب الحياتي نفسه، في منطقة "بيريه" في حلب^٤. وقد أحب بعضهن سيرة الوحدة، وبعضهن العيشة المشتركة، وقد تمت شركتهن نماء كثيراً حتى بلغ عددهن، في بعض الأماكن، نحو مئتين وخمسين، كما روى ثيودريّس الذي أوضح أنهن كن جميعاً يطعمن طعاماً واحداً، ويرقنن على الحصر، حسب ما تسلمن من معلمهن، ويغزلن الكتان وأفواهن تترنم بالتمجيدات الإلهية^٥.

١ - نعان الأبتي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٨.

٢ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٧.

٣ - مارانا وكيرا: ويذكرهما الدويهي باسمي "كور" و"ماريانة"، قديستان من عائلة شريفة من مدينة حلب، كان منزلها معروفاً بدار كورة، زهدتا في الدنيا وبنتا لهما بيتاً ضيقاً بلا نافذة، ما خلا كوة صغيرة تتاولان منها القوت الضروري وتخلطبان من يقصدهما. وكنتا تصمتان طوال أيام السنة ما عدا الخميس يوماً للتي تلي عيد الفصح. وتلبسان الشعر الخشن. وتتقلان بالحديد. ولا تتناولن طعاماً إلا مرة في كل أربعين يوماً. ودامتا على ذلك ثلاث سنوات. حجاً إلى القبر المقدس سيرا على الأقدام من غير أن تنقوا طعاماً لا في الذهاب ولا في الإياب رغم طول مسافة السفر، وهكذا لعلتا عند زيارتهما هيكल القديسة نقلا الذي كان في بلاد تراكية. أما تذكّرها ففي اليوم الأول من شهر آذار (مارس).

٤ - نعان الأبتي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٨.

٥ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٧.

دِير مَارُون

يورد الأبائي نعمان منطلقاً منهجياً للبحث في موضوع "دير مارون" مفاده: أنه حتى سنة ٤٤٩، وهو التاريخ المطروح كحدّ لتأليف "التاريخ الديني" لأسقف قورش: ثيودريّس، لم يكن هناك دير واحد يحمل اسم مارون أو يتبع نهجه. لم يوجد ثمة سوى معبد فيه بقايا القديس المكرمة^١. وهناك وثيقة واحدة تحمل تاريخاً محدّداً عن إنشاء دير مارون، هي وثيقة المؤرخ العربي أبو الفداء (١٢٧٣ - ١٣٣١) الذي يوضّح في كتابه "التاريخ العام" أن الأمبراطور مرقيانُس (٤٥١ - ٤٥٧) عمل على تشييد دير مارون في حمص^٢. ويُعتبر أبو الفداء، حتى الآن، الأوّل الوحيد بين المؤرخين العرب الذي ردّ تأسيس هذا الدير إلى القرن الخامس. الآخرون جميعاً، وبينهم من كانوا له المراجع الأكثر شهرة، مثل "إبن الأثير" و"المسعودي"^٣، يُرجعون أصل هذا الدير إلى عصر موريّس (٥٨٢ - ٦٠٢). أبو الفداء، في حديثه عن موريّس، يهمل قطعاً هذه

١ - نعمان الأبائي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٦٨، بالاستناد إلى ثيودريّس، التاريخ الديني، ١٦: ١٤٢٠.

٢ - نعمان الأبائي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٣، وقد لُرد هنا الحاشية التالية: أبو الفداء، المختصر في تاريخ البشر، منشورات دار الكتاب اللبناني (بيروت، ١٩٦٠) ١: ٨١؛ مؤرخ عربي آخر: عمر بن الوردي (١٣٤٩) يشير إلى بناء الدير من قبل الأمبراطور مرقيانُس، بيد أن تاريخ ابن الوردي ليس إلّا مكملّاً للتاريخ العام لأبو الفداء كما يصرّح بذلك ابن الوردي نفسه.

٣ - يورد هنا نعمان الحاشية التالية: للمسعودي (أبو الحسن علي): ولد في بغداد، لقّب بالمسعودي لأنّ أحد جدوده من سكّان مكّة كان يدعى مسعود، وابنه رافق النبيّ إلى المدينة، توفّي في القاهرة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م. له عدّة مؤلّفات أهمّها: مروج الذهب: ألفه بين ٣٢٢ هـ / ٩٤٣ م. و ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م. أصدره بالإنكليزية م. سيرينجر في ١٨٤١: "المسعودي، الموسوعة التاريخية أو مروج الذهب"، وكتاب التنبيه، وهو مجموعة ملاحظات حول التاريخ والجغرافيا والعقائد الفلسفية، ويُعتبر آخر كتاب للمؤلّف، يحمل تاريخ سنة وفاته: ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م.

الوقائع التي تسردها مراجعته^١. في عمله هذا، يتوافق أبو الفداء مع التقليد الماروني الذي يقرن بين الناسك الذي يتحدث عنه "التاريخ الديني" لثيودوريتس، وبين شفيع هذا الدير الذي يُعتبر مهذاً للكنيسة الأنطاكية المارونية. كما يتوافق مع الوثائق العديدة القديمة والصحيحة التي تتكلم على دير مارون وتعيّن بناءه قبل زمن يسبق كثيراً حكم موريس^٢. وبعد نقد منهجي موثّق، يخلص الأبائي نعمان إلى التالي:

ما من مجازفة، إذن، في أن نعتبر صحيحاً أن دير مارون قرب أقاميا^٣، الذي سيصبح لاحقاً مقراً عاماً للخلقيدونيين في القرنين السادس والسابع، بُني بأمر من الإمبراطور مرقيانس في سنة ٤٥٢، أعني على أثر مجمع خلقيدونيا وفي الوقت الذي أصدر فيه الإمبراطور قانوناً صارماً جداً ضدّ رهبان "أوطيخا"^٤ وأتباعه، في ٢٨ تمّوز (يوليو) سنة ٤٥٢^٥.

١ - نعمان الأبائي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٩ - ١٠، وقد أورد هنا الحاشية التالية: للكمال في التاريخ أو تاريخ ابن الأثير، للمجلّد ١٢ (بريل، ١٨٦٧) يبدأ في خلق العالم وينتهي في سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٣٠ م؛ يجب أن نلاحظ أن ابن الأثير شافه شأن الطبري، يرجع ظهور مارون الذي يُنسب إليه الموارنة إلى عهد الإمبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢)، وهذا "خطأ اعترف به المؤرّخون الذين لا يمكن أن ترتب بتملّهم ومجاملتهم للقضية المارونية"؛ راجع: ديب المطران بطرس، تاريخ الكنيسة المارونية (بيروت، ١٩٦٢) ص ٤٥ - ٤٦؛ فالهي ب. م.، الكنيسة المارونية من القرن الخامس حتّى القرن التاسع، في "اصدء للشرق" ١٩٠٦، مجلد ٤، ص ٢٦١ - ٢٦٦.

٢ - الأبائي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ١٠.

٣ - قاض مدينة قديمة في سوريا على بعد ٤٥ كلم من حمص، دُعيت في البدء "قرانكة" ثمّ "بيلا"، وسَمِعها سلوقس نيكاتور وسماها "أقاميا" باسم زوجته الفارسية، كانت مركزاً سلوقيّاً هاماً، احتلّها الرومان ٦٤ ق.م. ثمّ أصبحت كرسياً أسقفياً في العهد البيزنطي، احتلّها كسرى الأوّل ٥٤٠، استولى عليها الصليبيّون، استرجعها نور الدين زنكي ١١٣٩، بالقرب منها قلعة للمضيق التاريخية.

٤ - أوطيخا EUTYCHÈS (٣٨٨ - بعد ٤٥٤): راهب يوناني عاش في القسطنطينيّة، قال بوحدة الطبيعة في المسيح، حرّمه المجمع الخلقيدوني ٤٥١؛ راجع الجزعين الثامن والتاسع من هذه الموسوعة.

٥ - نعمان الأبائي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٢٢، ويورد هنا: مائسي، مجلد ٧، عمود ٥٠٢؛ هارونين، مجلد ٢، عمود ٦٧٥؛ ديب المطران بطرس، تاريخ الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ١٧٠؛ راجع أيضاً: صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٩٩ - ٣٠٠.

ويذهب الدوبيهي^١ إلى أن "الهيكل الذي بناه أهل حماة على جثمان مارون بعد أن اختطفوه ونقلوه إلى بلادهم تبركاً، وعَيَّنوا له كلَّ عام عيداً يعيدونه بكامل البهجة والإحتفال في اليوم الرابع عشر من شهر شباط (فبراير)^٢. هذا الهيكل، قد ابتناه أهل حماة على النهر العاصي، بين حمص وحماة، وآل أمره أخيراً إلى أن صار ديراً معظماً، وحاز التقدُّم على جميع الأديار التي في بلاد سورية الثانية^٣.

وقد تبيَّن الدوبيهي، من الرسائل التي رفعها، سنة ٥٣٦، "مريان" رئيس دير القديس "دلماط" وباقي الأديار في المدينة المملَّكة إلى "يُستينيان" ملك الروم و"مناً" بطريرك القسطنطينية بالنيابة عن سائر الرهبان الذين قدموا من أصقاع الشام ليتشكروا على "ساويرس" المبتدع المتغلَّب على كرسي أنطاكية، أنه كان في برّ القسطنطينية دير مشيّد على اسم القديس مارون، وأنَّ رئيسه حضر المجمع الخامس المسكوني^٤، وكتب اسمه في الرسائل المذكورة هكذا: ثابور برحمة الله القسّ ورئيس دير القديس مارون^٥. وهناك، في الواقع، عدّة أديار قد بُنيت في المنطقة في خلال تلك الحقبة، استعرضنا جُلّها في الجزء الثامن من هذه الموسوعة^٦. وتحدّث الدوبيهي عن دير قديم

١ - الدوبيهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٩.

٢ - سوف يقرَّر نقل العيد مراراً إلى مواعيد أخرى من قبل الكنيسة المارونية. راجع فصل البطريرك يوحنا مارون لاحقاً في هذا الكتاب.

٣ - سورية الثانية: بحسب التقسيم الإداري الروماني، كانت تضمّ لُفانيّا وحماة وأريّتوزا وبالايا وسالوكوبالوس ورافانيا، وحتّهما جغرافيون بأنّها كانت تضمّ بلاد حماة وحمص من فوق أنطاكية ولبليقية؛ أمّا سورية الأولى فكانت تمتدّ من عرش مصر إلى نهر دجلة.

٤ - المجمع الخامس: هو مجمع القسطنطينية الثاني الذي عقد سنة ٥٥٣ وحرّم "الكنبة الثلاثة".

٥ - الدوبيهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٩ - ٣٠.

٦ - راجع: الجزء الثامن من هذه الموسوعة، الفصل الخامس، نشوء الرهبانيّات.

آخر على اسم القديس مارون، قرب مدينة دمشق الشام، فوق نهر يزيد، وقال: "استدللنا برسومه وأطلاله الماثلة إلى اليوم على عظمه وشرفه. وهذا الدير قد ذكره ابن الحريري المؤرخ في ما كتبه عن الملك الحاكم بأمر الله ودولته سنة ٣٨٦ الهجرية الموافقة لسنة ٩٩٥ للمسيح قال: إن الملك كان ينزل بمكان يُقال له "الدكة" بين نهر يزيد و"تورا" وقيل هي فوق نهر يزيد قرب دير مارون^١.

رُهْبَان دَيْر مَارُون خَلْقِيدُونِيُون

إثر بناء دير مارون في أقاميا على ضفاف العاصي، أصبح محجاً لأهل حمص وحماة، وازدهر "عدد الناس الذين يزورونه ويتبرعون عليه بالأوقاف والنذور، فصار بمدة وجيزة، ديرًا معظماً، حتّى بلغ عدد رهبانه ثمانمئة راهب، كما يُعرف ذلك من الاطلاع على رسائلهم ومن عدد القديسين الذين استشهدوا فيه. وكان يُسمّى دير القديس مارون على اسم صاحبه. ويُسمّى أيضاً "دير البلور" لجمال بنائه^٢. و"دير سورية على الإطلاق"، لأنّ له الرئاسة على ديورة ورهبان بلاد سورية بأسرها^٣. وانضوى عدد وافٍ من المؤمنين المسيحيين المجاورين للدير وغيرهم من بقايا

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠.

٢ - راجع: مسعد البطريك بولس، الدر المنظوم، مرجع سابق، ص ١٣١.

٣ - ذكر نسمان الأبائي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٥٢، أنّ مندوب دير مارون في مجمع سنة ٥٣٦ كان يمثل الأديار الأخرى في سوريا الثغنية، ويذيل بتوقيعه على الشكل التالي: "بولس... رسول الملك في دير الطويلوي مارون، إكمرخس أديار سوريا الثانية". علماً بأن عبارة "إكمرخس الأديار" تعني أنّ لهذا الدير سلطة على الأديار الأخرى، وكانت مثل هذه السلطة معطاة لدير "كلماط" في القسطنطينية؛ أمّا الدويهي فترجم ذيل التوقيع على الشكل التالي: "بولس لشماس برحمة الله سفير القديس مارون المقّم على جميع الأديار الموقرة في سورية الثانية والمتكلم عن جميع رؤساء الأديار التي في سورية المذكورة؛ وترجم توقيماً آخر لمندوب دير مارون على الشكل التالي: "يوحنا برحمة الله القسيس لراهب سفير دير القديس مارون المترس على جميع للديورة والرهبان المكرمين في سورية الثانية والمتكلم عن جميع رؤساء الاديار والرهبان الذين في سورية".

الشعوب المسيحية القديمة المنتشرة في أنحاء سورية الثانية وفي مناطق أخرى، تحت لواء المعتقد الكاثوليكيّ الخلقيدونيّ، واستتاروا بتعاليم رهبانه في ممارسة شعائر إيمانهم وديانتهم المسيحية، وكانوا يلوذون بحمايتهم العقائدية والقومية كلما تعرّضوا لهزّات الاضطهاد ومناوأة الأعداء. ومع توالي الأيام، سُمّي هؤلاء المسيحيّون "موارنة" نسبة إلى دير مار مارون وسكّانه، وكان معظمهم يقطن الأرياف حيث توجد مساحات زراعية شاسعة، وكانت اللغة السريانية، وهي فصحي اللغة الآرامية، لغة الطقوس الكنسيّ عندهم^١. وأقاموا، حينئذٍ، أماكن للحياة المشتركة، ومحابس لفلسفة المتوحّدين، ومدارس لمطالعة العلوم، ومنازل لإيواء الغرباء، وحقولاً ومزارع لتقوم بعميشة النساك والزوّار. وكان رهبانه يتبارون في السيرة النسكية وتحصيل الفضائل وتلاوة الكتب الإلهية، ويجادلون أصحاب الآراء الفاسدة والمعتقدات المربوطة من بيعة الله. وبعد أن يسهب الدويهي في التعريف بـ"نسطوريوس"^٢ وبدعته، ينتقل إلى التعريف ببدة أوطيخا*، ليشرح ماجريات المجمع الخلقيدونيّ الذي حرّم بدعتي نسطوريوس وأوطيخا سنة ٤٥١، وليخلص إلى أنّ "بطرس القصار" الذي "تغلّب على الكرسي الأنطاكي، قد أبدع قولاً جديداً وزاد "رابوعاً" على التقديسات الثلاثة بقوله: "قدّوس الله، قدّوس القوي، قدّوس الذي لا يموت، قدّوس الذي صلّب لأجلنا، إرحمنا". وكان قصده بذلك أن يعتقد المؤمنون إمّا بتألّم الطبع الإلهي وموته، وإمّا بوجود أقنومين في المسيح، أحدهما قويّ والآخر ضعيف، وهو الذي صلّب ومات. ولمّا شاء أن ينشر بدعته في بلاد سورية، وجّه نحو حماة رجلاً رديء الاعتقاد، يُدعى "يوحنا"، لكي يكون مدبراً لكرسيهما. فلمّا وصل إلى حماة واتّصل خبره برهبان دير مارون، اتّفقوا جميعاً على

١ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٠ - ٣٠١؛ راجع: الصليبي د. كمال سليمان، منطلق تاريخ لبنان،

مرجع سابق، ص ٣٦.

٢ - راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

أن يمنعوا يوحنا القائل بمقالة القصَّار عن الدخول إلى بلادهم، فطردوه وأمروا بأن ترتل التقديسات الثلاثة على وفق ما تسلّموها من الآباء الأولين، وأمروا أيضًا بوجوب كرامة المجمع الخلقيدونيّ نظير مجامع نيقية وقسطنطينية وأفسس^١. ولا تدع المراجعات مجالاً للشكّ في أن رهبان دير مارون على العاصي كانوا خلقيدونيّي المعتقد، ومناهضين أو حتّى معادين لمعتقدات أنصار الطبيعة الواحدة^٢. وفي مخطوط سريانيّ قيم محفوظ في المتحف البريطانيّ، يحتوي على رسائل تبودلت إثر نقاش علميّ حصل في أنطاكية بين رهبان بيت مارون، الذين يمثّلون الفئة الخلقيدونية، ورهبان بيت "أرباز"، الذين يمثّلون الفئة اللاّخلقيدونية، اكتشفه العالم البريطانيّ FRANÇOIS NAU^٣، جاء في رسالة للاّخلقيدونيّين أن: "رهبان بيت مارون المقيمين في نطاق أفاميا هم غرسة الكرمة الخلقيدونية ونسبة لاون بابا روما، وفرع المرارة الذي نبت من الكرمة التي غرسها "ثيودوريه" أسقف قورش، وبكلمة، إنهم أبناء الإنشقاق الكبير الذي حصل في الكنيسة سنة ٤٥١. وإنهم هم (أي أصحاب الطبيعة الواحدة) قد استطاعوا التخلّص من الأحرق أوطيخا، بينما المواردنة لم يستطيعوا التخلّص من تأثير ثيودوريه ولاون. وقد وصف بعض الباحثين "دير بيت مارون بأنّه كان القلعة الوطيدة للعقيدة المسيحيّة حسب التحديد الخلقيدوني"^٤.

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٢ - ٣٣.

٢ - راجع: نعمان الأبائي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٥٠.

٣ - NAU FRANÇOIS, *LES MARONITES INQUISITEURS...*, DANS: *BULLETIN DE L'ASSOCIATION DE SAINT LOUIS DES MARONITES*, N.97(JANVIER, 1903).

٤ - نعمان الأب بولس، المارونية بين الدين والدولة، رأي في نزاع الشرق الأوسط (الكمليك، ١٩٧٠) ص ١١١، VOOBUS A., *HISTORY OF ASCETICISM IN THE SYRIAN ORIENT*, T.II, *EARLY MONASTICISM IN MESOPOTAMIA AND SYRIA*, SCO, CXCVII, SUBS., T.XVII (LOUVAIN.1960)

ومن أسطع البراهين على "خلفيدونية" رهبان دير مارون، ما أكتنه وثيقة تعود إلى القرن الثامن، اكتشفت حديثاً نسبياً^١، وهي محفوظة في المتحف البريطاني، هي كناية عن رسالة لرهبان "بيت مارون" موجهة إلى "اليعاقبة"، على أثر مؤتمر أنطاكية، مع جواب من هؤلاء. تتضمن رسالة الموارنة سلسلة من الأسئلة ذات منحى خلفيدوني، أو بالأحرى خلفيدوني محدث. يطلب فيها المحررون جواباً "وفقاً للملائنة المختارين والقديسين، الذين لا خلاف حولهم بيننا وبينكم، ولا بالنسبة إلى أيّ مسيحي"^٢. هذه الوثيقة تبين أنه في مجمع عقد في أنطاكية نحو سنة ٥٩٢، بين الفريق "الأرثوذكسي" و"أتباع بطرس الكالينيسي" البطريرك اليعقوبي ٥٧٨ - ٥٩١، كان رهبان بيت مارون، مناصرو مجمع خلفيدونية، يمثلون "الفريق الأرثوذكسي". وكان ديرهم يتمتع بتفوق لا جدال فيه على الأديار الأخرى في سورية الثانية^٣.

يتضح من كل ذلك أن رهبان مارون قد اتبعوا بشكل لا يقبل الشك مقررات المجمع الخلفيدوني، حتى أن إنشاء ديرهم سنة ٤٥٢ بأمر صريح من الأمبراطور وبطلب من البابا لاون والأسقف ثيودوريه، إثر المجمع الخلفيدوني المنعقد سنة ٤٥١ يجب، استنتاجاً، أن يكون قد حصل لتدعيم الخط الخلفيدوني ولمواجهة الخط المناهض. ويعتبر باحثون محدثون أن نسبة انتماء المسيحيين الخلفيدونيين إلى دير مار مارون وعقيدة سكانه، كانت مرتفعة في نواحي حمص وحماة وآفاميا وشيزر، كما كانت

١ - اكتشف هذه الوثيقة ف. نو، راجع: NAU F., *LES MARONITES INQUISITEURS...*, OP. CIT., N.97 (JAN., 1903) PP. 343.

٢ - نعمان الأباتي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٥٢، وجاء في الحاشية: محررو الرسالة يفكرون هنا بكيرس الإسكندري الذي انقسم الخلفيدونيون (هنا الموارنة) في ثلثه، وخصوم الخلفيدونيين (رهبان بيت ألباز).

٣ - يمكن مراجعة نص الوثيقة باللغة العربية في كتاب: نعمان الأباتي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ١٧٢ - ١٩٢.

٤ - صفيير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠١.

مرتفعة في الوقت نفسه في بعض المناطق الشمالية الساحلية في لبنان، وبوجه التحديد في مناطق عرقا وطرابلس وبعض مدن وقرى بلاد جبيل والبترون. فآلف هؤلاء المسيحيون نواة الكنيسة المارونية. وظلّت العلاقة بين المناطق ودير مار مارون وثيقة طيلة الأجيال الخمسة الأولى من تاريخ المارونية، وظلّ هذا الدير يتمتّع بزعامة روحية وعقائدية كبيرة حتى خرب مع الزمن "بتواتر الفتن من الأعراب وحيف السلطان"^١، حوالى منتصف الجيل العاشر. فيُعتبر هذا الدير بحقّ مهد المارونية، وتعتبر نشأة الفطرة المارونية متجسّدة منذ البداية في المعتقد الخلقيدوني الكاثوليكي والفكر اللاهوتي الأنطاكي^٢.

يسهب الدويهي في الكلام عن عهد الأمبراطور "أنسطاس"^٣ الذي جندّ الاضطهاد على بيعة الله لميله إلى مقالة الطبيعة الواحدة، وخطّ البطريك فلابيانُس، القائل بعقيدة المجمع الخلقيدونيّ عن كرسي أنطاكية سنة ٥١٢، وجعل مكانه الراهب ساويرُس (سويرا) الضالّ الذي عقد مجمعا محليّا حرّم فيه المجمع الخلقيدونيّ وكلّ من يقرّ به. وكان بعض الأساقفة ظهراءه على هذا الضلال. أمّا أكثر الأساقفة "فإنهم تأخّروا عن الحضور إليه لعلمهم بسوء طريقة معتقده، فسعى بهم إلى أنسطاس الملك الذي أرسل إليهم قوماً أشراّرا فسلّبوا أملاك الكنائس والأديار وأسرفوا في النهب حتّى أجبروا كثيرين على الكفر بالإيمان الصحيح. والذين ثبتوا على الرأي القويم اضطّرهم الأمر أن يهجروا أملاكهم وبلادهم ويغربوا إلى الأمصار البعيدة... كما يظهر من أخبار ذلك العصر ومن المكاتبات والمراسلات التي تقدّمت إلى المجمع الخامس في حقّ ساويرُس

١ - المسعودي الحسن بن علي، التنبيه والإشراف (باريس، ١٨٩٦) ص ١٢١.

٢ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠١.

٣ - أنسطاس أو أنستازيوس الأول: لمبراطور بيزنطي ٤٩١ - ٥١٨، بنى سوراً طويلاً أمام القسطنطينية عرف باسمه.

وأتباعه من جميع أديار بلاد الشام. وكان أكثر الاضطهاد، الذي جرى في ذلك العصر، على بلاد سورية ودير القديس مارون لقربه من أنطاكية... وفي تلك الأثناء مات أسقف حماة فأقام ساويرس مكانه أسقفًا من القائلين بمقالته، إسمه بطرس. ولما أنفذه إليهم ليتولّى على كرسي حماة، امتنع الحمويون عن قبوله متأمّلين في أن ينقله إلى كرسي آخر ليتولّى، كما اتفق لهم مثل ذلك مع يوحنا الذي أرسله إليهم سابقًا بطرس القصار، فإنهم لما أبوا قبوله أنفذه أفاقوس إلى مدينة صور. ولكن الأمر جرى هنا على خلاف ما ذهب إليه ظنهم... لأن ساويرس، لما انتهى إليه الخبر، تغيّظ جدًا على أهل حماة وعلى رهبان دير القديس مارون الذين كانوا ظهراء لهم. فوشى بهم إلى أنسطاس الملك أنهم عصاة على أوامره، فأبرز أنسطاس في حقهم منشورًا شديدًا وأمرهم أن يكونوا تحت طاعته. وحينئذ أنفذ ساويرس أوامره إلى بطرس الأسقف ليسير إلى حماة ثانية، وينادى بتنفيذ المجمع الخلقيدوني، ويجبر المؤمنين أن يعتقدوا أن في السيد المسيح طبيعة واحدة ومشئنة واحدة وأقنومًا واحدًا، كما سنّ أبائهم في مجمع أفسس. فثار الاضطراب وأوانذ في البلاد، واضطربت نيران القلاقل، واتفق رؤساء الأديار وعلمائها على أن يجتمعوا في دير القديس سمعان، الذي في الجبل العجيب، لإصلاح الكنائس وصيانتها من نوي البدع. فلما هموا بالمسير، أرسل بطرس، المتغلب على كنيسة حماة، جماعة كمنوا لهم في الطريق، فانصبوا عليهم بغتة وقتلوا منهم بعضًا وجرحوا بعضًا وقبضوا على بعض. ثم جهّز أعوانًا أشد من الأولين كفرًا، وأطلقهم إلى الأديار والكنائس والقرى والمزارع، فسلموا الخزائن واختلسوا الآتية المقدسة وصبوا أكثر اضطهادهم على دير القديس مارون، فاستباحوا جميع ما فيه ودكّوا أسواره إلى الأرض وجعلوه قاعًا صفصفًا، وبالجملة لم يقدروا على شر إلا فعلوه. أمّا الذين كانوا قد لجأوا إلى الكنائس خوفًا منهم، فقبضوا عليهم داخل الخورس

وهناك قطعوا أيديهم وأهرقوا دماءهم الزكية من غير رحمة ولا شفقة. وكان عدد الرهبان المقتولين ثلاثمائة وخمسين^١. وأمّا الباقون فأرسلوا إلى ساويرس مقبدين بالسلاسل والأغلال، فأمات منهم بعضاً في السجن وبعضاً في المنفى وكان ذلك في سنة ٥١٧. والكنيسة الرومانية تقيم ذكراً شريفاً لهؤلاء الموارنة القديسين في اليوم الأخير من شهر تمّوز (يوليو)^٢.

ويضيف الدويهي أنّه رغم كلّ ذلك، لم ينقطع الناجون من رهبان دير مارون عن مناصبة أعداء البيعة المقدسة، "فاجتمعوا ثانية، وكان المتقدّم فيهم "اسكندر" رئيس دير القديس مارون، ووجّهوا "يوحنا" و"سرجيوس" إلى القسطنطينية ليتطلّما الملك ممّا أصابهم. أمّا الملك فلم يسمع لهما شكاية، بل طردهما وهتدهما. فلمّا اتّصل خبر ذلك ببقية الآباء، وجّهوا الراهبين إلى الحبر الأعظم "هرمسدا"^٣ صاحب الكرسي الروماني مع رسالة تتضمّن شرح أحوالهم وهذا نصّ الرسالة:

إلى جانب قدس البار "هرمسدا" بطريرك المسكونة بأسرها ومالك كرسي بطرس هامة الرسل. وبعد، فيتضرّع متخشعاً لقداسك أحقر الرؤساء وسائر الرهبان الذين في بلاد سورية الثانية. حقاً إنّ نعمة مخلصنا يسوع المسيح هي التي ألزمتنا أن نعتصم بأذيالك وأن نفرّ من لجج الأمطار الطامية والرياح العاصفة إلى ميناء الأمان الهادئ والراحة المطمئنة، موقنين أنّنا، ولو أصبحنا مغمورين بأمواج الأهوال والمخاوف، نخرج ببركاتك سالمين من كل ضرر. ولذلك فإنّنا نتلقّى جميع ما يحلّ بنا من الشدائد بالصبر والفرح، علماً أنّنا بأن مشاقّ هذا الدهر الحاضر لن توازي المجد الذي نتوقّعه. ولما كان مقرّراً أنّ المسيح إلّها قد أقامك لتكون رأس

١ - راجع: مسعد البطريرك بولس، الدرّ المنظوم، مرجع سابق، ص ١٣١.

٢ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٩ - ٤٠.

٣ - هرمسدا أو هرْمُزدا HORMISDAS : بابا قتيّس ٥١٤ - ٥٢٣.

الرعاة ومعلم الأنفس وطبييها، وجب علينا أن نصف لك المشقات التي أصابتنا ونعرفك بالذناب الخاطفة الذين ينهشون قطيع المسيح بلا رحمة. حتّى إذا اطلّعت على مكرهم تخرجهم بعضا السلطان من بين الخراف الناطقة، وتعزيّ الأنفس المحزونة بكلمة العلم، وتشفي أدواءها بمراهم الدعاء. وعلى حسب ما نظنّ أنّه بلغك خبر اللذين فغرا أفواههما علينا كالأسود ليفترسانا، نعني بهما "ساويرس" و"بطرس" اللذين مرقا من حزب المسيحيين، وفوقاً سهام الطعن على المجمع الخلقيدوني ورشقاه بالحرم جهراً مع أبينا الكبير في القديسين لاون^١ البارّ المعظم، واحتقرا القوانين الموقرة المسنونة من الآباء الأطهار في المسكونة جمعاء. وقد استعانا بأرباب السيف والسلطان على التتكيل بالرهبان والرؤساء، وأخيراً انتهى عنفهما إلينا فأنزلا بنا أصناف العذاب المبرح، آمليين أن ننكر هذا المجمع المقدس. ولما قصدنا المسير إلى دير القديس سمعان^٢ لأجل قضاء بعض مصالح البيعة، نصب لنا هذان الشقيان كميناً في الطريق، قتلوا منّا ثلاثمائة وخمسين نفساً غير الذين هشموهم واتخنوهم بالجراح. وبلغ من قساوتهم أنّهم لم يعفوا عن الذين استجاروا بالكنايس، بل دخلوا عليهم وذبحوهم أمام الهياكل المقدسة. ثمّ وجّها قوماً أشراراً فاقتدي الرحمة فألهبوا النار في الأديار والبيع، وأحرقوا جميع الأدوات التي وقف المؤمنون. ورسائلنا التي مع الأخوين يوحنا وسرجيوس كافلة بإطلاعك على كلّ الامور مفصلاً. وقد كنّا وجّهناهما أولاً إلى القسطنطينيّة ورجونا من الملك أن ينتصف لنا من خصومنا الذين مثّلوا بنا كلّ هذا التمثيل، فلم يُجب الملك سؤالنا بل طرد رسولينا بغيظ شديد، ومن ثمّ أيقنّا أن كلّ هذا التعدي على الكنائس لم يحصل إلّا برضاه وخاطره. ولهذا نسال قداسك أن تتبّه إلينا بحرارة وغيرة، وتشفق على هذا الجسد المسيحي، لأنك أنت رأس الجميع، ولك سلطان على أن تأخذ بثأر

١ - فيلابل لاون الأول (٤٤٠ - ٤٦١) صاحب الوثيقة الشهيرة التي اتخذها المجمع الخلقيدوني دستوراً له.

٢ - لورد نعمان الأبائي بولس، المارونيّة لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٥١٧، أنّ دير سمعان المقصود هنا هو دير سمعان العمودي الأول الكبير المعروف اليوم بقلعة ودير سمعان.

الإيمان المهان والقوانين المدوسة، وأن تنتصر للآباء المشتومين، وللمجمع الذي قُذِفَ بالحرم ظلماً وعدواناً. إذ إنَّكَ أنتَ المتقلِّدُ الحكم من الله، والمتسلِّمُ سلطان الحلِّ والربط. والأصحاء ليسوا بمحتاجين إلى طبيب، بل الذين ركبتهُم العُلةُ ومَنُوا بالأدواء. فقم إذا يا أيُّها الطاهر وسارع إلى انتعاشنا واحذُ حذو الربِّ الذي انحدر من السماء إلى الأرض في طلب الخروف. ضارِعُ بطرس هامةَ الرسل الذي انتصبتَ على كرسيه، وبولس الإناءَ المنتخب، اللذين أنارا المسكونة بأنوار تعاليمهما. لا جرم أن الجراح التَّخينة تستدعي مَراهم قويَّة. وإنَّ الرعاة المستأجرين متى نظروا الذئب مقبلاً تركوه يفترس الاغنام، وأمَّا أنتَ، فيما أنَّكَ الراعي الصالح والوكيل المؤتمن على خلاص الخراف الناطقة، فبادر إلى استنقاذ القطيع الذي نحا نحوك ليلتمس راعيه، واخرِجْهُ من أيدي الوحوش الضارية. ولا غرو أن قداستك لا تتخافل عن إسعافنا، لأن الوحوش المفترسة قد مكَّنت فينا أنيابها. وليكن محققاً لديك أننا بتوسلنا هذا، نحرّم جميع المنفرزين والخارجين عن كرسيك الرسولي المقدس، وهم نسطور أسقف القسطنطينية، وأوطيخة، وديوسقورس، وبطرس الإسكندريّ الأثنخ، وبطرس الأنطاكي القصَّار، ورفيقهم أفاقْيوس أسقف قسطنطينية، ومن ينتصر لهم ويحتج عنهم^١.

وقد وقَّع على ذلك الكتاب:

إسكندر رئيس دير القديس مارون؛ والقسيسان الرئيسان: شمعون، وبروكوب؛
والشماس الوكيل يوحنا؛ وكل من القسيسين: بطرس، أوجان، جيلاد، بسوس،
رومولس، أورشال، وملخس وسواهم، إذ ورد في ذيل الرسالة نحو مائتين وعشرة
تواقيع، منهم مئة واثنان وخمسون لقسيسين، وثلاثة وثلاثون لشمامسة، وخمسة

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٤١ - ٤٣؛ قبل: لترجمة الحبيشة لهذه الرسالة عند: نعمان الأباقي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ١٥٩، عن: OTTO, COLL. AVELLANA, PARIS II, (VINDOBONAE. 1898), GUENTER. PP. 565- 571 وورد ذكر عند نعمان، المرجع السابق، ص ٥١، حيث ردَّ أصلها إلى: VOBUS A., OP. CIT., II: 251؛ راجع: COLLECTIO AVELLAMO, T. II. EPIST. 139, PP 565 ss.

وعشرون لرؤساء. ومن هؤلاء الرؤساء ستة قسّيسين وثمانية شمامسة، وأمّا الباقون فدونهم درجة^١.

ويتابع الدويهي: فلَمّا وقف الحبر الأعظم على الرسالة المذكورة واستفهم الرسولين عن جميع الأحوال مفصّلاً، شمله حزن شديد على ما أصابهم من البليّة، وبعث إليهم محرّرة في جملة رسائل الباباوات، أضربنا عن ذكرها طلباً للاختصار، وهي تشتمل أولاً على التعزية بقوله "إنّ هلاك الأبدان عن الإيمان لا يُحسب خسراناً، وإنّ ما مضى من الزائلات يعوّض عنه بالباقيات". وحضّهم على الثبات في طاعة الكرسيّ الرسوليّ والتمسك بعري المجمع الخلقيدونيّ وباقي المجامع المقدّسة. وحضّهم على مجانبة أهل البدع والإعراض عن مخالطتهم بأيّ وجه كان. وعلى أن يردّلوا سقطات نسطور وأوطيخا وديوسقورس وطيّموتاوس وبطرس الإسكندري وأقاقيرس القسطنطيني وبطرس وساورس الأنطاكيّين وفيلكسينس أسقف هيرابولي وكورس الخالدي وبطرس الحمويّ وجميع أتباعهم ومشايخهم على الإطلاق. ثمّ راح البابا يكتتب أنسطاس ملك القسطنطينيّة وطيّموتاوس بطريركها وغيرهما من المخالفين، يحضّهم على أن يعتنوا بتدبير رعاياهم. وأرسل مع كتبه إليهم صحيفة مجمعيّة تتضمّن الإقرار القويم بالإيمان، وأمر بأن تُعرّض على جميع الرؤساء والرعاة ليتمسّكوا بها ويكتبوا أسماءهم وتسليماتهم في ذيلها بخطوط أيديهم. فلَمّا وصلت إلى الملك المذكور، تضرّم على قداسة الباب غيظاً وأمر قصّاده أن يجحدوها ويعتقدوا ما يخالفها، فإذا لم يجيبوه إلى مراده أمر بنفيهم إلى البلدان السحيقة. إلى أن قضى أنسطاس إذ انقضّت

١ - للدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٤١ - ٤٣؛ راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونيّة لاهوت وحياء، مرجع سابق، ص ٥١، حيث ذكر أنّه لم يكن ممكناً التعرف على التوقيعات الأخرى لأنّ الدلائل الطبوغرافية التي من شأنها المساعدة على تمييزها أهملت من قبل المحرّر، إذ إنّها اعتبرت، بلا ريب، دون فائدة بالنسبة إلى قراء رومانيتين.

عليه من السماء سنة ٥١٠ صاعقة أردته^١.

خلف أنستازيوس الأول، بعد وفاته، أمبراطورًا على عرش بيزنطيا، يوستينس الأول^٢ ٥١٨ - ٥٢٧. وقد اعتبر مؤرخو الموارنة، كما سواهم من المؤرخين الأرثوذكس والكاثوليك، أن هذا الأمبراطور قد "سلك في الرعية مسالك العدل والإنصاف، وبث الأمن والسلام، وأبطل ما كان حكم به زينون^٣ وأنسطاس* على المستقيمين في الأمانة، وأمر بكتابة اسم المجمع الخلقيدوني فوق أبواب الكنائس، ليتبعه الناس ويعتصموا بتعليمه، وردّ الآباء ورؤساء الكهنة المنفيين إلى كراسيهم. وفي السنة الثانية لملكه قيّض "تيموتاس"^٤ بطريرك القسطنطينية وأقيم مكانه "يوحنا الأسقف" الذي كان مزينا بالأمانة المهدب رأيا^٥ فتواردت حينئذ على الملك الكتب والرسائل من الرؤساء والرهبان بأنطاكية وبيت المقدس، بسبب الشقاق الذي ألقاه "بطرس" أسقف حماة، والتابعون لمقالة ساويرس*. فأمر يوحنا البطريرك، إذذاك، بعقد مجمع محلي^٦ ضم ثلاثة وأربعين أسقفًا، أجمعوا على تخطئة ساويرس وحرموه وبعثوا بصورة الحرم إلى البابا هرمزدا، وإلى بلاد الشام، حيث عقد، إثر ذلك، مجمع محلي في بيت المقدس، ومجمع آخر كبير في صور. وقد لعن آباء المجمعين ساويرس

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٤٤٤؛ راجع: نعمان الأباتي بولس، المارونية لاموت وحياء، مرجع سابق، ص ٥١، حيث نكر أن جواب البابا جاء في ١٠ شباط (فبراير) ٥١٨، وأعاد بلن النص محفوظ في مجموعة "فيلان"، مجلد II، رسالة ١٣٩، ص ٣٦٥ وما يليها.

٢ - يوستينس الأول (٤٥٠ - ٥٢٧): ولد في بديقا (إيليريا)، أمبراطور بيزنطي ٥١٨ - ٥٢٧، حارب المونوفيزيين ووضع حدًا للخلاف مع روما المعروف بانشقاق أكايوس.

٣ - زينون ZENON: أمبراطور بيزنطي ٤٧٤ - ٤٩١، لم ينل حكمه رضى الشعب، حاول التوفيق بين المونوفيزية والرأي الأرثوذكسي للكاثوليك فأصدر ٤٨٢ قرار التوحيد (هينوتيكون) الذي أدى إلى خلاف مع روما دام ٣٥ سنة.

٤ - تيموتاس هذا كان من القائلين بالمشيئة الواحدة.

٥ - المقصود أنه كان أرثوذكسيًا خلقيدونيًا مستقيم الرأي.

رجل السوء هذا لا ينكف عن تبديد ما هو لكنيسة الله وما يدخل لها في مدة إقامته... ونتضرع أيضًا إلى حضرة الملك المنصور أن يرسل جماعة من أهل الكهنوت ليعيد أصحاب الدرجات المنفيين إلى مدنهم ومراتبهم... ونتأمل ألا يتوجه إلينا لوم من الملك على طلباتنا هذه، لأن ما نذوقه من مرّ العذاب يسوغ لنا خرق الحجاب. ونستحلفكم أيضًا بالثالوث الأقدس المتساوي في الجوهر، وبحلم ضابطي المسكونة يوستين الملك وأفاميا والدته، أيدهما الله بالفوز وأطال بقاءهما، أن لا تتغاضوا عن مسألتنا ولا تتأخروا عن إسعافنا وأن توصلوا هذه الأمور كلها إلى مسامح ملوكنا المسيحيين، وأن توصوهم بأن يحسنوا العناية بنا، لعل الله يعوض علينا بسعيكم عمّا سلب من أموال كنائسنا. وقد وقّع هذه الرسالة كل من: "ثاؤدس" قسيس أنطاكية؛ "لنجين" الشماس؛ "إسطفان" الشماس؛ "موريق" الإبيوثياقي؛ "يوليان" الشماس؛ "توما" الشماس؛ "يوحنا" القسيس؛ "إندراوس"؛ "اليان"؛ "مركيلس" الشماس؛ "سرجيوس" الرحوم؛ "موسى" القسيس؛ "يوحنا"؛ "يوحنا راهب دير القديس مارون"؛ "يعقوب راهب الرجل الصالح"؛ "قسطنطين راهب وقاصد أستييرس ذي الذكر الصالح"؛ "تونيوس شماس دير القديس بولس"؛ "سليمان راهب دير القديس أغابيطس"؛ "سرجيوس راهب دير القديس سمعان"؛ "حلفي راهب دير القديس يعقوب"؛ "سعيد راهب دير القديس يوحنا"؛ "سمعان راهب دير القديس بولس"؛ "بولس راهب دير القديس إيسكيوس"؛ "عبد الأحد راهب دير القديس دوروتاوس".^١

١ - أغابيطس تلميذ مرقياوس بنى ديرين في "تيكاتاتي" قرب قلميا، تولى المؤسس لهما، ودار الآخر شخص يدعى سمعان، وهو غير "سمعان الممودي" و"سمعان القديم"، كان عدد رهبان الديرين في زمن "ثيودوريس" فوق ٤٠٠ راهب.

٢ - حول دير القديس سمعان، راجع: PEETERS P., *HYPATIUS ET VITALIEN, EXTRAIT DE L'ANNUAIRE DE L'INSTITUT DE PHILIOLOGIE ET DE L'HISTOIRE ORIENTALES ET SLAVES*, T. X (1950) MÉLANGES H. GRÉGOIRE, II, (BRUXELLES, 1950) N.3, P.30.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٤٥ - ٤٨؛ راجع: نعمان الأبائي بولس، المارونية لاهوت وحياة، مرجع سابق، ص ٥١؛ *ACTA CONCILIORUM, ED. SCHWARTZ, BERLIN EN COURS DEPUIS 1914.*

سارع يوستينُس، إثر اطلاعُه على تلك الرسالة، بالقبض على الأساقفة أتباع ساويرُس وتمَّ تعيين أساقفة خلقيدونيين مكانهم. وتمكَّن ساويرُس من الفرار إلى براري مصر^١. ولكنَّ الأمبراطور يوستينُس لم يعمَّر طويلاً، وكذلك حقبة الهدوء التي خيَّمت على الخلقيدونيين، بمن فيهم الموارنة.

خلف يوستينُس ابن اخته يوستينيانُس الأول (٥٢٧ - ٥٦٥) الذي حاول توطيد الأمبراطورية في السياسة والقانون^٢، وخاصة في الدين، فضيَّق على الذين لم يخضعوا لمقرَّرات المجمع الخلقيدوني، إلى درجة حرمانهم حقوقهم المدنية. إلَّا أنَّ المونوفيزيين قد استثنوا من تلك التدابير، على أمل بإمكانية التفاهم معهم حول الدستور النيقاوي من خلال الاجتهاد في بعض تفسيراته، علماً بأنَّ المونوفيزيين كانوا قد نموا بشكل واسع في الأرجاء الشرقية للأمبراطورية وخاصة في مصر. إضافة إلى أنَّ ثيودورة Théodora، زوجة يوستينيانُس، الشديدة الذكاء والطموح، وقد ساعدت زوجها في شؤون الحكم وتدخلت بالسياسة عامة والدينية منها بشكل خاص، كانت مقتنعة بالعقيدة المونوفيزية، فتمكَّنت من إقناع زوجها الأمبراطور بالتساهل مع قادة المونوفيزية الذين راحوا ينظِّمون أنفسهم في أديار ورهبانيات. ورغم محاولات يوستينيانُس لتقادي عودة النزاع، فقد شاب عهده المتذبذب نزاعات أسهبا في روايتها في الجزء التاسع من هذه الموسوعة. وبوفاة هذا الأمبراطور الذي لم يترك عقباً، خلفه ابن اخته يوستينُس الذي أيَّدته الكنيسة فباركه بطريرك القسطنطينية ووضع التاج على رأسه^٣.

١ - جاء في المراجع أنَّ يوستينُس قبض على "بلميط" فأهلكه، وعلى بطرس أسقف حماة، وعلى أسقف منبج فللقاهما في السجن لأنهما كلَّما من أشياع ساويرُس وكلَّما يبيِّن ضلاله بين الشعب؛ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٤٥ - ٤٨.

٢ - وضع يوستينيانُس الشرائع المعروفة به، وضمَّ إليها قوانين خاصة بالكنيسة والرهبان إجابةً إلى طلب "يفان" بطريرك القسطنطينية ومجمع رؤساء الكهنة، وذلك صيغةً لرسم البيعة وإيجاباً لرعاية حقوقها.

٣ - EVAGRIUS, *HIST. ECC.* V: 1; THEOPHANES, A:6058.

ويبدو أن حَقبة حكم يوستينُس كانت استمراراً لعهد سلفه. فقد أمر بإرجاع الأساقفة المنفيين إلى أوطانهم، واستقبل، في بداية حكمه، البطريك الإسكندري ثيودوسيُس الذي كان لا يزال في المنفى، بحفاوة فائقة. ولدى وفاة هذا البطريك سنة ٥٦٦ أمر يوستينُس بإجراء مراسم دفن فخمة له. كما جَدَّ محاولاً توحيد صفوف قادة الكنيسة والتقريب بين وجهات نظر أصحابها دون جدوى. ولَمَّا أصيب هذا الأمبراطور بمرض عصبي أفقده صوابه بشكل ظاهر سنة ٥٧٣، قامت زوجته "صوفيّة" بأعباء الحكم، وهي لم تختلف عن نسيبتها ثيودورة في قولها بالطبيعة الواحدة. إلّا أنّها استعانت في شؤون الحكم برئيس الحرس الأمبراطوري "طيباريُس الأمين" الذي تبناه يوستينُس لاحقاً، ثم ما لبث أن عيّنه قيصرًا، فصرّف باسم سيّده شؤون الأمبراطوريّة أربع سنوات، إلى أن قضى يوستينُس سنة ٥٧٨ فاعتلى عرش الأمبراطوريّة.

اتّبع طيباريُس سياسة متوازنة تجاه الفرقاء، فهو من جهة أوقف ملاحقة المونوفيزيين، ومن جهة ثانية أعاد أفثيشيُس بطريك القسطنطينيّة الأرثوذكسيّ من منفاه وسلّمه عكّاز الرعيّة سنة ٥٧٧ إثر وفاة البطريك يوحنا. ولَمَّا عاد أفثيشيُس إلى سابق حماسه في الضغط على المونوفيزيين والتضييق عليهم، قال له طيباريُس عبارته الشهيرة: "على رسلك، فالبرابرة كثير، ومحاربتهم أولى". وكان المقصود بالبرابرة يومذاك القوى الخارجيّة، ذلك أنّ المدّ الفارسيّ كان على ذرّ قرنه، وكانت الأحداث تنذر بحرب وشيكة في مواجهة التتر^١. وكانت بداية الخطر الفارسيّ قد لاحت في نهاية الربع الأوّل من القرن السادس، عندما حاول الفرس منازعة البيزنطيين السيادة على الشرق. وإذ تمكّن القائد القدير يوستينيانُس بليسايريوس من صدّ الهجوم الفارسيّ

١ - راجع الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

الأول (٥٢٧ - ٥٣٢) فإنّ الفرس قد تمكّنوا، بعد ثماني سنوات، بقيادة كسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٩) من دخول حلب عن طريق منبج بثلاثين ألف مقاتل وإحراقها. وبعد حلب لاقت أنطاكية المصير نفسه "فنهبت وجردت كاتدرائياتها من كنوزها الذهبية والفضية ومن رخامها الفاخر، وهدمت المدينة بكاملها وأخذ سكّانها أسرى"^١. وهكذا خربت أنطاكية، القاعدة المسيحية الشرقية، التي عُدّ فيها بين منتصف القرن الثالث ونهاية القرن الرابع عشر عدّة مجامع كنسية. وتابع كسرى زحفه إلى أفامية، القاعدة المسيحية الشرقية الأخرى، فاستولى الفرس على كلّ ثروتها الكنسية، بما في ذلك قطعة الصليب الحقيقي التي كانت محفوظة بوقار في تابوت مرصّع بالجواهر. وقد سلّمت أفامية من الخراب نتيجة مسارعة أهلها إلى تقديم كلّ كنوزها إلى المهاجمين. كذلك فعلت فاليكس جارة حلب وسائر مدن الجوار. وبعد سنتين من أعمال الاجتياح وتحديدًا في العام ٥٤٢، عُدّت الهدنة الأولى بين البيزنطيين والفرس، وهي الهدنة التي ستجدّد مرارًا إلى أن تتحوّل إلى معاهدة الخمسين سنة التي قبل يوستينيانوس بموجبها دفع الجزية إلى الفرس، وبالتوقّف عن القيام بالدعاية المسيحية في المقاطعات الفارسية. وهكذا فقد كان حال الإمبراطورية البيزنطية عند نهاية عهد طيباريوس، شبه منهار.

اتّبع موريقيوس MAURIKIUS، الذي خلف طيباريوس على سدة الإمبراطورية طوال عشرين سنة (٥٨٢ - ٦٠٢)، سياسة سلفه في موقفه التوفيقّي من الكنيسة، والمقول إنّهُ حافظ على أرثوذكسيّته دون أن يتطرّف أو أن يضيق على المونوفيزيين وغيرهم. ذلك أن موريقيوس كان في حال حرب مع الفرس والسلافيين. وكان في الوقت ذاته يحاول

إعادة تنظيم الإدارة والجيش بعد الانهيار الذي أصاب الأمبرطورية. ولم نطالع عن أي معاناة لرهبان دير مارون، في عهد هذا الأمبراطور، أو في عهد خليفته "فوكاس"¹، الذي اضطهد المونوفيزيين واليهود بقساوة. ويبدو لنا أنّ رهبان مارون قد استمروا على شيء من الإستقرار السلبيّ إلى أن آلت الأمبراطورية إلى هرقل (٦١٠ - ٦٤١).

١ - فوكاس: أمبراطور بيزنطي ٦٠٢ - ٦١٠، لقّبه العرب بالفتّاس، كان قائدًا للجيش فاغتصب الملك وقتل الأمبراطور موريقيوس، خلعه هرقل، قتلته الشعب.

المِوَارَنَةُ

بَيْنَ الْبِيزَنْطِيِّ وَالْإِسْلَامِ

فِي الْعَهْدِ الْهَرَقْلِيِّ؛ رُهْبَانُ دِيرِ مَارُونِ وَالْقَوْلُ بِالْمَشِيئَةِ الْوَاحِدَةِ؛

فِي بَدَايَةِ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ؛ الْمِوَارَنَةُ فِي لُبْنَانِ؛

بِطَرِيقَةِ أَنْطَاكِيَّةٍ بَعْدَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ.

في العهدِ الهِرَقْلِيّ

كان عهد الإمبراطور البيزنطيِّ هِرَقْل أو هِرَكْلْيوس HÉRACLIUS (٦١٠ - ٦٤١)، كما ذكرنا في مجال آخر^١، المفترق الزمنيّ الخطير المثلث الاتجاهات، الذي قرّر مسار الدين في الشرق، كما لم يكن من قبل. ذلك المفترق كان له ثلاثة اتجاهات: المسيحيّة، الفرس، والإسلام.

تسلّم هِرَقْل الإمبراطوريّة وهي في حال تفكّك وصراع وانهيار، واستمرّ قضم الفرس لإمبراطوريّة بيزنطية في بداية عهده، فعبروا الفرات وتوغّلوا في سورية الشماليّة، ووصلوا إلى أنطاكية في السنة الأولى من حكمه، وإلى حمص ودمشق في السنة الثالثة. واحتلّوا طرطوس وقيليقية سنة ٦١٣، واتّجهوا جنوبًا نحو أورشليم ودخلوها عنوة بعد حصار لم يدم أكثر من عشرين يومًا، وقتلوا حوالي ستين ألفًا من المسيحيّين، وأسروا نصف هذا العدد، واعتقلوا البطريرك، واستولوا على عود الصليب ونقلوه إلى فارس. وبعد ثلاث سنوات واصل الفرس زحفهم جنوبًا فاحتلّوا مصر. ولم يعد في البلاد الشرقيّة إكليروس ولا كنيسة. وبقي كرسيّ أنطاكية شاغرا طوال ثمانية وثلاثين سنة^٢. وما تطالعنا به المدونات يفيد بأنّ المونوفيزيّين قد سيطروا في تلك الحقبة على الكنائس التي وقعت تحت الاحتلال الفارسيّ، من دون أيّ ذكر لرهبان دير مارون.

١ - راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ - THÉOPHANÈS A., 6101 - ٢

بدأت ردة هرقل للفرس مع ربيع ٦٢٢، وقد ارتدت طابعاً دينياً تحريراً. وقد تسارعت انتصارات هرقل على الفرس إلى أن كانت معاهدة سنة ٦٢٨ الشهيرة في التاريخ، التي قضت بإعادة الحدود القديمة إلى ما كانت عليه بين الجبارين: البيزنطي والفرسي، وبإطلاق الأسرى، وإرجاع الصليب المقدس إلى مهبه. وقد أدخل هرقل الصليب إلى المدينة المقدسة في موكب مجلّ بمظاهر الأبهة والفخر والهيبة، خشعت أمامه الرؤوس والقلوب. ورفع الصليب في مكانه وسط تلك الأجواء المعبرة^١.

عندما جلا الفرس بموجب معاهدة الصلح وعادت السلطة البيزنطية إلى مكانتها، عاد الصراع بين الكنيستين: الخلقيدونية والمونوفيزية، وأضيف إلى طرفيه طرف ثالث، هو القائل بالمشيئة الواحدة^٢. أما المذهب الأخير فكان وراء هرقل بالذات، الذي حاول من خلاله التوفيق بين الكنيسة الأم والقائلين بالطبيعة الواحدة، حتى أنه أصدر سنة ٦٣٨ منشوراً أوجب من خلاله القول بالمشيئة الواحدة، ما أعطى نتيجة مناقضة لغاية هرقل إذ زاد في تشعبات الانشقاقات ونتائجها^٣. وأول من احتج على القول بالمشيئة الواحدة كان الراهب الملكي الدمشقي صفرونيوس^٤ الذي أصبح سنة ٦٣٤

١ - للإطلاع على ما كُتب في موضوع إعادة الصليب، راجع: 91 - 90 PP. SÉBEOS, II: 427; MICHEL LE SYRIEN, 6020; VINCENT ET ABEL, PP. 191- 205; ANTIOCHUS LE STRATÈGE DANS: KOUOLAKOVSKY, P. 38. راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ - المشيئة الواحدة أو الإرادة الواحدة في المسيح، هو المذهب الذي عرف بـ"المونوتيلية".

٣ - يعزو مؤرخو الكنيسة الشرقية هذه البدعة إلى البطريرك القسطنطيني سرجيوس، وهو من أهل البلاد، وكان يرغب، هو الآخر، في أن يجمع صفوف أنصار مجمع خلقيدونية، ومعارضيه المونوفيزيين، فابتكر حلاً وسطاً ظنّه يرضي الطرفين فقال: إن في المسيح طبيعتين، ولكن فيه قوة واحدة؛ راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة؛ حول ملازمات هذا الموضوع، راجع أيضاً: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٥٠ - ٥١.

٤ - صفرونيوس (ت حوالي ٦٢٨): ولد في دمشق وتنسك في فلسطين، بطريرك القدس ٦٣٤، حارب مذهب المشيئة الواحدة، في عهده فتح العرب القدس ٦٣٨، ذكر الدويهي في تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٥١، أن صفرونيوس كان لبنانيًا.

بطريرك القدس، فنبّه البابا^١ إلى ما في هذا التعليم الجديد من التباس وغموض وخطر على معتقد الناس. واطّلع هرقل على هذه المقاومة فأمر بالكفّ عن التحدّث في الموضوع العقائدي^٢. وعندما اعتبر البابا يوحنا الرابع (٦٤٠ - ٦٤٢) القول بالمشيئة الواحدة ضلالاً وبدعة جديدة، أهمله هرقل ولم يعد يكثر له^٣. إلّا أنّ خلفاء هرقل سيخلقون نزاعاً كنسياً خطيراً حول هذا الموضوع كما أوضحنا في الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

رُهبان دِير مَارُون

وَالْقَوْلُ بِالْمَشِيئَةِ الْوَاحِدَةِ

بالرغم من بعض الاستنتاجات التي افترضها باحثون، فقالوا بأنّ رهبان مارون قد اعتنقوا معتقد المشيئة الواحدة في عهد هرقل، فإنّ الأبحاث المعمّقة التي جرت، من قبل مختلف الباحثين الكنسيين، تنفي صحّة هذه الفرضيّة. إنّما الثّابت أنّ رهبان دير مارون قد بقوا متمسكين بالمعتقد الخلقيدونيّ الأرثوذكسيّ من دون أيّ تحوير.

ولعلّ من نسبوا إلى رهبان دير مارون قولهم بالمشيئة الواحدة، قد أخذوا بما ذكره "المسعودي" المؤرّخ والرحالة العربيّ البغداديّ^٤، والذي كتب تاريخه حوالي ٩٥٠، من أنّ "معظم أتباع هذه الطائفة (الكنيسة) يعيشون في لبنان وفي نواحي حمص وحماة

١ - سنة ٦٣٤ كان على كرسي روما هونوريوس الأوّل (٦٢٥ - ٦٣٨)، عقبه سفيريس حتّى ٦٤٠؛ أمّا البابا يوحنا الرابع (٦٤٠ - ٦٤٢) فهو الذي عدّ القول بالمشيئة الواحدة ضلالاً وبدعة جديدة.

٢ - يقيم المطران ميشال، ديك الأرشمندريت اغناطيوس، تاريخ الكنيسة الشرقيّة وأهمّ أحداث الكنيسة الغربيّة، معهد لفتيس بولس للفلسفة واللاهوت - حريصا، منشورات المكتبة البولسيّة (بيروت، ١٩٩٩) ص ١٦١.

٣ - يقيم ديك، تاريخ الكنيسة الشرقيّة، مرجع سابق، ص ١٦٢.

٤ - المسعودي، التنبية والإشراف، طبعة دي غوييه (لیدن، ١٨٩٣) ص ١٥٣ - ١٥٤؛ راجع: حتّي د. قيليوب، لبنان في التاريخ، طبعة فرانكلين (بيروت - نيويورك، ١٩٥٩) ص ٣٠٤.

فيه أن "الرهبان الموارنة في منبج وحمص وفي البلدان القبلية (الجنوبية) قد أظهروا كيدهم... واستولوا على أكثر الكنائس والأديار"^١. وبالتالي فإن الذين استندوا إلى هذا القول لميخائيل السرياني المونوفيزي^٢ الذي أرخ الحدث بعد وقوعه بنصف قرن، والذي لم ينكر فيه أن الموارنة قد قبلوا دعوة هرقل بل ذكر أنهم "أظهروا كيدهم" وحسب، لا يمكن أن يكون استنادهم كافياً للقول بأن الرهبان الموارنة، الذين كانوا قد ضحوا في سبيل مقررات المجمع الخلقيدوني بثلاثمئة وخمسين راهباً شهيداً، قد خرجوا عن هذا الالتزام وقبلوا تسوية هرقل. والواقع أن رهبان بيت مارون كانوا قد تمكنوا من الاستيلاء على بعض الكنائس والأديار التي كانت للسريان القائلين بالطبيعة الواحدة قبل زيارة هرقل لهم، إذ ورد في المراجع الموثوقة أن هرقل، الذي أقطع هؤلاء الرهبان الأراضي الواسعة: "أبقى في أيديهم ما كانوا أخذوه من كنائس وأديار كانت لليعاقبة"^٣... ولم يرد أن هرقل قد "أعطى" أولئك الرهبان أدياراً أو ما شابه. ولعل من أهم البراهين القاطعة على عدم قول رهبان مارون بالمشيئة الواحدة، إقدام الأباطرة الذي خلفوا هرقل، والقائلين بهذه البدعة، على هدم دير مارون وقتل رهبانه، والواقعة التي ستجري في أميوني من شمال لبنان بين الموارنة وبين جيش الأمبراطور القائل بتلك البدعة كما سيأتي لاحقاً. ومن أبرز الذين ردوا هذه التهمة عن الموارنة بالوثائق والبراهين، البطريرك إسطفانوس الدويهي، وإين نمرون، والمطران بولس مسعد، والمطران يوسف الدبس، والمطران بطرس ديب وسواهم^٤.

١ - ١٢٠. MICHEL LE SYRIEN, II, P. ١٢٠. ٢ - يسميه الباحثون "ميخائيل اليعاقبي".

٣ - ٢٧٤ - ٢٧٠. BARHEBRAEUS, *CHRONICON ECCL.*, I, PP. ٢٧٠ - ٢٧٤.

٤ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية؛ مسد البطريرك بولس، الدر المنظوم، مرجع سابق؛ الدبس المطران يوسف، تاريخ

سورية (بيروت، ١٩٠٠) ٥: ١٥٦؛ ١٤٣ - ١٤٤. DIB PIERRE, *L'EGLISE MARONITE*, VOL. I (PARIS, 1930) PP. ١٤٣ - ١٤٤.

NAJRONI FAUSTO (MURILU), *DISSERTO DE ORIGINE, NOMINE, AC RELIGIONE MARONITARUM* (ROME, 1967).

ويقول علماء في التاريخ مستقلّون محدثون: "لعلّه ثمة بعض الصحة في القول بأنّ وليم الصوريّ وغيره من المؤرّخين كانوا يخلطون بين موارنة لبنان وجماعة أخرى من أتباع رجل من الرهبان يدعى هو الآخر مارون، توفيّ حوالي سنة ٥٨٠، كان من أصحاب المشيئة الواحدة، أو لعلّ مثل هذا القول ممّا يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار".^١

على أيّ حال، تتعدّد الآراء حول قول أو عدم قول رهبان مارون في القرن السابع بالمشيئة الواحدة، ولكنّ الثابت أنّ هؤلاء لم يكونوا، في أيّ وقت من الأوقات، على خلاف مع الكرسيّ الرسوليّ الرومانيّ، وأنهم كانوا من أنصار هرقل محرّر البلاد من الاحتلال الفارسيّ. والثابت أيضاً أنّ هرقل قد تخلّى عن القول بالمشيئة الواحدة لمّا شجّبه روما، كما سبق وأوضحنا. وهكذا، فعندما أطلّ المسلمون على هذه المنطقة، اعتبروا هؤلاء الرهبان من أعوان هرقل، فشددوا الضغط عليهم. بينما أكّد السريان المونوفيزيّو المعنقد للمسلمين على أنّ رهبان مارون من أنصار الملك، فأطلق المسلمون يد أولئك السريان الذين راحوا يضطهدون رهبان بيت مارون وأتباعهم محاولين استرجاع ما خسروا من أديار وكنائس...^٢

في هذه الحقبة من التاريخ أطلق لقب "الملكيّين"^٣ على أولئك الذين ناصرُوا هرقل ضدّ المسلمين، وهم من السكّان الأصليّين ذوي العرق السريانيّ - الآراميّ، وقد جاءهم

١ - حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠٧؛ لامنس، تسريح الأبصار، مرجع سابق، ٢: ٥٥ - ٥٦.

٢ - ملكيّ، وبعضهم استعمل لفظة ملكاني وهي لفظة سريانيّة الأصل: "ملكاً ومعناها في العربيّة الملك؛ أطلق لقب الملكيّين على بعض المسيحيّين أكثر من مرة قبل هرقل وبعده. فقبل هرقل كان جميع الخليقيون يسمّون غالباً بالملكيّين لأنهم كانوا يتبعون الكنيسة الأرثوذكسيّة المحميّة من قبل الملك أي الأمبراطور، وكان أولئك الملوك غالباً أرثوذكسيّين إلّا في حالات إستثنائيّة. وفي بداية عهد هرقل وبعده بقليل أي في عهد كونستانتس الثاني (٦٤٢ - ٦٦٨) الذي قال بمعنّد المشيئتين في المسيح، لُقّب بالملكيّين إلى حين الذين قالوا قول الملك بالمشيئتين. وبعد المعركة التي وقعت بين البطريرك يوحنا مارون وجيش البيزنط بقيادة موريق وموريقيان في ساحل شماليّ لبنان لُقّب الذين تّبّعوا يوحنا مارون بالموارنة والذين اتّبّعوا البيزنط بالملكيّين، كما سيأتي.

هذا اللقب: الملكاني أو الملكي، من خصومهم في العقيدة وزملائهم في الأصول العرقية تعبيراً، إذ اعتبروهم مناصرين للأجنبي ضد أترابهم الساميين، غير آخذين بعين الاعتبار صوابية العقيدة والإيمان، علماً بأن المسيحية منذ بولس الرسول قد أصبحت عالمية غير مفرقة بين عرق وآخر.

لم يكن رهبان دير مارون وأتباعهم، الوحيدين الذين أطلق عليهم لقب ملكيين في تلك الحقبة، لكن هذا اللقب شمل كل من كان في سياسته مناصراً لهرقل في حربه ضد الاجتياح الإسلامي، إلا أن رهبان دير مارون وأتباعهم كادوا أن يكونوا الوحيدين من السكان الأصليين الذين اتخذوا هذا الموقف، بينما اعتبر سائر المسيحيين السريان أن "العرب الذين أولاهم الله السلطة على العالم في هذا العهد هم، كما تعلمون، يقيمون في ما بيننا، ولا يتخذون من النصرانية موقف عداء، بل هم على عكس ذلك: يمتدحون ديننا ويجلّون الكهنة والقديسين، ويجودون بالتقديرات للكنائس والمناسك".^١

في بداية

الفتح الإسلامي

اجتاحت جيوش المسلمين بين سنتي ٦٣٤ و ٦٣٥ ما كان ظفر هرقل باسترجاعه من الفرس سنة ٦٢٨. كان سقوط دمشق بيد المسلمين حدثاً خارق الأهمية بالنسبة لمصير المسيحية في الشرق. فلقد وضع هذا الفتح نهاية لعهد دام ما يقارب ألف سنة من السيطرة الغربية من جهة، وما يقارب الثلاثماية سنة من سيطرة الدين المسيحي، وإن كان العرب المسلمون قد تعهّدوا، إثر هذا الفتح، لمسيحيي دمشق، بإبقاء أراضهم

١ - ISO'YAHB, III, LIBER EPISTULARUM, IN SCRIPTORES SYRI. SER., II, VOL., IXIV. ED. RUBENS DUVAL -

(PARIS, 1904 - 1905) TEXT P. 251, II: 13 - 19, CF. P. 252, II: 8 - 12, T2. P. 182.

وبيوتهم وكنائسهم وحرية عقائدهم الدينية مقابل الالتزام بدفع الجزية. ويظهر جلياً من خلال التدقيق في فصول الفتح العربي الإسلامي للمدن السورية، أن الأهالي الأصليين لتلك المدن، وهم من الشعوب السامية، قد وجدوا في القادمين المسلمين ما أمكن اعتباره نوعاً من القربى، قياساً إلى أجنبية البيزنطيين. وقد كانت المونوفيزية يومها الأكثر شيوعاً بين السكان الأصليين، من عرب وسريان، ولا بدّ من أنه كان للغة والثقافة دورهما في اعتناق هؤلاء السكان للمونوفيزية. ذلك أن دعائها كانوا من السريان والعرب، بينما الكنيسة الجامعة الأرثوذكسية، يتكلم أساقفتها وإكليروسها اليونانية واللاتينية. ما جعل أولئك السكان يعتقدون المونوفيزية، ليس من منطلقات فلسفية لاهوتية وإيمانية، ولكن من منطلق العداء للأجنبي. حتى أن بعض الباحثين خلص إلى أن الدمشقيين لم يروا في الإسلام سوى شيعة مسيحية منشقة، أملوا في أن ينالوا معها مزيداً من الحرية^١.

بعد استسلام دمشق سنة ٦٣٥ قام الخليفة الثاني، من الراشدين، عمر بن الخطاب (خليفة ٦٣٤ - ٦٤٤) بتعيين القائد يزيد بن أبي سفيان حاكماً عسكرياً عليها. وقضت شروط الصلح التي نفذها يزيد بأن تبقى أراضي المسيحيين وبيوتهم وكنائسهم وحرية عقائدهم الدينية مصانة، مقابل التزامهم بدفع ضريبة والتعهد بدفع الجزية، ويبدو أن قيمة تلك الضريبة والجزية كانت أقل مما كان يدفعه الأهالي للبيزنطيين. وفي خلال سنتي ٦٣٧ - ٦٣٨ استسلم للفاتحين المسلمين، دون معارك، كل من بعلبك وحمص وحماه وحلب وأنطاكية والمدن الفينيقية على الساحل اللبناني. وألحقت جميع هذه المدن بالحاكم العسكري في دمشق: يزيد بن أبي سفيان.

١ - راجع: ELISSÉEF, ENCYCLOPÉDIE DE L'ISLAM, DIMASHK, II: 288.

وعندما انهزم هرقل بجيوشه إلى القسطنطينية، أي إلى بلاد الروم، تبعه أكثر الملكيين الذين هم من أصول رومانية وإغريقية، بينما لم يكن بوسع أهل البلاد الأصليين النزوح بهذه السهولة، فوجد الملكيون منهم أنفسهم في وضع صعب للغاية. بينما تمتع غير الملكيين، وهم القائلون بالمونوفيزية، بامتيازات نسبية على سائر المسيحيين. وبذلك يبدأ فصل جديد من التحول الديني في الشرق، إن بالنسبة للمعتقد المسيحي، أم بالنسبة لمصير المسيحية ككل.

هذه الأجواء هي التي سوف تقرر، في ما بعد، لجوء الكنيسة المارونية بإكليروسها إلى مناطق أكثر أمناً واستقراراً من ضفاف العاصي: إلى جبال لبنان.

الموَارَنة فِي لُبْنان

إثر الفتح الإسلامي نزح عدد كبير من رهبان دير مارون إلى جبال لبنان العاصية بسبب الاضطهاد الذي تعرّضوا له إثر الفتح الإسلامي، لأنهم من الذين اعتُبروا ملكيين، وقد استفاد اليعاقبة المونوفيزيون من الحدث ليؤلّبوا الفاتحين على هؤلاء الرهبان انتقاماً للأحداث الدامية السابقة التي كان سببها الخلاف العقائدي بين الطرفين. هذا النزوح الرهباني مكن رهبان دير مارون من تلمذة أكثر سكّان الجبل اللبناني على معتقدهم الأرثوذكسي الكاثوليكي. وكان، بعد الفتح الإسلامي، وبوجه التحديد، في الحقبة الممتدة بين سنة ٦٣٤ وسنة ٦٤٤، عدد كبير من المسيحيين قد ترك المدن الكبيرة، كالشام وحلب وحمص وحمّاه واللاذقية، قاصداً الجبال والأرياف النائية، ومنها

جبال لبنان الشاهقة وأوديته السحيقة^١. وذكر باحثون في هذا المجال أنه عندما ضاقت بأولئك المسيحيين سبل العيش في سورية، آثروا النزوح عنها والتخّلي عن تلك السهول الخصبة في سبيل المحافظة على حرية معتقدهم المسيحي وكرامتهم الإنسانية. فولّوا وجوههم شطرَ لبنان الشمالي، وسلّكوا، من جملة ما سلّكوا من طرق، لدى جلائهم عن مواطنهم القديمة في سورية، طريق ضفاف الأنهر حتّى وصلوا إلى منبع نهر العاصي في الهرمل^٢، حيث لا تزال آثارهم ظاهرة هناك حتّى يومنا هذا. ومن منطقة الهرمل، تسلّقوا جبال الأرز وحطّوا رحالهم في أماكن عديدة من مناطق لبنان الشمالي، حيث استوطنوا بوجه خاص منطقة الجبة ووادي "قاديشا"^٣ و"قنّوبين"^٤ في شمالي لبنان^٥. لا يشكّ باحثون في أنّه كان في لبنان الشمالي، قبل الفتح العربي، مسيحيّون ينتسبون إلى رهبان دير مارون ويدينون بعقيدتهم الكاثوليكية والأنطاكية. وكان هؤلاء على السواحل اللبانية وفي مناطق أخرى من لبنان، منذ فجر المسيحية، بعدما بشرّ الرسل الساحل الفينيقيّ لدى مجيئهم من أورشليم إلى أنطاكية، مروراً بصور وصيدا وبسبوت وجبيل وطرابلس. ومع مرور الزمن، والتحاق هؤلاء بالجبال العالية، طالهم تبشير تلامذة مار مارون، كإبراهيم الناسك (٤٢٨+)°، وتلامذة مار سمعان العمودي (٤٥٩+)، فانصهر

١ - صغير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠١.

٢ - الهرمل: منطقة جبلية في أعالي البقاع لشرقي من لبنان.

٣ - قَلْبِيصًا: كلمة سريانية تعيد عن القداسة.

٤ - قَنُوبِين: كلمة سريانية تعني "دير الرهبان المبتكئين".

٥ - راجع: نعمان الأب بولس، المارونية بين الدين والدولة، مرجع سابق، ص ١٢.

٦ - صغير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠١ - ٣٠٢، حيث أورد الحاشية التالية: لمزيد من المعلومات عن نشاط تلامذة للقيس مارون الرسولي، راجع: ضوّ الأب بطرس، تاريخ الموارنة، الجزء الأول، ص ٨٤ - ٩٠، و ٢١٥ - ٢١٦. أمّا المطران ديب فيوكّد، في مؤلّفه المذكور بالفرنسية، الجزء الأول، ص ٧٠، على أنّ الهجرة المارونية من سورية إلى لبنان تمتّ على دفعات متقطعة، منذ الجيل السابع حتّى العاشر، دون أن يشير، ولو بطريق العرض، إلى وجود مارونيّ في لبنان.

المسيحيّون اللبنانيّون مع إخوانهم المسيحيّين الخلقيدونتيّين الذين سُمّوا موارنة، وأتوا من مناطق سورية الثانية على أثر الاضطهادات والمنازعات في وحدة مترابطة في جبل لبنان، بعدما وثّقت في ما بينهم العقيدة واللغة الطقسية والصمود في مجابهة سوء المصير^١.

في تلك الحقبة، كان قد ساد القسطنطينيّة صراع على الملك بعد وفاة هرقل سنة ٦٤١، فلم يملك هرقل الثاني المعروف بقسطنطين الثالث هرقل، ابن هرقل الأول من زوجته الثانية ابنة أخته، سوى شهر واحد، عقبه أخوه هرقل هرقليناس الذي لم يكن حظّه أفضل من سابقه. وبموت كنستانس الثاني عاد الصراع على الملك، ما أدّى إلى تسليمه إلى قسطنطين الرابع سنة ٦٦٨ إذ كان لا يزال يافعاً، فتمردّ الجند في صقلية وأرمينية، إلى أن بلغ التنازع حدّ استجداد بعض القادة البيزنطيّين بالعرب ضدّ بعضهم الآخر، ما حدا بمعاوية إلى استغلال الفرصة السانحة، فبدأ محاولته للاستيلاء على قسطنطينيّة بالذات بين سنة ٦٧٣ وسنة ٦٧٨. ولكنّ محاولات معاوية العسكريّة البحريّة قد باءت بالفشل، وانتهت تلك المرحلة من الصراع إلى إقرار صلح بين الطرفين مدّته ثلاثون سنة^٢.

في عهد كنستاس، وتحديداً في حوالى سنة ٦٦٦، أرسل الأمبراطور شرانم من الجراجمة، مع فرق من فرسان وجيوش نظاميّة، إلى جبال لبنان ليقوموا بأعمال حربيّة ضدّ المسلمين الذين كانوا قد استولوا على معظم البلاد السوريّة، إضافة إلى مدن الساحل اللبناني. فاندمج هؤلاء مع المسيحيّين الذين كانوا قد سبقوهم إلى سكّى الجبل،

١ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣٠٢.

٢ - راجع: NICEPHORE, PP. 32 - 33, 42; THÉOPHANES, CHRON., ART. 6169.

وكانوا قد عُرفوا بالمردة بسبب مقاومتهم للمسلمين من جهة، وللمونوفيزيين من جهة ثانية. ولفظُ المردة ساميٌ يعني: الإنتفاض والمقاومة. أمّا الجرامة فيُنسبون إلى "الجرجومة"، وهي المدينة الكبرى الواقعة في جبال اللكام (أمانوس)^١ وكانوا بحكم موطنهم على الحدود العربية البيزنطية بمثابة "جدار نحاسي"^٢ يصون آسية الصغرى من الفاتحين. وكانوا مسيحيين ثائرين محاربين. وعندما استولى المسلمون العرب على أنطاكية، كان هؤلاء الجرامة قد تعهّدوا للروم بأعمال الاستكشاف وحراسة الطرق التي تمرّ في جوارهم^٣.

باندماج الجرامة مع المسيحيين المقاومين^٤، أصبحوا جميعاً يشكّلون قوّة أزعت الأمبراطورية الإسلامية، لدرجة رأى معها معاوية أنه من الحكمة دفع جزية للروم مقابل امتناعهم عن مساعدة المردة في لبنان. حتّى أن المردة قد تلقّوا من الخليفة جزية مباشرة. وعليه انسحبت جموع الجرامة من لبنان. ولكن في سنة ٦٨٩، وكان عهد خلافة عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥) عاد الجرامة إلى لبنان وتحصّنوا في مرتفعاته الشمالية، ما اضطرّ عبد الملك إلى أن يدفع ضريبة للأمبراطور يوستينيانس الثاني وأن يدفع للجرامة مبلغ ألف دينار كلّ أسبوع^٥.

١ - ياهوت، معجم البلدان، ٢: ٥٥؛ البلاذري، فتوح البلدان، طبعة دي غويه (لیدن، ١٨٦٦) ص ١٥٩.

٢ - Théophanes, P. 364.

٣ - البلاذري، فتوح، مرجع سابق، ص ١٥٩.

٤ - لامنس الأب هنري اليسوعي، تسريح الأبصار في ما يحتوي لبنان من آثار، الطبعة الثانية (بيروت، ١٩١٤) ٢: ٤١ - ٤٨ حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠٠.

٥ - راجع: كتاب أنساب الأشراف، نشر S.D.F. Goyte (القس، ١٩٣٦) ٥: ٢٩٩ - ٣٠٠؛ لامنس، تسريح الأبصار، مرجع سابق، ٢: ٤١ - ٤٨؛ البلاذري، فتوح، مرجع سابق، ص ١٦٠ حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٩٨ - ٣٠٠ حتّى، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ٢: ٥٢.

ومنذ ذلك الحين، أصبح مركز النقل للجماعة المسيحية التي سوف تؤلف شعب الكنيسة المارونية في الجبال اللبنانية. ومع هذه الجماعة "بدأ جبل لبنان بالظهور على مسرح السياسة في هذا القسم من العالم".^١

بَطْرِيكِيَّة أَنْطَاكِيَّة

بَعْدَ الْفَتْحِ الْإِسْلَامِيِّ

يُجمع مؤرّخو كنيسة أنطاكية على أنه لما اضطّر الروم، على أثر الفتح الإسلامي سنة ٦٣٤، إلى الخروج من بلاد الشام، ولم يعودوا قادرين على التحكم بمصيرهم والاهتمام بأمور دينهم وديارهم، خرج البطاركة الملكيون أيضاً من أنطاكية، ولم يستطيعوا البقاء فيها بسبب الحروب والمنازعات. فلجأ بعضهم إلى القسطنطينية واستقروا فيها نهائياً، ولم يبقَ لهم من رئاسة الكنيسة الأنطاكية سوى الاسم فقط. فلقبوا هكذا في أمكنة نائية وبعيدة عن كرسيمهم الأصيل، وعن أبناء كنيستهم ورعاياهم الذين مكثوا في أنطاكية ومناطق سورية المترامية الأطراف، مشتمين كخراف لا راعياً لها. ونتيجة لهذا الخلل، وبسبب التعسف الديني والجور والاضطهاد، شغل الكرسي الأنطاكي من بطريرك شرعي، بعد وفاة البطريرك الأصيل انستازيوس في أيلول (سبتمبر) ٦٠٩. ولم يُنتخب بعده أي بطريرك آخر بطريقة شرعية وقانونية^٢، بل كان الملوك البيزنطيون يعيّنون، أحياناً، بطاركة إسميين فقط لأنطاكية. وكان هؤلاء يقيمون في القسطنطينية، دون أن تطأ أقدامهم أرض البطريركية الأنطاكية. وقد تعاقب على

١ - حتى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠٠.

٢ - صغير الأب د. بولس، للكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٣، ويورد هنا الحاشية التالية: حول ظروف شغور الكرسي الأنطاكي راجع: الأب بطرس فهد، حول كتاب الهدى وتاريخ الطائفة المارونية (جوانيه، ١٩٥٤)، ص ٩٣.

الكرسي الأنطاكي، بطريقة غير شرعية، في الحقبة التي سبقت نشأة البطريركية المارونية، ثلاثة بطاركة، هم^١:

(١) مقدونيوس من ٦٤٠ حتى ٦٦٥. أقام في القسطنطينية وحرمه البابا مرتين الأول، لأنه حمل لقب بطريك أنطاكية دون أن يكون بطريكاً شرعياً، ولم يتمكن، بسبب الحروب المتواصلة بين العرب والبيزنطيين، من الدخول إلى أنطاكية، فمات قبل تسلم زمام سلطتها الروحية.

(٢) مقاريوس من ٦٥٥ حتى ٦٨٠. أقام في القسطنطينية أيضاً، وحرمه المجمع المسكوني السادس المنعقد في القسطنطينية ٦٨٠، لتمسكه ببدة المشيئة الواحدة. لم يتمكن هو الآخر من الدخول إلى كرسي أنطاكية. أقاله المجمع وانتخب مكانه بطريكاً آخر يدعى تاوفانس.

(٣) تاوفانس من ٦٨٠ حتى ٦٨٥. وهذا أيضاً، بالرغم من شرعية انتخابه، لم يتمكن من دخول البطريركية الأنطاكية ومن تسلم زمام أمورها وسلطانها الروحية. فظل في القسطنطينية حتى وفاته في أواخر سنة ٦٨٥.

كان من الطبيعي، بعد شغور الكرسي الأنطاكي من بطاركة شرعيين يقيمون بين أبناء كنيستهم، أن يؤدي هذا الوضع الشاذ إلى انتخاب بطريك أصيل وشرعي يقيم في نطاق البطريركية الأنطاكية، ويسهر على مصالح المؤمنين فيها، ويحامي عن معتقدهم السليم^٢. وهكذا قرّر القسم الأكبر من الرهبان والأساقفة الأنطاكيين الخلقيدونيين، ومن جملتهم رهبان دير مارون، انتخاب بطريك من بينهم ليقود الرعية في ذلك الظرف العصيب. أمّا هذا البطريرك المنتخب فكان: يوحنا مارون.

١ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٣، بالاستناد إلى: SFEIR Cf. J. PIETRO, *LA MESSA SIRO* 119 - 122 PP. MARONITA (ROMA, 1949)؛ وضو الأب بطرس، تاريخ الموارنة، الجزء الأول، ص ٣٣٢ - ٣٣٥.

٢ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

البطريرك يوحنا مارون

نسبُ البطريرك يوحنا مارون؛ يوحنا مارون أسقف على جليل والبترون؛
يوحنا مارون البطريرك الأنطاكي؛ البطريرك يوحنا مارون في لبنان؛
كفرحي بعد أنطاكية؛ وفاة يوحنا مارون وقد أسسه؛
ردّ التشكيك بحقيقة البطريرك يوحنا مارون؛

نَسَبُ الْبَطْرِيكَ يُوحَنَّا مَارُون

اختلف الباحثون في أصل البطريرك يوحنا مارون الذي لُقِّبَ بالسرومي نسبةً إلى سروم، القرية السورية الواقعة في السويدية القريبة من أنطاكية^١. فمنهم من قال بأنه من أصل غربي^٢، ومنهم من اعتبره سرياني الأصل، وقد كان سبب هذا التباين في الرأي سوء قراءة كلمة وردت في الـ"ميمر"^٣ الذي ألفه عبد يشوع قبل سنة ١٥٥٥، وعدّد فيه العلماء والكتّاب، وقد ترجم هذا الميمر إبراهيم الحقلاني^٤ سنة

١ - ذكر هذا التعريف عن سروم يعقوب البراعدي أسقف الرها السرياني ٥٤١ - ٥٧٨، وقال إنّها في جبل السويدية على مسافة متساوية بين أنطاكية ودير القديس مارون. - راجع: البطريرك الديوبهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٩. وقد عُرفت في ما بعد باسم "سرماتية"، وهي تقع بحصب التحديد الجديد عند أسفل جبل الطوتين على مسافة ١١ كلم إلى الجنوب عن جسر الشغور، وعلى مسافة غير بعيدة عن نهر العاصي، وقعت في يد الإفرنج ١١٠٦، فأضحت إقطاعاً لأسرة فرنسية لُقِّبَ لنبأها بأمرأ سرماتية، ومنهم "جيرفي دي سرماتيا"، ومن هذه العائلة بلرون أنطاكية وابنه أنثيفارد بارون أرمينيا، فتحها صلاح الدين الأيوبي ١١٨٨، وبالقرب منها قريتان، إسم الواحدة ماروني والثانية موارنة.

٢ - الديوبهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٥٣، حيث جاء أنّ يوحنا مارون "من أصل شريف، إسم أبيه أغلقون" واسم أمّه "نوهاميا"، واسم جدّه "إلينيس" ابن أخت ملك فرنسا..! راجع: الديس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤٠.

٣ - الميمر: كتاب صلاة أو منشور كنسي.

٤ - إبراهيم الحقلاني (١٥٩٤ - ١٦٦٤): من كبار العلماء الموارنة، وُلِدَ في حقل جبيل، تلقّى علومه في المدرسة المارونية في روما ونال رتبة ملّكان في الفلسفة واللاهوت وبقي علمانياً، تولى تدريس اللغة السريانية والعربية في جامعة البروباغندا ١٦٣٠ بروما، اشترك في تصحيح الكتاب المقدس ببيارس ١٦٤١، عاد إلى لبنان وتصل بالأمير فخر الدين الثاني الكبير الذي عهد إليه الاهتمام بولاده وجعله رسوله إلى أمير توسكانا "غوزما" في شؤون سياسية وتجارية، رجع إلى باريس ليستأنف التأليف فسعى ترجمتاً ورئيس مكتبة اللغات الشرقية في روما، ثم مطباً للغات الشرقية في جامعة فرنسا خلفاً للصهيوني، وباهتمام فكر دينال "ريشليو" أصبح ترجمان البلاط الفرنسي كما كلفه بترجمة بعض الكتب العربية، نُقش اسمه في جامعة فرنسا بين أسماء الأساتذة الكبار، وتوفي في روما.

١٦٥٣. فالحقلائي، وهو من مشاهير علماء الموارنة اللبنانيين، في ترجمته لتلك الكلمة عن السريانية قرأ "ابن الإفرنج" بدل "ابن الفخارين"، والكلمتان متشابهتا الكتابة في السريانية، وهكذا ترجم عن الميمر: "يوحنا ابن الفرنج" عوضاً عن "يوحنا ابن الفخارين" كما يقول السمعاتي الكبير^١. من هنا كان الخلاف حول أصل يوحنا مارون^٢.

وُلِدَ يوحنا في قرية سروم حوالى سنة ٦٢٧، حصل علومه الرياضية والدينية في مدرسة أنطاكية في بداية نشأته، ثم انتقل إلى دير القديس مارون على ضفاف

١ - يوفنف ميمقان المُسمَّعاني (١٦٨٧ - ١٧٦٨): هو المعروف بالسمعاتي الكبير، أعظم علماء الموارنة على الإطلاق، من حصرون أصلاً ومن طرابلس مولداً حيث أبصر النور في ٢٧ تموز، أرسل إلى روما ١٦٩٥ حيث تكتب على التحصيل، أتمن ثلاثين لغة ونال الدكتوراه في اللاهوت والفلسفة، وضع جدولاً يضلحياً لأربعين مخطوطاً ما دفع البابا كليمانت الحادي عشر لإرساله إلى مصر بهدف اقتناء ما أمكن من المخطوطات القيمة، لدى عودته عيّن باحثاً في المكتبة الفاتيكانية فشرع في إعداد المولد لوضع "المكتبة الشرقية"، سيم كاهناً ١٧١٩، عيّن البابا كليمانت الثاني عشر الحافظ الثاني للمكتبة الفاتيكانية، ثم عيّن مستشاراً في مجمع نشر الإيمان المقتض، كلّفه كارلوس الرابع ملك نابولي وصقلية سنة ١٧٥١ بالقيام بوظيفة مؤرّخ مملكة نابولي، عمل السمعاتي في وضع جدول أعمال المجمع اللبناني ١٧٣٦ حيث أرسل من قبل البابا بوصفه معتمداً رسولياً للكنيسة المارونية لإصلاح التهذيب البيعي في طائفته، رقي إلى درجة الأسقفية على أبرشية صور المارونية والأراضي المقدسة ٣٠ آب (أغسطس) ١٧٦٨. شبّه حريق في مكتبته فأثقلها، وبعد مرور أربعة أشهر على هذه الكارثة مات في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ودفن في كنيسة مار يوحنا الإنجيلي في روما. للعلامة الممعاتي عدة مؤلفات في العربية واللاتينية منها: "المكتبة الشرقية" في ١٣ مجلداً طبع منها أربعة مجلدات ١٧١٩. "مجموعة مار فرام السرياني" باليونانية والسريانية في ٦ مجلدات. مجموعة تاريخ المشرق في ٩ مجلدات. مجموعة "التصوير الكنسي" في ٥ مجلدات. "أصل الرهبان في جبل لبنان". الاكولوجيوم: أي مجموعة الترتب وكتب الصلوات والقروض والأسرار كما وضع مؤلفات في مواضيع مختلفة، وتعتبر هذه الثروة العلمية والثقافية مرجعاً أساسياً للعلماء والباحثين في الشرق وتاريخه ولفظه وفكره وأدبائه ولاهوته وحضارته. له نصب في باحة كنيسة السيدة في بلدته الأم حصرون، أزيح الستار عنه في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٢٨ بحضور البطريرك مار الياس الحويك والرئيس شارل دبّاس ورئيس الوزراء حبيب باشا السعد وجمع غير من الأعيان وأبناء الشعب؛ راجع: مفرّج طوني، بنو المشروقي أصول وقروح، منشورات بيوغرافيا (جبيل - لبنان، ١٩٩٩) ص ١٩٧؛ مفرّج طوني، حصرون ٢٠٠١، منشورات بيوغرافيا (جبيل - لبنان، ٢٠٠١) ص ٦٧.

٢ - يوسف سمعان السمعاتي، المكتبة الشرقية، ١: ٥١٠؛ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٥٣.

٣ - راجع: الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤٠.

العاصي حيث أضاف إلى علومه اللاهوت، ومنه انتقل إلى القسطنطينية حيث درس اليونانية واقتبس العلوم التي كانت متاحة التحصيل في الدين والكتاب المقدس، وما لبث أن عاد إلى دير مار مارون حيث سيم كاهناً.

إشتهر هذا البطريرك باسم يوحنا مارون، نسبة إلى الدير الذي ترهب فيه،^١ وطغى هذا اللقب على لقب السرومي الذي حمله من قبل، يوم كان يُعرف بيوحنا السرومي، وعُرف أحياناً بيوحنا المسمّى مارون، وأحياناً بمارون فقط. لذلك خلط بعض المؤرخين بين يوحنا مارون هذا، البطريرك الأول للكنيسة المارونية، وبين مار مارون، مؤسس الكنيسة المارونية. كما خلط آخرون بين يوحنا مارون هذا وبين يوحنا سرومي آخر أحله مرقيانوس^٢ محلّ أوطيخا^٣ على كرسي القسطنطينية سنة ٤٥١ لقول هذا الأخير بالطبيعة الواحدة،^٤ بينما الثابت أنّ يوحنا مارون البطريرك كان بطريكاً بين ٦٨٦ و٧٠٧.

وهناك لقب آخر أطلق على يوحنا مارون من قبل مناوئيه، نادراً ما تحدّث عنه المؤرخون، هذا اللقب هو "مُؤَيِّزِين"، أي مارون الصغير، وقد أطلقه عليه خصومه القائلون بالطبيعة الواحدة بالمسيح، كما أطلقوا لقب "بَرِيهِم" على إبراهيم، ابن شقيقة

١ - ذكر الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٦٤، أنّه "تَمَّا يُسمّى يوحنا لولائه في يوم تنكّر القنيس يوحنا صابغ الربّ الواقع في ثلثي النخ، ويُسمّى مارون لأنّه لبس اسكيم للرهبانية في دير القنيس مارون الذي على النهر العاصي".

٢ - جاء في بعض النصوص هنا يوستينوس الأول، غير أنّ هذا لا يتناسب مع التاريخ، لأن يوستينوس الأول الذي عاش بين ٤٥٠ و٥٢٧، والذي وُلد في بديغا (إيليريا)، كان امبراطوراً بيزنطياً ٥١٨ - ٥٢٧، وقد حارب هو أيضاً المونوفيزيين ووضعه حدّاً للخلاف مع روما. أمّا الامبراطور في سنة ٤٥١ فكان مرقيانوس (امبراطور ٤٥٠ - ٤٥٧) كما جاء سابقاً.

٣ - أوطيخا EUTYCHÈS (٣٨٨ - بعد ٤٥٤): هو راهب يوناني الذي عاش في القسطنطينية وقال بالمونوفيزية، فحرّمه المجمع الخليقوني ٤٥١ كما ذكرنا سابقاً.

٤ - السمعتي، المكتبة للشرقية، ١: ٤٩٦؛ راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٥٢.

يوحنا مارون وزراعه العسكرية^١، وقد جاء في بعض كتبهم في مجال وصفهم للإضطهاد الذي أنزله بهم بعض أباطرة البيزنط لإلزامهم القبول بمقررات المجمع الخلقيدوني: "قارتفع مؤيزين وابن أخته برّيهيم"^٢.

يبدو أن يوحنا لم يكن له من الأسقاء سوى شقيقة واحدة، هي والدّة ابراهيم وقورش. فقد جاء في بعض المدونات أنه "بينما كان يتعلّم في القسطنطينيّة، عرف ب وفاة والديه، فعاد إلى وطنه وولّى ابن أخته "ابراهيم"^١ على تدبير البيت وأخذ "قورش"^١ وصعد إلى دير القديس مارون الذي على نهر العاصي"^٣، وهناك ترهّب قورش سائرًا على درب خاله^٤.

بعد أن أتمّ يوحنا مارون علومه وعاد إلى دير مار مارون، راح يعظ ويكتب مجاهدًا ضدّ البدع التي شاعت في ذلك الزمن، وقد حفظت لنا المدونات ما مفاده أنّه "هدى كثيرين إلى الإيمان القويم، وكان كثيرون يأتون إليه ويعملون بما يُشير عليهم به"^٥، وأنّه صنّف كتبًا عديدة في التربية واللاهوت والتاريخ وتفسير الكتاب المقدّس وفي الردّ على البدعة النسطورية وفي التأكيد على الطبعيّتين والمشيئتين في المسيح، حتّى اشتهر في بلاد الشرق قاطبة. وقد عُرف من مؤلّفاته:

١ - كان ليوحنا مارون شقيقة لها ولدان هما: ابراهيم، وقورش، وقد وُصف ابراهيم، وهو البكر، بأنّه كان صاحب رأي وشجاعة في الحروب، ولما انتقل خاله من دير حماة إلى سمار جبيل، كان متكلّمًا إمارة الجيش، أمّا قورش الذي يُسمّى أيضًا كروس أو كروسي، فحذا حذو خاله وخلفه على رئاسة الكرسي الأنطاكي. وسيأتي الحديث عنهما.

٢ - راجع: رشيد الخوري للشرطوني في كتاب: للدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، هامش ص ٥٤.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٥٤.

٤ - فهد الأبّاتي بطرس، بطارقة الموارنة وأساقفتهم، للحقبة ٦٨٥ إلى القرن ١٢، دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٥) ص ١١٣، عن ضوّ الأب بطرس، تاريخ الموارنة، ص ٣٦٢.

٥ - السمعاتي، المكتبة الشرقيّة، ١٩٩٩؛ راجع: الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤١.

الأول: "نافور"^١ القدّاس"، وهو مُثبّت في الصفحة ١٠٠ من الكتاب الخامس من كتب الحاقلائي* في "المكتبة الفاتيكانية"، وقد خُطّت النسخة المثبّطة في "كمبليني" قبرص سنة ١٨٤٦ يونانيّة الموافقة لسنة ١٥٣٥ ميلاديّة، وذكر الدويهي هذا النافور في كتابه "المنابر العشر"، الفصل الثاني، في "مؤلّفي النوافير الكاثوليكيّة" حيث قال: "يوحنّا المسمّى مارون الذي ارتقى بعد توفان بطريرك أنطاكية إلى ذلك الكرسي في سنة ٦٨٥ صنّف النافور الذي بدؤه - أمامك يا ملك الملوك وسيّد السادات -"^٢

الثاني: كتاب "إيضاح الإيمان". وهو الكتاب الذي أرسله يوحنا مارون إلى اللبنانيين من دير مارون على العاصي. والكتاب مثبّت بالسريريّة مع ترجمته العربيّة في الكتاب الرابع عشر من كتب الحاقلائي في "المكتبة الفاتيكانية"، وقد خُطّت النسخة المحفوظة سنة ١٣٩٢ كما يتبيّن من ذيل الكتاب الذي جاء فيه: "كان الفراغ من نسخ هذا الكتاب كتاب إيمان الكنيسة المقدّسة سنة ١٧٠٣ (يونانيّة توافق سنة ١٣٩٢ ميلاديّة) بيد رجل حقير خاطي اسمه الشّمّاس "يوسف غريب" من قرية اسمها ثمانية ومئة وثلاثين^٣ من عمل جبيل ساكن بقرية "بان" من "جبة بشرّي" وكان الفراغ منه في ٢٠ شهر شباط (فبراير)". وقد عثر "فرنسوا نو"،^٤ على نسخة من هذا الكتاب في المكتبة الوطنيّة بباريس خُطّت سنة ١٤٧٠ ونشرها بالسريريّة مع ترجمة فرنسيّة أواخر القرن التاسع عشر. وهناك نسختان في المكتبة البطريركيّة المارونيّة من هذا الكتاب نسخ إحداهما "الشدياق موسى" وأخوه "عيسى" إينا "الخوري

١ - النافور: عند المسيحيين، سرّ القربان المقدّس، والصلوات التي تُتلى عليه، والكلمة ذات أصول يونانيّة.

٢ - الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٥٠.

٣ - هذا الرقم كتب بالسريريّة، وهو إذ ذاك يعني: "حائل" موطن إبراهيم الحاقلائي، وهي من قرى قضاء جبيل من جبل لبنان.

٤ - فرنسوا نو: FRANÇOIS NAU: عالم كنسي بريطاني الأصل، نشر لبحثًا في نهاية القرن التاسع عشر وفي بداية القرن العشرين.

يوسف" من حاقل*، وقد اطلع عليها المطران جبرائيل ابن القلاعي* وكتب عليها بخط يده بعض تعليقات سنة ١٥٠٣؛ أما الثانية فظاهرة القِيم، ولكنها خالية من أي تاريخ بسبب تمزق صفحات من أول الكتاب ومن آخره، بيد أنه جاء في الصفحات الأولى الباقية باللغة السريانية: "باسم الله نأخذ في تدوين كتاب الإيمان المقدس الذي ألفه مارون المدعو يوحنا وكان بطريركا على مدينة الله أنطاكية وسائر الشام وسوريا وكان تأليفه بدير القديس مارون الطوباوي المتشع بالله". أما فاتحة ترجمة الكتاب العربية فجاء فيها: "باسم الله نبتي نكتب إيضاح الإيمان المقدس اعتقاد البيعة الرسولية الذي كتبه القديس يوحنا بطريرك أنطاكية في دير مارون على نهر العاصي بلد حماه وحمص وأورد ذلك إلى جبل لبنان ولأجل ذلك يسموا أهل الجبل المذكور موارنة على اسم الدير ويسمى يوحنا المذكور مارون هو أيضا على اسم الدير". وقد أفاد علماء متخصصون أن يوحنا مارون ألف هذا الكتاب في القرن السابع^١، وقد جمع في هذا الكتاب - الرسالة - من البراهين اللاهوتية والفلسفية وشهادات الوحي لأكثر الآباء القديسين لأخص أسرار الإيمان التي خالفها بدع ذلك العصر"، وقد قيل في هذه الرسالة: "لم تسمح قريحة بمثالها ولا نسج ناسج على منوالها" كما جاء في الشرطونية^٢ المحفوظة في دير اللويزة للرهبانية المريمية^٣.

١ - للنس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٥٠ - ٥١.

٢ - الشرطونية: كتاب يحوي الاحتفالات بالدرجات والرتب الكنسية التي يهبها الأسقف بوضع اليد. وقد وقف إبراهيم الحقلاني على كتاب للقديس يوحنا مارون في تفسير شرطونية الكاهن تكلم فيه على كهنوت المسيح والكهنوت في العهد الجديد وفروض الكهنة وختمتهم، ولعل هذا الكتاب هو نفسه الذي ذكره الدويهي هنا. راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، حاشية ص ٥٦ - ٥٧.

٣ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٥٦ - ٥٧.

الثالث: كتاب "في ردّ مزاعم أصحاب المشيئة الواحدة". وهو مثبّت في الصفحة ١٠٣ من الكتاب الرابع عشر للحاقلاني في المكتبة الفاتيكانية بعد كتاب "إيضاح الإيمان" وفاتحته: "ثم نكتب شيئاً من المباحث ردّاً على أصحاب بدعة الطبيعة الواحدة في المسيح وهم من يزعمون أنّ طبيعة كلمة الله البسيطة قد امتزجت واختلطت بطبيعة ناسوته فكانت فيه طبيعة واحدة...". إلى أن يقول: "قولوا لنا أيّها الإخوة الأبرار إنّ هذه الطبيعة التي تعتقدونها برّبنا من بعد الاتّحاد أهى مساوية للآب جوهرًا أم غير مساوية...". وهذا الكتاب أخفاه المطران توما الكفرطابي* الذي كان يسعى إلى تعليم ما التقطه من مزاعم تاريخ ابن البطريق* عن الطبيعة الواحدة وعن البطارقة والملوك الذين تمسّكوا بالمونوفيزيّة^١.

الرابع: كتاب "في ردّ مزاعم النساطرة"^٢، وهو مثبّت في الصفحة ١١٤ من الكتاب الرابع عشر للحاقلاني في "المكتبة الفاتيكانية" وفاتحته: "ثم نكتب قليلاً من كثير من ردّ مزاعم النساطرة...". إلى أن يقول: "قال بولس الرسول إنّ الله رضي عنا بموت ابنه".

الخامس: كتاب "في التريساجيون"، أي "النقيديسات الثلاثيّة": قدّوس الله قدّوس القوي قدّوس الذي لا يموت. وهو جواب على من يزعمون "أنّنا نعزو الصلب إلى الثالوث الأقدس إذ نزيد على النقيديسات - يا من صُلبت لأجلنا". وهذا الكتاب مثبّت في الصفحة ١٢٥ من الكتاب الرابع عشر للحاقلاني في "المكتبة الفاتيكانية"، ولكن بخطّ

١ - هذا ما جاء في الشرطونيّة المحفوظة في دير الوريّة للرهبانيّة المريميّة.

٢ - المذهب النسطوري، تابعه نسطوري، وجمعها نساطرة: نسبة إلى نسطور NESTORIUS (نحو ٣٨٠ - ٤٥١): بطريرك القسطنطينيّة، وُلِدَ في قيصرية سوريا، بطريرك ٤٢٨، قال بأنّهم في المسيح وأنكر على مريم لقب أمّ الله، حرّمه مجمع أفسس ٤٣١، أتباعه هم النساطرة أو الأشوريّون؛ راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة، فصل "الكنيسة الأثوريّة".

العبري^١ في كتابه "أوصررزري"؛ وكتاب يحوي "مجموعة رسائل بعث بها إلى الغير في معان مختلفة، من جملتها رسالتان برهن في إحداهما عن أنّ في المسيح طبيعتين إلهية وبشرية، وفي الثانية أنّ فيه مشيئتين^٢"، ونُسب إلى يوحنا مارون أيضًا كتاب في "الربط"، وكتاب في "الكمال"، وكتاب في "تفسير نافور مار يعقوب أخي يسوع"^٣.

وتفيد التواريخ المارونية القديمة التي وردت عند علماء الطائفة المارونية ومؤرخيها^٤، أنّ البطريرك يوحنا مارون كان في عداد الرهبان الذين حضروا جلسة الحوار الجدلي التي جرت في مجلس معاوية (خليفة ٦٥٧ - ٦٨٠)، حول المعتقد الكاثوليكي الصحيح، بين الأساقفة اليعاقبة وتلامذة مار مارون وأنصاره، في السنة الرابعة عشرة للملك قسطنطس الثاني^٥. ولما غلب أساقفة اليعاقبة على أمرهم في هذا

١ - إبن العبري (١٢٢٦ - ١٢٨٦): هو أبو الفرج غريغوريوس، وُلِدَ في ملطيا، من ألمع رجالات الأديب والعلم لدى السريان، هاجرت عائلته إلى أنطاكية بعد الغزو المغولي ١٢٤٣، ثم درس الطب والفلسفة في طرابلس لبنان على طبيب نسطوري، أسقف حلب على السريان المونوفيزيين ١٢٤٦، مفران الشرق ١٢٦٤، كتب في النحو والشعر والفلسفة واللاهوت، له مؤلفات قليلة بالعربية أشهرها "مقالة في النفس البشرية" وتاريخ مختصر الدول، وله بالمسيانية مؤلفات كثيرة منها "التاريخ الكنسي" و"منارة الأقداس"، تُوفِّيَ في مراغة (الزبيجان).

٢ - للدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٥٤ - ٥٥، عن الميمر لعبد يشوع.

٣ - راجع: للدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٥٥ - ٦١.

٤ - صغير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٤، عن: دريان المطران يوسف، أصل الجرجانة والمردة والموارنة، ص ١٣٨ غبريل الخوري ميخائيل عبد الله، تاريخ الكنيسة الأوطانية السريانية المارونية، م ١، (بعداً، ١٩٠٠) ص ٢٥٥ وما بعدها، فهد، حول كتاب الهدى، مرجع سابق، ص ٨٨.

٥ - كونستانتس الثاني (٦٤٢ - ٦٦٨) الذي قُتِلَ بمعتقد المشيئين في المسيح؛ ما يعني أنّ جلسة الحوار الجدلي التي جرت في السنة الرابعة عشرة لحكم هذا الملك، كانت سنة ٦٦٨، أي قبل أن يصبح يوحنا مارون أسقفًا كما سيأتي لناه. المؤلف.

الحوار، أمر معاوية بأن يدفعوا له عشرين ألف دينار في السنة لئلا يكفّ يده عنهم، فيتعبهم عندئذ أنصار القديس مارون^١.

يُوحَنَّا مَارُون أُسْقَفَ عَلَى جُبَيْلَ وَالْبَتْرُون

بينما كانت الخلافات والانقسامات على أشدها داخل الكنيسة في الشرق، وكانت موزعة بشكل رئيسي بين الكنيسة الأمّ الخلقيدونية من جهة، والقائلين بالطبيعة الواحدة أي المونوفيزيين من جهة ثانية، والقائلين بالمشيئة الواحدة أي المونوتيليين من جهة ثالثة، حصلت مواجهات عنيفة بين المسيحيين في الشرق. وكان المسيحيون من أهل البلاد، عرباً وسرياناً على العموم، ومنذ زمن بعيد، مناهضين للبابا ولالإمبراطور في آن، فكان جلهم يقول بالمونوفيزية التي عُرِفَت باليعقوبية نسبة إلى السرياني يعقوب البرادعي وهو من أبرز دعاة^٢. أمّا السبب الأول في اتّباع أهل البلاد لهذا المبدأ، فلم يكن نابعا من معتقد ديني بقدر ما كان مرده إلى دوافع قومية محلية معادية لبيزنطية، كما سبق وأشرنا. وانفردت الكنيسة المارونية بين الكنائس الشرقية بعدم الخلط بين القومية والإيمان.

بينما كان يوحنا مارون يجاهد بالفكر والكلمة من أجل الإيمان الأرثوذكسيّ المستقيم، كما أقرّ تعاليمه المجمع الخلقيدوني سنة ٤٥١، جاء إلى أنطاكية موفد بابويّ برتبة كردينال، وراح يدعو إلى الإخلاص للعقيدة الأرثوذكسية القائلة بالطبيعتين

١ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٤، حيث أورد الحاشية التالي: اكتشف هذا الحوار الجدلي العالم الألماني NOLDEKE، ونشره في المجلة الأسبوعية ZOMG، وقد عرّبه مقلّقا عليه الأب هنري لامنس في "المشرق" ١٨٩٩، ص ٢٦٥.

٢ - راجع الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

والمشيئتين. وكان البطريرك الأنطاكيّ إنذاك، مكارْيوس^١، مقيمًا في القسطنطينيّة، وكان من الذين قالوا بالمونوفيزيّة، وجمع حوله بعض الأتباع من الكنيسة الأنطاكيّة. في خضمّ ذلك الارتباك، كان الكرسي الرسوليّ قد عيّن نائبًا له على بطريركيّتي أنطاكية وأورشليم، أسقف "فيلاديلفيا"^٢ المعروف بيوحنا الفيلاديلفيّ، وقد جاء في براءة بعثها البابا مرتينوس (بابا ٦٤٩ - ٦٥٣) إلى الأسقف يوحنا:

ندعوك لأن تكون نائبًا لنا في هذه الأمصار الشرقيّة في جميع المقتضيات البيعيّة، فأسرع إلى إصلاح كلّ ما كان إصلاحه لازمًا وإلى إقامة أساقفة وكهنة وشمامسة في جميع المدن التابعة لبطريركيّتي أنطاكية وأورشليم، وإنّا نأمرك بذلك بموجب السلطان الرسوليّ الذي أولّنا الله إيّاه بواسطة بطرس زعيم الرسل^٣.

في الوقت نفسه، أرسل البابا مرتينوس تعميمًا إلى جميع الكهنة والأساقفة والشمامسة ورؤساء الأديار في بطريركيّتي أنطاكية وأورشليم أعلمهم فيه عن قرار مجمع لاتران* بتحريم مبدأ المونوفيزيّة، وعن إرساله إلى الفيلاديلفيّ نسخة عن مقرّرات مجمع لاتران ليطلعهم عليها، وجاء في التعميم:

إنّه بالسلطان الذي أولّني الله إيّاه قد أقيمت يوحنا الفيلاديلفيّ نائبًا لي في الشرق، فأناشدكم أن تُحسنوا الطاعة له، وأن تجانبوا الهرطقة، ولا سيّما "مكدونيوس" الذي غصب كرسيّ أنطاكية، و"بطرس" الذي تدخّل على كرسي إسكندريّة^٤.

١ - مكارْيوس: سُمّي بطريركًا على أنطاكية ٦٧١ - ٦٨٠، قال بالمشيئة الواحدة، أقام في القسطنطينيّة، حرّمه المجمع السادس ٦٨٠ وخلعه ونفاه إلى روما لتمرّده على المجمع المسكوني.

٢ - فيلاديلفيا: الاسم اليونانيّ لمدينة الأردن.

٣ - عن براءة البابا مرتينوس التي أثبتتها "لاباي" في المجلّد السادس من مجموعة المجامع، ص ٢٠؛ راجع: الديس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤١.

٤ - المرجع السابق.

إثر ذلك، أخذ المندوب البابوي يسعى، بمعاونة أسقف فيلادلفيا، من أجل تطهير داخل الكنيسة الأنطاكية من الخارجين على الفكر القويم للكنيسة المسكونية، مستعيناً ببعض أمراء الإفرنج الذين كانوا في الشرق، ومن بين هؤلاء أمير اسمه "أوجان البرنس"^١، كان قد بلغه عن أعمال يوحنا دير مارون وعن مدى تمسكه بالتعاليم المستقيمة للكنيسة، وقدرته على دحض البدع من خلال علمه ونشاطه وتوقّد ذهنه، فنصح هذا الأمير^٢ المندوب البابوي بأن يرقي الراهب يوحنا إلى الأسقفية. "فرّاه الكردينال المذكور^٣ إلى أسقفية البترون وجبل لبنان ليحافظ هناك على الإيمان الكاثوليكي وعلى الاتحاد بالكنيسة الرومانية"^٤. وقد ذكرت مراجع مونوفيزية أنّ تعيين يوحنا مارون أسقفاً على جبيل والبترون قد جاء بناءً على طلبه هو، وليس بناءً على اقتراح البرنس^٥.

-
- ١ - ذكر بعض المراجع أن لوجان البرنس هذا كان أميراً على أنطاكية. - راجع: الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤١.
 - ٢ - قيل أيضاً إنّ جميع الإفرنج المقيمين في أنطاكية قد نصحو المندوب البابوي بما نصحه به لوجان البرنس. - للسمعاتي، المكتبة الشرقية، ١: ٤٩٩.
 - ٣ - قابل: البطريرك بولس مسعد، لدر المنظوم، مرجع سابق، ص ١٤١ حيث جاء أنّ الذي رقي يوحنا مارون إلى الأسقفية إنّما كان يوحنا فيلادلفي بتفويض من البابا مرتينوس.
 - ٤ - فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص ١١٤، عن ضو الأب بطرس، تاريخ المولرنة، ص ٣٦٢.
 - ٥ - جاء في مخطوط منسوب إلى السريان المونوفيزيين مكتوب بالحرف الكرشوني ومحفوظ في المكتبة الفاتيكانية تحت رقم ٤٢٤ من القسم السرياني: "أنتم كلّكم سريان، وكان كرسيّ بلدكم لأنطاكية للسريان إلّا لما جارت ملوك الروم على السريان وقتلواهم قام مارون ووافق ملك الإفرنج الذي في أنطاكية، وكان اسمه لوجان برنس، وقال له - يا ملك الزمان نخاف على جبل لبنان أن تستمليه أمة الملكية إلى محقتهم فقل للكردينال الذي عندك والزّمه بكرسي مطران حتّى أمسك بعض الناس على أمانة للفرنجية إلّا أمانة يحوب فلا أنكرها - ، فكرسه مطران على البترون". راجع: فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص ١١٤؛ الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤١.

وجاء في بحث موثق حديث، أن يوحنا مارون أقيم أسقفًا على البترون سنة ٦٧٦، وثُبت من قبل النائب الرسولي لبطريركيّة أنطاكية وأورشليم، السيّد يوحنا مطران فيلادلفيا* الذي كان قد عيّنه الكرسيّ الرسوليّ نائبًا له سنة ٦٤٩، حفاظًا على النظام الكنسيّ في الشرق المسيحيّ. فأظهر الأسقف يوحنا مارون، بعد ارتقائه إلى الدرجة الأسقفية، غيرة متّقدة على حفظ الإيمان الكاثوليكيّ وتوطيد دعائمه ومناصرة تعاليم المجامع المسكونية. وتوصّل، بعلمه وتقواه، إلى هداية الكثيرين إلى الإيمان الحق^١.

ما يُمكن استنتاجه من ما جريات الأحداث تلك، أن تاريخ تعيين يوحنا مارون أسقفًا على جبيل والبترون، قد كان قبل سنة ٦٨٠، وهي السنة التي انتهى فيها عهد بطريكيّة مكاريوس على أنطاكية بعد حرمة من قبل المجمع المقدّس ونفيه إلى روما. وقد حدّد بعض مؤرّخي الكنيسة المارونية تاريخ تعيين يوحنا مارون أسقفًا على جبيل والبترون بسنة ٦٧٦.^٢

ما إن كان هذا التعيين، حتّى انتقل الأسقف يوحنا مارون إلى نطاق أبرشيّته، وجعل مقرّه أولاً في "سمار جبيل" على الساحل بين جبيل وطرابلس، ما يعني أن الوجود المسيحيّ كان قد تعزّز في تلك المنطقة قبل نهاية القرن السابع. ومن سمّار جبيل انتقل الأسقف بعد حين إلى قرية "كفرحي" في وسط بلاد البترون في شمال لبنان. وقد جاء في المدوّنة أن يوحنا مارون راح، يومذاك، "يجتهد في

١ - صفيّر، الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٠٤، استنادًا إلى: ASSEMANI J., BIBLIOTHECA ORIENTALIS,

T. I (ROMA, 1719) P. 499.

٢ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٦٢، قال: الدبس، الجامع المفصّل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤٢، حيث جاء أنّ ذلك التعيين حصل بين سنتي ٦٧٥ و ٦٧٦.

الوعظ والتبشير متجولا بغيره الرسل في أنحاء أبرشيته ولبنان، هاديا ومرشداً، وتمكّن من هداية الكثيرين من القائلين بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة إلى الإيمان الصحيح^١.

بيد أنّ نشاطات يوحنا مارون لم تقتصر، في تلك الحقبة الدموية من التاريخ، على أعمال الوعظ والإرشاد والكراسة، بل تعدتها إلى أمور السياسة والمقاومة العسكرية. فإنّ الأسلوب الذي اتّبعه خصوم الكنيسة الخلقيدونية بتوسّلهم العنف من أجل نشر عقيدتهم ومحاربة العقيدة الأرثوذكسية، قد حثّم على المتمسكين بهذه العقيدة المستقيمة توسّل المقاومة. أضف إلى ذلك ما كان جارياً من صراعات عسكرية متعدّدة الجوانب والأطراف، ليس أقلّها شأننا الفتح الإسلامي، وتسلبت العسكرية تاريا البيزنطية على أهل البلاد. لكلّ تلك الأسباب البالغة الخطر، فإنّ يوحنا مارون، وهو القائد الروحيّ للذين أضحوا، وفق تعاليمه، متمسكين بالمبادئ القيمة لتعاليم الكنيسة الخلقيدونية، بينما تمكّنت البدع من اختراق جناحها الشرقيّ في أنطاكية، قد وجد أن لا مفرّ من المقاومة المادية. فعين، وهو لا يزال أسقفًا، ابن أخته إبراهيم، قائداً زمنياً وعسكرياً، وكلّفه بناء جيش مقاوم من أتباع تعاليمه. بمعنى آخر، عينه أميراً على البلاد التي كانت تشكّل أبرشيته، وأناط به قيادتها الزمنية^٢.

وقال مؤرخون مونوفيزيون إنّ أتباع يوحنا مارون، و ابن أخته إبراهيم، قد تقوّوا في ذلك الوقت، وحموا أهل شمال لبنان من الجزية التي كان أتباع الأمبراطور

١ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٦٢؛ فهد، بطركة، مرجع سابق، ص ١١٤.

٢ - راجع: الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤٢، نقلاً عن السمعاني.

قد فرضوها على كلّ مَنْ لا يجاهر بمعتقدهم^١. وجاء في بعض المدوّات أنّه في تلك الحقبة، "اجتمعت حول المطران يوحنا مارون رعيّة كثيرة العدد تمكّنت من الاستيلاء على جبل لبنان والمناطق الجبلية من حدود قيليقيا وبلاد الأرمن حتّى القدس"^٢. كما جاء أنّ إبراهيم، قد "ساس الناس سياسة المقدّر ووسّع نطاق ملكه، وفي مدّة وجيزة، انضمّ إلى إمارته كثيرون من أسرى البيزنط وعبيدهم حتّى بلغ عددهم الآلاف، وكان لابراهيم في أيام السلم اثنا عشر ألف جنديّ يطوف بهم بلاد العرب والفرس من غير جزع"^٣.

يُوحنا مَـارُون

البطريّركُ الأنطاكيّ

تعدّدت الاجتهادات حول مكان انتخاب يوحنا مارون بطريركاً، وإن اتّفق جميعها على صحّة هذا الحدث^٤. وأشهر تلك الإجهادات هو القائل بأنّه في سنة ٦٨٥، شغل الكرسيّ الأنطاكيّ من بطاركتّه بسبب انتقال البطريّرك إلى القسطنطينيّة إثر سيطرة العرب المسلمين على أنطاكية. فلمّا توفّي البطريّرك الأنطاكيّ توافانوس،

١ - المخطوط المحفوظ في المكتبة الفاتيكانية تحت رقم ٤٢٤ من القسم المرياني، مرجع سابق، وقد جاء في هذا المخطوط: "مّا انتهى امتلاك الملكيّة إلى قرية لميون تميّز مؤيّرين وابن اخته بُريهم (مويرين وبريهم تصغير لمارون وإبراهيم كما كان يلقّبهما المونوفيزيون من باب السخرية كما ذكرنا سابقاً). عن الملكيّة ولحقوا اسمر جبيل (سمر جبيل)، وحملوا أهلها من الجزية التي حكم بها الملكيّة على كلّ من لا يتبعهم ويوافق على اعتقادهم، فالتحق حينئذ السريان وأهل لبنان بمارون ونجوا ممّا كانوا يخشون"؛ راجع: فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص ١١٦؛ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٨٢.

٢ - راجع: للدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٦٢؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ١١٤.

٣ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٦٢؛ إبراهيم الأسود، ذخائر لبنان، لمطبعة العثمانيّة بعبدا - لبنان، ١٨٩٦، بإصدار طوني مفرّج (بيروت، ١٩٧٠) ص ٩٤.

٤ - يُعتبر كتاب "الهدى" الماروني (مرجع سابق) للمرجع الأهم عن بطريركيّة يوحنا مارون، وقد ورد ذكره في هذا الكتاب: "يوحنا مارون البطريّرك الأنطاكي"، وسيكون لنا عودة إلى هذا الموضوع؛ راجع: داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٢٠.

الذي كان عيّنه المجمع المسكوني السادس^١، عيّن البابا كونون (بابا ٦٨٦ - ٦٨٧)^٢ مكانه، من دون مشورة الإكليروس الروماني، قسطنطين شماس كنيسة "سيرا قوزة"^٣، وأرسل له درع الرئاسة^٤. ولكن قسطنطين أساء السيرة وألقى الفتن والانشقاق، ما جعل البابا يصدر أوامره إلى عمال الملك بأن يقبضوا عليه ويسجنوه، ثم كتب إلى الإكليروس الأنطاكي بأن ينتخب بطريركاً، فقرر قسم من رؤساء هذا الإكليروس الذين لم يغادروا المنطقة، انتخاب بطريرك للكرسي الأنطاكي من بين الأساقفة الوطنيين الصامدين في البلاد، ليقود الرعيّة في ذلك الظرف العصيب، فانتخبوا المطران يوحنا مارون بطريركاً^٥.

أما الاجتهاد الثاني فهو القائل بأن ارتقاء يوحنا مارون إلى السدة البطريركية الأنطاكية قد حصل بتعيين مباشر من بابا روما. ويذكر أصحاب هذا الرأي أن يوحنا مارون، وهو لا يزال أسقفًا، قد التقى في طرابلس لبنان قاصد البابا سرجيوس الأول (بابا ٦٨٧ - ٧٠١)، الذي أخذه إلى روما حيث أحسن البابا استقباله، خاصة وأن ذلك البابا كان من أصل أنطاكي، ثم رقباه إلى مقام البطريركية الأنطاكية، و"شحه

١ - عُقد في القسطنطينية بين خريف ٦٨٠ وربيع ٦٨١، حرّم المونوتيلية، أي القول بالمشيئة الواحدة، وعزل بطريرك أنطاكية مكاريوس القائل بالمشيئة الواحدة وعيّن مكانه توافانوس.

٢ - في هذه الحقبة كان في الكنيسة الرومانية اثنان من الببوات في الوقت نفسه، الأول كونون هذا، والثاني ثيودورس، وهو معارض للبابا كونون.

٣ - سيراقوزة أو ميرا قوزة SIRACUSA : مدينة ومرفأ على شاطئ صقلية للشرقي، أمته الإغريق حوالي ٧٣٤ ق.م.، كانت المدينة عاصمة الجزيرة، مسقط رأس أرخميدس المهنس (٢٠٢ ق.م.)، حاصرها زيادة الله الأغلب براً وبحراً وأحرق مراكبها وقتل جماعة من أهلها ٨٢٧.

٤ - درع الرئاسة: هو عبارة عن قطعة من الكتان الأبيض النقي، توضع في الحلق، ويسفلها صفحة من رصاص وصليب. أما الأبيض فيرمز إلى الطهارة، والرصاص إلى ثقل الوزنة، والدرع لا يقدسه البابا في الشرق إلا للبطريركة، ولأما في الغرب للبطريركة ولجميع الأساقفة.

٥ - راجع: الدريبي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٥٣ - ٥٤.

بالدرع المتضمنة كمال الرئاسة، وسلّمه التاج والخاتم والعصا، وأنعم عليه بجميع الامتيازات التي لأسلافه. أما البطريك يوحنا، فودّع الحبر الأعظم حينئذ، وعاد إلى أنطاكية، وراح يسعى لاستتصال بدعة "مكارْيوس"، وصنّف ميمراً* في الردّ عليه، واستمال الكثيرين من اليعاقبة، وبنّى الاعتقاد بالطبيعتين والمشيئتين، ثمّ توجّه إلى جبل لبنان، فأكرم اللبنانيون ملقاه وسرّوا به^١. غير أنّ باحثين كنسيين قد عارضوا هذا الاجتهاد^٢ الذي قابله اجتهاد ثالث في أمر انتخاب يوحنا مارون بطريكاً، يقول بأنّ "أساقفة الموارنة قد اجتمعوا في لبنان واختاروا بطريكاً أنطاكيّاً عليهم". غير أنّ أصحاب هذا الرأي، لا يجزمون في صحّة وجهة نظرهم هذه، بل يوردونه من باب الترجيح، وحجّتهم في ذلك "صمت المؤرّخين اليونان واللاتين عن ذكر يوحنا مارون وخلفائه في سلسلة بطاركة أنطاكية"^٣. غير أنّ بطاركة أنطاكيين آخرين قد غاب ذكرهم عند المؤرّخين اليونان واللاتين، ما يجعل صحّة هذا الرأي واهية، خاصّة وأنّه لم يكن هناك بعد "أساقفة موارنة" في ذلك التاريخ في لبنان أو في غير لبنان، ذلك أنّ الأبرشيات المارونيّة وأساقفتها مستجدّات لاحقة لتاريخ صيرورة يوحنا مارون بطريكاً أنطاكيّاً.

وهناك اجتهاد آخر ربط تاريخ إقامة يوحنا مارون بطريكاً بتاريخ الانفصال الذي حصل في الشام بين الملكيين الموالين للروم، والموارنة أتباع القديس مارون، في العام

١ - الدريبي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٧٨، عن زجلّات ابن القلاعي.

٢ - السمعاوي يوسف سمعان، مكتبة الناموس للقانوني والمدني، المجلّد الأوّل، ص ٥٠٣، والمجلّد الرابع، رأس ٢٠، ص ٤٠٤؛ راجع: الأسود إبراهيم بك، تنوير الأذهان في تاريخ لبنان، مطبعة القيس جالوجيوس (بيروت، ١٩٢٥)؛ راجع: الدريبي، تاريخ الطائفة المارونيّة، مرجع سابق، حاشية الصفحة ٨٨.

٣ - راجع: النيس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤٤.

الأول أو الثاني من خلافة يزيد بن معاوية (٦٨٠ - ٦٨٣). غير أن هذا الاجتهاد ليس موثقًا ولا مدعومًا بأيّ قرائن^١.

وسط كلّ هذه الاجتهادات، يبقى الالّبت، برأينا، ما جاء في أقدم وثيقة مارونية تاريخية عن البطريرك الأول القديس يوحنا مارون، في كتاب "الهدى" الذي أشرنا إليه سابقًا، وهو دستور الموارد وناموسهم في العصور الوسطى، حيث تذكر هذه الوثيقة صراحةً، في الفصل الثاني من القسم الأول، وفي معرض الكلام عن قانون الإيمان، أسماء "فرق" المسيحيين الخمس، فنقول ما حرفيته: "قأول فرقة ظهرت من الفرق المشهورة، الفرقة المنسوبة إلى أريوس^٢. ثمّ النسْطورية وهي المنسوبة إلى نسْطور^٣. ثمّ اليعقوبية، وهي المنسوبة إلى يعقوب الذي كان من مدينة تُدعى بردعا، ولذلك يُقال له يعقوب البرادعي^٤. ثمّ الملكية المنسوبة إلى الملك قسطنطين بن قسطنطين بن هرقل^٥. ثمّ المارونية وهي منسوبة إلى مارون يوحنا بطريرك أنطاكية العظمى^٦".

ويقول المؤرّخ والباحّث الأب د. بولس صفيّر في هذا المجال: "هذه الوثيقة، التي ترجع إلى سنة ١٠٥٩، لا يسبقها زمنيًا، إضافةً إلى كلام التلمحري^٧، إلّا إشارة

١ - راجع: صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

٢ - حول أريوس والأريوسية راجع: الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

٣ - حول نسْطور والنسْطورية راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٤ - حول يعقوب البرادعي واليعقوبية المنسوبة إليه، وهي القول بالطبيعة الواحدة أي المونوفيزية راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٥ - راجع ما جاء حول الملكيين والملكاتيين في حاشية سابقة من هذا الكتاب.

٦ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٥، عن: فهد الأخ بطرس تلمر، كتاب الهدى (حلب، ١٩٣٥) ص ٣٧

- ٣٨، وقد اعتمد الناشر المخطوط للفتيكاني السرياني، رقم ١٣٣، مقارنةً بنصّوصه بنصّوص عدة مخطوطات أخرى قديمة، وأما تاريخ نسخ هذا المخطوط فيعود إلى ١٤٠٢.

٧ - سيأتي الكلام حوله لاحقًا .

واضحة وأكيدة وردت في صلب قانون إيمان النصيريين، على لسان ابن نصير ...
في القرن التاسع.... ففي نصوص... "الأذان"، يذكر ابن نصير (بين) "اللعنات":
"... واجعل اللعنة على يوحنا مارون البطريرك الملعون^١".

البطريرك يوحنا مارون في لبنان

إذا كانت اجتهادات المؤرخين قد اختلفت حول كيفية اعتلاء البطريرك يوحنا
مارون السدة البطريركية، فإنّ الباحثين لم يختلفوا حول حقيقة أنه، بعد أن أصبح
بطريركاً بوقت قصير، قد جعل مقرّه في لبنان.

ما أن تسنّم البطريرك يوحنا مارون الأول سدة البطريركية الأنطاكية، حتّى
عقد يوستينيانوس الثاني^٢ المجمع البندكتي سنة ٦٩٢، وقد حضر ذلك المجمع البطريرك
جاورجيوس الثاني المسمّى على أنطاكية من قِبل القسطنطينيّة حيث كان يقيم، وقد
قال المجمع بالمشيئة الواحدة. وإذ رفض البابا سرجيوس الأول الأنطاكي (٦٨٧ -
٧٠١) التوقيع على مقرّرات ذلك المجمع رغم محاولة إكراهه على ذلك من قِبل
الأمبراطور، وهو البابا الذي عيّن أو ثبتّ البطريرك يوحنا مارون، رفض
يوستينيانوس الثاني بدوره تلك المقرّرات، وحاول إرسال من يعتقل البابا والبطريرك،
إلا أنّ مقاومة "الشُرط في إيطاليا لبعثة الأمبراطور حالت دون اعتقاله"^٣، بيد أن

١ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣٠٥، عن: الاتني سليمان أفندي، كتاب الباكورة السليمانيّة في كشف
أسرار الديانة النصيريّة (٧.٤)، ص ٤٥.

٢ - يوستينيانوس الثاني (٦٦٩ - ٧١١): أمبراطور بيزنطي ٦٨٥ - ٦٩٥، و ٧٠٥ - ٧١١، حارب البلغار والأرمن، أطلقت بحكمه ثورة
عسكريّة بقيادة ليونيتوس ٦٩٥، استعاد الحكم بمساعدة البلغار ٦٩٥.

٣ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، ص ٧٩.

يوحنا مارون، الذي كان يومذاك في أنطاكية، التي كانت تحت الحكم العربي الإسلامي، قد اضطره إلى الانتقال إلى دير القديس مارون على ضفاف العاصي^١. ومن هناك، راح البطريرك المقاوم يكتب ويدبج مدافعاً عن المعتقد السليم، وقد بعث برسالة من ديريه مع بعض الرهبان إلى جبل لبنان، كتبها باللغة السريانية، جاء في مقدمتها:

لقد رأى مارون أنّ الأجدد به أن يغيّر مكان كرسيه على أن يتهاون في أمر أمانة الآباء الموجهين الذين ألقوا مجمع نيقيا والمجامع التي ثبتت مقرراته. فرحل عن أنطاكية إلى دير في ولاية مدينة حماة، على شاطئ النهر العاصي، وكان فيه ثمانمائة راهب أطهار مختارين، وهناك ألق هذه الرسالة وكتبها وأرسلها إلى جبل لبنان المقدس.

ويذكر مؤرخون أنّ الإمبراطور يوستينيانوس الثاني قد أمر قائد جيشه ليونيتس^٢ بالسّير في طلب البطريرك يوحنا مارون ليأتيه به مكبلاً بالقيود، ولكن القائد الذي كان من المستقيمي الإيمان، قد أحجم عن تنفيذ أمر سيده، متحجّجاً بأنّ البطريرك محاط بأتباع كثيرين يصونون كرامته بدمائهم، وبأنهم لن يسمحوا بتسليمه مهما كان الضغط عليهم قاسياً. بيد أنّ الإمبراطور قد غضب على ليونيتس لتلكسّته عن تنفيذ أوامره، فأمر بسجنه. وأشار إلى قائديه "موريق" و"موريقيان" بأن يقودا جيشاً رومياً إلى البلاد السورية متظاهرين، من باب الخديعة، بأنهما يقصدان قتال العرب، ولكن تلك الخديعة لم تتطلّ على البطريرك الذي أرسل إلى ابن أخته إبراهيم رسولاً يدعوه

١ - ذكر مؤرخون أنّ إكليريوس القسطنطينية الذي كان يقول يومها بالمشينة الولعده، هو الذي حرّض يوستينيانوس الثاني ضدّ البطريرك يوحنا مارون. راجع: الشدياق طنّوس، أخبار الأعيان في جبل لبنان، نشر فؤاد البستاني، الجامعة اللبنانية (بيروت، ١٩٧٠)، ٢: ٢٤٧.

٢ - ذكره بعض المراجع خطأ باسم لاونديوس.

إلى التهيؤ للدفاع، وسارع هو نفسه بالانتقال من دير مار مارون إلى "سمار جبيل" من الساحل الشمالي اللبناني.

قد يتساءل كثيرون عن كيفية تمكن فرقة الجيش البيزنطي من الدخول إلى منطقة كان يسيطر عليها المسلمون العرب في ذلك التاريخ، بيد أن خلفيات السرّ معروفة من قِيل كافة المؤرخين، وخلاصتها أن اتّفاقاً كان قائماً بين الإمبراطور يوستينيانوس الثاني البيزنطي وبين الخليفة عبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥) قضى بأن يدفع الخليفة للإمبراطور ضريبة معيّنة مقابل أن يمنع الإمبراطور أهل البلاد من القيام بأيّ تمرّد على الخلافة^١، فكان من الطبيعيّ، إنذاك، أن يسهّل العرب ليوستينيانس أمر مرور جنوده لضرب أتباع يوحنا مارون، خاصّة وأنّ الخلافة العربيّة كانت متعاطفة مع المونوفيزيّين من أهل البلاد، وهم على أشدّ عدااء للبطريرك يوحنا مارون وأتباعه.

لما وصل موريق وموريقيان على رأس جيشهما إلى دير مار مارون في ربيع سنة ٦٩٤، لم يجدا البطريرك، "قحماً بجيوشهما على الرهبان الذين قتل منهم الجيش خمسمائة راهب، ودمّر الدير تماماً^٢. ومن هناك تحول الجيش إلى "قنسرين" والبلدات

١ - البلاخري، فتوح، طبعة دي غويه، مرجع سابق، ص ١٦٠؛ أنساب الأشراف، نشر S. D. F. GOITEIN الجزء الخامس (القدس، ١٩٣٦) ص ٢٩٩ - ٣٠٠؛ راجع: لشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٤٦ - ٢٤٧.

٢ - ذكرت مراجع أخرى أنّ الملكيّين الموالين للأمويين أخذوا يسعون عند الخلفاء حتّى علنواهم على انتخاب بطريرك. وفي سنة ٧٤٢ سمح لهم الخليفة هشام بن عبد الملك بن مروان (٧٢٤ - ٧٤٢) بانتخاب راهب يدعى إسطفان بطريركاً، ولكنه لم يمش سوى سنتين، فسمح لهم الخليفة مروان بن محمد بن مروان في سنة ٧٤٦ بانتخاب بطريرك اسمه توفيلس بن قنبرة، ولما كان الموارنة قد استكلوا تماماً وانتخبوا بطريركهم من دون إذن الخليفة ولم يشتركوا في الانتخابين المذكورين، اتفق ابن قنبرة مع الخليفة على إخضاعهم عنوة، فوضع مروان تحت تصرف البطريرك ابن قنبرة جيشاً ذهب به إلى دير مار مارون لكبح جماح الموارنة. - راجع: داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٦، عن ابن العربي، المقالة العشرة، فصل ٢٢.

المجاورة لها على ضفاف العاصي، فقتل جنوده الأهالي من أتباع يوحنا مارون بحدّ السيف ونهبوا المساكن والكنائس، ولم يعفوا عن أحد من أولئك الأتباع القاتلين بالطبعتين والمشيتتين، ووصل الجيش إلى طرابلس، فخاف الأهالي وراحوا يعلنون عن التزامهم بما يأمر به الأمبراطور، فضرب العسكر خيامه ما بين "أميون" وقرية "الناوس" على شاطئ الكورة من أعمال شمال لبنان، وراح القائدان ومعاونهما يستقبلون أعيان تلك النواحي الذين جاؤوا حاملين الهدايا ومظهرين التعاون والترحيب، مقابل الأمان، فكان لهم ما طلبوا^١. بيد أنّ الأهالي وقعوا في حالة هلع بعدما بلغهم خبر المذابح التي نفّذها أولئك البيزنط بأبناء جلدتهم على ضفاف العاصي، فراحوا يستعدّون للمقاومة وسط الرعب^٢.

في هذا الوقت بالذات، جرى ما لم يكن في الحسبان. فإنّ القائد البيزنطيّ ليونيتس الذي كان اعتقاله الأمبراطور يوستينيانوس الثاني في القسطنطينيّة بسبب رفضه قيادة الحملة على البطريك يوحنا مارون وأتباعه، قد تمكّن من قيادة انقلاب عسكريّ على الأمبراطور، فجدع أنفه ونفاه إلى بلغاريا وجلس على العرش. وقد وصلت أخبار هذا الانقلاب إلى موريق وموريقيان وسائر قادة الجيش البيزنطيّ المرابض قرب طرابلس، فوقع في بلبلة. والخبر نفسه الذي نقله على وجه السرعة رسول من قيلّس ليونيتس إلى البطريك يوحنا مارون، أدّنا له بمحاربة الجيش البيزنطيّ، شجّع

١ - يذكر مؤرّخون محلّيون أنّه لدى وصول الحملة للبيزنطيّة إلى محيط طرابلس، "تدهش منهم ساكنو الكورة وخضعوا لربهم خوفاً ورهبة، ولمّا ضربوا خيامهم ما بين أميون والناوس وردت لاستقبالهم أكابر تلك النواحي وقبلوهم بالترحيب وقتموا لهم العلاف والعلايق وطلبوا منهم الأمان واستمهلوهم لينما يتكلمون مع الأمراء والمقّمين في شأن أداء الطاعة فلجأوهم إلى سؤلهم وقتعهم بالأمان رغبة في الطاعة". لشدياق، أخبار الأعيان، ١: ٢٤٨.

٢ - راجع: الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، ص ٨١.

رجال البطريرك على مهاجمة العساكر، "فتدفقوا من الجبال على الأروام اندفاق الماء المنهمر والغيث المنحدر فقابلوهم حتى قتلوا أكثرهم وانهزم الباقون شرّ هزيمة"^١. وجاء عند بعض المؤرخين أن موريق قد قُتل في تلك المعركة ونُفن في أميون حيث أُقيمت كنيسة على ضريحه، أما موريقيان فحُمِل جريحًا إلى "شويته" في عكار حيث لاقى حتفه وأُقيمت على ضريحه كنيسة أيضًا^٢.

وذكر مؤرخون أنه منذ ذلك الوقت شاعت نسبة الملكيين على الذين انصاعوا لجيش الأمبراطور في ساحل الكورة، ونسبة الموارنة على الذين ثبتوا في طاعة يوحنا مارون^٣. إلا أن باحثين أكثر شمولية وجدوا أن نسبة ملكيين قد جاءت صفة لا تباع الأمبراطور البيزنطي مرقيانس (أمبراطور ٤٥٠ - ٤٥٧) والمجمع الرابع الخلقيدوني الذي حرّم أوطيخا، وأن أول من كتب هذه النسبة هو "نيونوسيوس بن صليبيا" سنة ١١٦٠ في شرحه لليتورجيا^٤. وفي رأينا أن نسبة الملكيين لم تكن لفئة واحدة عبر حقب التاريخ، كما ذكرنا في مجال سابق، بل هي أُطْلِقَتْ في حقبات متعدّدة على كلّ فئة كانت تتبع رأي الأمبراطور، علمًا بأن آراء الأباطرة لم تكن متماثلة، فمثلاً أُطلق لقب الملكيين أحيانًا على جماعة تبعت أمبراطورًا قال بالمشيئة الواحدة، كذلك أُطلق في أحيان أخرى على من اتّبعوا أمبراطورًا قال بالإيمان

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٨٠ - ٩٠، بالاستناد إلى مؤرخي اليعاقبة؛ وقد أشار الخوري يوسف العاقوري الذي صار بطريركًا فيما بعد إلى هذه الواقعة في زجلاته؛ راجع: الشديق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٤٨، حيث جاء أن أمراء المردة ومقّميهم قد اشتركوا بشكل رئيسي في تلك المعركة إلى جانب إبراهيم.

٢ - فهد، بطارقة، مرجع سابق، ص ١١٥ - ١١٦، عن الدويهي، للشرح المختصر، ص ١١٦؛ الدبس، تاريخ سوريا، ٥: ١٢١ - ١٢٢.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٨٢؛ الشديق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٤٨.

٤ - السمعاني، المكتبة الشرقية، مرجع سابق، ١: ٥٠٨.

الأرثوذكسيّ المستقيم. ولا يمكن اعتبار أنّ الذين نسميهم اليوم ملكيّين، هم أنفسهم من عُرفوا بالملكيّين في أيّ زمن من التاريخ، ذلك أنّ أتباع هرقل، وأتباع يوستينيّانُس الثاني كانوا ملكيّين، ولكنهم لم يكونوا أرثوذكسيّين، بل قالوا بما قاله الملك من مبدأ المشيئة الواحدة، بينما الملكيّون قبلاً وبعداً، هم أصحاب العقيدة الأرثوذكسيّة الخلقيدونيّة القائلة بما قاله وبما قاتل من أجله يوحنا مارون.

إنّ ما يصحّ اعتباره في خلال هذه المرحلة من التاريخ، أنّ التسميّتين اللَّتين ظهرتَا في لبنان بعد معركة أتباع يوحنا مارون ضدّ موريق وموريقيان، هما تسميتا الملكيّة والمردة، ولم تكن التسميتان للدلالة على اختلاف ديانة أو طقس، كما تهيّأ لبعض الباحثين، بل للدلالة على موقع مدنيّ فقط. ذلك أنّ الذين تمرّكوا على الأمبراطور، سُمّوا مردّة، بمعنى عصاة، وأمّا الذين لبثوا في طاعة الأمبراطور، أي الملك، فسُمّوا ملكيّين. ويعزّز هذا الرأي أنّ الآباء جميعاً من القرن الرابع إلى القرن التاسع، لم يذكروا البتّة تسمية الملكيّين، بل كانوا يذكرون تسمية "الكاثوليكيّين" وتسمية "السندوسيّين"^١، نسبة إلى "السينودوس".

على أيّ حال، فقد كانت المعركة بين أتباع يوحنا مارون وبين جنود الأمبراطور يوستينيّانُس الثاني بقيادة موريق وموريقيان، بمثابة مفصل أساسيّ في تاريخ الكنيسة المارونيّة في لبنان. ذلك أنّ يوحنا مارون بقي بطريركاً على أنطاكية وسائر المشرق، ومن اعترف ببطريركيّته صار مارونياً، وبه بدأت سلسلة بطاركة استمرّت حتّى اليوم من دون انقطاع. وبذلك نشأت قوّة أساسيّة في الجبل اللبنانيّ، انتظمت في هرميّة إكلييريكيّة معزّزة بما يشبه التنظيم العسكريّ. ومن هذه الكنيسة، شعباً

١ - راجع: السمعاني، المكتبة الشرقيّة، ١: ٥٠٨؛ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونيّة، ص ٨٣؛ الأسود، ذخائر لبنان، ص ٩٧ - ٩٩.

واكليسوساً، نشأ ما أصبح يُعرف في ما بعد بالمردة. وقد عرف هؤلاء أمراء وقادة وأعيان، وانتشروا بشكل أساسي في الجبال والسهول الممتدة بين عكار شمالاً ونهر بيروت جنوباً، وكان انتشارهم بحسب الظروف يضيق ويتسع ليصل إلى البقاع شرقاً وإلى الساحل غرباً. وقد جاء في أبحاث لعلماء وباحثين محدثين حول الموارد أنهم "منذ ذلك الحين أخذت تظهر في مجتمعهم تلك الخصائص التي جعلت منهم أمة جبلية مستقلة منعزلة عن سائر الطوائف التي كانت تقطن هذه المنطقة من الأرض".^١

كفَرَحَي

بعد أنطاكية

لم يكن انتصار البطريك يوحنا مارون على الجنود البيزنط في معركة أميون نهاية لجهاده، إنما كانت تلك المناسبة بداية لتنظيم كنيسته الوطنية التي تميّزت، في الوقت نفسه، بالاستقلالية القومية عن الغرب، وبالتمسك الشديد بتعاليم الكنيسة الجامعة وبالتوجيهات الروحية لرؤسائها في روما. فبعد معركة الكورة، عاش البطريك يوحنا مارون ثلاثة عشرة سنة مليئة بالإنجازات. وكان أول ما حققه بعد رسوخ دعوته في شمال لبنان، أنه فصل أتباعه عن الشيعة المونوفيزية القائلة بالطبيعة الواحدة متحدّياً بذلك السريان من أبناء جلدته ومن ورائهم الخلافة الإسلامية التي كانت تدعم هؤلاء، كما فصلهم عن الشيعة المونوتولية القائلة بالمشيئة الواحدة، متحدّياً في الوقت نفسه كل من يدعم هذه البدعة من الأباطرة والقادة البيزنط. لذلك قال فيه باحثون محدثون إنه قد استطاع بدهائه أن يرد خليفة المسلمين باليد الواحدة،

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

وأمبراطور الروم بالأخرى^١. وفي الوقت الذي راح ينظّم فيه شؤون رعيّته الدينيّة والزمنيّة، مقيمًا الكهنة والوكلاء البطريركيّين ليدرّوا شؤون أبرشيّات أنشأها في المراكز الرئيسيّة من مناطق سيطرته، ومشرفًا على التنظيمات الزمنيّة التي أناطها بابراهيم ابن شقيقته، الذي سيكون من سلالته أمراء ومقدّمون يقودون الشعب عبر حقبة طويلة من التاريخ، دعا هذا البطريرك القائد أتباعه إلى إنشاء مركز للبطريركيّة بديل عن أنطاكية التي أصبح العود إليها مستحيلًا^٢، وعن دير مار مارون العاصي الذي دكّه جند يوستينيّانُس الثاني، فكان إنشاء دير مار مارون كفرحيّ شرقيّ البترون، الذي قيل إنّ هذا البطريرك قد نقل إليه هامة القديس مارون^٣،

١ - المرجع السابق.

٢ - يحمل اليوم لقب "بطريرك أنطاكية"، إضافة إلى البطريرك الماروني، بطاركة للروم الأرثوذكس، والسريان المونوفيزيّين الذين يُعرفون بالسريان الأرثوذكس ويُلقَّبون باليعاقبة، والسريان الكاثوليك الذين انشقّوا عن المونوفيزيّين، و للروم الكاثوليك الذين انشقّوا عن الروم الأرثوذكس، وقد أقام اللاتين بخلال المهود الصليبيّة بطريركا لهم حمل أيضًا لقب الأنطاكي.

٣ - بقيت الهامة - النخيرة هذه في مكانها إلى سنة ١١٣٠ فنقلها أحد الرهبان البنديكثيّين إلى مدينة "قولينو" من أعمال إيطاليا حيث أنشئت كنيسة على اسم القديس مارون في ظاهر المدينة كان تكريسها ونقل الهامة إليها في الثامن عشر من آب (أغسطس)، ولمّا انتشر ذكر القديس مارون في تلك النواحي وقصد الناس زيارته من الامكن البعيدة عتّوا له ذلك التاريخ عيدًا، ومنح رؤساء البيعة غفران ٢٠٠ يوم لكل من زار تلك الكنيسة في يوم العيد. ولمّا "لوقا" أسقف "قولينيو" من غلاة المكرّمين للقديس مارون، نقل تلك الهامة - النخيرة إلى نفس المدينة سنة ١١٩٤ وجعلها في كنيسة الاسقفية، حيث صاغ لها المؤمنون تمثالاً من فضة أودعوا الهامة فيه. ونقل العيد إلى العاشر من آذار (مارس) وهو اليوم الذي تمّ فيه تكريس الكنيسة. وعندما رسم الأسقف بولس إميل مسعدة مطرانًا وعين نائبًا بطريركيًا على بلاد البترون سنة ١٩٨٦، ركّز أولى اهتماماته على ترميم دير مار يوحنا مارون الذي كان تعرّض للخراب وأعيد بناؤه مرارًا عديدة عبر التاريخ، وانتهت أعمال الترميم في العام ١٩٩٦. بعد ذلك راح المطران مسعدة يسعى من أجل استعادة نخيرة رأس مار مارون من إيطاليا ليمدها إلى دير كفرحي. وإثر مراسلات متلاحقة بين المطران مسعدة وبين أسقف فولينيو "أردوينو برتولمو"، كتب هذا الأخير إلى المطران مسعدة في ١٣ شباط (فبراير) ١٩٩٩ يشرح أنّه سيرجع المسؤولين الكنسيّين والمجالس الأبرشية ومديرية الآثار الإيطالية، لافتًا إلى أنّ منطقهم قد تعرّضت للتدمير بفعل زلزال سنة ١٩٩٧، ووعد بأنّه سيسعد إلى البحث عن النخيرة. وتاريخ لاحق أبلغ مطران فولينيو المطران مسعدة أنّه عثر على النخيرة وكانت موقّعة ومختومة بالشمع الأحمر، وبعد استئذان المراجع المختصة تمّ تصوير النخيرة فوتوغرافيًا وإرسال صور عنها إلى لبنان. وبعد مفاوضات تمّ الاتفاق على إرسال قسم من النخيرة ضمن تمثال من البرونز يمثل راهبا رومانيًا كالذي وضعت فيه أجزاء باقي

"قاصداً من ذلك أن ينتشر اسم هذا القديس ويُكرّم في جميع جهات البلاد، واستحسن أن يُلقب أهل تلك النواحي بالموارنة تبرّكاً بهذا الاسم"^١، وقد عيّن البطريرك يوحنا مارون، منذ ذلك، يوم الخامس من شهر كانون الثاني (يناير) عيداً للقديس مارون، وهو يوم تكريس كنيسة دير كفرحي على اسمه^٢.

وبرأينا، أنه منذ ذلك التاريخ، قد نشأت الكنيسة المارونية بكلّ أبعادها. وأن الموارنة، على العموم، لم يعرفوا بهذه الصفة بشكل عام وشامل إلا بعد نشوء كنيستهم هذه.

بهذا التنظيم، أوجد يوحنا مارون المؤسّستين الروحية والزمنية اللّتين كانتا الشرط الأساسيّ من أجل البقاء. ومن يطالع تاريخ لبنان يجد أنه من الصعب تصوّر نشوء وطن لبنانيّ بالشكل المميّز الذي عرفه العالم، لولا إنجازات ذلك البطريرك الجليل الذي يُعتبر عن حقّ، واحداً من أبرز مؤسّسي الكيانات في التاريخ.

أمّا الأمبراطور البيزنطيّ الذي كان أرسل الحملة العسكرية لضرب يوحنا مارون وجماعته بقيادة موريق وموريقيان، وهو يوستينيّانُس الثاني الذي أصبح يُعرف بالأخرم، أو بالمجدوع الأنف مذ جدد ليونيتوس أنفه لما انقلب عليه، فقد تمكّن وهو

الذخيرة في في إيطاليا، وقد أرسل التمثال المحتوي على الذخيرة بواسطة أمانة سر الفاتيكان إلى السفارة البابوية في لبنان، واستلمتها البطريركية المارونية بواسطة المطران مسعدة في ١٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٨، وحفظت الذخيرة في مركز الأمانات في الكرسي البطريركي، ثم تمّ نقلها إلى كنيسة الكرسي الأسقفي في دير مار يوحنا مارون في كفرحي في احتفال كبير.

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ١٩٠. ذكر باحثون أنّ ما نُقل من رفات للقديس مارون إلى دير في كفرحي إنّما كان الجمجمة فقط لذلك أطلق على الدير أولاً اسم "ریش مارون"، وهي عبارة سريانية تعني "رأس مارون".

٢ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ١٩٠؛ فهد، بطارقة، مرجع سابق، ص ١١٦، عن الدويهي، الشرح المختصر مع ترجمته لللاتينية، ص ٢٥.

في منفاه من التحالف مع ملك البلغار في سبيل استعادة عرشه، فسير معه البلغاري جيشًا كبيرًا إلى القسطنطينية سنة ٧٠٥، مكّنه من الظفر بخصومه ومن القبض على ليونيتس وتيبريوس^١ اللذين قطع رأسيهما واستقلّ بالعرش. وتذكر المدونات أنّه إثر ذلك قام بعض خصوم الموارنة بمحاولة إثارة يوستينيانس الثاني ضدّ يوحنا مارون قائلين إنّهُ فتك بجيوش الروم وقتل قاداته ونكّل بهم غاية التكيل، فلا بدّ من الاقتصاص منه، غير أنّ الأمبراطور لم يُعر كلامهم أنّا صاغية، لأنّه "بعد عودته إلى القسطنطينية واستعادة ملكه نبذ ما كان عليه من الشقاق والعناد، ومال إلى الكنيسة الرومانية. وبما أنّ أسقف القسطنطينية "قلينيق"، كان سبب الشرور والفتن بين الملك وصاحب الكرسي الروماني، فقد قبض عليه وفقًا عينيه وأرسله مصفّدًا بالأغلال إلى مدينة روما. وكان مدبرو الكرسي الروماني في ذلك العصر من أهل الشام غالبًا. فلمّا انتهى الأمر إلى يوحنا مارون سكن روعه، وكتب إلى روما يخبرهم براحته وطمأنينته وخراب أنطاكية وكيفية إقامته في جبل لبنان تحت حماية الأمير سمعان^٢ وقومه، فأجابوه بما يطيب خاطره وطلبوا إليه أن يستمرّ على الإقامة بين ظهرائي أمته، ويواصلهم أخباره. فأخذ من ثمّ يتردّد في أصقاع الجبل ويصلح الرتب البيعية ويبين طريقة توزيع الأسرار التي نحن متسلّموها إلى اليوم^٣."

١ - جلس ليونيتس على العرش بعد انقلابه على يوستينيانس الثاني ثلاث سنوات (٦٩٥ - ٦٩٨)، ثمّ جلس بعده تيبريوس الثالث هذا ٦٩٨ - ٧٠٥.

٢ - الأمير سمعان: أحد أمراء المردة، وهو ابن أخت الأمير يوحنا المردى الشهير وخليفته، ويروي مؤرخون أنّ الأمير يوحنا قد قُتل بأيدي البيزنط من جنود يوستينيانوس الثاني قبل معركة لميون، راجع: الشديق، مرجع سابق، أخبار الأعيان، ١: ٢٤٩.

٣ - لدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٩٢.

وفاة يوحنا مارون وقداسته

أجمع مؤرخو الكنيسة المارونية على أن البطريرك يوحنا مارون، بعد إنجازه مهمته الكبرى على هذه الأرض، كانت وفاته في دير مار مارون كفرحي الذي بناه وجعله كرسياً لبطريركيته، في التاسع من شباط (فبراير) سنة ٧٠٧^١، وهو اليوم الذي جعله الموارنة ذكرى لبطريركهم القديس. وذكر أولئك المؤرخون أن فور وفاته، "اجتمع الأساقفة والكهنة والرهبان وجمع لا يحوطه العدد من كل بلاد الموارنة ليتباركوا بجسده الطاهر، وحملوه بالمصابيح والبخور والترانيم، ودفنوه في الدير المذكور. وقال الأسقف جبرائيل القلاعي اللحدي في قصيدته في المجامع: "قي كفرحي مات ذا المختار"^٢. وفي ٣٠ كانون الثاني (يناير) ١٨٢٠ أصدر البابا بيّوس السابع (١٨٠٠ - ١٨٢٣) منشوراً يمنح بمجوبه غفراناً كاملاً لكل مؤمن يزور كنيسة القديس يوحنا مارون في كفرحي في يوم عيده^٣.

قد يكون أبلغ ناطق عن اعتبار البطريرك يوحنا مارون قديساً من قِبل الشعب الماروني منذ القدم، وجود صورتين كنسيّتين أثريّتين لا تزالان محفوظتين حتى اليوم، الأولى في كنيسة القديس شربل الأثريّة في بلدة "معاد" الجبيليّة، والثانية في كنيسة مار تادروس في قرية "بحديدات" الجبيليّة أيضاً، وقد مثّلت الصورتان البطريرك القديس وعلى رأسه التاج علامة دلالة على سلطته الراعيّة والقياديّة^٤.

١ - الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤٩؛ قبل: داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٧٠، حيث جاء أن وفاة البطريرك يوحنا مارون كُفّت في سنة ١٧٢٠ على أن الكلّ يجمع على أن الوفاة حصلت في ٩ شباط (فبراير).

٢ - الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٤٩.

٣ - راجع: الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٦٦.

٤ - إسطفان البطريرك يوسف التوسطولي، وعراد المطران إسطفان، القديس يوحنا مارون، نشر الأبائي بطرس فهد (١٩٧٠) ص ٤٨؛ فهد، بطارقة، مرجع سابق، ص ١٢٧.

وأقدم وثيقة تفيدنا عن أن يوحنا مارون كان معتبراً قديساً في عاصمة الكثرة منذ نشأة المدرسة المارونية القديمة في روما سنة ١٥٨٤، ما جاء في كتاب الإنجيل الروماني الذي طبعه سنة ١٦٧٦ "كارلوس برتلماؤس بيتاسي"، وقد تضمن مديحاً للبطريرك القديس يوحنا مارون جاء فيه تعريفاً عن الإيطالية:

في التاسع من شهر شباط (فبراير) يُقام في روما العظمى بكنيسة مار يوحنا عيد احتفالي سنوي للقديس يوحنا مارون الذي أقيم بطريركاً على الملة المارونية، إذ كانت الهرطقات منتشرة في كل الأمصار الشرقية، وكان القديس يوحنا مارون، بحسن تدبيره وفضل سيرته الصالحة واحتماله المشاق، قد صانها سليمة من كل بدعة وضلال وانتقل إلى السماء^١.

وهناك صورة للقديس يوحنا مارون في دير الرهبانية المارونية المريمية في روما موضوعة إلى جانب أيقونة متوسطة الحجم للشهيدين "بطرس" و"مرسلين" مطبوعة سنة ١٧١٧^٢. ومن أهم ما يفيدنا عن اعتبار البطريرك يوحنا مارون قديساً من قبل الكنيسة الرسولية، وجود اسمه في سنكسار الطائفة المارونية الذي طبع في مطبعة نشر الإيمان المقدس بأمر الحبر الأعظم البابا أوربانوس الثامن (١٦٣١ - ١٦٤٤)، حيث عُيّن عيده في التاسع من شهر شباط (فبراير). كذلك نجد ذكراً للقديس يوحنا مارون ولعيده في التاسع من شباط (فبراير) في قائمة "الأعياد المأمورة" المطبوعة سنة ١٦٤٧ بأمر البابا اينوشنسيوس العاشر (١٦٤٤ - ١٦٥٥)، وفي كتاب الصلوات الفرضية اليومية الذي تم فحصه والتدقيق في مضمونه من قبل البلبوات: بولس الخامس (١٦٠٥ - ١٦٢١) وغيغوريوس الخامس عشر (١٦٢١ - ١٦٢٣)

١ - فهد، بطاركة، مرجع سابق، مرجع سابق، ص ١٢٧.

٢ - المرجع السابق.

وأوربانوس الثامن (١٦٢٣ - ١٦٤٤) واينوشنسيوس العاشر (١٦٤٤ - ١٦٥٥) وغيرهم. وقد وُجد ذكر عيد القديس يوحنا مارون في التاسع من شباط (فبراير) مخطوطاً في كتب صلوات قديمة بعضها كان في "قنوبين" كان لا يزال محفوظاً عند البطريرك الماروني "يوسف حليب العاقوري"^١، وفي كتاب مخطوط قديم محفوظ في المكتبة الفاتيكانية^٢. أما عن عدم إذاعة الكنيسة بمنشور حبري خاص تقديس يوحنا مارون، فيقول كنسيون إن قديسين كثر عند مختلف الكنائس لم تُدع المناشير الكنسية المؤذنة بقداستهم، وتعتبرهم الكنيسة ممن يجب تكريمهم، وقد أصبح هؤلاء قديسين من خلال تكريس الشعب وتكريمه لهم على أنهم قديسون، وبالتالي جاءت الكنيسة لتعترف بتقديسهم من خلال موافقتها على ذكرهم كذلك في بياناتها وقبورها^٣.

١ - البطريرك يوسف حليب العاقوري (بطريرك ١٦٤٤ - ١٦٤٨): ولد في حصرون، والده المطران بطرس حليب العاقوري (أسقف ١٦٠١ - ١٦٤٤) الذي كان متزوجاً قبل أن يرتقي درجة الكهنوت، كذلك البطريرك يوسف الذي كان له ابنة تزوجت من أحد أبناء أسرة قرقماز، درس يوسف على أعلام منهم المطران يوحنا الحصري وتبع في العلوم، كان لاهياً ومفكراً وشاعراً، رُفاه البطريرك يوحنا مخلوف إلى أسقفية صيدا ١٦٢٦ وكان ينتسب في مهنت كبري، أوفده إلى حلب لإصلاح شؤون الطائفة، رَد بعض المونوفيزيين إلى الكنيسة الكاثوليكية وأبرزهم "إندراوس أخيجان" (راجع الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة) الذي درس العلوم في المدرسة المارونية في روما قبل أن يرتقي خليفة العاقوري البطريرك يوحنا الصفاوي إلى درجة للكهنوت ثم الأسقفية، اشترى دير مار شليطا مقبس في كسرون ١٦٣٤، أسس كنيسة ودير حرث في درعون كسرون ١٦٤٣، انتُخب بطريركاً في ١٥ آب (أغسطس) ١٩٤٤، نال درع التثبيت ١٦٤٥، بنى كنائس عديدة، له "ميامر" و"مدائح" كثيرة في الميريانية والعربية ما زال بعضها محفوظاً في دير حرث، وله أشعار تاريخية هامة منها التي ألّخت موقعة الموارنة في القرن السابع مع موريق وموريقين، تخرى إليه مقالة شعرية في رئاسة الحبر الروماني، ينسب إليه "غرامطيق" و"الشحيم" المعروف بـ"اليوسفية" طبعاً في روما، وله كتاب "المنفى" المقتطف من كتاب المطران يوحنا الدومينيكاني، عقد بخلال ولايته القصيرة مجتمعين: الأول في في "دير حرث" كسرون، والثاني في "مرت مور" إهدن وقد أصدر هذا الأخير ٣٢ قانوناً، احتمل في خلال بطريركيته مشقات كبرى، مات ودفن في العاقورة داخل كنيسة القديس بطرس المنقورة في الصخر.

٢ - هو كتاب صلاة سرياني ماروني قديم خُط في نيكوسيا قبرص سنة ١٥٠٨ م. محفوظ تحت الرقم ٧ في المكتبة الفاتيكانية؛ راجع: لبيب، الجامع المفصل، طبعة خاطر، مرجع سابق، ص ٦٧.

٣ - إسطفان عواد الحصري في كتاب: النيراني، المحاماة، مرجع سابق، ص ١٠٣ - ١٨٢؛ راجع، فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص ١٢٩ - ١٣٠.

وقد جاء في بعض الدراسات أنه "لما أراد الموارنة أن يطبعوا كتبهم البيعية في روما، عرضوها قبل الطبع لأولياء الشأن هناك، وكان من جملة الأسئلة الكبرى التي طرحتها اللجان المختصة سنة ١٦٢١ حول هذه الكتب: "هل يجب أن يُحذف اسم مار يوحنا مارون من بين أسماء الآباء القديسين المكتوبة في قائمة القديسين في تلك الكتب؟". وقد دون الكردينال بلرمينس ردًا على هذا السؤال: "لا يُحذف اسم مار يوحنا مارون أبدًا بل ينبغي أن يبقى دائمًا في القائمة، وأن يُطبع الشحيم الكبير اليومي الذي يُذكر فيه اسم مار يوحنا مارون أكثر من ثلاث مرّات في عداد الآباء القديسين، فهو من وُصف بالأب الطوباوي، وبالقديس، بعلم الكنيسة الرومانية، وقد ارتضى الأب الأقدس أن يُطبع هذا الشحيم، مراعيًا فيه الإصلاح المنبّت منه ومن الأبوين العالمين" "إيلاريون رونكاتوس" الراهب "الجيسترجنسه"، و"بطرس المطوشي" اليسوعي، المتصلّعين من اللغة السريانية، وذلك في ١٢ تمّوز (يوليو) ١٦٢١". وقد وقّع على هذا، إضافة إلى الأبوين العالمين المذكورين: كل من الكرادلة: "بندينوس"، "بلرمينس"، "روبرتس"، "أوبلدينس"، والمطران "أوكتافيوس برينستينس".^١

على أن عيد مار يوحنا مارون لم يكن مسجلاً في لائحة الأعياد المأمورة في المجمع الكنسي الماروني الذي عقده البطريرك سركيس الرزي^٢ سنة ١٥٩٦ بحضور القاصد الرسولي "إيرونيمس ندنيي" اليسوعي، وهو أول مجمع كنسي ماروني. بل

١ - فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص ١٢٥، عن كتاب "المحامة"، ص ٢٢١ - ٢٥٩.

٢ - للبطريرك سركيس الرزي: فتُخب بطريركا للموارنة نهاية أيلول (سبتمبر) ١٥٨١، تبتته روما في آذار (مارس) ١٥٨٣، في عهده أنشأ البابا غريغوريوس ثلاث عشر مدرسة للموارنة في روما ١٥٨٥، وجاء الأب إيرونيمس ندنيي اليسوعي موفداً بليوياً لتفحص تعاليم الكنيسة المارونية ١٥٩٥ فقرر صحتها، وفي عهده أيضاً ظهر الأمير فخر الدين الثاني ١٥٩٠، عقد أول مجمع ملانفي ماروني ١٥٩٦، توفّي ١٥٩٧.

كان الموارنة يَعيّدون في التاسع من شباط (فبراير) للقديس يوحنا مارون بحسب التقليد، كما كانوا يَعيّدون في الخامس من كانون الثاني (يناير) للقديس مارون. وفي الخامس من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٦٤٤، عقد البطريرك يوسف العاقوري* المجمع المَليّ الشهير في دير "مار يوحنا حراش" في كسروان، وقد جاء في نسخة مقرّرات المجمع التي خطّها البطريرك العاقوري بيده وحُفظت في مكتبة "آل مسعد" في عشقوت ما حرفيّةته: "يُقام عيد مار يوحنا مارون البطريرك في تاسع يوم من شهر شباط (فبراير)".^١ وفي تاريخ لاحق، أُدخل عيد القديس مارون إلى لائحة الأعياد المأمورة من قِبَل الكرسي البطريركي الماروني، ونُقل من الخامس من كانون الثاني (يناير) إلى التاسع من شباط (فبراير) لجمع عيدَي البطريرك يوحنا مارون ومارون الناسك في يوم واحد، بهدف "التخفيف عن كاهل الشعب".^٢ وبقيت الكنيسة المارونيّة مئات السنوات تقيم الاحتفالات بالعيدين في التاسع من شباط (فبراير)، إلى أن نقل البطريرك يوسف إسطفان الغوسطاوي (١٧٦٦ - ١٧٩٣) عيد مار يوحنا مارون إلى الثاني من آذار (مارس) تاركًا عيد مار مارون الناسك في التاسع من شباط (فبراير)، "ليتمكّن القطيع الصغير المعروف بتديّنه وإخلاصه لتعاليم الربّ من أن يمعن في الاحتفالات وإقامة الصلوات ورفع التضرّعات إلى الخالق بشفاعه قنيسيّه المقتدرين مار مارون ومار يوحنا مارون العظيمين".^٣

١ - للديراني لفرم، المحاماة عن الموارنة وقنيسيم (١٨٩٩) ص ٢١٨، ٢٧٧، ٢٨٠؛ للقديس يوحنا مارون، نشر الأبائي بطرس فهد، مرجع سابق، ص ٤٤؛ فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص ١٢٦، عن مخطوط آل مسعد رقم ٣٣.

٢ - للقديس يوحنا مارون، فهد، ص ٤٥؛ راجع: فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص ١٢٦ - ١٢٧.

ردُّ التَّشكِيكِ بِحَقِيقَةِ البَطْرِيَرِكِ يُوْحَنَّا مَارُون

رغم كلِّ ما هنالك من تداوين محفوظة، لا يرتقي إليها الشكُّ، تؤكِّد على جوانب مهمة من نشأة البطريرك يوحنا مارون وتسقيفه واعتلائه السدة البطريركية، وأخرى تفيد عن مؤلفاته وأعماله وإنجازاته وبنائه للمؤسسة الإكليريكية والزمنية المارونية، وعن اعتباره قديساً من قِبَل الكنيسة الجامعة، فقد تمكَّن البعض من إلقاء ظلال من الشكِّ حول حقيقة وجوده. ذلك أنَّ سوء المعرفة، والتعصُّب الناتج عن عدم إدراك الحقائق المجردة، قد جعلاً بعض المنظرين والموجهين يلقون في أذهان الناس مزاعم غير صحيحة، ما أوجد حالاً من العداء لهذا البطريرك القديس الذي نذر حياته للدفاع عن التعاليم السماوية المعتمدة من الكنيسة الجامعة.

قد يكون في رواية حادثة حلب البيان البليغ لأمرين: الأول هو عدم صوابية الاعتبارات المعادية ليوحنا مارون من قِبَل بعض المذاهب والملل، والثاني حتمية أنَّ يوحنا مارون قد وُجد وكان أسقفاً، واعتبرته الكنيسة قديساً.

مختصر قصة حادثة حلب أنَّه في خلال سنة ١٧٦٦، ألقى الخوري "يوحنا" باننجاني" الحلبي الماروني عظة في الكاتدرائية المارونية في حلب، يوم عيد القديس يوحنا مارون، دعا فيها إلى تكريم هذا القديس، وإلى "التحلِّي بفضائله السامية والسَّير بموجب آثاره في صيانة وديعة الإيمان أساس ديانتنا الكاثوليكية". فثار على الواعظ بعض الملكيين الذين كانوا حاضرين في الكنيسة، وقاموا يكذبونه ويسفِّهون أقواله.

لم يُقد ترفع الكاهن عن الردِّ على المتهمِّين في عدم إثارة الضغينة والاضطرابات في بلاد كان يحكمها الأتراك، الذين عُرِفوا بعدائيتهم للكنيسة

المارونية، وبقي جمر الخلاف تحت الرماد إلى أن جاء المطران "أرسانيوس شكري"، بعد سنتين، إلى حلب، وألقى عظة بمناسبة الصوم الكبير، حثَّ فيها أبناء رعيته المارونية على تكريم القديس يوحنا مارون، بطريرك الموارنة الأول، وعلى الإستمرار في حفظ الإيمان الكاثوليكيّ سالمًا من كلّ شائبة. فاتَّخذ الملكيون من هذه العظة ذريعة لإثارة الفتن والاضطرابات ضدَّ الموارنة، وقد ناصرهم في موقفهم بعض قادة الإكليروس من كنائس أخرى، كالروم والسريان والأرمن واللاتين، وطَيروا الشكاوى إلى البطريرك المارونيّ في لبنان وإلى الفاتيكان، ما أحدث اهتمامًا خطيرًا من قبَل المقامات الروحيّة العليا. بيدَ أنّ ردَّ الكرسي الرسولي كان مؤيِّدًا الموارنة في تكريم قديسهم مار يوحنا مارون^١. ما زاد في حدّة الخلاف واستشرائه.

أمام هذا الواقع الخطير رأى عقلاء الكنائس والمرسلين ضرورة عقد مجمع في حلب، للنظر في مسألة الخلاف، توصلاً إلى استتصال أسبابه وإلى إعادة الهدوء. وبالرغم من أنّ ممثلي الكنيسة المارونية لم يُدعوا إلى ذلك المجمع الذي عُقد في حلب سنة ١٧٦٨، وحضره رؤساء الكهنة من الروم والسريان والأرمن، وانضمَّ إليهم رؤساء المرسلين اليسوعيين والفرنسيسيين والكرمليين والكنبوشيين^٢، إضافة إلى بعض تلامذة المدرسة الرومانيّة، وبالرغم من أنّ المجادلات في ذلك المجمع لم تقتصر على موضوع العظمتين المذكورتين آنفًا، أو على موضوع قداسة البطريرك يوحنا مارون، بل تخطّت ذلك إلى أمور شخصيّة شائكة، فقد جاءت مقرّرات مجمع حلب كما يلي:

١ - الأبّي بطرس نهد، بطاركة الموارنة وأساقفتهم، الحقبة ٦٨٥ إلى القرن ١٢، دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٥) ص ١٢٨ - ١٢٩،
عن مجلة كوكب البرية، عدد سنة ١٩١٢، ص ١٥٣٨ راجع: الديري، المحلّة، مرجع سابق، ص ١١٩.

٢ - الديري، المحلّة، مرجع سابق، ص ١١٧ و ١٨٣.

نحن المحرّرة أسماؤهم بذيله نقول ونشهد، أولاً، مع كلّ الذين كانوا موجودين في جمعيّتنا، الذين شهدوا وأثبتوا وأرادوا أن تشهد على إقرارهم، بعد أن اطلّعنا على شهادات المؤرّخين والمعلّمين الصادقين الذي رأيهم مقبول في بيعة اللّٰه المقدّسة، الذين كتب البعض منهم، سواء كانوا غربيّين أو شرقيّين، مطبوعة في انتشار الإيمان من جهة قداسة السيّد البطريرك الأنطاكي أوّل بطاركة الطائفة (الكنيسة) المارونيّة، أعني به يوحنا مارون الذي ارتبط بالنذور الرهبانيّة في دير القديس مارون النّاسك أبي الطائفة (الكنيسة) المارونيّة، ولأجل فضائله السّامية وغيرته على خلاص النفوس، أقيم على الكرسي الأنطاكي بطريركاً على الطائفة (الكنيسة) المذكورة لكي يلاشي الأخطا التي كانت منبثّة في مملكة سورية، ويحفظ الطائفة (الكنيسة) المذكورة بالإيمان الكاثوليكي لتلا تعدي من هذا السّم المهلك. وقد استمرّ هذا البطريرك المرقوم في كلّ زمان مقدّماً الطاعة والخضوع إلى الكرسي الروماني المقدّس. فلأجل ذلك منحه الحبر الأعظم سرجيوس الثالث الدرع الرسولي، وذلك حين ذهب إلى رومة ليلتمس من قدّاسه التّثبيت. ونشهد، ثانيّاً أنّ البطريرك المذكور، لأجل أنّه كان مميّزاً بالقداسة والعلم والفضائل السّامية في دير القديس مارون النّاسك، فاستحقّ أن بيعة اللّٰه المقدّسة، تحرّر اسمه في سنكسار طائفة (كنيسة) الموارنة المطبوع بأمر الحبر الأعظم البابا أوربانوس الثامن (١٦٣١ - ١٦٤٤) الصالح الذّكر في مطبعة نشر الإيمان المقدّس، وحرّرت تذكّاره في اليوم التاسع من شهر شباط (فبراير) الواقع فيه عيد القديس مارون النّاسك أبي الطائفة الجليّة. فلكي، من الآن وصاعداً، لا يحدث شكوك وسجس وارتياب وآراء فاسدة وباطلة مضادة وكاذبة من الذين يضادّون قداسة البطريرك المذكور، التّأم هذا المجمع من أربعة رؤساء للرهبانيّات الغربيّة مع البعض من رهبانهم ومن المرسلين الشرقيّين من مجمع الإيمان، ومن نوّاب المطارين لطائفة (كنيسة) الروم والأرمن، ومن خوارنة الروم والأرمن والسريان المحترمين. فبعد المجادلة العظيمة والبحث الكلّي بغاية الدّقّيق، قدّ أبدا جميعهم بعم واحد المديح الذي أنشده بعضه الأب يوحنا باذنجان المرسل الرسولي إلى

طائفة (كنيسة) المواردة بحلب على قداسة سيرة القديس يوحنا مارون البطريرك الأول الأنطاكي وعلى نياحته السعيدة. ولأجل أن البعض لاموا الأب المذكور على عظته ومديحه لهذا القديس بقولهم إن جميع ما مدحه به هو باطل، وإن هذا ليس هو قديساً. فنحن الآن برّرنا الأب المذكور ونبرّره أيضاً بهذه الوثيقة ونحقّق أن جميع ما أطنب به في مدح هذا القديس فهو حقيقيّ وصادق^١.

وقد وقّع المجتمعون الستّة عشر جميعاً، من ممثلي الطوائف (الكنائس) في حلب، على هذه المقرّرات التي تُعتبر بمثابة اعتراف بتقديس البطريرك يوحنا مارون، وحقيقة وجوده، وأسقفيّته، وبطريركيّته، ونضاله^٢. كما وقّع على هذه الوثيقة التاريخية أيضاً عدد من الشهود ضمت أسماءهم لائحة محفوظة لدى المراجع الكنسيّة^٣. وهكذا انتهت مسألة التشكيك بوجود البطريرك يوحنا مارون وبقداسته.

١ - فهد، بطارقة المواردة، مرجع سابق، ص ١٢٨ - ١٣٥، عن مجلة كوكب البريّة، عدد سنة ١٩١٢، ص ٥٣٨ وما بعدها؛ أفرام الميراني، المحلّمة، ص ١١٩ وما بعدها؛ البطريرك يوسف إسطفان النوسطوي والمطران إسطفان عزّاد، القّيس يوحنا مارون، نشر الألباني بطرمن فهد (١٩٧٠) ص ٢٠٠؛ راجع: المطران يوسف الدبس، الجامع المفصل في تاريخ المواردة المفصل، تقديم الأب ميشال الحليّك، دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٧) ص ٦٦.

٢ - وقّع على مقرّرات المجمع هذه: البادري سعد رئيس رهبان القس في حلب؛ البادري لورنس رئيس رهبان الكرمل في حلب؛ البادري لوثر والبادري قيصر رئيسا رهبان الكتوشيين في حلب؛ البادري جبرائيل رئيس رهبان اليسوعيين في حلب؛ البادري مبارك من رهبان مار فرنسيس في حلب؛ البادري الياس والبادري يوحنا رئيسا رهبان الكرمل في حلب؛ القس أنطون صباغ مرسل رسول لكتيسة الروم في حلب؛ القس يوسف بليط مرسل رسول لكتيسة الأرمن في حلب؛ الخوري زخريّا وكيل المطران أغناطيوس من كنيسة الروم في حلب؛ القس جبرائيل عزّاد وكيل بطريرك الأرمن في حلب؛ وكلّ من الخوري ميخائيل جربوع، ونعمة الله كوسى، والقس جرجس حنون، والخوري يوسف حجّار من كنيسة الروم في حلب؛ كما وقّع على هذه الوثيقة التاريخية أيضاً عدد من الشهود ضمت أسماءهم لائحة محفوظة لدى المراجع الكنسيّة.

٣ - صرّح هؤلاء الشهود بأنّ جميع الآباء الذين حضروا المجمع، قد اعترفوا بقم واحد بحقيقة قداسة السيّد البطريرك يوحنا مارون، حيث سلّمهم الأب يوحنا بلانجانجاني، بعد كلّ فحص وتدقيق هاتفاً: - هل بقي لكم شيء تعترضون به، أيّها الآباء والسادة المكرّمون، لأنّني مستعزّ أن أجابكم عن كلّ ما تعترضون به؟ - فأجابهم الجميع قائلين: - كلّاً، لم يبق لنا في هذا الخصوص ولا اعتراض واحد. لمّا أولئك الشهود فكتوا: سعد من كركيناسكو مرسل رسول ورئيس دير رهبان القس بحلب، البادري مبارك الطاولا مرسل رسول ورئيس رهبان القّيس فرنسيس الكبير بحلب، الخوري يوحنا مرجان وكيل المطران غريغوريوس شكر الله من كنيسة المريان ومرسل رسول من مجمع لتشار الإيمان المقدّس في حلب، القس غزول نقب بطريركي لرمني بمدينة حلب. القس يوسف بليط خوري كنيسة الأرمن في مدينة حلب ومرسل رسول من مجمع لتشار الإيمان المقدّس.

إذا كان يستحيل تصوّر وطن لبنانيّ، بشكله الحاضر، من دون الموارد، أبناء هذه الكنيسة المسيحية الوطنية المشرقية التي زامن وجودها كافة مراحل نشوء الوطن اللبناني الذي نعرفه، منذ بدايات تكون مجتمعاته التي باتت تشكّل مجموع الشعب اللبناني، فإنه يستحيل، أيضاً، تصوّر وجود كنيسة مارونية لو لم يكن عند بدايات تكوينها رجل، ولّد في مكان قريب من أنطاكية، وترهب في دير مار مارون على ضفاف العاصي، وتعلّم في أنطاكية وفي القسطنطينية، ثم أضحى أسقفًا متمسكًا بتعاليم الكنيسة الأرثوذكسية^١ الكاثوليكية بعناد، إلى أن حتمت التطوّرات اعتلاء هذا الأسقف الوطني المناضل سدة البطريركية الأنطاكية، وسط صراعات عقائدية وقومية ودينية طاحنة.

ويمكن التأكيد، من دون أيّ تردد، على أنّ دراسة جميع المعطيات التي أحاطت بالأحداث المعنية بالصراعات العقائدية والقومية في نطاق أبرشية أنطاكية، في الحقبة الممتدة بين القسم الثاني من القرن السابع وبداية القرن الثامن، تدلّ على أنّه لولا وجود يوحنا مارون، لما كان في الشرق كنيسة أرثوذكسية المعتقد، قومية التراث، حريصة على طاعة الكرسي الرسولي، متمسكة بجذورها الأنطاكية، مصمّة على البقاء في أرضها، غير قابلة للمساومة على مرتكزات ثلاثة أساسية: المعتقد، والحرية، والأرض. وبعبارة أقصر، لولا يوحنا مارون، لما كان مورنة.

لم يكن يوحنا مارون مجرد بطريرك وطني تمسك بالمعتقد الإيماني المستقيم، وحارب البدع، وناضل بالفكر والكلمة والموقف، مدافعاً عن التعاليم الخلقونية، من

١ - كلمة أرثوذكسية. كما سبق أن أوضحنا، تستعمل، أصلاً، بمعنى "الرأي المستقيم" بالنسبة إلى الشيع التي خرجت على معتد الكنيسة الأم وعن مقرراتها الخلقونية. بيد أنّه قد أصبح، في ما بعد، للعديد من تلك الشيع كناس حملت للتسمية الأرثوذكسية، على اعتبار أن كلاً من تلك الكنائس تعتبر أنّها صاحبة "الرأي القويم".

أجل حماية الكنيسة المشرقية من الانزلاق في مهوي الضياع، بل كان أيضًا، بانيًا
لمؤسسة كنسية متكاملة، ببُعديها الروحي والزمني، ليس أنها تمكّنت من الصمود
في مواجهة عواصف التاريخ العاتية طوال مئات السنين فقط، بل هي نمت وتعاظم
شأنها، وقد "عمّرت أكثر ممّا عمّرت إمبراطورية القسطنطينية التي اضطهدتها"^١،
وهي لا زالت كيانًا وطنيًا أساسيًا غير قابل للتجاهل.

GIBBON EDWARD, *THE HISTORY OF THE DECLINE AND FALL OF THE ROMAN EMPIRE*, ED. J. B. BURY, VOL. - ١

V. (LONDON, 1898) PP. 156.

المَوارِنَةُ بَعْدُ يُوْحَنَّا مَارُون

بَعْدُ يُوْحَنَّا مَارُون؛ البطَّاركة؛

الأمراء والمقدِّمون المردة؛

في الحَقبة العباسية.

بَعْدُ يُوْحَنَّا مَارُون

قبل وفاته، كان البطريرك يوحنا مارون قد فصل نهائيًا المواردنة عن القسطنطينية، وأنشأ كنيسة مشرقية مستقيمة الرأي مستقلة عنها، خاضعة لسلطة روما. وبذلك استطاع هذا البطريرك أن يبرز أولى الخصائص القومية التي يتمتع بها المواردنة، وقد جعل منهم بقيادته الحكمة شعبًا ذا سيادة. "ومنذ ذلك الحين أخذت تظهر في الكنيسة المارونية تلك الخصائص التي جعلت منهم أمة جبلية مستقلة منعزلة عن سائر الكنائس التي تقطن هذه المنطقة من الأرض". وقد استطاع يوحنا مارون بدهائه "أن يرد خليفة المسلمين باليد الواحدة وأمبراطور الروم بالأخرى"^١.

البطاركة

تعاقب على كرسي البطريركية المارونية خلفاء للبطريرك يوحنا مارون منذ وفاته إلى اليوم من دون انقطاع. وكان أول من ألمح إلى انتخاب البطاركة والأساقفة لدى المواردنة، في منتصف القرن الثامن، البطريرك السرياني ديونيسيوس التلمحري^٢، عندما روى حادثًا تاريخيًا جرى في دير مار مارون سنة ٧٤٥، قال: "وظلّ المواردنة،

١ - حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

٢ - ديونيسيوس التلمحري (ت ٨٤٥): ولد في تلمحرة، وهي موضع في سورية في منطقة الجزيرة على نهر البليخ، بطريرك السريان المونوفيزيين ٨١٨، كتب تاريخًا كبيرًا فقد معظمه تناول الحقبة بين ٥٨٢ - ٨٤٢ فاعتمده المؤرخون اللاحقون ولخصوه مرارًا.

كما هم الآن، ينتخبون بطريركاً ويرسمون أساقفة^١ من جمهور ديرهم^٢.

وضع العديد من الباحثين الكنسيين والمؤرخين الموارد لوائح لتسلسل البطارقة الموارد الذين خلفوا البطريرك الأول يوحنا مارون، وقاد جاء بعضها ليختلف عن بعضها الآخر قليلاً^٣. أما السلسلة الأكثر اعتماداً اليوم، فهي التي وضعها الأب د. بولس صفيير ونشرها سنة ١٩٨٠،^٤ وقد حددت عدد خلفاء يوحنا مارون بخمسة وسبعين بطريركاً، فيكون البطريرك الحالي للكنيسة المارونية مار نصرالله بطرس صفيير، بحسب هذه السلسلة، البطريرك السادس والسبعين. وكان أول من اهتم بجمع المعلومات التاريخية عن أولئك البطارقة، البطريرك العلامة إسطفانوس الدويهي (١٦٧٠ - ١٧٠٤) الذي قال عن البطارقة الخمسة الأولين، وفي مقدمتهم البطريرك يوحنا مارون ما يلي: "إن هؤلاء البطارقة الخمسة: يوحنا مارون، قورش، جبرائيل، يوحنا مارون الثاني، ويوحنا الدلمصاوي، أمرهم واضح من الرسالة التي أرسلها سنة

١ - لسنا متأكدين من حقيقة رسم الأساقفة في الكنيسة المارونية قبل عهد البطريرك يوحنا اللحدي الأول (١١٥١ - ١١٥٤) الذي، بحسب المراجع التي بين يدينا، كان أول من عين أساقفة لمعاونه في شؤون الرعية، أما انتخاب البطارقة المارونة، قبل ذلك التاريخ، فقله كان يجري من قبل الكهنة والمقتمين.

٢ - صفيير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٥، عن: *CHRONIQUE DE MICHEL LE SYRIEN*.

TRANSLATION. J.B. CHABOT (PARIS, 1901) T.I, P. 467.

٣ - لبرز تلك السلاسل: سلسلة البطريرك إسطفانوس الدويهي المنشورة في كتابه "بطارقة الطائفة المارونية"، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، ١٩٠٢)؛ سلسلة السمعاتي؛ سلسلة العنيسي؛ سلسلة البطريرك بولس معمد؛ سلسلة الشيخ أنطونيوس إبي خطار المينطورييني المنشورة في كتابه "مختصر تاريخ جبل لبنان"، طبعة الأب اغناطيوس طنوس الخوري، تحقيق إلياس قطار، منشورات دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٣) وهذه السلسلة تقتصر على البطارقة الذين مكثوا قرويين؛ سلسلة الخوراسقف يوسف داغر المنشورة في كتابه "بطارقة الموارنة"، المطبعة الكاثوليكية (بيروت، ١٩٥٧)؛ سلسلة الأبائي بطرس فهد، المنشورة في مجموعته "بطارقة الموارنة وأساقفتهم"، منشورات دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٥).

٤ - نشرت في مجلة "الفصول اللبنانية، العدد الثالث (١٩٨٠) ص ١٠٢ - ١٠٧؛ اعتمدها بحرفيتها الأب يوسف محفوظ، في مؤلفه "مختصر تاريخ المارونية" (الكسليك، ١٩٨٤) ص ٣٩ - ٥٥.

١٤٩٥ جبرائيل ابن القلاعي إلى القسّ جرجس بن بشارة في الفصل الحادي عشر. ووجدنا ذكرهم أيضًا في كراسة سريانية كانت عند سالفنا المعفور له البطريك جرجس^١ في قرية "بمبعل"^٢ الذي توفي سنة ١٦٧٠، وقد نسخها "داود بن ابراهيم" سنة ١٦٢٤ لليونان، أي سنة ١٣١٣ للمسيح. فتكون أقدم من تحرير ابن القلاعي بمئة واثنين وثمانين سنة^٣. وقد أجمع الباحثون على أنّ الذي خلف البطريك يوحنا مارون، إثر وفاته، هو "قورش" ابن أخته، الذي كان ترهب، مثله، في دير مار مارون العاصي وتلمذ على يديه، وتقف في العلوم العالية من فلسفة ولاهوتية وطبيعية^٤؛ وقد جاء في "المقالة السمعانية" أنّ في عهد البطريك جبرائيل، خليفة "قورش"، عاد الملكيون بعد وفاة الأمبراطور يوستينيانوس الثاني (٦٦٩ — ٧١١) بسنوات، إلى الاعتقاد بالطبيعتين والمشيئتين في السيّد المسيح، وانتخبوا لهم بطريكًا جعل إقامته في دمشق^٥؛ وأنّ البطريك الماروني يوحنا مارون الثاني، "كان من رهبان دير مار مارون العاصي، ولما أقيم بطريكًا قصد السكن في أنطاكية، لكنّه لم يستطع الإقامة فيها لمناوأة العرب له، فجاؤا وسكن في لبنان، في دير

١ - جرجس الحاج رزق الله البسبلي (بطريك ١٦٥٧ - ١٦٧٠).

٢ - بمبعل: قرية في قضاء زغرتا من أعمال لبنان الشمالي.

٣ - فهد، بطاركة، مرجع سابق، ص ٩١؛ دريان، أصل الجرجمة والمردة والموارنة، مرجع سابق، ص ٤٢؛ ديب المطران بطرس، تاريخ الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ١٤٧ - ١٤٩.

٤ - ذكر اللويهي في تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، أنّ "قورش" ويسمى "كرووس" و"كرووسي" أيضًا، كان من أرباب الكتاب، فزهد في الدنيا واقتدى بسيرة خاله وتلمذ له وضاهاه في منهج حياته وأحكم كلّ فضيلة وناضل عن الأمانة القيمة بكلّ ورع ورنذل آراء المخالفين. وقد جاء في خبر يوحنا ملرون أنّه لما انتقل إلى راحة الصالحين خلفه قورش على الكرسي الأنطاكي بعد أن نال التثبيت من الكرسي الروماني.

٥ - راجع: داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص ٢٢.

"سيدة يانوح"^١ في جبّة المنيطرة قرب العاقورة. ولما شعر بدنوّ أجله أخلى الكرسيّ ليوحنا الدملصي، وهو السابع والستون بعد مار بطرس، والخامس بعد يوحنا مهابرون الأول^٢. وبينما اعتبر السمعاني أنّه "من المحقّق التّمام مجمع نيقيا الثاني^٣ ضدّ بدعة محاربي الأيقونات في عهد هذا البطريرك، وقد كان ذلك سنة ٧٨٧ أي بعد انتهاء عهد الخلافة الأمويّة وبداية الخلافة العبّاسيّة بسبع وثمانين سنة، ذكر آخرون أنّ مجمع نيقيا إنّما جرى في عهد خليفته "يوحنا الدملصي"، الذي عُرف باسم يوحنا مهابرون الثالث^٤، ولم يتمكّن من حضور المجمع هو وبطاركة الشرق الثلاثة بسبب قساوة العرب المستولين عليهم، ولكنهم لم يتأخّروا عن إرسال مندوبين عنهم^٥.

١ - ياتوح: بلدة في أعالي منطقة جبّة المنيطرة من أعمال بلاد جبيل من جبل لبنان، والعاقورة بلدة كبيرة بجوارها. ونكر فهد، في كتابه "بطاركة الموارنة"، مرجع سابق، ص ١٤٩ - ١٥٢، قتلي: تبيّن أنّ كرسي البطاركة الموارنة بين يوحنا مهابرون الثاني (أواسط القرن الثامن) والبطيريك يوسف الجرجسي (بطيريك ١١٠٠ - ١١٢٠) اللذين جعلّا كرسيهما في ياتوح، لم يكن معروفًا مركزه، لذلك يمكن أن يكون في ياتوح. ولذا نقل الكرسي من ياتوح إلى سيدة إليج في ميفوق كان البطريرك بطرس الأول المنتخب خلفا للبطيريك يوسف الجرجسي سنة ١١٢١، وقال الأب ميشال الحايك، في مجلّة "الرعيّة"، العدد ١٤٣، أيار (مايو) ١٩٧٨، ص ١٣ وما يليها أنّ الموارنة، أول ما جاؤوا مهاجرين من سهول سورية الثانية للإعتصام بوعورة الجبال، قد تبتعت إحدى قوافلهم الأولى في نزوحها ضفاف العاصي حتّى البقاع، ومنه تسلّقوا الجرد في أعالي بلاد جبيل، لذلك لا نظنّ أنّ دير مار يوحنا مهابرون في كفرحي هو أول أنبارهم البطريركيّة إذ ليس ما يثبت ذلك سوى التقليد، ولكن من الأثبت على ما يبدو من استقرار النصوص، أنّ الكرسي البطريركي انتقل نهائيًا إلى لبنان بعد أن خرب دير مار مهابرون في سوريا ... وكان الانتقال عام ٩٣٩ والإقامة في سيدة ياتوح، بين قرطبا والعاقورة، حيث لا تزال آثار الحريق ظاهرة في فناء كنيسة مهتمة واضحة المعالم، إسمها مار جرجس الأزرق. هذا أول مراكزهم، بناء يوحنا مهابرون من الحجر الأزرق كلّه تمّي غاية الصنعة والشرافة. نشير أنّ الكلام للآب حايك ونحن لا نتجريح الرأي القائل بأنّ دير ياتوح سابق لدير كفرحي - المؤلف.

٢ - راجع: داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص ١٢٢؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٤٦، عن المقالة السمعانيّة.

٣ - مجمع نيقيا أو المجمع النيقاوي الثّاني، نسبة إلى مدينة نيقيا في الأناضول إسمها اليوم إزنيق، عقد فيها مجمعان مسكونيان، الأول حرم أريوس سنة ٣٢٥، والثاني، ٧٨٧، حرم الإيقونوكلاست، أو محطّميّ للصور، أو محاربي الأيقونات.

٤ - الدملصي: نسبة إلى ثلصا، قرية قديمة شرق مدينة جبيل، على متوسط ارتفاع ٣٠٠م. عن سطح البحر، تشكّل اليوم من قرية كفر مسحون بلدة واحدة.

٥ - الدبس، الجامع المفصل، مرجع سابق، ص ١١٠؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٤٦ - ١٤٧.

٦ - فهد، بطاركة الموارنة، للمرجع السابق.

وفي أكثر لوائح سلسلة البطارقة الموارنة أن البطارقة الذين تعاقبوا بعد يوحنا
الدملصي، كانوا، على التوالي:

غريغوريوس الأول، السادس بعد يوحنا مارون الأول، وفي أيامه "عقد الصلح مع
هارون الرشيد باهتمام الملكة "إيرينه"، إذ تسنى لهذه الملكة تأييد الديانة المسيحية
بمساعدة هارون الرشيد حليفها"^١؛ خلفه إسطفانوس؛ ثم مرقس؛ ثم أوسابيوس، البطريك
التاسع الذي سمّاه السمعاني "حوشب" وقال إن "فوتيوس"^٢ تغلب في عهده على
"اغناطيوس" بطريك القسطنطينية^٣؛ وخلف أوسابيوس أو حوشب على كرسي
البطريركية المارونية: يوحنا الرابع، وهو البطريك العاشر، وجاء في مقالة السمعاني
أن "في عهده تفاقم الخلاف بين الكنيستين الشرقية والغربية بسبب اغتصاب "فوتيوس"
السدة البطريركية، فعقد المجمع القسطنطيني في السنة ٨٦٩ باهتمام الملك "باسيليوس"،
ولم يتمكن بطارقة الشرق من الحضور فأرسلوا قصادًا من قبلهم"^٤؛ خلف يوحنا
الرابع: يشوع الأول؛ ثم داود؛ ثم غريغوريوس الثاني، وهو البطريك الثالث عشر،
في أيامه كانت بلاد الشام على أسوأ حال بسبب انحطاط دولة العباسيين^٥؛ أما
البطريك الرابع عشر، فكان اسمه توافيليكتس، ترجم اسمه السمعاني في مقالته إلى
"حبيب"، وذكر أن "نيكوتور"^٦ أتى في عهده سنة ٩٦٢ من القسطنطينية وأخذ سورية

١ - داغر، بطارقة، مرجع سابق، ص ٢٢، عن "المقالة السمعانية"، وعن كتاب "طف الزهور"، قسم أول من العرب، ص ١٠٧.

٢ - عيّن فوتيوس، رئيس مجلس الوزراء، بطريكاً على القسطنطينية ٨٥٨ - ٨٦٧، ثم ٨٧٧ - ٨٨٦.

٣ - داغر، بطارقة، مرجع سابق، ص ٢٣، عن "المقالة السمعانية".

٤ - داغر، بطارقة، مرجع سابق، ص ٢٣، عن "المقالة السمعانية"، كتاب تاريخ البدع، ر١س ٩، عدد ٩.

٥ - داغر، بطارقة، مرجع سابق، ص ٢٣، عن "المقالة السمعانية"، وعن كتاب طف الزهور، قسم أول، ص ١١١.

٦ - نيكوتور أو نيكفورس فوكا الثاني NIKÉPHOROS المعروف عند العرب باسم فقامس: أمبراطور بيزنطي ٩٦٣ - ٩٦٩، قاد حملة على العرب وانتزع منهم كريت، نادى به الجيش أمبراطوراً، زاد الضرائب ليهتم بالجيش واحتلّ قيليقيا وقبرص وقسمًا من سورية ٩٦٤ - ٩٦٥، اغتاله القائد يوحنا شمشقيق أو شمشق بالاتفاق مع زوجته ثيوفانو.

ومدن لبنان وفتح مدينة طرابلس وما جاورها من القرى التي تقطنها المردة، كما يتّضح من رسالة "شمشقيق"^١ قائد جيوشه إلى ملك أرمينيا، فبعد أن أوضح له ما أبداه جنوده من بسالة في فتح المدينة قال: لا يسعنا إلاّ الإقرار بأننا أتلّفنا كلّ ما جاور طرابلس وذبحنا الحيوانات وأبدنا الكروم وقطعنا الأشجار"^٢؛ ثمّ خلف توافيليكُتس، أو حبيب، على الكرسيّ البطريكيّ المارونيّ، البطريك الخامس عشر: يشوع الثاني، وفي أيامه استرجع الخليفة الفاطمي العزيز بالله أبو النصر^٣ مدن لبنان من نيكوفور فوكا سنة ٩٧٥، فاستتبّ الأمن، وهو، بحسب بعض المؤرخين، الوحيد من الفاطميين الذي سلك مع النصاري مسلّكاً جعلهم يتمتّعون بتمام الحرية^٤؛ وبعد يشوع الثاني جاء البطريك دوميطيوس^٥، الذي ظهر في عهده مذهب الدروز في لبنان^٦ سنة ١٠١٧، وانتشر في وادي التيم وامتدّ إلى المتن وحوارن^٧؛ ثمّ إسحق، وهو البطريك السابع عشر؛ خلفه يوحنا الخامس، في عهده ظهر المطران داود، أشهر علماء عصره، وهو

١ - يوحنا بن شمشقيق أو يوحنا جيمسكي: اغتال ملفه بفقورس الثاني بالاتفاق مع زوجة الأخير وأصبح امبراطور بيزنطيا ٩٦٩ - ٩٧٦، طرد الروم من بلغاريا الشرقية ودخل دمشق والناصرية وبيروت ٩٧٤ - ٩٧٥، مات مسموماً على يد خلفه باسيلئوس الثاني.

٢ - داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص ٢٣ - ٢٤، عن "المقالة الصمغانية".

٣ - العزيز بالله أبو النصر نزار بن المعز (٩٥٥ - ٩٩٦): خامس الخلفاء الفاطميين في مصر ٩٧٥، استوزر تباعاً يعقوب بن كلّس "وعيسى بن نسطورس"، حاول احتلال حلب مراراً فافق بسبب تليد البيزنطيين لأمراء المدينة، عُرف بتسامحه ومواجهه الإدارية، اهتم بالشؤون المدنية والمالية، توفي في بلبيس.

٤ - داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص ٢٣ - ٢٤، عن: قساطلي نعمان، تاريخ مصر، باب أول، ص ٤٢١، حيث جاء أنّ النصاري قد تمّتوا في عهد هذا الخليفة بتمام الحرية، وفتح لهم باب الترقّي في سلك المناصب.

٥ - دوميطيوس: يعرف أيضاً باسم دوميط، وضوميط، وضوميط.

٦ - راجع: الجزء الحادي والعشرين من هذه الموسوعة.

٧ - داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص ٢٤.

الذي ترجم كتاب "الهدى" أو "الناموس" من السريانية إلى العربية سنة ١٠٥٨؛ خلفه البطريك سمعان، وفي أيامه كان المواردنة معتصمين بجالهم، محافظين على استقلالهم الداخلي، وشعر سكان الشوف والجنوب والسواحل والسهول (في لبنان) أن البلاد صارت بلادهم فأخذ فريق منهم يتعامل مع الغزاة بما يوافق مصالحه وتمكّن من المحافظة على كيانه أسوة بالمواردنة^٢. وذكر الدويهي في سلسلته أسماء أربعة بطارقة خلفوا البطريك سمعان، هم على التوالي: إرميا، ويوحنا، وشمعون (الثاني)، وشمعون (الثالث)، فقال: "هؤلاء الأربعة هم بلا شك مواردنة، وقد تولّوا الكرسي الأنطاكي بعد مجيء الإفرنج إلى بلاد الشام، لأن أخبارهم والسجلات البابوية المرسلة إليهم مصنوعة عندنا...، ولما قامت جيوش الإفرنج إلى هذه البلدان، وحلّوا في أنطاكية وبيت المقدس أقاموا لهم سنة ١١٠٠، كما تخبر التواريخ، بطركاً وملكاً على بيت المقدس، وأرسلوا البشائر إلى بابا رومه وملوك النصارى"^٣.

وقبل أن نتابع تسلسل البطارقة المواردنة، إستئنافاً من البطريك يوسف الجرجسي (١١٠٠ - ١١٢٠)، حيث ستصبح المعلومات المتوفرة عنهم أكثر يسراً، نتوقّف عند النواحي العلمانية لأحوال الكنيسة المارونية بين يوحنا مارون ونهاية القرن الحادي عشر.

١ - داغر، بطارقة، المرجع السابق.

٢ - داغر، بطارقة، المرجع السابق؛ وراجع: دريان المطران يوسف، أصل الجراجمة والمردة والمواردنة؛ فهد، بطارقة للمواردنة، مرجع سابق، ١: ١٤٩.

٣ - الدويهي، بطارقة للمواردنة، مرجع سابق، ص ٢٠؛ راجع: فهد، بطارقة للمواردنة، مرجع سابق، ١: ١٥٠.

الأمراء والمقدّمون المردة

يعتبر باحثون محدثون في الشأن الماروني^١ أنه "بعد لجوء الموارنة إلى لبنان واستيطانهم في مناطقه الشماليّة، انقطعوا لفترة غير قصيرة عن أجواء الاضطرابات، ورُفِع عنهم كابوس المحن والنكبات، فراحوا يهتمّون بتنظيم أوضاعهم الدينيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، مؤثرين شظف العيش، في جبال لبنان الجرداء ووديانه السحيقة، على رحيّه في سهول سورية الخصبة والمترامية الأطراف. فالتقّوا، أولاً، حول بطاركتهم ورؤسائهم الروحيّين الذين كانوا لهم مرجعاً في كلّ شيء. ثمّ بدأوا ينظّمون حياتهم القرويّة وشعائر عباداتهم الدينيّة. فاهتمّوا ببناء الكنائس والأديار إلى جانب تعمير القرى وتشبيد البيوت. ومن الكنائس التي بُنيت في منتصف القرن الثامن كنيسة مار ماما في إهدن التي يرقى بناؤها إلى سنة ٧٤٩^٢. ومع الوقت، أصبح الموارنة شعباً قويّ الإيمان متراصّ الصفوف، شديد المراس، حريصاً على كيانه ومبادئ ديانته، ماهراً في القتال وعنيداً في الدفاع عن النفس. فبرزت، على الأثر، البطريكيّة المارونيّة، وكأنّها مؤسسة كنسيّة دينيّة مستمرّة، ذات سلطة روحيّة ونفوذ زمنيّ كبير تجاوز لبنان إلى المشرق. فكان البطاركة والأساقفة يعيشون إلى جانب أبناء شعبهم القرويّ الكادح ببساطة ووداعة، يقاسمونه شظف العيش ويشاركونه في الأفراح والأحزان، ويقومون بمهامّ الرعاية والقيادة والتدبير. فيرشدونه في أموره الروحيّة والزمنيّة، ويسهرون على مصالحه، مؤمّنين له حريّة التصرف وأخذ المبادرات في تقرير المصير والانفتاح على بقية الأديان والمذاهب والحضارات".

١ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣٠٦ - ٣٠٧.

٢ - راجع ديب المطران بطرس، تاريخ الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٧١.

ما لا يجوز إغفاله، في هذا المجال، ما كان لأمراء المردة ومقتمى الموارنة من دور أساسي في تطوّر الكيان الماروني في بداياته.

إذا كان أتباع الكنيسة التي أنشأها البطريرك يوحنا مارون قد عُرفوا، لناحية المعتقد، بالموارنة، فإنّ هؤلاء قد عُرفوا قبلاً، من الناحية الزمنية، باسم المردة. وهذا ما تُجمع عليه التواريخ، ولكن من دون تمييز بين الصفتين الدينيّة والزمنيّة لهؤلاء. ولفظُ المردة ساميٌّ يعني: الإنتفاض والمقاومة. ولا شكّ في أنّهم قد عُرفوا بتلك الصفة منذ العهد الأمويّ. ويطلبنا محقّقون ثقات أنّ "معاوية (خليفة ٦٥٧ - ٦٨٠)، قد رأى من الحكمة أن يدفع جزية للروم مقابل أن يتمتع هؤلاء عن مساعدة المردة، العدو الداخليّ الجديد... وقد كان المردة يتلقّون من الخليفة جزيةً أيضاً^١. بيد أنّ العباسيين سوف يعمدون إلى حلّ مختلف جذريّاً عن الحلّ الأمويّ للمردة، إذ لن يُدخلوا في التعامل أيّ إغراء إقتصاديّ، إنّما سوف يعمدون: إجلاء السكّان، ونقل القبائل العربيّة التّوخية إلى لبنان، والسيطرة على الجبل، وهي كلّها حلول عنف وإرهاب" بحسب مؤرّخين مسلمين^٢.

وقد ذكر نسابون أنّه عند "ابتداء دولة العرب سنة ٦٢٨، كان من الأمراء المردة الأمير يوسف واليا على جبيل، والأمير كسرى على العاصية التي أصبحت تُعرف بكسروان نسبة إليه، والأمير أيوب على قيساريّة فيليّس وبيت المقدس". ومن أخبار هؤلاء الأمراء المردة أن أحدهم، يوحنا، بن حفيد يوسف الأوّل، إذ كان ملكاً على جبيل، قد تولّى في أيام الملك قسطنطين الرابع (أمبرطور ٦٦٨ - ٦٨٥) من القدس حتّى حدود أنطاكية. كما جاء أنّ يوحنا هذا قد أنجد الملك قسطنطين سنة ٦٧٧ في

١ - حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٩٩.

٢ - مكّي محمّد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر، (بيروت، ١٩٧٩) ص ٦٥.

مواقع عديدة. ومن أهم أخبار هؤلاء الأمراء مشاركتهم في منازلة جنود القائدين البيزنطيين موريق وموريقيان، في شمال لبنان، إلى جانب البطريك يوحنا مارون، وتغلبهم عليهم سنة ٦٩٤. وقد ذكر مؤرخون أن الأمير يوحنا المردى قد قُتل بأيدي البيزنط من جنود يوستينيانوس الثاني قبل معركة أميون^١. ومن أخبار المردة أنهم بنوا حصناً فوق نهر الكلب سنة ٧١٥، شهد معارك ضارية بينهم وبين المسلمين^٢. وورد في المدونات ذكر لمقتمي "بحر صاف"، و"إنطلياس"، و"بحنس"، و"بسكنتا"^٣ وسواها قبل القرن الثامن^٤. ومن بقايا المردة في تلك المناطق، بناء أثري في إنطلياس، بُني على أنقاضه دير مار الياس الذي يرجع تاريخ بنائه الأول إلى أول أجيال المردة الذين كانوا يرابطون في إنطلياس وجوار نهر الكلب. والآثار الدالة على ذلك عديدة^٥. وقد ذكر قلعة المردة في إنطلياس ابن القلاعي في زجلياته حيث قال: "وفي إنطلياس أبناو القلعة، الحاجرية كانت تُدعى"^٦. وقد نُكِّت هذه القلعة - الدير من قبل المهاجمين وجُدد بناؤها مراراً على أيدي أمراء الموارد وشايخهم حتى عهد البطريك يعقوب عواد (١٧٠٥ - ١٧٣٣) الذي سلّمهم ديراً للربان الأنطونيين سنة ١٧٢٣^٧. ونكر بعض مؤرخي الموارد أن الذي أقام في إنطلياس من الأمراء المردة كان الأمير

١ - راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٤٩.

٢ - الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٤٤ - ٢٥٠.

٣ - بحر صاف، إنطلياس، بسكنتا، بحنس: من بلدات قضاء المتن الشمالي من أعمال جبل لبنان الممتدة من الساحل عند إنطلياس، وإلى سفوح جبل صنين حيث بسكنتا، والأخيرة: بحنس، تقع في وسط المتن وأصبحت تعرف اليوم باسم "ضهر الصرّك".

٤ - زجليات ابن القلاعي، تحقيق الأب بطرس الجميل، نشر دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٢) ص ٩١ - ٩٢.

٥ - مسعد، الدر المنظوم، مرجع سابق، ص ٧٢ - ٧٣.

٦ - ابن القلاعي، حروب المقتمنين، المجلة البطريركية (١٩٢٧).

٧ - أبي سمر الّأب جرجس، لمعة جليّة في تاريخ الأسرة العونية، مطبعة المرسلين اللبنانيين (جنوبية، ١٩٤٠) ص ٢٧٠؛ عواد المحامي إبراهيم، أبرشية قبرص المارونية (بيروت، ١٩٥٠).

يوحنا، الذي كان يتنقل بينها وبين بحر صاف وبسكنتا. وفيها أقام الأمير سمعان الثاني الذي كان له حصن آخر في بحر صاف^١.

ويقول العلامة الأب "أنستاس الكرملّي" أنّ المردة أخذوا ببناء بسكنتا في وادي "أبولون" ابتداء من سنة ٦٧٩. وكان أول من سكنها من الأمراء المردة الملك يوحنا، الذي اغتيل بتدبير "يوستينيانوس" ملك القسطنطينيّة. فخلّفه في السكن ببسكنتا الأمير سمعان، الذي مسح بطريك الموارنة ملكاً على كسروان بحضور أمير جبيل وبقية أمراء المردة وأربعين أسقفاً مارونياً^٢، والذي قُتل في موقعة جرت على أرض نهر الكلب بين المردة والعرب، وقد حُمِلَ الأمير إلى بسكنتا ونُقِنَ فيها سنة ٢٨٧١. ومن آثار الأميرين بقايا قصر الأمير يوحنا في محلة "كفريقة" من بسكنتا، الذي اعتبر باحثون^٣ أنّ الرومان قد بنوه قبل أن يسكنه يوحنا^٤، وخرائب قصر الأمير سمعان على قمة "الحصين" في بسكنتا أيضاً، وذكر مؤرخون أنّه قد سكن هذا القصر بضعة أمراء آخرين^٥ إذ يعتقد كثيرون أن هنالك أمراء مردة آخرون قد سكنوا البلدة، ومن آثار هؤلاء الأمراء قصور، معالمها بارزة حتّى اليوم، في منطقة تُعرف بـ "قلعة الحبس"^٦.

١ - عوّاد المحامي إبراهيم، أبرشيّة قبرص، مرجع سابق.

٢ - حبيقة الخوراسقف بطرس، تاريخ بسكنتا وأسرها (١٩٤٦) ص ٩، نقلاً عن البطريرك النريهي.

٣ - شهاب الأمير حيدر، الغرر الحمان في تواريخ حوادث الأزمان (١٩٨٠).

٤ - حبيقة، تاريخ بسكنتا، مرجع سابق، ص ٨.

٥ - تتميز بقايا هذا القصر بضخامة الحجارة الحسنة للنحت، وبالأعمدة للضخمة التي لبعضها تيجان منقوشة نقشاً بديعاً، وحول المكان نواويس بعضها محفور في الصخر الثابت وبعضها مقطوع مسنم بشكل جملون.

٦ - حبيقة، تاريخ بسكنتا، مرجع سابق، ص ٩.

٧ - راجع: مقرّج طوني، الموسوعة اللبنيّة المصوّرة، الجزء الأول، مكتبة البستان (بيروت، ١٩٦٩).

ومن بقايا المردة أيضاً آثار قلعة "العالية" في بحر صاف، في المحلة المعروفة اليوم بالعالية، حيث لم يعد من بقاياها سوى حجارة متناثرة بين مداميك أبنية البلدة. وقد أجمع أكثر المؤرخين على أن بحر صاف قد ازدهرت في عهد المردة ازدهاراً "يبرّر شأنه العظيم أن البلدة كانت مركزاً لأمراء القوم، فلقد جعلها الأمير سمعان والأساقفة الموارنة مقراً لهم في القرن الحادي عشر، ويرتد التقليد أن قلعة بحر صاف التي اتخذها الأمير سمعان حصناً له، هي موروثة عن الإمبراطور يوستينيانوس الأخرم، وقد جند المردة بناءها في سنة ٦٨٥، كما يذكر ابن القلاعي، في المكان المعروف بدرجة بحر صاف"^١. وفي أواخر القرن السادس عشر، بنى أبناء أسرتي "الدنيل" و"قرح"، في بحر صاف، كنيسة صغيرة مسقوفة بالأخشاب على اسم القديس نوحرا، على أنقاض كنيسة قديمة مبنية في أيام المردة، وُجد فيها بقايا أضرحة لمطارنة وكهنة عاصروا العهد الصليبي^٢.

وكان بين تلك القلاع سلسلة من الأبراج، ولم تزل إلى الآن بعض المحلات تحمل اسم البرج أو البريج، تمتد إلى "تابيه" فوق إنطلياس، و"برمانا"، و"مار شعيا" بقرب برمانا، و"العيرون" بقرب "ضهور الشوير"، و"ترشيش" في أعالي المتن، وسواها من قرى هذا القضاء. وفي تلك الحقبة، كانت أشجار الزيتون تمتد من إنطلياس إلى بكفيا، وكان في "بحر صاف"، و"الخلة" بقرب "بعبدات"، و"تابيه" فوق إنطلياس، و"عينطورة" في أعالي المتن، و"المياسة" بقرب بكفيا، وسواها، معاصر كثيرة للزيت، لا تزال آثارها إلى الآن. وكانت الكروم تكسو الجبال من برمانا إلى الشوير وترشيش و"كفر سلوان" و"حمانا" في أعالي المتن وضواحي جبلي "صنّين" و"الكنيسة"، وكانت

١ - بلبيل الشيخ إدمون، تقويم بكفيا الكبرى وتاريخ لسهرا (بكفيا، ١٩٣٥).

٢ - المرجع السابق.

الجنائن تمتدّ من "تبع العرعار" قرب "بعبدات" الى "العطشانة" بقرب بكفيا وضواحيها، وكانت الأثمار الشائعة عندهم التفاح والرمان. ولقد جاء في زجلّيات ابن القلاعي، أشهر من أرّخ لتلك الحقبة:

وبنوا برج على الدرجة	وأسقف بحنس في الخارجة
وفي العرعار كان له فرجه	بساتين تفاح مع رمان
بيروت العتيقة دمسها	وقطع المياه وأعكسها
نحو العطشانة أدرسها	وجدد مزارع مع سكان.

ومن الذين أبرزَ بعضُ قدماء مؤرّخي الموارنة ذكرهم من أمراء المردة: الأمير كسرى الأول الشهير، الذي نُسب إليه تجديد تعمير كسروان، وقيل إنّها سُمّيت باسمه، إذ إنّ هذه المنطقة كانت تُعرف قبله بـ"العاصية" و"الخارجة"، لعصيانها على الدولة، ولخروجها عن طاعتها. وقيل إنّ الذي تولّى الإمارة بعده كان سمعان الثاني الذي جرت له مع جيوش الشام حروب عديدة انتصر فيها، أشهرها معركة "المروج" في أعالي المتن سنة ٧٥٢. وفي السنة نفسها، سار خاله "المقدّم الياس" إلى البقاع، وظفر به وملكه، لكنّه قُتل غدرًا هناك ودُفن في المكان المعروف بـ"قَبّ الياس"، وهو تحريف لـ"قبر الياس"، بحسب هؤلاء المؤرّخين. وقد جاء ابن القلاعي على ذكر هذه الواقعة.

أمّا البطريرك الدويهي، فيتساءل عمّن يكونون أمراء المردة أولئك، الذين عُرِفوا بالمردة لأنهم عصاة، ويجب:

لم نحقق في هذا الأمر في كتب التواريخ المذكورة آنفًا، بل إنّنا عرفنا أصلهم من قصّة يوحنا البطريرك^١، التي تخبر أنّه أرسل إلى قسطنطينيّة ثلاثة رجال مهذّبين

١ - المقصود البطريرك يوحنا مارون.

ليحملوا المظلة فوق رأس الملك، وأنه تتاسل من هؤلاء الثلاثة كثير من الملوك لبني مارون. وأما بعض أسمائهم وأخبارهم فقد نقلناه من كتاب قديم وصل إلينا من المرحوم سالفنا البطريرك "جرجس"^١، نسخة "داود بن ابراهيم" في السنة ١٦٢٦ اليونانية الموافقة للسنة ١٣١٥ المسيحية يتضمن أخباراً مختلفة من جملتها: أنه في ابتداء دولة العرب، كان "يوسف" ملكاً على جبيل، و"كسرى" على "الداخلية"^٢ ومن اسمه سميت كسروان. وكان "أيوب متوالياً قيصريّة فيلبس" و"بيت المقدس" في خلافة "عمر"^٣. وبعد "أيوب" قام "الياس" وهذا أنجد "هرقل" عند قدومه إلى بلاد الشام. ومن بعد هؤلاء دخل على تدبير جبيل وجبيل لبنان "يوسف" الملك واستصحب معه اثني عشر ألف فارس بطل، وسار بهم إلى بلاد أرمينية، وظفر بجيش "سابور" وكان قائده "سرجيس" الأرمني فهدم معاقله وحصونه وسلب نعمته ثم عاد راجعاً. فلما اتصل بسابور ان عسكره ولّى مكسوراً امتلاً غيظاً وحنقاً على سرجيس وأمر به فطرح في نهر "أرسينس" ومات غريقاً. ثم إن عساكر يوسف الملك جازت سواحل البحر والبقاع حتى ولجت بلاد معاوية وشنتت أهلها في كل صقع. ولما توفي يوسف ملك مكانه "يوحنا" وكان أسداً مهيباً. والكتاب المذكور يخبر عنه أن قام بعد يوسف ملك اسمه يوحنا، فاستولى على كل الأرض المقدسة وخرج من جبل لبنان إلى "الكرمل" وفي صحبته جماعة عظيمة قاصدة المسير إلى أورشليم، فوثب عليه لصوص كثيرون من بلاد "الغضبي" وأحاطوا به فوق "برج الغرباء" وأهلكوا من جماعته ثلاثة آلاف بالسيف. ثم إنه تحول على "الغضبي" وعلى بلادهم وقتل منهم تسعة آلاف وسلب الغنائم والبهائم والنساء والأطفال ثم رجع إلى بلاده وسكن في يسكننا. ويضيف الدويهي: فالملخص مما تقدم أن الأمير الذي كان يحكم جبيل قديماً كانوا يسمونه ملكاً بالنظر إلى سطوته. ونقل ابن

١ - جرجس بن الحاج رزق الله البسبي (بطريك ١٦٥٧ - ١٦٧٠).

٢ - الدخلة: من الأسماء التي أطلقت على كسروان.

٣ - عمر بن الخطاب ثاني الخلفاء الراشدين (٦٣٤ - ٦٤٤).

القلاعي أن مقام الملك كان بجبيل وأنه رأى بلاد "الداخلة" في خطر عظيم من "قرضة" بيروت ومن "الدرزي" أمير الغرب، جمع أربعين أسقفًا ليدعوا سمعان ملكًا عليها، فهزم الأعداء وجعل سكناه في بسكنتا بين الحذّين^١، فامتعت بشجاعته ومات شيخًا مجتهدًا، فخلقه كسرى على كسروان وكان بطلاً شجاعًا دخل قسطنطينية فأكرم ملك الروم وقادته وأسنى له الصلات والعطايا وأقامه ملكًا على بلاد "الداخلة"، وحكم أحكامًا عادلة وبه سميت كسروان. وذكر غير ذلك من الأمور أضربنا عنها صحفًا. ويحتمل أنه بعد مجيء يوحنا مارون إلى جبل لبنان وخراب أنطاكية، انتقل البرنس والإفرنج مع ابرهيم الأمير إلى جبيل وسواحل لبنان، لأن أصحاب التواريخ يقولون إنه عند دخول المردة إلى جبل لبنان، تبعهم قوم كثيرون من أباعد وأقارب، ونموا في مدة وجيزة كثيرًا، ولم يكونوا يصونون نفوسهم من "مرازية"^٢ الفرس وصناديد العرب، بل كانوا يظفرون بهم أيضًا ويمرغون أنوفهم في مواقف الطعان، ولقبوا بالمردة لأنهم خرجوا عن طاعة "يستييان" الملك^٣.

ويورد الدويهي في مكان آخر سلسلة الأمراء المردة الذين حكموا حتى نهاية القرن الحادي عشر على الشكل التالي:

يوسف وكسرى وأيوب والياس ويوسف ويوحنا: ملكوا ٦٢٨ - ٦٧٥؛ ثم يعقوب إلى ٦٩٥؛ فإبراهيم ابن أخت القديس يوحنا مارون إلى ٧٢٨؛ وبطرس إلى ٧٥٦؛

١ - أي على الحدود الجنوبية لكسروان.

٢ - مرازية: جمع مرزبان، كلمة فارسية معناها قائد وزعيم.

٣ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٦٩ - ٧٠.

٤ - قال الدويهي في تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق: كان ليوحنا مارون أخت لها ولدان اسم الأول ابرهيم والثاني قورش أما ابرهيم فإنه كان من لرباب السيف رحل إلى لبنان وصار أميرًا على تلك الأماكن تحت رئاسة خاله وسلس قومه سياسة للمقتدر الظافر. ولما رجع ملك الروم عساكره للقبض على خاله قام باثني عشر ألف فارس ونقله من دير القديس مارون إلى قلعة سمار جبيل. ولما أقيمت جيوش الروم في طلبه وانتشرت أعلامهم في بقاع أميرون وثب عليهم الأمير ابرهيم والأمير مسعود برجلهما وثبة الأسود لقساور فصدموا أبطالهم وأخذوا أنفاس شجعانهم وأهلكا صناديدهم.

وموسى إلى ٧٩٠؛ وجرّس ويوحنا إلى ٨٩٠؛ وحنّا وإنّدراوس وموسى إلى ١٠٢٠؛ وعساف إلى ١٠٥٠؛ وموسى وبطرس إلى ١١٩٠^١. أمّا بقية السلسلة فسنوردها في الفصول اللاحقة.

وقد اختصر أحد النسابين المشهورين نسبة المقدّمين الموارنة في لبنان بردهم إلى الأمير ابراهيم المردى المارونى، ابن شقيقة البطريرك يوحنا مارون. وابراهيم هذا، خلف الأمير يوسف على ولاية جبيل بعد تعاقب أربعة أمراء من صلب الأخير هم: الياس، فيوسف الثاني، فيوحنّا، فيعقوب. وقد دام مركز الإمارة الرئيسى لهؤلاء في جبيل والبترون حتّى قدوم "تيمورلنك" بداية القرن الخامس عشر، فانتقل مقرهم إلى جبة بشرى، ومنذ ذلك التاريخ أصبح يُطلق على سلالة أولئك الأمراء لقب مقدّمين^٢. وأصبح مقدّم بشرى يُعتبر المقدّم الرئيس لسائر المقدّمين^٣ الذين كانوا يحكمون المناطق الممتدة من نهر بيروت إلى حدود عكار. ويتّضح لنا من المراجعات التاريخية أنّه قد بقي في وادي العاصي جالية مارونية حتّى بعد انتقال البطريركية إلى لبنان، وكذلك ظلّت جالية منهم في جهات قورش. وكان المنجم الأول في قصر الخليفة العبّاسى المهدي (٧٧٥ - ٧٨٥) والمترجم الذي نقل "إلياذة هوميروس" إلى السريانية رجلاً مارونياً اسمه "ثيوفيلس بن توما" من شمال سورية^٤. ويذكر المسعودي المؤرخ والرحالة العربي البغدادي^٥، والذي كتب تاريخه حوالى ٩٥٠، أنّ "معظم أتباع هذه

١ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٧٩.

٢ - الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٣٣ - ٣٤، ٢٤٤ وما يليها.

٣ - راجع: رحمة الخوري فرنسيس، تاريخ بشري، مطبعة صفدي للتجارة (١٩٥٦) ١: ٢٤٣ - ٢٤٥.

٤ - حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠٤، عن: ابن الجبري، تاريخ مختصر الدول، نشر أنطون صالحاني (بيروت، ١٨٩٠) ص ٢١٩ - ٢٢٠.

٥ - المسعودي، التنبيه والإشراف، مرجع سابق، ص ١٥٣ - ١٥٤؛ راجع: حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠٤.

الطائفة (الكنيسة) يعيشون في لبنان وفي نواحي حمص وحماة ومعرة النعمان. وذكر وليم الصوري، الذي أرخ للصليبيين، أن عدد الموارد بنحو أربعين ألفاً^١. وتحدث رحالة أنه كان في القرن الثاني عشر وتاليه جاليات مارونية في تكريت وفي غيرها من المدن بين دجلة والفرات. وكان في "قاماغوستا" وضواحيها من أعمال جزيرة قبرص جالية مارونية في أوائل القرن الثاني عشر، حيث أنها كانت تملك كاتدرائية عام ١١٢٠، وكان الموارد منتشرين في نحو ثلاثين قرية من قرى الجزيرة^٢. واعتبر حتى أنه من المحتمل أن يكون أولئك الذين هاجروا إلى قبرص كانوا لاجئين فرّوا إلى هناك من اضطهاد العباسيين، ولا سيما في عهد المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١). وسوف يهاجر عدد ملحوظ من الموارد إلى قبرص في زمني الصليبيين^٣ والمماليك. ولا تزال الجالية المارونية في قبرص نامية ولها أسقفية عريقة.

وهكذا يتضح أن الانتشار الماروني، قبل القرن الثاني عشر، لم يكن محصوراً في الجبل اللبناني، كما يتخيل الكثيرون. بل كان منتشرًا في كثير من المناطق المحيطة بلبنان. غير أن وجودهم المركزي كان في لبنان، حيث رأس كنيستهم: البطريرك، ومقدموهم الزمانيون. وقد سيطروا، بشكل أساسي، بعد الفتح الإسلامي، على المنطقة الممتدة من أعالي إهدن في شمال لبنان، إلى نهر بيروت، حيث تذكر المدونات التاريخية أحداثًا عدة جرت بين مقدميهم وبين الجيش العباسي. من تلك الأحداث، ثورة المنيطرة^٤.

١ - A HISTORY OF DEEDS DONE BEYOND THE SEA, TR. EMILY A BABCOCK AND C. KREY (NEW YORK, 1943) - ١

VOL. II, P.459. راجع: حتى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠٥.

٢ - لامنس، تسريح الأبحار، ٢: ٥٥ - ٥٦.

٣ - حتى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٠٧.

٤ - المنيطرة: بلدة قديمة تنسب إليها منطقة جبّة المنيطرة في جرود بلاد جبيل من أعمال جبل لبنان.

في الحقبة العباسية

جاءت ثورة المنيطرة إثر فرض العباسيين، في بداية عهدهم، التدابير الصارمة على المسيحيين. وإذا كان هؤلاء قد تحملوا تلك التدابير، فلم يكن ذلك إلا بحكم أنهم مغلوب على أمرهم. ولقد حاول بعضهم التمرد حيث أمكن، مثلما حصل في لبنان سنة ٧٥٩، عندما شُبت أولى الثورات المسيحية ضد الحكم الإسلامي في قرية صغيرة من أعالي لبنان، إسمها المنيطرة، القريبة من أفقا، الواقعة بين جليل ساحلاً وبلبك شرقاً.

فقد ثار مسيحيو هذه القرية ضدّ تعسف عامل العباسيين وجوره في فرض الضرائب عليهم، واستولوا على عدة قرى في البقاع وتقدّموا نحو بلبك التي كانت مقرّاً لعامل العباسيين. وكان زعيم هذه الثورة شاباً جبليّاً عملاقاً شديداً يُلقب بالملك. وقد نصب له جنود العباسيين كميناً وهو في طريقه، على رأس الثوار، إلى بلبك، فانقضّ عليهم الفرسان ومزقوا شملهم. وكانت ردة الفعل عند العباسيين عنيفة، فإنّ العامل العباسي، "صاع بن علي"، وهو أخو "عبدالله"، القائد العام للجيش العباسي، هاجم القرى الثائرة في منطقة المنيطرة وشتّت سكّانها في طول البلاد وعرضها، ولكنّه لم يتعرّض لدينهم بسوء. وقد كان لهذا العمل العنيف أثر سيّء في نفس الإمام الأوزاعي^١، الفقيه المحدث المشهور^٢. الذي كتب إلى والي العباسي لائماً ومؤنباً بقوله:

... وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان منّ لم يكن مماثلًا لمن خرج على خروجه منّ قتلّت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ما قد علمت. فكيف تؤخذ

١ - عبد الرحمن الأوزاعي (٧٠٧ - ٧٧٤) من لفّة الفقهاء في الإسلام، ولد في بلبك، ترك مذهباً معروفاً به، توفي في بيروت وفنّ في قبة المسجد المعروف باسمه جنوبي المدينة، له كتابا "السنن" و "المسائل"؛ راجع: مفرّج طوني، صاغر التاريخ اللبناني، الموسوعة اللبنانية المصورة، نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠)

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٢٧.

عامّة بذنوب خاصّة حتّى يُخرجوا من ديارهم وأموالهم وحكم الله تعالى أن لا تُزر وزارة وزر أخرى. وهو أحقّ ما وقّف عنده واقتدي به، وأحقّ الوصايا أن تحفظ وترعى وصيّة رسول الله (ﷺ) فإنّه قال من ظلم معاهداً وكلّقه فوق طاقته فأنا حبيبه"¹.

ومن المتّفق عليه، حول ظروف قدوم القبائل العربيّة التي اعتنقت التوحيد الدرزيّ بعد انتقالها إلى لبنان، أنّ الخلفاء العبّاسيّين، وبخاصّة الخليفة العبّاسيّ الخامس هارون الرشيد (خليفة ٧٨٦ - ٨٠٩)، عندما تعرّض عليهم إخضاع المردة لسلطانهم في جبال لبنان، أرسلوا بعض القبائل العربيّة، المعتادة على سكنى الجبال وعلى المحاربة في مواقعها الوعرة، ليتصدّى مقاتلوها للمردة من جهة، وليشاركوا في حفظ الشاطئ والساحل من هجمات البيزنطيّين البحريّة. وكان من بين تلك القبائل، التتوخيّون الذين دخلوا لبنان من الشرق عن طريق البقاع قادمين من الجبال السوريّة، وما لبث رجال تلك القبائل أن تقدّموا حتّى بلغوا المناطق الممتدّة بين حدود البقاع الغربيّة والساحل الجنوبيّ لمدينة بيروت². ونكر مؤرّخون أنّه في سنة ٧٦٠، أقطع الخليفة العبّاسيّ الثاني (٧٥٤ - ٧٧٥) أبو جعفر المنصور جبال بيروت إلى الأمير أرسلان بن مالك من المعرة، وهو جدّ آل أرسلان، أسرة الأمراء الموحّدين الدروز في لبنان. وقد عهد المنصور إلى الأمير أرسلان بحفظ الطريق بين دمشق وبيروت من غزوات المردة، فنزل صَحْب أرسلان في "وادي التيم"³ و"ضهر البيدر"⁴ و"سنّ الفيل"⁵، واتّحد هؤلاء

١ - حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، نقلاً عن البلاذري، ص ١٦٢.

٢ - راجع: الصغير سعيد، بنو معروف (الدروز) في التاريخ، مطبعة الإنقل (بيروت ١٣٧٤هـ).

٣ - وادي التيم: منطقة تمتدّ بين البقاع الغربي شرقاً وسهل مرجييون في جنوب لبنان.

٤ - ضهر البيدر: منطقة جبليّة على الطريق بين بيروت ودمشق، تصل جبل لبنان بالبقاع.

٥ - سنّ الفيل: ضاحية شرقيّة جنوبيّة لمدينة بيروت في ساحل قضاء المتن.

في حروبهم مع قبيلة بني لام (اللخميين) العربية التي كانت قد استوطنت الشوف^١ بعصر الخليفة الأموي الخامس عبد الملك بن مروان (٦٤٦ - ٧٠٥ م.). وقد تفرّق اللخميون في جبال لبنان الغربية واختلطوا بالتّوخيّين. ثمّ قدم من جهات حلب فروع من قبائل شمرّ وتغلب وربيعة وسواها، واتّحدت هذه أيضاً مع اللخميين والتّوخيّين، ومن منطقة "المغيثة"^٢ وظهر البيدر، توزّع أبناء تلك القبائل في مناطق جبل لبنان حتّى بلغوا المتن. وفي سنة ٨٢٠ قدم من الجبل الأعلى الأمير "تبا" ومعه بعض القبائل العربية وسكنوا الجنوب الغربيّ من لبنان^٣. وقد جرت بين هذه القبائل وبين المردة حروب متواصلة، اشتهرت منها معارك "نهر الموت"^٤ وإنطلياس وسنّ الفيل. ويُقال إنّ نهر الموت سمّي بذلك الاسم لكثرة ما وقع في تلك المعركة من قتلى عند مصبه^٥، غير أنّ هذا القول يبدو استنتاجاً واهياً. أمّا في معركة إنطلياس، فقد سقط أكثر من ثلاثمئة قتيل^٦. ويذكر مؤرّخون أنّ أعمال التّوخيّين الحربيّة في مواجهتهم للمردة، جعلت الدولة العبّاسيّة تُقرّهم في الأماكن التي توطّنها من الجبل اللبناني، وتبيح لهم شكل ولاية، اتّخذت لها في ما بعد اسم إمارة. فلما قدّم الخليفة المهدي بن المنصور العبّاسي إلى دمشق، سار إليه الأمير منذر وأخوه الأمير أرسلان (التّوخيّان) وقابلاه في قرية "المزّة"، فاستقبلهما بالبشاشة، وأكرمهما لما بلغه من شدّة بأسهما على

١ - مقاطعة الشّوف: كانت تمتدّ من نهر يتّكين إلى قمّة جبل الشّوف، وكانت تقسم إلى الشّوف الحبيشي وقاعنته المختارة، والسّوبجاني وقاعنته بعقلين.

٢ - المغيثة: محلة قريبة من ضهر البيدر.

٣ - راجع: الصغير سعيد، ص ١٨؛ الأسود إبراهيم، ذخائر لبنان، مرجع سابق، ص ١٢١؛ مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص ٦٧.

٤ - نهر الموت: يطلق هذا الاسم على نهاية نهر بيروت قبل مصبه في البحر، وهي المنطقة الفاصلة بين بيروت الإدارية وقضاء المتن الذي كان في ذلك التاريخ تابعاً لمنطقة كمرون حيث كان يسيطر المورنة.

٥ - الصغير، مرجع سابق، ص ١٩.

٦ - الشّحياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٧٩.

الأعداء، وفي محافظة الطرقات، وأمر لهما بالتوقيع في تقريرهما على ولايتهما. وقد زاد لهما وأجرى لهما الإقامة الكافية^١. وتابع الخلفاء العبّاسيون تشجيعهم القبائل العربية الإسلامية على الاستيطان في لبنان، فأرسل هارون الرشيد منشورا إلى أمير الثغور الشامية وإلى باقي عمّال الشام يقضي بأن يطلقوا التنبيه في البلاد بالرحيل إلى لبنان وسكنائه، لتستدّ قوة أمرته على أهل "العاصية"^٢ هذا الاستنفار، جاء نتيجة زيارة الأمير ابن مسعود وأخيه مالك التتوخيين لقاسم بن هارون الرشيد في "مرج دابق" في سورية، حيث كان معسكره، ويبدو أن الأميرين التتوخيين قد ذهبا يطلبان الدعم بعد المعركة التي حدثت بين المردة والأمير مسعود التتوخي أمير سنّ الفيل، إذ اضطرّ الأمير مسعود بعدها إلى ترك سنّ الفيل والانتقال إلى الشويفات بالرغم من أنه كان قد هزم المردة، بحسب المدوّات، وقتل منهم مقتلة عظيمة، وأحرق بعضا من قراهم السفلى"، وقد حدث ذلك في حوالي ٧٩١ م. ويبدو أن تشجيع الدولة العبّاسية أفاد، فانتقلت جماعة أخرى من القبائل سنة ٨٢٠ م. واستقرت في "قصرنبا"^٣، وبذلك أصبحت القبائل التتوخية مسيطرة على جنوبي نهر بيروت من جبل لبنان، ساحلاً ووسطاً وجبلاً، وأصبح الأمير مسعود متزعمًا الإمارة التتوخية باتّفاق كلمة الأمراء، وقد اشترك هذا الأمير مع الخليفة المأمون في محاربة الأقباط في مصر، ونجم عن ذلك أن الخليفة المأمون أقطعه، بالإضافة إلى إمارته في بيروت والغرب وصيدا، مقاطعة صفد، فأصبح سنة ٨٣١ أمير التتوخيين في لبنان^٤، وكان قد بنى حصناً كبيراً

١ - الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٨٠.

٢ - العاصية: الاسم القديم لكسروان، وأهل العاصية هم المولونة المردة - الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٨١.

٣ - قَصْرُنْبَا: بلدة في البقاع منسوبة إلى الأمير "ب" الذي ذكرناه سابقاً.

٤ - مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص ٦٩ - ٧٠؛ راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢: ٢٦٦ وما يليها؛ الأسود، ذخائر لبنان، مرجع سابق، ص ١٣١ وما يليها.

في الشويفات مُحاطًا بدور وميادين، وبموت هذا الأمير في العام ٨٣٧ ودفنه في الشويفات، اتَّفقت الآراء على إقامة مالك شقيق مسعود بن أرسلان أميرًا خلفًا لمسعود، إلا أن هاني بن مسعود رفض هذا التعيين، وراح يؤلِّب الناس ضدَّ عمه، وقد تطوَّرت هذه المعارضة إلى اقتتال دموي في العام ٨٣٨ شهد معارك قاسية، كانت الحاسمة منها تلك التي جرت في منطقة خلده، وفيها هُزم الأمير مالك، الذي فرَّ مع عياله إلى اللجون من بلاد حارثة، ومنها انتقل إلى مصر واستوطنها، فاستقلَّ هاني بالامارة، وجرت بينه وبين المردة مواقع عدَّة، استحوذت على تقدير الخليفة.

وتتوالى أخبار الأمراء التتوخيَّين الذين قاتلوا المردة بتوجيهات الخلفاء، ومنهم "الأمير النعمان الذي بنى دارًا عظيمة في بيروت، وحصَّن سور المدينة. وفي سنة ٨٧٥ وقع بينه وبين المردة قتال عظيم على نهر بيروت دام أيامًا، حتَّى تراجع المردة بعد أن فقدوا عددًا من القتلى وأسر لهم بضعة مقاتلين، فكتب النعمان إلى بغداد مرفقًا كتابه برؤوس القتلى وبالأسرى. فكانت ردَّة فعل الخليفة المتوكِّل أنه كتب له كتابًا يمدح شجاعته ويحرِّضه على القتال، وأقرَّه على ولايته تقديرًا له ولزريته، وكتب إليه الموفق، أخو المتوكِّل، وسواه من كبار أهل الخلافة، كتبًا يمدحونه عبرها، وأعاد المتوكِّل الرسل معزِّزين مكرمين إلى بيروت، فاشتدَّ أمر النعمان وعظم شأنه".^١

يتبيَّن للمحقِّق في تاريخ لبنان الوسيط والحديث، أن القبائل العربيَّة التتوخيَّة التي نازلت المردة الموارنة في خلال الحقبة العبَّاسيَّة، لم تتازعهم لأسباب دينيَّة أو طائفيَّة، ذلك أن مذهب التوحيد الدرزي لم يكن قد ظهر بعد، ولم يكن التتوخيَّون على شيء من التعصُّب الدينيِّ أو المذهبيِّ حين قاتلوا الموارنة، إنما هم قاتلوهم بتكليف من

١ - الشدياق، أخبار الأعيا، مرجع سابق، ٢: ٢٨٤.

العباسيين الذين أزعجتهم غزوات المردة ذات الأهداف الاقتصادية، وليس الدينية. قبل ذلك التاريخ، كانت الخلافة الأموية قد تعايشت مع المردة بشكل إيجابي واضح من خلال تخصيص موازنة، كانت تدفعها لهم بشكل جزية، ما أوقف غزوات المردة للقوافل العربية؛ وعندما سلك العباسيون نهجاً سلبياً مع المردة الذين عزلتهم الظروف في جبال لبنان القاسية، عاد هؤلاء إلى الغزو، فرأت الخلافة أن ترسل التّوخييين إلى جبال لبنان لينشئوا "حزام أمن" لجنودها وقوافلها. ولكن مع زوال ذلك الظرف، زالت أسباب النّقاتل، فساد سلام طويل الأمد بين تلك القبائل العربية وبين الموارد كان لا يزال قائماً عندما جاء الصليبيون.

المَوارنة بين الفَرَنجة والمَماليك

بين الفَرَنجة والمَماليك؛

التقسيم الإداري للمناطق اللبنانية في الحقبة الصليبية؛
حقيقة علاقة الموارنة بالفرنجة؛ بطاركة الموارنة في الحقبة الصليبية؛
نشوء "مؤسسة" البطريركية على يد البطريرك يوحنا اللحفدي؛
العمشيتي في روما؛ خلفاء العمشيتي؛ أمراء الحقبة ومقدموها؛

بَيْنَ الْفَرَنْجَةِ وَالْمَمَالِكِ

مع إطلالة القرن الثاني للميلاد، كانت أنطاكية حجراً بين الشاقوف الإسلامي من جهة، والشاقوف القسطنطيني من جهة ثانية. فلقد كانت القسطنطينية هي المسيطرة على تلك الكنيسة المستقيمة الرأي التي تعتبر المرجع لكنائس سورية ولبنان، باستثناء الكنيسة المارونية التي كانت قد أضحت علاقتها مباشرة بروما، والكنائس غير الخلقيدونية التي كانت قد استقلت بذاتها، كالكنيسة النسطورية والكنيسة السريانية المونوفيزية. وهكذا فعندما مات البطريرك الأنطاكي يوحنا الخامس سنة ١٠٢٢، بقي الكرسي الأنطاكي خالياً مدة ثلاث سنوات ونصف. ثم تمّ انتخاب خلف له: نيقولاوس الثالث، سنة ١٠٢٥، بطريركاً على أنطاكية، وصلي عليه في القسطنطينية. ويلاحظ أنّ جميع البطارقة الذين تسلّموا كرسي أنطاكية في هذه الحقبة من التاريخ، كانوا يُعيّنون من القسطنطينية.

ولما تمكّن الخلفاء الفاطميون في مصر من طرد الروم من سورية، حتّى أنّهم سيطروا سنة ٣٥٨هـ. / ٩٦٨م. على دمشق، وبالتالي على كامل المناطق اللبنانية باستثناء تلك التي كانت تحت حكم المردة، غدت هذه البلاد تحت سيطرة المسلمين، وتعرّض المسيحيون آنذاك لموجة قاسية من الاضطهادات، وظهر الضعف في دولة الروم. فاضطرّ أباطرة القسطنطينية إلى طلب النجدة من الغرب المسيحي. فلبّت كنيسة روما النداء، ودعت الملوك وأمراء الفرنجة إلى تنظيم حملات عسكرية على نطاق

واسع، هدفها نجدة الروم ضد السلاجقة من جهة، واستعادة الأماكن المقدسة في فلسطين من جهة أخرى. وسُميت هذه الحملات، في ما بعد بالحملات الصليبية. وفي سنة ١٠٩٦، بدأت جيوش الصليبيين تتحرك نحو القسطنطينية. فوصلتها برًا وبحرًا وساعدت الروم على استرجاع الجزء الغربي من بلاد الأناضول من السلاجقة. ثم دخلت بلاد الشام، فاحتلت أنطاكية والرها، ثم توجهت جنوبًا نحو القدس. وفي ربيع ١٠٩٩، وصل الصليبيون إلى عرقا قرب طرابلس^١.

التقسيم الإداري للمناطق اللبنانية في الحقبة الصليبية

توزع لبنان الحالي، في ظل الاحتلال الصليبي، بين مملكة القدس اللاتينية وكونتية طرابلس. وفي داخل كل منهما قامت مناطق إدارية شكّلت وحدات إدارية عُرُفت واحدها باسم سنيورية. أما السنيوريات التي كانت تضم مناطق من التي تشكّل اليوم أرض الجمهورية اللبنانية، والتي كانت تابعة لمملكة القدس اللاتينية فهي:

- ١ - سنيورية الجليل، وهي أهم سنيوريات القدس، عاصمتها طبريا، وتشمل الضفة الشرقية لبحيرة طبريا، وتصل إلى حوران وإلى حدود دمشق. وكانت حدودها الغربية تصل إلى صور، ثم تراجعت إلى تبين قبل أن تصبح هذه سنيورية^٢.
- ٢ - سنيورية تبين، عُرُفت أيضًا بسنيورية حصن طورون TORON الذي أنشاه أمراء الجليل عند حصار صور. انفصلت عن سنيورية الجليل سنة ١١٠٧، وألحقت ببيانياس زمنًا ثم أعيد لها استقلالها^٣.

١ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٦ - ٣٠٧؛ راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ١١٦؛ راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٢ - ٤٧٧: ١ (١٩٧٥)، J. PRAYER, HISTOIRE DU ROYAUME DE JERUSALEM, (PARIS, ١٩٧٥).

٣ - ٤٧٧: ١، PRAYER.

٣ - سنيورية صور، كانت تتصل من الجنوب بسنيورية سكنداليون ومن الشرق بطورون ومن الشمال بنهر القاسمية الذي يفصلها عن سنيورية صيدا^١.

٤ - سنيورية سكنداليون، مقاطعة صغيرة تقع بين صور وعكا. بُني حصنها في خلال حصار صور ووصلت حدودها إلى رأس الناقورة^٢.

٥ - سنيورية صيدا، امتدت من صيدا إلى حدود بيروت الجنوبية وشملت جبل الشوف^٣.

٦ - سنيورية مارون، مقاطعة صغيرة ضمت شرق صيدا^٤.

٧ - سنيورية بيروت، شملت البلدات المحيطة ببيروت وامتدت حتى جسر المعاملتين الذي كان يفصل مملكة القدس عن مملكة طرابلس^٥.

أما كونتية طرابلس فكانت تمتد من نهر المعاملتين جنوباً إلى نهر بانياس شمالاً، ومن البحر غرباً إلى جبال لبنان وجبال النصيرية شرقاً. وتجاوزت الحدود الشرقية لهذه الكونتية في القرن الثاني عشر القمم الجبلية ووصلت إلى قرب شيزر وإلى خط مراقبة طريق حمص - حماة، وتجاوزت خط تقسيم المياه فوصلت إلى قرب بحيرة حمص وإلى ضفاف العاصي^٦. وفي نص الهدنة الموقعة بين متملك طرابلس بيوموند الصليبي والسلطان المملوكي ورد أن كونتية طرابلس الصليبية

١ - المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة، ١٩٦٥ - ١٩٧٢) ١: ٥٥٩.

٢ - محيي الدين بن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق د. مراد كامل، وزارة الثقافة (مصر، ١٩٦١) ص ١٠٣.

٣ - PRAWER, 1: ٤٧٧.

٤ - PRAWER, 1: ٤٨٠.

٥ - PRAWER, 1: ٤٧٧.

٦ - JEAN RICHARD, LE COMTÉ DE TRIPOLI SOUS LA DYNASTIE TOULOUSAIN ١١٠٢ - ١١٨٧, (PARIS, - ٦

GEUTHNER, ١٩٤٥) PP. ١ - ٣.

تتضمّن "ما هو مجاور لطرابلس ومخادر لها من المملكة البعلبكية وجبالها وقراها الرملية والجبلية وجبال الظنين والقصبيين، والقليعات، وحصن عكار، وعلى طرابلس وما هو داخل فيها وأنفه والبترون وجبيل وبلاد ذلك وعرقه وبلادها المعينة في الهدنة وعدتها أحد وخمسون ناحية، وما هو للخيّالة والكنائس وعدتها أحد وعشرون بلدًا وما هو للفارس "روجار دو لا لولي" من قبلي طرابلس"^١. أمّا هويّات السكّان في كونتيّة طرابلس الصليبيّة، من حيث الانتماء الدينيّ، فتعدّدت بين مسيحيّين نساطرة في مدينة طرابلس، وملكيّين في البترون والكورة، وسريان مونوفيزيّين (يعاقبة) في جونية^٢، وموارنة في بلاد جبيل والبترون وبشري وإهدن. واختلطت في هذه المناطق مع الموارنة الذين كانوا يشكّلون أكبر نسبة من سكّان الكونتيّة أتباع لكنائس مسيحيّة متعدّدة. وسكن العلويّون النصيريّون في بلاد عكار وجبال لبنان الشماليّة والوسطى متجاورين مع الموارنة، والإسماعيليّون في القسم الجنوبيّ من جبال النصيرية الشاهقة المعروفة بجبال البهراء، والشيعية في طرابلس وكسروان^٣.

تجدر الإشارة إلى أنّ مملكة القدس ودويلاتها لم تكن خاضعة لأيّ من الدول الغربيّة، بل كانت دولاً محليّة شرقيّة ذات حكم لاتينيّ. وقد اعتبر الفرنجة، عموماً، كلّ من احترام الصليب مسيحياً، محاولين عدم التمييز بين الكنائس، وإن كان بعض تلك الكنائس غير موالٍ لهم. على أنّ الكنائس التي محضتهم الولاء أحياناً، قد جهّزت إدارتهم بموظفين وبممثليّين لدى أمراء الداخل، وكان أبرز هؤلاء: الموارنة.

١ - تاريخ ابن الفرات، نشر قسطنطين زريق (بيروت، ١٩٣٩ - ١٩٤٢) ٧: ٨٢ - ٨٣، ٢١٠ - ٢١١.

٢ - الإبرسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (بيروت، ١٩٨٩) ١: ٣٧٢.

٣ - د. أحمد حطيط نحو مقاربة تاريخيّة لمواقف السكّان في كونتيّة طرابلس من الفرنجة، في كتاب: "المناطق اللبنانية في ظلّ الاحتلال الفرنسي"، منشورات فيلون (لبنان، ١٩٩٧) ص ١٩٨.

حَقِيقَةُ عِلَاقَةِ الْمَوَارِنَةِ بِالْفَرْتَجَةِ

تتأقل مؤرخون ما مفاده أنه لما مرّ الصليبيّون بالساحل الفينيقيّ الممتدّ بين طرابلس وجبيل، سالكين طريق البحر، "نزلت وفود الموارنة لاستقبالهم، وتمّ هناك اللقاء الأول يوم عيد الفصح في ١٠ نيسان (أبريل) من تلك السنة". وأنّ "هذا اللقاء بين الموارنة والصليبيين، كان فاتحة عهد مساندة ووفاق. فتصادق الفريقان، واستمرت علاقات الودّ والمصالح المشتركة وثيقة بين الطرفين طوال حقبة وجود الصليبيين في الشرق"^١. وأنه في صيف ١٠٩٩، احتلّ الصليبيّون مدينة القدس، ثمّ تحوّل فريق منهم شمالاً، فاستولى على مدينة جبيل الفينيقيّة سنة ١١٠٢، وأخضع مدينة طرابلس ١١٠٩. وأنه قد تأسست هكذا مع الوقت في الساحل الفينيقيّ الشماليّ، وبعض مناطق "جبة بشريّ" وطرابلس، إمارةً صليبيّة امتدّت تخومها من "قتوح كسروان" جنوباً إلى منطقة اللاذقيّة شمالاً، ومن مشارف وادي العاصي شرقاً إلى البحر غرباً. فشملت هذه الإمارة معظم المناطق المارونيّة من جبل لبنان^٢.

كما كثرت التأويلات والاجتهادات حول تعاون مزعوم من قبل السكّان الوطنيين، من موارنة وغيرهم، مع الصليبيين. وإذا ما عاد الباحث إلى المصادر اللاتينيّة والعربيّة، يقع في حيرة من الحقيقة على ما في تلك المصادر من تناقضات. غير أنّ باحثاً أكاديمياً معاصراً مستقلاً غاص في مجمل تلك المصادر بدقّة، وخلص إلى الاستنتاج التالي:

١ - الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ١٦.

٢ - صغير الأب د. بولس، للكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣٠٧.

من خلال قراعتي لمواقف الجماعات السكّانية/الطوائف في مدينة طرابلس وجوارها من الفرنجة - ولا أخال أنّ مواقف الجماعات السكّانية في المناطق الأخرى الخاضعة لنفوذ الفرنجة كانت مختلفة نوعاً - أرى أنّ هذه الجماعات/الطوائف، بصرف النظر عن انتماءاتها الدينية والمذهبية، لم تتشكّل، مجتمعة أو منفردة، كتلة متجانسة مع الفرنجة، أو متحالفة معهم. فالتأبّت أنّ مواقف الجماعات الطائفية اللبنانية قد تساوت في بدايات الغزو في مواقفها من الفرنجة، فاختارت جميعها سياسة الانحناء أمام العاصفة، ولم تصمد أمام اندفاع جحافل الحملة الصليبية الأولى، أسوة بحكّام المدن الساحلية التي مرّ بها الفرنجة. وأنّ التغيّرات التي طرأت على مواقف هذه الجماعات/الطوائف لم تكن ناتجة، بالضرورة، عن انتماءاتها الدينية. فقد وقف بعض الجماعات السكّانية/الطوائف، على اختلاف مشاعرهم وتوجّهااتهم الدينية، حيناً إلى جانب المسلمين، وأحياناً إلى جانب الفرنجة، كما تحفّظ بعضهم، أحياناً أخرى، تجاه الطرفين المتصارعين، وذلك تبعاً لمقتضيات المصالح الآنية والمباشرة، وتداعيات التناحر القبلي/العشائري، لا الديني/الطائفي - ولا نستثني، في هذا السياق، أيّاً من الجماعات اللبنانية/الطوائف - وإن كانت مواقف هذه الجماعة/الطائفة، أو تلك، قد تمظهرت، أحياناً، بمظهر ديني أو مذهبي معيّن. كما أنّ أيّاً من هذه الجماعات الآتفة، لم تحقّق مكاسب خاصّة في ظلّ وجود الفرنجة في الشرق، بل إنّ نزعة الاستعلاء وهاجس المنفعة الشخصية جعلاً فرسان الفرنجة لا يحترمون عهودهم ولا يقيمون وزناً للتحالف مع الجماعات المحلية، فأسهموا، بذلك، في إثارة مشاعر الريبة تجاههم وانعدام ثقة السكّان بهم^١.

إنّ هذه الخلاصة التي توصّل إليها الباحث الأكاديمي ليست وليدة موقف سياسي أو انتماي أو عاطفي، إنّما هي نتيجة دراسات علمية معمّقة، لم يتكلّف عناءها الذين

١ - حطيط د. أحمد، نحو مقاربة تاريخية لمواقف السكّان في كونتيّة طرابلس من الفرنجة، في كتاب: "المناطق اللبنانية في ظلّ الاحتلال الفرنسي"، منشورات فيلون (لبنان، ١٩٩٧) ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

تتأقفلوا النظرِيّات التاريخيّة من دون تمحيص أو تحليل. ونورد، على سبيل المثال، نموذجًا من الدراسات النقديّة التي قام بها الباحث قبل توصّله إلى استنتاجه:

من المفارقات الملفتة في كتابات بعض المؤرّخين اللبنانيّين حصرهم "امتياز" الاستقبال الذي جرى لملك فرنسا "لويس التاسع"^١ عند حضوره إلى عكا سنة ١٢٥٠م. بالموارنة دون سواهم من الجماعات المحليّة الأخرى؛ فتحدّثوا عن مسارعة الموارنة إلى استقبال ملك فرنسا، مرّحين بقدومه، وأنجدوه بعشرين ألف مقاتل (وقيل ٢٥ ألفًا)، وأنّ القديس لويس، وجّه رسالة إلى أمير الموارنة ورؤساء كهنتهم، مؤرّخة في ٢١ أيّار ١٢٥٠م. يظهر فيها محبّته للموارنة، وامتداح ديانتهم واتحادهم الدائم مع خلفاء بطرس الرسول، ويعلمهم فيها أنّ "الأمة المارونيّة" هي جزء من الأمة الفرنسيّة، ويتعهّد لهم فيها، باسم فرنسا، بإيلاء الموارنة الرعاية التي يتمتع بها الفرنسيّون أنفسهم. ولا علم لنا أنّ مؤرّخي الحروب الصليبيّة، أمثال: GUILLAUME DE TYR, JACQUES DE VITRY, R. GROUSSET, J. PRAWER, K. SETTON, J. RICHARD, S. RUNCIMAN... قد أتوا على ذكر رسالة بهذا المعنى بعث بها "الملك لويس التاسع" إلى أمير الموارنة، كما أنّه لم يثبت، حتّى تاريخه، وجود مثل هذه الرسالة بين المحفوظات الفرنسيّة العائدة لمرحلة العصور الوسطى. تجدر الإشارة، في هذا السياق، إلى أنّ الزيارة التي قام بها الوفد الماروني إلى عكا لتهنئة "لويس التاسع"، قد جاءت في إطار قدوم وفود عديدة إلى عكا للترحيب بالملك الفرنسي. ومن هذه الوفود، الوفد الذي أرسله مقدّم الإسماعيليّة، أو "شيخ الجبل" حسب تعبير الفرنجة. ومما يذكّر أنّ القديس لويس قد رحّب بالوفد الإسماعيليّ كما رحّب بالوفود الأخرى، وأجاب "شيخ الجبل" على رسالته^٢. وكانت

١ - لويس التاسع Louis IX (١٢١٤ - ١٢٧٠): ملك فرنسيّ، قاد الحملتين الصليبيّتين السابعة والثامنة، وصل إلى دمياط ١٢٤٩، اشتهر بكرمه وشجاعته وصبره وتقواه، اضطُبع في أسفاره كهنة يركلون له الترانيم الدينيّة وهم يحيطون به على ظهور الجياد، توفّي بالطاعون في تونس، طُوب قديسًا ١٢٩٧.

٢ - الدبس، الجامع المفصل (بيروت ١٩٠٢) ٦: ٢٧٤.

المتبادلة بين المسلمين والفرنجة أضحت أمراً طبيعياً، بعد أن خفّت حدة الاحتقان بينهم. فإنّ بن جببر، وأسامة بن منقذ، المعاصرَين للأحداث، قدّما لنا شواهد حيّة على ذلك؛ فتحدّث بن جببر عن العلاقات التجارية التي لم تنقطع بين المسلمين والفرنجة، رغم اشتداد القتال بينهم حتّى في أيّام صلاح الدين^١، فيما أشار أسامة إلى الصلات الحميمة التي جمعتها مع فارس فرنجي من جيش الملك فولك^٢.

بمثل هذا التدقيق، توصّل الباحث إلى خلاصة أنّ "الجماعات/الطوائف، بصرف النظر عن انتماءاتها، لم تشكّل، مجتمعة أو منفردة، كتلة متجانسة مع الفرنجة، أو متحالفة معهم". وفي المجال نفسه، ختم بحائثة أكاديمي آخر دراسته تحت عنوان "نظام الإقطاع الفرنجي" بقوله:

أنّ لنا أن نكتب تاريخ القرنين الثاني عشر والثالث عشر على ضوء الصراعات على المصالح الماديّة دون الاختباء خلف الاعتبارات "الأخلاقيّة" وخصوصيّة العقيدة الدينيّة^٣.

ما يجدر الانتباه إليه هنا، أنّ التعاون الذي كان يحصل في ظروف معيّنة بين بعض القوى الوطنيّة وبين الصليبيّين، لم يقتصر على فريق، فكثيراً ما أمّلت الظروف أو المصالح مثل هذا التعاون بين مطلق فئة وطنيّة وبين الفرنجة خلال قرنين، كانت الأوضاع فيهما تتراوح بين المهادنة والتوتر والنقائل. فعلى سبيل المثال أيضاً، ما ذكره مؤرّخون من أنّ دمشق، وهي تحت سلطة السلاجقة والبوريّين^٤،

١ - ابن جببر، رحلة ابن جببر (القاهرة ١٩٥٥) ص ٢٧٦ - ٢٩٦.

٢ - حطيط د. أحمد، نحو مقاربة تاريخيّة، مرجع سابق، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

٣ - مخزوم د. محمد، نظام الإقطاع الفرنجي، في كتاب "المناطق اللبنانيّة في ظلّ الاحتلال الفرنجي"، فيلون (لبنان، ١٩٩٧) ص ٢٤٩.

٤ - البوريّون: سلالة تركيّة حكمت في دمشق ١١٠٤ - ١١٥٤، أنشأها طغتكين الملقب بأمين الدولة لبى منصور (ت ١١٢٨)، حكم من البوريّين ستّة سلاطين كان أعظمهم بوري بن طغتكين؛ كان أفراد السلالة يلقبون بـ "الأكابك"، عقنوا مع الإمارات الصليبيّة مساهمات سلم، حلّ محلّهم الزنكيّون بعدما طرد نور الدين زنكي آخر الأكابكة مجبر الدين لبق ١١٤٠ - ١١٥٤.

كانت تقيم العلاقات الطيبة مع القدس، وأحياناً كانت تتحالف معها ضدّ الدول الإسلامية^١. كذلك فعلت مدن إسلامية أخرى في حوران وفلسطين مثل "صرخد"^٢ و"بصرى"^٣ و"بانياس"^٤ التي كانت في أيدي الإسماعيليين، فإنّها كانت في بعض الأحيان تطلب العون من الفرنجة الذين كانوا يلّون طلبها^٥. و"كانت قبائل البدو من الصحراء السورية، مثل قبيلة بني فضل الطائيّة، تحارب أحياناً إلى جانب الفرنجة وأحياناً أخرى إلى جانب الفاطميين، وكذلك كان جيش المملكة اللاتينية في بيت المقدس يضمّ، إلى جانب الفرنجة فيه، كتيبة من الفرسان المسلمين الذين كانوا يطلقون عليهم اسم TURCOPULI أي أبناء الأتراك، وكتيبة من المشاة الأرمن وأخرى من حملة الأقواس الموارنة"^٦.

١ - ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق (لبنان، ١٩٠٨) ص ٣٠٨ - ٣٠٩، وهذا المؤرخ كان يحتلّ منصباً حكومياً رفيعاً في دمشق خلال الحقبة التي نحن بصدد الحديث عنها؛ أبو شامة، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، المجلد الأول (القاهرة، ١٢٨٧هـ.) ص ٧٧؛ WILLIAM OF TYRE, VOL. II, PP. 76 - 77, 147 - 148, 224.

٢ - صرّخد أو صرّخد: بلدة سورية ومركز قضاء، ورد اسمها في التوراة، فيها قلعة ومنذّة من عهد الأيوبيين، وفيها خلوة للموحّدين الدروز، وانقاض قلعة صليبيّة.

٣ - بصرى إسكي شلم: مدينة سورية في محافظة حوران، ترجع آثارها إلى العهد الهلنستي، احتلتها الأباط في القرن الأول قبل الميلاد، عاصمة الإقليم العربي في أيام تريانوس ١٠٦ م. كانت مركزاً هاماً للقوافل، أصبحت في العهد المسيحي كرسياً أسقفياً ذا شأن، اشتهرت بكنيستها في القرن السادس، فتحها العرب ٦٣٢، دخلها الصليبيون ١١٤٦ و ١١٨٢.

٤ - بانياس: أو قيصرية أو قيسارية فيليبوس: بلدة في سورية قرب نبع الأردن على سفح جبل الشيخ، ترجع إلى العهد اليوناني، اتّخذت اسمها من الإله "بان" الذي كرّست له مغارة ونبع مياه فيها، شيد هيرودس فيها هيكلًا لأغوستس قيصر وازدهرت في عهد ابنه ليليئس فدعيت بـ"قيصرية فيليبس"، فيها سكّم المسيح السلطة لبطرس، احتلتها الصليبيون وأعدوا بناء قلعة الصنيبة أو قلعة بانياس ١١٣٠، استعادها العرب ١١٣٤.

٥ - ابن القلانسي، مرجع سابق، ص ٢٨٩ - ٢٩٠، ٣١٤، ٣١٦؛ أبو الفداء، مرجع سابق، ٣: ٢ - ٣؛ ابن خلدون، كتاب العبر وديونلن المبتدا والخبر (القاهرة، ١٢٨٤هـ.) ٦: ٦.

٦ - حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٦٣، بالإستناد إلى: DE VITRY JACQUES, THE HISTORY OF JERUSALEM, TR. AUBREY STEWART (LONDON, 1896) P. 79.; DIB, L'ÉGLISE, OP. CIT. P., 94.

ومن أخبار المؤرخين أيضاً، أنه في سنة ١٢٤٤، سَلِمَ الملك الصالح إسماعيل الأيوبي، سلطان دمشق، إلى الفرنجة صيدا وصفد مقابل أن يحموه من نسيبه الملك الصالح أيوب، سلطان مصر، الذي كان عزله واستولى على دمشق.

ومنها أيضاً، أنه لما كان الملك الفرنسي "لويس التاسع" في عكا أثناء قيادته لجيش صليبي، استقبل في "مصيف"^١ وفداً من قبل زعيم "الحشاشين"^٢: "سنان"^٣ الملقب بـ "شيخ الجبل"، حمل إليه هدية: فيلاً وزرافة من البلور وكهرمان ولعبة نرد وشطرنج وخاتماً وقميصاً؛ أما الخاتم فيرمز إلى اتحادهما وتحالفهما، وأما القميص فيرمز إلى أن ملك فرنسا قريب إلى شخص زعيم الحشاشين قرب القميص من الجسم. وقد بعث الملك لويس بهدية إلى زعيم الحشاشين هي كناية عن مجوهرات وقماش قُرْمَزي اللون وأقداح من ذهب ولجام من فضة^٤.

نكتفي بهذه الأمثلة لنشير إلى أن العلاقات، بين الفرنجة والموارنة، برأينا، لم تكن كما تناقلها العديد من المؤرخين، فريدة في نوعيتها، وتحالفية بالشكل الذي صُوِّرت به.

١ - مصيف أو مصيّد: بلدة سورية على سفح جبل النصيرية الشرقي، هي حالياً مركز قضاء في محافظة حماة، معروفة بقلعتها، احتلتها الحشاشون ١١٤٠ - ١١٤١، اتخذها رشيد الدين سنان المعروف بشيخ الجبل مقراً له، أصبحت مقرّ حامية في عهد للمماليك، معظم سكّانها اليوم من الإسماعيليين.

٢ - الحشاشون ASSASSINS: لقب أطلق على الإسماعيليين النزاريين أتباع الحسن بن الصباح وخلفائه، والتسمية مأخوذة من الكلمة الفرنجية وهي بمعنى فاك، أطلقها عليهم الصليبيون لاشتهارهم بالاغتيال، يبدأ تاريخهم باحتلال "الموت" ١٠٩٠ على يد الحسن بن الصباح. اشتد نفوذهم بعد اغتيالهم للوزير السلجوقي نظام الملك ١٠٩٢. عمل السلاجقة على إخضاعهم عيناً فاستولوا على قلاع مصيف وعلقة وشمس ١١٤٠ - ١١٤١، عُرف رئيسهم بلقب "شيخ الجبل"، كسرهم المغول ١٢٥٦ - ١٢٦٠، ووجه إليهم ييبرس الضربة القاضية ١٢٧٢.

٣ - رشيد الدين سنان (ت ٥٨٨هـ / ١١٩٢م): زعيم إسماعيلي، ولد بالقرب من البصرة وتوقّى في مصيف، جاء من إيران ١١٦٢ ممثلاً لشيخ قلعة "الموت" شمال بحر قزوين، استولى على عدة قلاع في الشام حكمها الإسماعيليون النزاريون حتى وفاته.

٤ - حشّ، لبنان في التاريخ، ص ٢٧١ - ٢٧٢، مرجعه: JOINVILLE, SECS. 456 - 458

بل كانت علاقات مصالح متبادلة، مثلها مثل أي علاقة أخرى بين الفرنجة وسائر الفرقاء من المجتمعات / الطوائف التي كانت تتناحر على أرض الشرق يومذاك. بيد أن المسيحيين عموماً، عندما أحكم الصليبيون سيطرتهم على بلاد الشام، انتعشت عندهم حرية إقامة الشعائر الدينية بعدما كانت مكبوتة بسبب الشروط التي وضعها بعض الحكّام المسلمين. وإذا أصبح الاتصال بروما متيسراً، توطدت علاقات الكنائس الخلقيدونية، ومنها الكنيسة المارونية، مع الكرسي الرسولي. وقد فصل باحثون^١ تلك المتغيرات بمظاهر عملية منها: أن الموارد أخذوا يبنون الكنائس بحرية تامة ويشيدون الأديرة في مختلف المدن الساحلية والقرى الجبلية. وأصبحوا، منذ ذلك الحين، "يدقون في أجراس من نحاس للصلاة والقداس الإلهي بدلاً من الخشب، لأن الدول الإسلامية كانت تمنع رعاياها المسيحيين من استعمال الأجراس النحاسية وتجبرهم على الاستعاضة عنها بنواقيس من خشب"^٢. وازداد الموارد تقرباً من كنيسة روما والأخبار الأعظمين، بعد أن تأمنت لهم طرق المواصلات، وأزيل خطر القرصنة البحرية، وأبعد عنهم حق الخلفاء والولاة المسلمين. وقد توطدت هذه العلاقات بتبادل الرسائل بين الفريقين من جهة، بعد أن بلغت رسائل الأخبار الأعظمين إلى بطارقة الموارد، ما فوق الخمس عشرة رسالة في عهد الصليبيين وبعده بقليل^٣، وبإيفاد القصاد والممثلين بين الفريقين من جهة ثانية. وكان البطريرك يوسف الجرجسي، المقيم في دير سيدة يانوح سنة ١٠٩٩^٤، أول من سعى إلى هذا التقرب بإيفاده من

١ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

٢ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، ص ٣٠٨، بالاستناد إلى: الدويهي، تاريخ الأزمنة، طبعة فهد، مرجع سابق، ص ١٠٤.

٣ - صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٨، ولورد هنا هذه الحاشية: هذا ما أكده جبرائيل ابن قلاعي في رسائله إلى البطريرك سمعان الحنثي سنة ١٤٩٤.

٤ - سبّتي الكلام حوله أذناه في مجال تعداد البطارقة الذين جلسوا في الحقة الصليبية.

يمثله مع الوفد الصليبي الذي ذهب إلى روما ليزفّ إلى البابا أربانس الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩) بشرى دخول القدس. ولما عاد ممثل البطريرك من روما حمل له من عند قداسة أبي المؤمنين تاجًا وعصًا. وبالمقابل، تكرر إيفاد القصاد الرسوليين والممثلين البابويين إلى البطارقة الموارنة في أيام هذا البطريرك وخلفه غريغوريوس الحالتي، كما سيأتي. وقد توجت علاقات البطارقة الموارنة بالأخبار الأعظمين في أيام الصليبيين، عندما وجّه البابا اينوقنطوس الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) دعوة خاصة إلى البطريرك إرميا العمشيتي لحضور المجمع المسكوني اللاتراني سنة ١٢١٥. فلبى البطريرك الدعوة، وسافر إلى المجمع وحضر بعض جلساته^١.

ويختصر باحث كنسي ماروني معاصر^٢ شكل العلاقة بين الموارنة والفرنجة في خلال الحقبة الصليبية التي "لم تدم عهد الصليبيين أكثر من مئة وخمسين سنة في الشرق"، بأنّ الموارنة لم ينعموا، طيلة هذه المدّة، بأيّام رخاء وسلام... بل كانت لهم مواقف متناقضة من الفرنجة بحيث كان يناصرهم فريق ويخاصمهم فريق آخر. ولكنّ هذا التناقض في المواقف لم يوفرّ عليهم نقمة المماليك الذين عرّفوا بعدائهم المتواصل للموارنة أصدقاء الصليبيين".

وقبل أن تبرز دولة المماليك إلى الوجود منتصف القرن الثالث عشر، وهي الدولة التي سيتعرّض الموارنة في ظلّها لأقسى نكبة أصابتهم في تاريخهم على الإطلاق، كانت البلاد الشرقية برمتها قد شهدت اجتياحًا صاعقًا من قبل فريق ثالث لا علاقة له بالمسيحية ولا بالإسلام، إنّهُ اجتياح المغول.

١ - صغير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

٢ - صغير الأب د. بولس، المرجع السابق.

بَطَارِكَةُ المَوَارِنَةِ فِي الحَقَبَةِ الصَّلَيبِيَّةِ

كان البطريرك يوسف الجرجسي (١١٠٠ - ١١٢٠)^١ أول بطريركٍ مارونيٍّ جلس في القرن الثاني عشر. وقد جعل مقرّه في قرية يانوح*. وجاء في التواريخ الكنسيّة المارونيّة أنّ قصّاده وصلوا إلى روما مع قادة الملك "غودفروا"^٢، وأنّه قبل التّاج والعصا من البابا مع التّثبيت، وأنّ في عهده تعاون الموارنة مع الصليبيين، وأنّه كان يدير الطائفة المارونيّة ومقدّمها، وأنّ في عهد بطريركيّته استعمل الموارنة النواقيس النحاسيّة بدلاً من آلات الخشب، وراحوا يبنون الكنائس والأديرة والمدارس^٣، وتعرّز وضع المسيحيّين في المنطقة، وأصبح الموارنة أحراراً في إدارة شؤونهم الروحيّة والزمنيّة برئاسة بطريركهم. وقد حافظ الصليبيّون على امتيازات البطريرك المارونيّ واحترموه، إذ رأوا فيه رئيساً دينيّاً وسياسيّاً لأمتّه، ورمزاً لوحدها القوميّة^٤.

خلف البطريرك يوسف الجرجسي بعد وفاته، البطريرك بطرس الأوّل، الذي انتُخب سنة ١١٢١، فنقل الكرسيّ البطريركيّ من يانوح إلى دير "سيّدة إيليج"^٥. وهذا الأمر ثابت ممّا كتبه هذا البطريرك في خطّ يده ومفاده أنّه "حضر أمامه إلى دير سيّدة ميفوق القسّ سمعان وسمّاه رئيساً على دير قبرص"^٦.

١ - جاء في بعض المودتات أنّ بداية ولايته كانت سنة ١٠٩٩.

٢ - غودفروا أو غُفريد GODEFROY (نحو ١٠٦١ - ١١٠٠): لين أسطلاخيوس الثاني أمير بولونيا ودوق اللورين، من قادة الحملة الصليبيّة الأولى، نودي به ملك القدس ١٠٩٩ ففضل لقب حامي القبر المقدّس، توفّي في القدس.

٣ - الدريهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، تاريخ سنة ١١١٢.

٤ - فهد، بطاركة الموارنة، ١: ١٥١ - ١٥٢، عن REY، تاريخ المستعمرات الفرنسيّة، ص ١٢؛ داغر، بطاركة، مرجع سابق، ص ٢٥.

٥ - فهد، بطاركة الموارنة، ١: ١٤٩ - ١٥٢؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، تاريخ سنة ١١٢١.

٦ - داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٢٦.

أما دير "سيّدة إيليج" في ميفوق، الواقعة في شرق شمالي منطقة بلاد جبيل على متوسط ارتفاع ٨٥٠ مترًا عن سطح البحر، فالراجح أنّه مبنيّ على أنقاض هيكل وثنيّ كان مكرّسًا لألهة الشمس^١. وقد وصف هذا الدير بأنّه أعرق كراسي البطريركيّة المارونيّة في لبنان، كما وصف بأنّه ليس صرحًا، بل هو إلى المغارة أقرب شكلًا، لم يبنَ على قمة بل في ملتوى الوادي، في مضيق بين جبال عاصية، حجارته من "الدبش" بلون التراب حتّى لا يُعرف، تحت شجرات الجوز والدلب القديمة. حائطه الشرقي ضفّة النهر الفاصل بين بلاد جبيل والبترون، تدخل إلى الكنيسة بعكس السير من الشمال في الوادي تحت قنطرة عتيقة. وفي هذا الدير عاش البطارقة الموارنة بين سنة ١١٢١ وسنة ١٤٤٠، وكان مقرّ البطريرك داخل الهيكل، يرقى إليه بدرج وضيق يوصل إلى غرفة بئسة كانت كلّ قصره من الدنيا. وعلى الحائط العالي للدير كتب بالسريانيّة خطّ يورّخ زمن تجديد البناء، وهذا تعريبه:

باسم الإبن الحيّ الدائم، في سنة ١٧٤٦ ميلاديّة، تجدد هذا الهيكل على أيدي الأخوين أمّون ومانبلا (أوميخائيل، أو منيع) وهو من صنع أربعة بطارقة: بطرس وأرميا ويعقوب ويوحنا سنة ١١٢١^٢.

١ - ذكر الخوري ميشال الحايك، في مجلّة الرعيّة، عدد ١٤٣، أيار (مايو) ١٩٧٨، ص ١٣ وما يليها، أنّ بعض الباحثين ردّ لاسم "إيليج" الذي ورد في عداد الأمكنة الأسقفية من بلاد ما بين النهرين، حسب الكتابات السريانيّة، إلى اليونانيّة، على أنّ يكون محرّفًا عن "هيليوس HELIOS" أي الشمس. وهناك لفظة ألمانيّة مأخوذة دون شكّ عن اليونانيّة تقرب من كلمة إيليج، ومعناها: القداسة، كمعنى قديشا بالسريانيّة. وسيّدة إيليج، أي السيّدة القديسة، هي في التاريخ الماروني قبل قديشا، أو هي قديشا الأولى.

٢ - أكّد باحثون على أنّ "الكتاب في الرسالة إلى العبرانيّين ١١: ٣٢ قد تتبّأ عن هؤلا البطارقة حيث قال: إنّهُ ليضيق بي الكلام لو جنّت أخبر عن دانيال وأرميا وشمعون ويوحنا... أولئك الذين بالإيمان قهروا الممالك، ونالوا المواعيد، وسخّوا لشداق الأسود، وأخذوا حدة النيران، فمنهم غُيّبوا ولم يشأوا النجاة بأنفسهم رغبة منهم بقيامة أفضل، وآخرون ذقوا المسخريّة والسيّاط والقبور والسجون، آخرون رجعوا ونشروا أو ماتوا تحت النطع، وتشكّروا لأبسين جلود الختم، معوزين، مضايقين، مجهودين، ثلثين في البراري والجبال والمناوير وكهوف الأرض. هؤلا لم يكن العالم يستحقّهم: إنّنا لأجلك نصلّت كلّ يوم، وقد حسبنا كالختم الذبيح. الخوري ميشال الحايك، مجلّة الرعيّة، عدد ١٤٣، أيار (مايو) ١٩٧٨، ص ١٣ وما يليها.

يفهم من هذا التاريخ أن بداية بناء الدير كانت سنة ١١٢١، وكان تجديده في عام ١٧٤٦. أمّا نهاية بنائه فيدلّ عليها خطّ آخر، كتب بالسريانية أيضاً على بلاطة لصقها المجندون على المدخل فوق القنطرة، بشكل مقلوب، فأصبحت خطوطها تُقرأ من أعلى إلى أسفل، وهذا تعريبها:

باسم الله الحيّ إلى الأبد. في سنة ١٥٨٨ يونانيّة، أي سنة ١٢٧٧ ميلاديّة، تمّ هذا البناء، بناء دير والدة الله مريم، صلاتها معنا آمين، على أيدي الخطاة داود و... وس... (هذا الاسم غير مقروء) وبطرس ويوحنا^١.

ويذكر مؤرخون أن في عهد البطريرك بطرس، قدم من بلاد الترك الأمير فارس ليحتل أنطاكية، فخرج لمحاربته "بلدوين" ملك القدس الفرنجي وكان النصر حليفه^٢.

خلف البطريرك بطرس على كرسيّ البطريركيّة المارونيّة، بعد وفاته، البطريرك غريغوريوس الحالتي (١١٣٠ - ١١٤٠)^٣، المنسوب إلى بلدة "حالات" في ساحل قضاء جبيل. وقد نقل الخوراسقف داغر^٤، عن العلامة المارونيّ مرهج بن نمرون البائي^٥ في كتاب "سلاح الإيمان" أن هذا البطريرك أرسل، في سنة ١١٣١، وفداً ليهنئ

١ - الخوري ميشال الحايك، مرجع سابق؛ راجع: للنبس، الجامع المفصل، مرجع سابق، ١: ١٢٨؛ وراجع: فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٥٣ - ١٥٤.

٢ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٢٦.

٣ - جاء في بعض للمراجع ١١٣٠ - ١١٤١.

٤ - حالات: بلدة ساحليّة على مقربة من مدينة جبيل جنوباً.

٥ - داغر، تاريخ البطارقة، مرجع سابق، ص ٢٦.

٦ - المطران جرجس بن نمرون البائي (ت ١٧٢١): إسمه قبل الأسميّة مرهج، درس في روما، أسقف إهدن، عاش في زمن البطريرك النوبي الذي لقبه بالكلروز، ذكره الخوري يوسف مارون النوبي في رسالته الشهيرة على لثته من علماء عصره، عرب "ميزان الزمان وقسطلس أبنية الزمان"، وله "سلاح الإيمان"، وأصل الموارنة وديانتهم (روما، ١٦٩٧)، توفي في حلب.

البابا زخيا الثاني^١ بارتقائه إلى السدة البطرسيّة ويلتمس له درع كمال الرئاسة. وإذا كان قد حصل انشقاق عرضي في الكنيسة الرومانيّة^٢، وانتخب بابا معارض للبابا الشرعي، قال البطريرك الدويهي إن الكاردينال "غوليلمس" قدم إلى الأمصار الشرقيّة الشاميّة حاملاً إلى البطريرك غريغوريوس درع التثبيت مع رسالة يطلب بها منه أن يوقع صكّ الإعتراف بصحة انتخاب البابا زخيا وأداء يمين الطاعة له^٣. وعلى يدّي ذلك الكاردينال "حلف البطريرك غريغوريوس حالاتي وأساقفته" اليمين المطلوبة، ووقعوا بذلك صكاً حفظ في خزانة الفاتيكان مع الصكوك التي وقعها أساقفة الغرب". وقال محققون أنّ ذلك التوقيع جرى في مدينة طرابلس سنة ١١٣١، حيث انتقل البطريرك ورؤساء الملة المارونيّة وعلماءها وحلفوا الطاعة للبابا على يد الكاردينال المذكور، وأعطوه خطوط أيديهم أنهم لا يتمسكون بغيره، ولا يكرزون إلاّ باسمه، وهكذا اقتدوا بالفرنجة من الإمارات الساحليّة، مبايعين البابا الشرعي ضدّ مغتصب الحبريّة العظمى^٥.

إنّ وفاء الطريرك غريغوريوس، انتخب يعقوب الراماتي بطريركاً خلفاً له (١١٤١ - ١١٥١)، وقد أقام في ميفوق. وهو منسوب إلى قرية رامات الواقعة اليوم في قضاء البترون بقرب بلدة جران المجاورة لدير كفيفان. ومن آثاره وثيقة مكتوبة

١ - زخيا أو إنيوكتيوس أو إنيوشنسيوس الثاني، بابا روما ١١٣٠ - ١١٤٣، نشأ في عهد بابوان معارضان: فلكليّس الثاني ١١٣٠ - ١١٤٣، وفيكتور الرابع ١١٣٨.

٢ - راجع: الجزء العاشر من هذه الموسوعة؛ وراجع: داغر، بطريركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٢٧.

٣ - فهد، بطريركة الموارنة، ١: ١٥٦، مرجع سابق، عن: الدويهي، ردّ التهم، للشرح المختصر، ص ٣٠٦.

٤ - نحن نشكّ في إمكانية أن يكون في الكنيسة المارونيّة أساقفة في ذلك للتاريخ، وحجّتنا في ذلك أنّ البطريرك يوحنا اللحفدي الأوّل (١١٥١ - ١١٧٣) كان أوّل من رسم الأساقفة كما سيأتي، وأنّ جميع البطريركة المنتخبين قبله لم يكونوا أساقفة.

٥ - الخوري ميشال الحايك، مرجع سابق؛ راجع: الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

بخطّ يده بالكرشونية^١ على هامش الصفحة ٣٠٧ من المجلّد الأول من مؤلّف "مار يعقوب السروجي"، جاء فيها: "لمّا كان تاريخ سنة ١٤٥٢ لليونان، أي ١١٤١ للميلاد، في شهر تمّوز (يوليو) المبارك، في عشرة أيّام مضت منه، حضر إلى عندي أنا بطرس بطرك الموارنة الجالس على الكرسي الأنطاكي باسم يعقوب من قرية رامات من عمل البترون الولد الراهب "دانيال" من رهبان "دير كفتون"، وقد أعطيته سلطاناً من الله ومن حقارتي، بأن يكون رئيساً ومدبراً على دير مار يوحنا الكوزبند في جزيرة قبرص المحروسة"^٢. وفي عهد هذا البطريرك توفيّ القسّ "عبدالله أبو الفرج الماروني" المعروف بـ"ابن الطيّب"، وهو الذي ترجم الأنجيل وشرح كتاب أرسطو في المنطق وكتب غالينوس في الطب. وقد قال فيه "جمال الدين القاضي": "إنّه أحيا من هذه العلوم ما قد دثر وأبان ما خفي. وشهد "ابن بطلان" الطبيب النصرانيّ البغداديّ، تلميذ ابن الطيّب هذا، بأنّ معلّمه لبث عشرين سنة يجهد فكره في تفسير ما وراء الطبيعة، وفي آخر حياته اعترف بأنّه خدع بترهات ابن البطريق"^٣.

نشوء "مؤسّسة" البطريركيّة

على يد البطريرك يوحنا اللحدي

أمّا الذي خلف الرّاماتي بعد وفاته، فكان البطريرك يوحنا اللحدي الأول (١١٥١ - ١١٥٤)، وهو السابع باسم يوحنا أو يوحنا مارون. وقد تميّز هذا البطريرك المنسوب إلى بلدة لحفد^٤ التي جعل كرسيّه فيها بدير مار الياس، بأنّه كان ذا مكارم وفصاحة،

١ - لكرشونية: لغة عربية مكتوبة بالحرف السرياني.

٢ - فهد، بطاركة الموارنة، ١: ١٥٨، عن: سلسلة لأبتي العنيسي، ص ١٧، وعن كتابه الإيطالي: مجموعة البيّنات المارونيّة، ص ٢١.

٣ - داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٢٧.

٤ - لحفد: بلدة جبليّة تقع بين جاج وميفوق، على متوسط ارتفاع ١,٠٠٠ متر عن سطح البحر، كان منها أربعة بطاركة ومقتمون لشهرهم المقتم سعادة للحفدي، والمطران جبرائيل ابن القلاعي الشهير.

كما وصفه الدويهي. وبالرغم من أنه جعل إقامته في لحفد، بقي يتردد على كرسي سيّدة إيليج في ميفوق. وفي مدّة ولايته القصيرة رقى أربعة أساقفة لمعاونته في تدبير الشعب وأسكنهم في لحفد. وبذلك يكون البطريرك يوحنا اللحفدي الأول قد حول البطريركيّة إلى مؤسسة، وجعل من لحفد مقراً لها، ذلك أنّه أسكن فيها الأساقفة الأربعة الذين رسمهم، فكان أحدهم في دير القديس حوشب، والثاني في دير القديس سمعان، والثالث في دير القديس أليشاع، والرابع في دير سيّدة المرج. إذ لم يكن في تلك الأيام من تقسيم قانوني للأبرشيّات فكان البطريرك يدير الطائفة ويشرف على إدارة كلّ مطران بملء سلطانه^١. وبقياً تلك الأديار التي سكنها الأساقفة لا تزال موجودة. ويُشار إلى أنّ دير مار الياس في لحفد، الذي جعله البطريرك يوحنا مقراً له، هو خامس دير في تاريخ الكنيسة المارونيّة بعد دير البلور على العاصي، والثاني دير مار مارون كفرحي، والثالث دير سيّدة يانوح، والرابع دير سيّدة إيليج في ميفوق. وبقياً دير مار الياس هذا لا تزال بائلة بجوار كنيسة مار الياس في لحفد إلى اليوم. ويُنسب إلى هذا البطريرك كتابة النافور^٢ للقدّاس، وهو النافور الذي يبدأ بـ "أيّها الإله الكلّي القدّاس" وهو مثبت في كتب القدّاس الموجودة في دير قنّوين^٣. ووُصف هذا البطريرك بأنّه كان حازماً وفصيح اللسان، وماهراً في تفسير آيات الكتاب المقدّس، ومتضلّعاً في علم القانون الكنسيّ، ومهتماً بتنظيم الرتب والطقوس البيعيّة^٤. وكان قد نقل كرسيّ البطريركيّة المارونيّة من سيّدة إيليج في ميفوق إلى دير مار الياس في

١ - داغر، تاريخ البطارقة، مرجع سابق، ص ٢٨.

٢ - نَافُور: لفظة يونانيّة مضاهة القربان والتقدمة، ويراد به أيضاً صلوات القدّاس من بعد "تؤمن" إلى نهاية القدّاس، وهو يتأبّل "قانون القدّاس" عند اللاتين.

٣ - النيس، الجامع المفصل، مرجع سابق، ١: ١٢٢.

٤ - السمعاتي، المكتبة الشريفة، ١: ٥٢٨.

لحقد سنة ١١٥١، ريثما يتّم، في قرية "هابيل"^١، بناء كرسيّ بطريركيّ دائم^٢. ولم نجد في المراجع التي بين أيدينا أيّ ذكر لاتّصال هذا البطريرك بروما أو لنيله التّثبيت والبراءة منها.

يبدو من متابعة سلسلة البطارقة الموارنة أنّ البطريرك الذي خلف يوحنا اللحفدي الأوّل، سنة ١١٥٤، والذي جعل كرسيّه في دير سيّدة إيليج بميفوق بقرب لحقد، وهو البطريرك لوقا بطرس البنهراني المسمّى بطرس الثاني (١١٥٤ - ١١٧٣)^٣، قد وقع ببدعة "أبولينارُس"^٤، ما أدّى إلى انشقاق عابر حصل في عهده داخل الكنيسة المارونيّة. أمّا البطريرك الذي خلف البنهراني سنة ١١٧٣، وهو بطرس الثالث اللحفدي، كان أحد الأساقفة الذين عيّنهم يوحنا قبل وفاته. وإذ جلس بطرس في دير سيّدة ميفوق^٥، يتّضح أنّ أمر البدعة الأبوليناريّة كان قد انتهى داخل الكنيسة المارونيّة. وقد جلس بطرس اللحفدي حتّى سنة ١١٩٩. وكان هذا البطريرك على نقيض البنهراني، وعلى خطى يوحنا اللحفدي، متمسكًا بالإيمان القويم. وأبلغ روما أنّ الموارنة متمسكين بالكاثوليكيّة القويمة، وطلب من روما درع التّثبيت^٦.

١ - هابيل: قرية في وسط قضاء جبيل، بالقرب من بلدة ميفوق.

٢ - الخوراسقف داغر، تاريخ البطارقة، مرجع سابق، ص ٢٧ - ٢٨؛ سلسلة البطارقة، للدويهي، ص ١٢٢؛ فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٥٨.

٣ - فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٥٩. داغر، تاريخ البطارقة، مرجع سابق، ص ٢٧.

٤ - أبولينارُس: أسقف أوديسة (توفي حوالي ٣٠٩) كدّ أنّه بينما كان للمسيح جسد بشريّ حقيقيّ وروح بشريّة حقيقية، فإنّ الكلمة (LOGOS) تحلّت في شخصه المقتس مكان النفس التي هي أسمى جزء في الإنسان؛ راجع: الجزء الثامن من هذه الموسوعة.

٥ - العنيسي، سلسلة البطارقة، ص ١٨، وكتّاب الليّنات، ص ٢٢.

٦ - راجع: فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٥٦ - ١٧٣.

العمشيتي في روما

خلف بطرس الثاني اللحدي على كرسي أنطاكية الماروني البطريرك إرميا العمشيتي (١١٩٩ - ١٢٣٠). وكان هذا البطريرك قد وُلد في عمشيت ونشأ وترعرع فيها، وقيل إنه عبدالله بن خير الله عبيد^١. عندما شبّ نزعت نفسه إلى الحياة النسكية، فترهب وشاد بمساعدة أخويه داود ويوسف في عمشيت كنائس وقلالي ومحابس، وكانت تشتمل على ثلاث كنائس هي: كنيسة سيّدة البحار، وكنيسة مار يوحنا، وكنيسة القديس زخيا، وتُعرف جميعها اليوم بكنائس مار زخيا^٢، واستحبس هناك مدة^٣، ثم انتقل إلى محبسة سيّدة إيليج في ميفوق. وقد حصل التباس حول تاريخ انتخاب هذا البطريرك، إلا أن الدراسات والتدقيقات دلّت، بحسب بعض الباحثين، على أن انتخابه جرى في دير سيّدة إيليج بميفوق سنة ١١٩٩، ثم انتقل منه إلى دير سيّدة يانوح^٤. وفي عهده أرسل البابا زخيا الثالث^٥ معتمده الكردينال بطرس لتفقد شؤون المواردنة،

١ - ذكر فهد، بطارقة المواردنة، مرجع سابق، ص ١٧٤، أن هذا البطريرك من أسرة عبيد العمشيتية، وأن في المخطوطات القديمة نسب ينكر أن عائلة عبيد التي نشأ منها المترجم، إهنّة الأصل، أتى بعضها إلى عمشيت، وأن البطريرك إسطفان الدويهي قد أثبت في شجرة عائلته ويخطّ يده ما يؤيد بأن عائلة عبيد هي فرع من عائلة الدويهي الإهنّية. نحن نوّكد على هذه النسبة، ولكننا نوّكد أيضا على أن أسرة الدويهي قد تفرّعت من عمشيت إلى إهدن وليس العكس - المؤلف.

٢ - دير مار زخيا: كان هيكلا فينيقيّا حوله مسيحيو القرن الرابع مبعداً مسيحياً، يعلو عن سطح البحر ٥٠ م. نحن نميل إلى اعتبار أن العمشيتي قد كرّس هذا المكان على اسم القديس زخيا بعد زيارته لروما ونيله درع التثبيت من البابا زخيا الثالث كما سيورد أدناه - المؤلف.

٣ - لحود أديب، الدوحة العمشيتية، دار الطباعة والنشر اللبنانية (بيروت، ١٩٥٤) ص ٣١.

٤ - العنيمي، سلسلة البطارقة، ص ١١٩، داغر، تاريخ البطارقة، مرجع سابق، ص ٢٩؛ فهد، بطارقة المواردنة، مرجع سابق، ١: ١٧٦؛ قابل: الدويهي، سلسلة البطارقة، ص ٢٤، حيث جاء خطأ أنه انتخب سنة ١٢٠٩؛ وقابل: دريلان، مرجع سابق، ص ٣٠٤ - ٣٠٥ الذي أورد أسباب الخطأ وتصحيحه إلا أنه وقع في خطأ آخر إذ جعل انتخابه سنة ١١٨٣.

٥ - زخيا أو إينوئقيوس أو إينوئسميوس الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦): أشهر بابوات القرون الوسطى، بلغت معه البابوية لوج سيادتها د، فرض سلطته على الملوك فقاومه بعضهم، حارب البدعة الأكليجية.

فوجدهم خاضعين للكرسي الرسولي^١. سافر إلى روما حوالي سنة ١٢١١، وبقي فيها خمس سنوات وستة أشهر. فشارك في المجمع اللاتراني الرابع سنة ١٢١٥. وفي كنيسة القديس بطرس القديمة في الفاتيكان نسبت أعجوبة إلى هذا البطريرك أثناء قيامه بإحياء الذبيحة الإلهية، إذ بقي القربان معلقاً فوق رأسه إثر رفعه بيديه، وأمر البابا زخيا الثالث بتخليد هذه الأعجوبة من خلال رسم واقعتها على جدار الكنيسة. ولمّا كادت أن تمحى، جددّها البابا زخيا العاشر سنة ١٦٥٥^٢. عاد من روما سنة ١٢١٦، حاملاً معه درع التثبيت وتاجاً وعرّازاً قدّمهما له الحبر الأعظم، ومنذ ذلك التاريخ أخذ الإكليروس يقترب من العادات اللاتينية في الملابس الكهنوتية وغيرها^٣. وقد اعتبر باحثون أنّه كان للبطريرك إرميا العمشيتي الفضل بالإتصال المباشر بين الكنيسة المارونية والفاتيكان، وبذلك افتتح عهداً جديداً أطلّ العلم فيه على لبنان. وبعد رجوع العمشيتي من روما إلى لبنان، وردت إليه من البابا زخيا براءة موجهة إليه وإلى جماعة من الروم قد انضموا إلى الموارنة في تلك الحقبة، وأبرزوا يمين الطاعة لروما أمام الكاردينال بطرس. وممّا جاء في تلك البراءة:

... إنكم سابقاً كنتم كالخراف الضائعة غير عالمين أنّ خطيئة المسيح واحدة، وأنّ الحمامة الطاهرة هي الكنيسة الجامعة، وأنّ الراعي الصادق واحد وهو السيّد المسيح، ومن خلفه، أعني رسوله ونائبه بطرس الرسول الذي سلّمه الربّ خرافه

-
- ١ - راجع: فهد الأباتي بطرس، علاقات الطائفة المارونية بالكرسي الرسولي، ص ٨؛ داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص ٢٩.
 - ٢ - جاء في مراجع أخرى أنّ البابا أنيوشنسيوس الثالث دعا البطريرك العمشيتي لحضور المجمع اللاتراني في روما سنة ١٢١٥، ولبنى العمشيتي الدعوة ووصل روما سنة ١٢١٣.
 - ٣ - أكّد حصول هذه الحادثة إين القلاعي؛ وشاهد الرسم المشار إليه البطريرك الدويهي حين كان طالباً في روما؛ طالع في هذا الخصوص: اللخوري ميشال الحايك، مرجع سابق، ص ١٤؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٧٩.
 - ٤ - الدبس، الجامع المفصل، مرجع سابق، ١: ١٢٠ - ١٢٧.

ليرعاها... وعندما أرسلنا إلى نواحيكم سابقاً المرحوم الكردينال بطرس قسيس كنيسة مرشليينوس، وكان رسول الكرسي الرسولي، رجعتُم بإلهام من الرب إلى راعيكم وأسقف نفوسكم وفهمتم أننا نحن رأس الأحيار ونائب المسيح على الكنيسة الجامعة، وفهمتم أن أمكم هي الكنيسة الرومانية المقدسة، وعرفتُم أن هذا هو الراعي الصادق الصالح الذي يدعو خراف الرب وغيرهم إلى الحظيرة المسيحية في كل زمان ومكان، لتكون الرعيّة واحدة كما أن الراعي واحد، خشية من أن تضلّ الخراف تابعة أصوات الغرباء، فتحدّد بذلك عن سنن الحق. وأنت أيها الأخ البطريرك، لما كنت سابقاً في مدينة طرابلس مع قوم من مطارنتك أعني يوسف مطران مارسيليا، وتاودورس أسقف كفرفو، وجمع كبير من الكهنة، وجمهور كثير من الخاضعين لك من تلقاء نفوسهم، فأمام بعض أساقفة ورهبان وشمامسة المدينة وشعبها حلفت وإياهم عن أنفسكم وعن يتعلّق بكم على هيئة الصورة التي بها يتعهد المطارنة بالطاعة للكرسي الرسولي، أي أنكم من الآن فصاعداً تكونون طائعين وخاضعين لكنيسة روما لنا وللذين يخلفوننا من بعدنا^١. ولكن بما أن الكردينال المذكور علم أنكم محتاجون إلى بعض أمور اجتهد في إيضاها لكم حسب مآل الأمر الرسولي. وأوصاكم أن تقووا بمعزل عن الارتياح بما تمسكت به الكنيسة الرومانية، وهو أن الروح القدس ينبثق من الابن كما ينبثق من الآب، لأنه هو روح كليهما، كما هو واضح من الشواهد المقدسة والأدلة الصادقة. وأن تحفظوا في العباد هذه الصورة: أي أن الثالوث الأقدس يُذكر مرّة واحدة في التغطيسات الثلاثة لا أكثر. وأن تستعملوا سرّ التثبيت الذي يتصرف به رؤساء الكهنة دون غيرهم. وأن لا يدخل في تركيب الميرون إلاّ البلسم والزيت فقط^٢. وأن كل واحد منكم يعترف بخطايا لكاهنه الخصوصي قلماً يكون مرّة واحدة في السنة. وتتاولوا

١ - نشير إلى أن مثل هذا الحدث تماماً كان قد جرى في عهد البطريرك الحالي سنة ١١٣١ في طرابلس أمام القاصد الرسولي للكردينال "غوليس"، كما ذكرنا سابقاً في سيرة ذلك البطريرك - المؤلف.

٢ - درج التقليد من قبل على استعمال إثنتي عشرة مادة نسبة إلى الإثنتي عشرة فضيلة.

سرّ القربان بنية صافية على القليل ثلاث مرات كل عام. وأن لا تستعملوا في إقامة القداس كزوسنا من زجاج ولا من خشب ولا من نحاس، بل من قصدير أو فضة أو ذهب. وأن تقرعوا نواقيس نحاسية للتبشير بمواقيت الصلاة الجمهورية. وأن تؤمنوا أن في المسيح طبيعتين ومشيتين إلهية وإنسانية. وهذه الوصايا، ولو أنكم قبلتموها في ما سلف قبول الطائعين الخاضعين، إلا أن إعادتها عليكم الآن لأجل تأكيدها وتثبيتها... ثم إننا ننبت كراسي المطارنة والأساقفة الآتي ذكرهم بسلطاننا الرسولي، ونأمرهم بالخضوع لكرسي سيده ياتوح كنيسة أيها الأخ البطريرك المتولي رئاستها من الله تعالى، وأن يطيعوا لك ولخلفائك، أعني مطارنة مار أصيا^١، وجبة بشري، وأساقفة المنيطرة^٢، ورشعين^٣، وكرفو^٤، وعرق^٥. وكذلك أن تلبس الدرع المقدس الحاوي كمال الخدمة الحبرية، على حسب العادة المألوفة، ويشملك إياه بطريرك أنطاكية^٥ من غير ما صعوبة، ونحن ننبت لك العادات الجارية التي كانت لك ولأسلافك في الكنيسة الأنطاكية إلى هذا الآن. وبالسُلطان الرسولي نهبه لك وللذين يتخلفون بعدك... نسمح لك ولخلفائك باستعمال الباليوم^٦.

حصل الكثير من اللغظ حول بعض العبارات الواردة في هذه البراءة: مثل "رجعتم إلى راعيكم الحقيقي..."، ما جعل البعض يؤكد على نظرية ابن البطريق القائلة

١ - لا تزال بقايا دير مار لصيا الذي كان مقرًا أسقفيا في البلدة التي أصبحت تحمل اسم "أصيا" في منطقة البترون على متوسط ارتفاع ٩٠٠م. عن سطح البحر، وكان الدير مبنيًا بحجارة قديمة جدًا، وعليه نقوش رائعة، والمقول ابن القرية قد أخذت إسمها من هذا الدير. والقديس أصيا، عيده في ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) - المؤلف.

٢ - رشعين: قرية في قضاء زغرنا.

٣ - كرفو: قرية في قضاء زغرنا.

٤ - عرق: بلدة أثرية في قضاء عكار.

٥ - لمن المقصود هنا بطريرك أنطاكية اللاتيني آنذاك.

٦ - فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٧٩ - ١٨٢، يلي النص توقيع أساقفة روما وكرادلتها إضافة إلى توقيع البابا، وتاريخها في ٢ كانون الثاني (يناير) ١٢١٥.

بأن "أتباع مارون يتبعون المعتقد القائل بأن سيدنا يسوع المسيح منذ البدء مشينة واحدة وقوة واحدة"، فتبنى المؤرخ الصليبي وليم الصوري هذا الزعم وأضاف بأنهم "عام ١١٨٠ تخلّوا عن هرطقتهم هذه وعادوا إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية". غير أن مؤرخي المواردنة قد بيّنوا خطأ هذا الاعتبار، وذلك من خلال تأكيدهم الموثّق على أن "تجديد يمين الطاعة للحبر الروماني من قبل المواردنة كان قد حصل سنة ١١٣١ في أيام البطريرك غريغوريوس الحالتي، ومرة ثانية في سنة ١١٨٠ على يد "هيميريك" البطريرك اللاتيني، ومرة ثالثة على يد الكاردينال بطرس في عهد البطريرك إرميا العمشيتي. فلا نجهل ما جرى لكنيسة روما من بلابل بسبب ما حصل منذ الربع الأول من القرن الثاني عشر حتّى ربعه الأخير من خلاقات على رئاسة الكرسي الرسولي. وما إن استقرّ أمر هذه الرئاسة في سنة ١١٧٧ حتّى أخذ البابا اسكندر الثالث يطلب من الأساقفة أداء يمين الطاعة لنائب المسيح، واشترك المواردنة مع الإفرنج في حلف هذه اليمين في سنة ١١٨٠، فعذّ وليم الصوري ذلك رجوعاً عن الضلال. بينما الواقع أن همّ روما قد انحصر، في تلك الأيام، بأخذ عهود الطاعة فضّاً للمشاكل^١. ونحن نضيف إلى ذلك أن قراءة ما جاء في البراءة بتمنّ لا يمكن أن يفهم منه أن المواردنة لم يكونوا يوماً على المعتقد الخلقيدوني. بل إن ما ورد فيها يجيب على بعض التساؤلات التي تدور حول بدع نشأت في أوروبا، في تلك الحقبة، وأنت إلى البلبلة التي فصلّنا رواية ملابساتها في الجزء العاشر من هذه الموسوعة.

١ - داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص ٣٠ - ٣١؛ فهد، بطاركة المواردنة، مرجع سابق، ١: ١٧٦.

خُلَفَاءُ الْعَمَشِيَّتِي

عاش البطريرك إرميا العمشيتي، بعد عودته من روما، خمسة عشر عامًا، وكانت وفاته سنة ١٢٣٠. وإثر وفاته، انتُخب خلفًا له دانيال الشاماتي (١٢٣٠ - ١٢٣٩)، الذي جاء ذكره في كافة لوائح السلاسل البطريركية. وذكره يوحنا بن يعقوب البشراوي على هامش كتاب صلاة محفوظ في كنيسة مار سابا ببشري^١. ويتبين من المراجعات أن هذا البطريرك قد انتُخب في دير سيّدة ميفوق، وبسبب القتن والحروب ترك ميفوق^٢ وجعل مقرّه أولًا في دير مار قيريانس كفيفان^٣، ثم نقله إلى قرية "الكفر"^٤، وأخيرًا إلى دير مار مارون كفرحي* حيث بقي حتى وفاته. ومما سجّله له مؤرّخو الموارنة أنه جمع زعماء البلاد الذين اتّفقوا، برعايته، على توحيد كلمتهم لتوطيد أركان الأمن، فانصرف الناس عن البلابل وعكفوا على أعمال استصلاح الأرض والزراعة والبناء، وعمّ الاستقرار إلى أن استعرت نيران الحرب بين نواب الشام والمصريين، فامتاز هذا البطريرك بما أبداه من مرونة في السياسة وبما حقّقه من محافظة على حقوق أبناء رعيّته من اهتمام في تخفيف ويلات الشعب وإغاثة المنكوبين^٥. وقد اختلف المؤرّخون في تعيين سنة وفاته، بيد أن كثيرين منهم اعتبروا

١ - فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٦.

٢ - النويهي، سلسلة البطارقة، ص ٣٥؛ داغر، تاريخ البطارقة، مرجع سابق، ص ٣١؛ الدبس، الجامع المفصل، ١: ١٤٤.

٣ - فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٦.

٤ - دير مار قيريانوس كفيفان: دير أثري هو اليوم من أديرة الرهبانية المارونية اللبنانية، وكفيفان من قرى قضاء البترون في شمال لبنان على متوسط ارتفاع ٤٠٠ م. عن سطح البحر.

٥ - الكفر: قرية في قضاء جبيل من أعمال جبل لبنان تقع على متوسط ارتفاع ٤٥٠ م. عن سطح البحر، فيها دير أثري على اسم القديس جاورجيوس جلس فيه البطريرك المذكور.

٦ - داغر، تاريخ البطارقة، مرجع سابق، ص ٣١.

أنه توفي سنة ١٢٣٩^١. وكان من علماء الموارنة الذين برزوا في عهد ذلك البطريرك "تيقيطا الماروني" صاحب المؤلف النفيس في مسألة انبثاق الروح القدس من الآب والإبن، وقد توفي في عهد البطريرك الشاماتي^٢.

خلف الشاماتي بعد وفاته البطريرك يوحنا الجاجي الأول (١٢٣٩ - ١٢٤٥). ذكره السمعاني في مقالته. انتُخب في دير ميفوق حيث جعل إقامته على ما يبدو^٣. هذا البطريرك، الذي ورد اسمه في بعض اللوائح يوحنا بطرس الجاجي^٤، نشأ في جاج وترهب بدير مار دوميظ فيها قبل أن يصبح أسقفًا ومن ثم بطريركًا. وجاء عنه أنه كان مثلاً صالحاً وتقياً ورعاً وعالمًا كبيراً^٥. وقد توفي سنة ١٢٤٥^٦. لم نطالع عن آثاره سوى أنه "أرسل إلى دير قبرص ثلاثماية دينار وحقاً للميرون"^٧.

أما البطريرك شمعون أو سمعان الذي خلف البطريرك يوحنا الجاجي بعد وفاة الأخير سنة ١٢٤٥، فقد ذكره بعضهم على أنه الثاني بهذا الاسم^٨، بينما اعتبره آخرون أنه الرابع^٩، من دون أن يعيّنوا أسماء الثلاثة الذين سبقوه. على أننا لم نجد سوى

١ - فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٦، العنيسي، سلسلة بطاركة الموارنة، ص ٢٢؛ بطرس ضو، تاريخ الموارنة، مرجع سابق، ٣: ٤٦٣، ٤٧٤.

٢ - داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص ٣١؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٧.

٣ - السمراني الأب فيليب، جاج في للتاريخ (بيروت، ١٩٨٢)، ص ٧٢؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٧.

٤ - فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٧.

٥ - السمراني، جاج في التاريخ، مرجع سابق، ص ٧٢؛ حنّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٣٧.

٦ - السمراني، جاج في التاريخ، ص ٧٤.

٧ - داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص ٣٢، عن مقالة السمعاني.

٨ - داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص ٣٢.

٩ - فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٨٩.

بطريرك مارونيّ واحد قبله باسم سمعان، هو الذي خلف يوحنا الخامس وسبق إرميا الأول. ولم يتوفّر إلى اليوم تحديد لتاريخ وفاة هذا البطريرك، ولكن من المتفق عليه أنّه كان حيّاً سنة ١٢٧٥، إستناداً إلى وجود كتابة له، تعود إلى ذلك التاريخ، في كتاب ديريّ كان محفوظاً في دير مار سابا بشريّ، تحدّث عنه البطريرك الدويهي في مجال وضعه لسلسلة البطارقة^١. وأفاد الدويهي، في تاريخه العام، أنّ البابا اسكندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١) أرسل إليه درع كمال الرئاسة مع براءة التثبيت المؤرّخة في سنة ١٢٥٦، وقال إنّه رآها في خزانة قنّوين. ولهذا البطريرك، بحسب بعض المراجع، ذكر في المجمع اللبناي^٢. وفي زمن بطريركيّة شمعون هذا حلّ في قبرص لويس التاسع ملك فرنسا، الذي قاد الحملتين الصليبيّتين السابعة والثامنة، ثمّ هاجم، ولكنّه "مُني بهزيمة نكراء ووقع هو نفسه بالأسر، وبعد أن اقتدى نفسه بمبلغ كبير من المال، جاء الأرض المقدّسة في شهر شباط (فبراير) ١٢٥٠، وأقام أربع سنوات في صيدا التي أعاد بناءها ورمّم حصونها، وجعل مقرّه في القلعة التي كان الصليبيّون قد بنوها من قبل، والتي عُرِفَت في ما بعد بقصر سانت لويس، وتُعرف الآن بقلعة المزة. كذلك أعاد الملك لويس بناء حصون قيساريّة ويافا، وما تبقى لديه من وقت أمضاه في المفاوضات والمداولات. وقد توفّي لويس التاسع بالطاعون في تونس، وطُوبَ قديساً سنة ١٢٩٧.

تتأقّل مؤرّخون ما مفاده أنّ المواردنة قد هُرّعوا إلى استقبال ملك فرنسا في عكا، مرحّبين بقدومه، وأنجذوه بعشرين ألف مقاتل، وقيل ٢٥ ألفاً بقيادة الأمير سمعان، وأنّ القديس لويس، وجّه رسالة إلى أمير المواردنة ورؤساء كهنتهم، مؤرّخة في ٢١

١ - الدويهي، سلسلة البطارقة، ص ٢٥؛ فهد، بطارقة المواردنة، مرجع سابق، ١: ١٩١.

٢ - داغر، تاريخ البطارقة، مرجع سابق، ص ٣٢، عن محفوظات المجمع اللبناي، قسم ٣، باب ٦، ص ٤٢١.

أَيَّار (مايو) ١٢٥٠م. يظهر فيها محبته للموارنة، وامتداح ديانتهم واتحادهم الدائم مع خلفاء بطرس الرسول، ويعلمهم فيها أن "الأمة المارونية" هي جزء من الأمة الفرنسية، ويتعهد لهم فيها، باسم فرنسا، بإيلاء الموارنة الرعاية التي يتمتع بها الفرنسيون أنفسهم. ولكن مؤرخين وباحثين محققين مستقلين^١، قالوا، كما ذكرنا سابقاً، إنه لا علم لهم بأن مؤرخي الحروب الصليبية^٢، قد أتوا على ذكر رسالة بهذا المعنى بعث بها "الملك لويس التاسع" إلى أمير الموارنة، كما أنه لم يثبت، حتى تاريخه، وجود مثل هذه الرسالة بين المحفوظات الفرنسية العائدة لمرحلة العصور الوسطى. تجدر الإشارة، في هذا السياق، إلى أن الزيارة التي قام بها الوفد الماروني إلى عكا لتهنئة "لويس التاسع"، قد جاءت في إطار قدوم وفود عديدة إلى عكا للترحيب بالملك الفرنسي^٣.

ومما ذكره مؤرخون موارنة أنه لما غلب الفرنجة على أمرهم في هذه البلاد، لجأوا إلى البطريرك شمعون فاستقبلهم بكل ترحاب. وقد وجه إليه البابا اسكندر الرابع كتاب شكر وأوصاه بأن يعتبر هؤلاء الفرنجة كأولاده وأولاه من التفويضات ما يلزم للخدمة الروحية لهؤلاء اللاجئين^٤. وفي تفصيل أوسع، جاء أنه "لما فتح سلطان مصر

١ - حطيط د. أحمد، نحر مقارنة تاريخية، مرجع سابق، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.

٢ - أمثال: GUILLAUME DE TYR, JACQUES DE VITRY, R. GROSSET, J. PRAWER, K. SETTON, J. RICHARD, S. RUNCIMAN...

٣ - نقل داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص ٣٢، حول هذا الموضوع عن المطران نقولا مراد الجزيني قوله: وجدت بطلقة الملك لويس هذه في خزانة الكرسي البطريركي في قنوبين مترجمة عن الأصل اللاتيني إلى الفرنسية والعربية، أما الأصل فكان قد فُقد مع ما فقد من أوراق الكرسي البطريركي بسبب طوارئ الحداث؛ نحن نستغرب القول بأن ملك فرنسا قد كتب إلى البطريرك الماروني باللغة اللاتينية وأن رسالته ترجمت في قنوبين إلى الفرنسية والعربية في ذلك الزمن، ونشكك، مع د. حطيط بصحة وجود مثل هذه الرسالة - المؤلف.

٤ - داغر، تاريخ البطاركة، مرجع سابق، ص ٣٢.

أنطاكية سنة ١٢٤٦، كان عليها بطريرك لا تينيّ إسمه إيليا، ومنذ ذلك الحين لم يجلس على كرسي أنطاكية لا تينيّ ولا فرنجيّ، فبقي منهم بقية من إكليروس وشعب في حالة يرثى لها، فالتجأوا إلى الموارنة الكاثوليك القاطنين في لبنان، فقبلهم البطريرك سمعان بترحاب، وكتب إلى البابا اسكندر الرابع يخبره بحالتهم وقبوله بهم، فأتاه جواب من البابا يمنحه لقب بطريرك أنطاكية^١. وهذا ما يفسّر تحدر أسر مارونية لبنانية من أصول لاتينية فرنجية، علماً بأنّ كثيرين من بقايا الصليبيين قد اندمجوا بالموارنة نازحين من غير مكان، ومنهم أيضاً أسر اتّبعَت الدين الإسلامي لا سيما في طرابلس ومحيطها.

أمراء الحقبة ومقدموها

في بداية الحقبة الصليبية، عقب الأمير جرجس الذي حكم، أميراً على الموارنة، ١٠٥٠ - ١٠٩٠، الأمراء: موسى وبطرس إلى ١١٩٠؛ باخس ويعقوب إلى ١٢١٥؛ شمعون إلى ١٢٣٩؛ يعقوب بن شمعون إلى ١٢٩٦. وكان مركز أولئك الأمراء في بشريّ.

يرى محققون مستقلّون أنّ المسيحيّين الوطنيين، ومنهم الموارنة، قد وقفوا، في خلال الحقبة الصليبية، تارة إلى جانب الصليبيين، وطوراً أيدوا المسلمين. فقد ذكرت المراجع التاريخية أنّ موارنة بشريّ، ومسيحيّ الكورة ومعظمهم من الملكيين، قد تعاونوا مع القوّات التركمانية بقيادة "بزواش" عندما انطلق هذا الأخير بقوّاته من دمشق إلى طرابلس سنة ١١٣٧، وهزم جيش الكوننّية على مقربة من "قلعة الحجّاج" حيث

١ - فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٠، نقلاً عن: العنسي، مجموعة الببّات المارونية، ص ٢٦، نقلاً عن المورخ "يياجو طرزي" في كتابه "سورية المقتنسة".

قَتْل "بُنس PONS" الصليبيّ سيّد طرابلس، فانتقم منهم ولده "ريموند الثاني" إذ هاجم المناطق الجبلية القريبة من طرابلس واعتقل عدداً كبيراً من المسيحيين، موارنة وملكيين، مع زوجاتهم وأطفالهم، ونقلهم مقيدين بالسلاسل إلى طرابلس حيث أنزل بهم مختلف أنواع التعذيب حتّى الموت، على مرأى من أهالي المدينة^١. وقد كانت حادثة "بزواش" هذه، بحسب بعض المؤرخين، سبباً لأزمة خطيرة انفجرت بين الفرنجة والموارنة بلغت ذروتها بعصيان هذا الفريق على كنيسة روما، كما سهل الموارنة إستيلاء نور الدين زنكي على حصن المنيطرة عام ١١٦٥ وتوغّل صلاح الدين في مناطق الموارنة عام ١١٨٦^٢. ولم تهدأ هذه الخلافات إلّا بعودة فريق من الموارنة إلى وحدة الكنيسة بتدخّل سيّد جبيل الصليبيّ عام ١١٨٢^٣. الأمر الذي لم يرق لفريق آخر، كأبناء العشائر في بشريّ ومرتفعات بلاد جبيل والبترون، فكان من نتائج ذلك أن تعاون مقدّم بشريّ المدعو سالم، مع المماليك، عند اجتياحهم إهدن والحدث^٤.

ويشير باحثون إلى أنّ بشري قد عرفت في تلك الحقبة ما عُرف بحكم الرقباء. ونكرت المراجع أربعة رقباء تولّوا السلطة على بشري ونواحيها وهم: الرقيب الشدياق جرجس، تولّى الحكم على بشريّ ونواحيها سنة ١٢٤٢ وحتّى سنة ١٢٥٠؛ وكان

١ - حطيط د. أحمد، نحو مقارنة تاريخية، مرجع سابق، ص ٢٠١ - ٢٠٢ إستناداً إلى:

GUILLAUME DE TYR. OP. CIT., II, P. 684; GROUSSET, *HISTOIRE DES CROISADES* (PARIS, 1936)

II, PP. 67-69.

٢ - حطيط، نحو مقارنة تاريخية، مرجع سابق، ص ٢٠٢ إستناداً إلى: بين للقلاعي، حروب المقيمين، نشر بولس قرآني، المجلة البطريركية، السنة العاشرة (بيروت، ١٩٣٥) حزيران - تموز (يونيو - يوليو) ص ٦٠٥؛ وبطرس ضو، تاريخ الموارنة (بيروت، ١٩٧٧) ٣: ٤٧٢.

٣ - حطيط، نحو مقارنة تاريخية، مرجع سابق، ص ٢٠٢ إستناداً إلى: GUILLAUME DE TYR, OP. CIT., II., P. 1028.

٤ - حطيط، نحو مقارنة تاريخية، مرجع سابق، ص ٢٠٢ إستناداً إلى: بطرس ضو، تاريخ الموارنة، مرجع سابق، ٣: ٤٦٤.

خلفاؤه على التوالي: الرقيب سالم وهو ابن الرقيب جرجس؛ الرقيب بنيامين؛ الرقيب نقولا. وينفرد الخوري فرنسيس رحمة بذكر رقيب خامس يدعى أيوب، ويبرّر ذلك بقوله: "إنّ هذا الرقيب الخامس وإن لم يذكره المؤرّخون، فالعقل يقتضيه لكونه والدًا للمقدّم يعقوب أبي المقدّمين الذين سيحكمون بعد تلك الحقبة. ونظرًا لشهرة الابن خبت نار الأب وطُمس ذكره. ويرجّح أنّ الملك برقوق المملوكي، الذي سيأتي ذكره لاحقًا، في أثناء "تدروشه"، أي تخفيه عن وجه مناوئيه، لم يدرك الرقيب أيوب إلّا في أواخر أيامه. فآثر أن ينزل في داره لكونه دار الحكم، وقبّل أن يغادر، أراد أن يكافئه على أريحيته، فتقدّم إلى الملك معذّرًا لكبر سنّه وطلب إليه أن يحول إنعامه إلى ابنه يعقوب. فكان مقدّمًا وأبًا للمقدّمين على بشريّ وبلادها في بداية حكم المماليك^١.

قبل أن تبرز دولة المماليك إلى الوجود منتصف القرن الثالث عشر، كانت البلاد الشرقيّة برمّتها قد شهدت اجتياحًا صاعقًا من قبل فريق ثالث لا علاقة له بالمسيحيّة ولا بالإسلام، إنّه اجتياح المغول.

١ - رحمة الخوري فرنسيس، "تاريخ بشري"، الجزء الأول، مطبعة صفدي للتجارة (١٩٥٦) ص ٢٤٣ - ٢٤٥.

فِي زَمَنِ الْمَمَالِكِ

نَكْبَةُ الْمَوَارِنَةِ عَلَى أَيْدِي الْمَمَالِكِ؛ الْبَطَارِكَةُ الْمَوَارِنَةُ فِي زَمَنِ الْمَمَالِكِ؛
قَضَاءُ الْمَمَالِكِ عَلَى أَعْوَانِ الصَّلَيبِيِّينَ؛ انْحِصَارُ الْمَوَارِنَةِ فِي بِلَادِ جُيَلٍ؛
بَطَارِكَةُ الْحَقْبَةِ الْمُظْلَمَةِ؛ الْمَطْرَانُ جِبْرَائِيلُ بْنُ الْقَلَاعِي؛
الْمَقْدَمِيَّةُ بَيْنَ الصَّلَيبِيِّينَ وَالْعُثْمَانِيِّينَ.

نَكْبَةُ الْمَوَارِنَةِ عَلَى أَيْدِي الْمَمَالِكِ

دشّن "جنكيزخان" ^١ اجتياح المغول بسلسلة هجمات على العالم الإسلامي، أحدثت فيه خراباً ودماراً لم تُزل آثارهما بعد. "وقد تابع حفيده "هولاكو" ^٢ الزحف غرباً، وبعد أن قضى على قلعة "الموت"، وخرّب بغداد وقضى على الخلافة العباسيّة، ظهر فجأة أمام أسوار حلب، فلمّا فتحها قتل من أهلها ٥٠ ألف نسمة. ثمّ جاء دور حماة فنالت نصيبها، وخرّب بعلبك، وخلف صيدا أكواماً من تراب، وألحقت أنطاكية اللاتينيّة بالامبراطوريّة المغوليّة إذ اعتبر البابا لويس التاسع التحالف بين الإفرنج والمغول أمراً مرغوباً فيه لمواجهة الإسلام" ^٣.

بعد هولاكو، قام قائد مغوليّ اسمه "كتبوغا" ^٤ وتوغّل جنوباً نحو فلسطين، وسرعان ما تصدّى له السلطان المملوكي "قطز" ^٥، وعلى رأس جيشه المملوك "بيبرس"

١ - جنكيزخان ابن يشوكي (١١٦٧ - ١٢٢٧): منشئ الامبراطوريّة المغوليّة، وكّد في إقليم دولون بلدق في بلاد الروس، كان اسمه الأصلي تيموجين، هنّ بفتحاته أركان الدول جميعاً بين الصين والبحر الأسود، أسّس امبراطوريّة امتدّت من اطراف الصين الشرقية إلى إيران وولدي السند (الباكستان) في الهند، غدّ من أعظم بناء الامبراطوريّات في التاريخ.

٢ - هولاكو أو هولاغو (نحو ١٢١٧ - ١٢٦٥): حفيد جنكيزخان، فاتح مغولي ومؤسس دولة المغول الاخلافيّة في إيران ١٢٥١ - ١٢٦٥، قطع نهر لومديا وأخضع لمراء الفرس والاسماعيليّة في لقموت ١٢٥٦، عاد إلى إيران بعد موت أخيه فهاجم المصريّون جيشه في الشام ولبادوه ١٢٦٠.

٣ - حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٧٣.

٤ - كتبوغا: قائد مغوليّ نصرانيّ نسطوري.

٥ - الملك المظفر قطز: ثالث المماليك البحريّين (١٢٥٩ - ١٢٦٠)، اشتراء السلطان ليك ثمّ عيّنه نائب السلطنة، أصبح وصيّاً على ابن السلطان بعد اغتياله ١٢٥٧ ثمّ عزله وأعلن نفسه سلطناً.

نو الأصل المغولي، فعرف كيف يتغلب على أبناء جلدته المغول في معركة "عين جالوت"^١ سنة ١٢٦٠، ويطاردهم حتى يجلبهم عن مجمل المنطقة السورية من جهة، كما عرف كيف يغتال مليكه قطز وهو في طريق العودة إلى مصر ليتوج انتصاره بالقبض على زمام السلطنة من جهة ثانية.

بعدما أصبح بيبرس سلطاناً، قام بتوحيد سوريا، وراح يضرب الحصار على المراكز الصليبية واحداً بعد الآخر إلى أن أخضعها جميعاً. فأسقط "الكرك" سنة ١٢٦٣، و"قيسارية" و"أرسوف" سنة ١٢٦٥، و"صفد" سنة ١٢٦٦، و"يافا" فلسطين و"شقيف أرنون" لبنان وأنطاكية^٢ سنة ١٢٦٨، و"حصن الأكراد" سنة ١٢٧١^٣، كذلك سقطت "مصياف"^{*} وسائر القلاع التي كانت تابعة للحشاشين. وسارعت "طرسوس"، و"حصن الهيكلين"^٤، و"قلعة المرقب" التابعة لجماعة الداوية^٥، إلى عقد صلح لعشر سنوات وعشرة أشهر. وقد جدد عقد الصلح في عهد خليفة بيبرس "السلطان

١ - عين جالوت: موضع بالقرب من الناصرة، وهي عين جليات الجبار في العهد القديم.

٢ - كانت أنطاكية أقدم دولة شرقية أسسها الإفرنج، قُتل من سكانها ومن أفراد حاميتها في هذا الهجوم ١٦ ألف نسمة، وقيل إن مائة ألف أسروا فبيع الفتي باثني عشر درهماً والفئة بخمسة، وغنم الفاتحون كثيراً حتى أنهم كانوا يكيلون الدراهم للجنود بالأقداح، وأحرقت المدينة بقلاعها وكنائسها وما عاد قام لها قلعة - أبو الفداء، ج، ٤، ص ٤ - ٥؛ المقريزي، سلوك، ج، ١، ق، ٢، ص ٥٦٧ - ٨٦٨؛ ابن العبري، ص ٥٠٠.

٣ - حصن الأكراد أو قلعة الحصن: في محافظة حمص، عُرف أولاً باسم حصن السفح، أقام فيه أمير عربي حامية كردية ١٠٣١ لمراقبة طريق طرابلس، احتلّه الصليبيون ١١١٠ وأصبح من أعظم قلاعهم في سوريا، قلوب نور الدين زنكي ١١٦٣ وصلح الدين بعد معركة حطين، تعود أكثر عمارته إلى القرن الثالث عشر، سقط بيد بيبرس بعد حصار ١٥ يوماً، وكان تابعاً لكونتيّة طرابلس ويتّسع لألفي رجل محارب في وقت واحد.

٤ - الفرمان الهيكلين، TEMPLIERS, TEMPLARS: جمعية عسكرية رهبانية أسست ١١١٨ للدفاع عن الأراضي المقدسة وتأمين سلامة الحجاج إليها، أطلق عليها إسم فرسان الهيكل نسبة إلى هيكل سليمان حيث أنشئ مقرّها الأول بالقرب من موقعه، انتقلت من ثم إلى الغرب حتى حلّها ملك فرنسا فيليب الرابع مع البابا كليمنطوس الخامس ١٣١٣.

٥ - الداوية: هي فريق من فرسان الهيكل، وأحياناً كان يُطلق إسم الداوية على الجمعية ككل.

"قلاوون"^١ سنة ١٢٨٢ لمدة مماثلة. وفي سنة ١٢٨٥ عقد قلاوون أيضاً معاهدة هدنة مع أميرة صور الصليبية التي كانت تحكم بيروت في الوقت نفسه، وضرب الحصار على قلعة المرقب* حتى استسلمت، وفي سنة ١٢٨٩ هاجم طرابلس ودمرها تماماً بعد حصار دام ثلاثين يوماً. وإثر سقوط طرابلس استردّ قلاوون البترون تسليماً^٢. أما عكا، وهي آخر المعاقل الصليبية الكبرى، فقد سقطت بيد السلطان "الأشرف" سنة ١٢٩١ بعد حصار شهر واحد، وأباد الأشرف التسعمائة نفر من فرسان الهيكل الذين كانوا فيها بعد أن آمنهم على أنفسهم ليخرجوا، وهدم المدينة وكاد أن يزيل كل أثر لها^٣. وبسقوط عكا، استسلم جنود حامية صور، ثم سقطت صيدا، واستسلمت بيروت، وتبعها طرطوس، وغادر فرسان الهيكل "عكايت"^٤ فدخلها المماليك ودكوها في شهر آب ١٢٩١، أما أرواد فقد ظلت بيد فرسان الهيكل حتى سنة ١٣٠١. "وبسقوط أرواد نزل الستار على آخر مشهد من تلك المأساة التاريخية التي وقعت بين المسيحية والإسلام"^٥. ومن مجمل مدن الساحل الفلسطيني واللبناني والسوري، حافظ المماليك

١ - الملك المنصور قلاوون: خليفة بيبرس في سلطنة المماليك البحرين (١٢٧٩ - ١٢٩٠)، ولد في كبشاك حيث ولد بيبرس، اشتراه الملك الصالح أيوب ثم اعتقه، لُقّب بالأنفي لأن ثمنه في سوق النخاسين كان ألف دينار، كان وصياً على سلامش ابن بيبرس الذي تسلم العرش وهو ابن سبع سنين، نودي به سلطاناً بعد عزل سلامش، اشتهر في الحملة على الأرمن ١٢٧٣، اقتصر على جيوش المغول والأرمن والإفرنج، بنى اليبمارستان المنصوري في القاهرة.

٢ - راجع: المقريزي، سلوك، اج ١، ق ٢، ص ٥٩١؛ المقريزي، طبعة كاتمر، ٢، ق ٣، ص ١٧٢ - ١٧٨؛ ابن الفرات، ٤: ١٧، و ٨: ٨٠؛ أبو الفداء، ٤: ٢٢ - ٢٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق: ذكر الشام، كعبة غيلدمايستر (بون، ١٨٨٥) ص ١٨.

٣ - خليل الأشرف صلاح الدين: ابن السلطان قلاوون وخليفته ١٢٩٠ - ١٢٩٣.

٤ - أبو الفداء، الجزء الرابع، ص ٢٥، وقد كان هذا المؤرخ شاهداً على المعركة؛ وقد بقيت عكا خربة إلى أن أعاد بناءها ظاهر العمر في القرن الثامن عشر.

٥ - عكايت: مرفأ قديم على الساحل الفلسطيني قرب راس الكرمل، بنى فيه الصليبيون حصناً ١٢١٨ سمّوه قلعة الحجاج وفي اللاتينية CASTRUM PEREGRINORUM ويُعرف بالفرنسية باسم CHÂTEAU PÈLERIN.

٦ - حتي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٧٧.

على ميناءي بيروت وطرابلس من أجل مقتضيات التجارة والتموين، وخرّبوا جميع باقي الموانئ. ومنذ ذلك التاريخ أخذت بيروت تتقدّم على ما عداها من مدن لبنانية، وتلتها في ذلك طرابلس.

البطاركة الموارنة في زمن المماليك

خلف شمعون الثاني على سدة بطريركية أنطاكية للكنيسة المارونية بطريرك اسمه يعقوب، لم يُعرف تاريخ انتخابه ولا تاريخ وفاته بالتدقيق. غير أن أكثر الباحثين قدّر بأنه جلس في دير سيّدة إيليج في ميفوق حتّى سنة ١٢٧٧. وكاد وجود هذا البطريرك يضيع في مجاهل السنين لولا كتابة نُقشت على عتبة دير سيّدة ميفوق جاء فيها: "أتمّ البطريرك يعقوب هذا البناء سنة ١٢٧٦". فمن الثابت إذن أن البطريرك يعقوب كان مقيمًا في ميفوق قبيل تجديد الدير وبعده^١. وقد ذكر السمعاني هذا البطريرك في لائحته والبطريرك الدويهي في لائحته. وجاء في المدوّات اللاحقة أن البطريرك يعقوب كان جالسًا في يانوح، قبل أن ينتقل إلى ميفوق حيث أتمّ تجديد بناء الدير وجعله مقرًا لكرسيه^٢.

ومثلما لم يتمكّن الباحثون، حتّى الآن، من تحديد سنة وفاة البطريرك يعقوب، فمن الطبيعي ألا يكونوا قد تمكّنوا من تحديد سنة انتخاب خلفه دانيال الحشيتي^٣، فتراوحت

١ - داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٣٣.

٢ - فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩١.

٣ - نسبة إلى بلدة حشيت من أعمال قضاء بشري.

تقديرات واضعي لوائح سلسلة البطارقة بين أن تكون تلك السنة ١٢٧٧ أو ١٢٧٨. على أنه وجد في المكتبة الماديشية حاشية على هامش إنجيل^١ كتبها "إرميا الدمصي" مفادها أنه في سنة ١٢٧٨ سامه البطريك دانيال الحدشيتي أسقفاً على دير "كفتون"^٢ القائم على ضفة النهر. وقد أثبت البابا نقولا الثالث (١٢٧٧ - ١٢٨٠) البطريك دانيال الحدشيتي سنة ١٢٨٠، وكرّر عليه أمر سلفه البابا زخيا الثالث إلى البطريك العمشيتي بأن يتخذ الميرون من زيت الزيتون ومن دهن البلسم فقط. ولهذا البطريك ذكر في كتاب تقديس الميرون الذي نسخه القسّ يوحنا من "حجولا"^٣ وقال في ذيله: "كان النجاز منه في سنة ١٢٨٠ في أيام الأب المختار دانيال من حدشيت"^٤. والمعروف أنّ هذا البطريك قد قاد المقاومة المارونية لغزو المماليك بالقرب من إهدن لمدة أربعين يوماً. وقد جاء في كتاب ابن الحريري في أخبار أحداث سنة ١٣٠٠ أنّ "المماليك لم يتمكّنوا من انتزاع طرابلس من أيدي الصليبيين إلا بعد أن أجهزوا على المقاومة المارونية، عندئذ زحفت جيوشهم الجرارة في أوائل سنة ١٢٨٢ على بلاد الجبة فقاد رجال الدفاع البطريك دانيال من حدشيت بنفسه، وأوقف جيوش المماليك أمام إهدن أربعين يوماً، ولم يتمكّنوا منها إلا بعد أن أمسكوه بالحيلة ... ولقد تجرّ هذا البطريك الحدشيتي واستطال وتكبّر واستقوى أهل تلك الجبال وتحصّن

١ - حاشية سريانية على هامش ص ١٧ من كتاب الأناجيل المحفوظ تحت الرقم (١) في المكتبة الماديشية في فلورنسا.

٢ - كفتون: قرية في قضاء الكورة من لبنان الشمالي، تقع على متوسط ارتفاع ٩٠٠م. عن سطح البحر، فيها دير أثري هو من أهم الأديرة في منطقة وادي نهر الجوز لأنه شُيّد على الصخور ويتّكى على تضاريسها منذ مئات الأعوام، يقول بعض مؤرخي السريان إنّ السريان قد بنوه (طرازي، أصنق ما كان، ١: ٢٧٧) وإنّه انتقل إلى الموارنة، ثمّ استولى عليه الروم الملكيون في لقرون الأخيرة وأعدوا بناءه سنة ١٦٧٧، وحولوه إلى مدرسة تابعة لكرسي مطرانيّهم بطرابلس، ويُعرف اليوم بمدرسة كفتين.

٣ - حجولا: قرية في بلاد جبيل من أعمال جبل لبنان.

٤ - العنيسي، مرجع سابق، ص ١٢٤، داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٢٣.

فيها وشمخ بأنفه فقصدته التركمان واحتالوا عليه فأمسكوه وكان إمساكه فتحًا عظيمًا، أعظم من افتتاح حصن أو قلعة. وكفانا الله شره^١.

بعد أن قبض على البطريك الحديثي بالحيلة، اقتيد إلى طرابلس، حيث استشهد على الأرجح سنة ١٢٨٢، إذ انقطعت أخباره تمامًا^٢. ما جعل أهالي حدشيت يهجرون بلدتهم إلى جزيرتي قبرص ومالطة خوفًا من إنتقام المماليك. وهجر قسم آخر إلى حمّانا في قضاء بعبداء من أعمال جنوب جبل لبنان، حيث لا يزالون يُعرفون إلى اليوم بـ"الحداشنة"، ونزح سواهم إلى بلاد بعلبك كدير الأحمر، وإلى مناطق الزاوية في الشمال، وقرية مشتي بيت الحلو في سورية القريبة من عكار^٣. وتمكّن المماليك إنذاك من دخول حصرون وبقوفا والحدث وإهدن...

إثر القبض على البطريك الحديثي سنة ١٢٨٢ من قِبَل المماليك وسوقه إلى طرابلس وانقطاع أخباره، دعا "هوغو دي لامبرياك"، أمير جبيل التابعة كونتيّة طرابلس، إلى اجتماع حضره الأساقفة والخورساقفة والكهنة والأعيان وانتخبوا المطران إرميا^٤ الدملصي بطريكًا، على ما كتبه هو بخطّ يده على هامش إنجيل محفوظ في المكتبة الماديشيّة كما سبق أن ذكرنا، وقد جاء فيها:

١ - مخطوط تشریف الایام والعصور في سيرة الملك المنصور، محفوظ في المكتبة الوطنية ببليس؛ راجع: داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٣٣؛ فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩١ - ١٩٧.

٢ - قبال: فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٢، حيث جاء خطأ، من دون الاستناد إلى أي مرجع، أنّه توفي في ميفوق سنة ١٢٨٢، مع أنّه لورد خير اعتقاله من قبل المماليك وسوقه إلى طرابلس بالنفصيل.

٣ - يمكن التوصل في الاطلاع على هذا الموضوع في دراسة أنطوان يونس المنشورة في جريدة "النهار" عدد ١٩ تموز (يوليو) ١٩٧٧، ص ٥، وفي كتاب فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٣ وما يليها.

٤ - خلط بعض اللواتح البطريركيّة بين إرميا الممشيتي وإرميا الدملصي حتّى اكتُشف الأثر الكتابي الاتي ذكره لئناه.

في سنة ١٢٧٨ في اليوم التاسع من شهر شباط (فبراير) أنا الحقير إرميا من قرية دملصا* أتيت إلى دير سيدتنا مريم في ميفوق في وادي إيليج مر عمل البترون^١ ورسمني البطريرك دانيال بيديه المقدستين مطراناً على دير كفتون* المقدس الذي على ضفة النهر وبقيت هناك أربع سنوات. وكان سكان الدير المذكور حزقيال ورفيقه إشعيا ودانيال ويشوع وإيليا وداود وغيرهم وجملتهم اثنان وثلاثون راهباً. وبعد انقضاء السنين الأربع طلبني أمير جبيل والأساقفة ورؤساء الكنائس والكهنة وألقوا قرعة^٢ فأصابتي وصيرونني بطريركاً في دير حالات* المقدس ثم أرسلوني إلى رومية العظمى وتركت أخانا المطران توادورس يدير الرعية ويهتم بشؤونها^٣.

لم تزودنا المراجع بتاريخ عودة البطريرك إرميا الدملصي من روما، ولكنه عاد حتماً قبل العام ١٢٨٢، إذ في ٢٦ شباط (فبراير) من تلك السنة، حضر اجتماعاً في قلعة أنفة^٤ بوجود حاكم طرابلس الصليبي للنظر في محاولة "غويدن" صاحب جبيل الصليبي ثلاث مرات الاستيلاء على مدينة طرابلس. وللبطريرك الدملصي توقيع على محضر الاجتماع: الأخ إرميا بطريرك الموارنة^٥ ...

توفي البطريرك الدملصي سنة ١٢٩٧ بعد أن شهد نجم الصليبيين يتوارى عن الأنحاء الشرقية. إذ سقطت الممالك الصليبية بأيدي المماليك. وفي سنة ١٢٩٠ لم يكن قد بقي بيد الفرنجة من بلدان الشرق التي فتحها الصليبيون إلا جزيرة قبرص. وانتخب خلفاً له البطريرك شمعون في السنة نفسها. وقد شهد هذا البطريرك، كما خليفته، أسوأ

١ - في التقسيمات القديمة كانت ميفوق تابعة للبترون وأصبحت في ما بعد ضمن منطقة جبيل الإدارية.

٢ - تعبير كان يستعمل قديماً للدلالة على عملية الاقتراع.

٣ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٣٤؛ فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٨.

٤ - أنفة: وردة في المراجع الفرنجية NEFIN: بلدة ساحلية في ساحل قضاء الكورة من شمال لبنان بين البترون وطرابلس.

٥ - فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ١: ١٩٨ - ١٩٩، عن الخوراسقف بولس قرآني الذي طالع هذه الوثيقة في فلورنسا.

حقبة عرفها موارنة لبنان على الإطلاق خلال تاريخهم المديد، إذ اجتاحت المماليك في تلك الحقبة بأمر السلطان برقوق الجبال اللبنانية، فقتلوا ودمّروا ونهبوا وأحرقوا الأرض، وفرّ الناجون من سكّان تلك الجبال من مختلف المذاهب إلى مناطق متعدّدة، أمّا الموارنة ففرّ بعضهم إلى جزيرة قبرص، وإلى أماكن قصيّة من سوريا ولبنان، وانحصر الوجود المارونيّ اللبناني، إلى حين، في المنطقة الممتدّة بين نهر ابراهيم جنوباً، ونهر المدفون شمالاً، والعاقورة وموازاتها شرقاً، بالإضافة إلى بعض الوجود في وادي قنّوين وجبّة بشرّي. أمّا الموارنة الذين كانوا يقطنون شمالي لبنان، وخاصّة في جبّة بشرّي، فقد استقرّوا في تلك الحقبة بسكون لا يتحرّشون بأحد. ولطالما كان البطريرك شمعون يطلب إلى أبناء كنيسته، في تلك الحقبة، الخلود إلى السكينة^١.

قَضَاءُ الْمَمَالِيك

عَلَى أَعْوَانِ الصَّلَيبِيِّينَ

لم نجد في المعالجات التاريخيّة آيّة معالجة صريحة للسياسة الواضحة التي اتّبعها المماليك، سواء بالنسبة للفرنجة، أم لمختلف الفئات التي تعاونت من قريب أو بعيد مع الفرنجة، بغضّ النظر عن الانتماء الدينيّ لتلك الفئات. فإنّ الصورة التي تتأقّل المؤرّخون رسمها لحروب المماليك التآديبيّة التي عقيبت قضاءهم على الصليبيين، هي صورة مذهبيّة. والواقع هو غير ذلك. فالمماليك الذين اتّبعوا نهج "الأرض المحروقة" مع الصليبيين، كما لاحظنا من خلال المطالعات الواسعة، راموا من خلال سياستهم تلك الحوّل دون استمرار الحملات الصليبيّة المتتالية التي كانت تتجدّد بعد كلّ انكسار لهم، لذلك لم يكتفِ المماليك بالسيطرة على المدن والقلاع التي كانت بيد الفرنجة، بل

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٣٧.

دمروها تماماً. وعندما انتهت مهمّتهم تلك، تحوّلوا إلى المناطق التي تعاون سكّانها مع الفرنجة، في أيّ ظرف من الظروف، وإلى أيّ مجتمع/طائفة انتموا، ليقرّروا لها مصيراً مماثلاً لمصير المناطق التي كانت بأيدي الفرنجة.

من هذه الزاوية الواقعيّة، لا تعود حملات المماليك تلك "حملات تأديبيّة" كما تتلقاها المؤرّخون وما زالوا يتناقلونها^١، إنّما هي حملات تدرج في السياق نفسه الذي ساقه المماليك على الفرنجة. ومن هذا المنطلق "الإبادوي" والتدميريّ جاءت فتوى ابن تيمية الشهيرة التي حلّلت إبادة المسلمين المنشيعين على مختلف فرقهم^٢. ومن هذا المنطلق أيضاً جاءت حملات الإبادة، وليس التأديب، التي شنّها المماليك، بين نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، على شمال لبنان وعلى جباله التي كانت تضمّ سكّاناً موحدّين دروزاً وعلويّين نصيريّين وشيعة إضافة إلى مسيحيّين موارنة وملكيّين. ذلك بعد أن كان المماليك في خلال احتلالهم لمدن الساحل قد خرّبوها شرّاً تخريب. فبعد أن قضى المماليك على الفرنجة تماماً أقدموا على ردم الموانئ البحريّة لمنع سفن الفرنجة من إمكانيّة الرسو فيها. ذلك أن قوّة المماليك البحريّة لم تكن ذات شأن. وهكذا أصبحت مدن الشاطئ الواقعة بين عسقلان وطرابلس خراباً^٣. وعندما مرّ ابن بطّوطة على هذا الشاطئ سنة ١٣٢٧، وصف عكاً وصور وطبريا بأنّها كانت خراباً^٤. وبعدها دكّ المماليك مدن الساحل، توجّهوا إلى الجبال فقتلوا من الإسماعيليّة

١ - راجع: حسي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٩٥.

٢ - راجع: المنجد صلاح الدين، ولاية دمشق في العهد العثماني (دمشق، ١٩٤٩) ص ٦.

٣ - ليو الفداء، تقويم البلدان، مرجع سابق، ص ٢٣٩ وما يليها.

٤ - ابن بطّوطة، تحفة للنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، طبعة وترجمة: C. DEFREMERY AND B. R.

SANGUINATTI, VOL. I (PARIS, ١٨٩٣) PP. ١٢٦ - ١٣٢.

والنصيرية والشيعة على مختلف مذاهبها عددًا كبيرًا^١. وقد هرب من الشيعة جماعات لجأت إلى جبال لبنان والبقاع. وكان السلطان قلاوون المملوكي قد أرسل جيشه إلى معقل الموارنة في أعالي لبنان الشمالي سنة ١٢٨٣ وخرّب بشري وإهدن وحدث الجبة كما ذكرنا سابقًا، فنزح بواسطة المراكب البدائية ألوف الموارنة إلى جزيرة قبرص هربًا من الإبادة^٢. وهاجم جيش المماليك منطقة عكار واضطهد فيها الشيعة والمسيحيين السريان بعنف^٣، فنزح الكثيرون منهم، والقليلون الذين بقوا في عكار اتّبعوا المذهب السنّي^٤. ثم جلب المماليك بني سيفا وأقطعوهم المنطقة^٥. وبين ١٣٠٢ و١٣٠٦ شنّ المماليك على منطقة كسروان، التي كانت تمتدّ بين نهر بيروت جنوبًا ونهر ابراهيم شمالًا، حملات عنيفة أدّت إلى تفرّيقها تمامًا من سكّانها على مختلف مذاهبهم، وقد قُتل منهم خلق كثير، ومن نجا لجأ إلى مناطق مختلفة^٦. وفي سنة ١٣٠٧ تعرّضت مناطق الموحّدين الدروز لحملات مماثلة كانت المعركة الفاصلة فيها عند عين صوفر في أعالي منطقة عاليه من أعمال جبيل لبنان. "حيث أباد جيش المماليك البالغ عدده خمسين ألفًا قرابة عشرة آلاف نسمة وخرّبوا بلادهم وقطعوا أشجارهم وذبحوا نساءهم وأطفالهم"^٧.

١ - لين جبير، رحلة لين جبير (القاهرة، ١٩٥٥) ص ٣٠٤.

٢ - الدويهي، تاريخ الأزمنة، ١: ١١٣ - ١: ٢٦٣؛ DIB, L'ÉGLISE, VOL. I, P. ٢٦٣؛ حنّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٩٧.

٣ - راجع: عاشور سعد عبد الفتاح، الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية (القاهرة، ١٩٦٣) ٢: ١١٤٦؛ فيليب دي طرّازي، أصدق ما كان، مرجع سابق، ١: ٦٤ - ٧١؛ HENRI LAMMENS, LA SYRIE, PRÉCIS HISTORIQUE, IMPRIMERIE CATHOLIQUE (BEYROUTH, 1921) V.2, P.14-17.

٤ - الصليبي كمال، تاريخ لبنان الحديث، دار النهار للنشر (بيروت، ١٩٦٧) ص ١٦.

٥ - LAMMENS, LA SYRIE, V.2, Op. Cit.. P.68.

٦ - راجع: الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ٩: ١٢٢ - ٩: ٢٥ و ١٠: ١٢٥ - ١: ٢٣.

٧ - راجع: بن يحيى صالح، تاريخ بيروت، ص ٣٢ - ٣٣، ١٠٠ - ١٠١.

بعد انتهاء الممالك من حملات "التنظيف"، هدأت طفرتهم الغاضبة، فبدأوا يعملون لتنظيم مملكتهم. وقد جعل التقسيم الإداري المملوكي السلطنة ستّ نيابات، جُزئ فيها لبنان إلى ثلاث، بهدف "منع الوحدة والاستقلال"^١. أمّا النيابات الثلاث فكانت: نيابة طرابلس، التي شملت مناطق لبنان الشماليّة والساحل الممتدّ من جبيل إلى شمالي اللاذقية؛ ونيابة صُفد، التي ضمتّ مناطق لبنان الجنوبيّة بما فيها صور؛ ونيابة دمشق التي ضمتّ المناطق الباقية أي صيدا وبيروت وبعبك وسائر البقاع. وقد قسّم البقاع إلى قسمين إداريّين: البقاع الشماليّ أو البقاع البعلبكيّ؛ والبقاع الجنوبيّ أو البقاع العزيزيّ. وجعل الممالك على كلّ نيابة "ثائبًا" من الموالى عند السلطان، الواحد منهم مستقلّ عن الآخر في إدارة نيابته. وحرصت السلطنة في مصر على أن تجعل مدّة النائب قصيرة قدر الإمكان، منعًا لتمكّنه من تحقيق أيّ طموحات شخصيّة، أو ربّما انفصاليّة. وقد أدّت كثرة الانقلابات بين الممالك إلى استمرار المؤامرات، لذلك عمد السلاطين دائمًا إلى تغيير النواب في مختلف الولايات والنيابات للاطمئنان إلى السيطرة عليهم. وكان بعض سلاطين الممالك يصلون إلى الحكم وهم دون سنّ الرشد، ما كان يوجد المزيد من المؤامرات بين الأمراء. هذه السياسة جعلت حكام النيابات يسرفون في الظلم والتنازع والفساد، فدفع الناس ثمن هذه الإدارة المتردّية فقرًا ومجاعة وذلاً وعذابًا. وما زاد في الوضع سوءًا، حدوث الزلازل، وانتشار الأوبئة كالطاعون والتيفوس إضافة إلى اثني عشر وباءً كاسحًا. كلّ هذا حصّد أعدادًا هائلة من السكّان، ما جعل عددهم ينخفض خلال حكم الممالك إلى ثلث ما كانوا عليه من قبل^٢.

١ - القلقشندي، صبح الأعشى، الجزء الرابع (القاهرة، ١٩١٤) ص ١٦٣ وما بعدها.

٢ - راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٤٠١ - ٤٠٣ بن يحيى، تاريخ بيروت، مرجع سابق، ص ١٩٨؛ المقرزي، إغاثة الأمة في كشف الغمة، تحقيق ونشر زيادة والشّيال (القاهرة، ١٩٤٠) الجزء الخامس.

كان للحكم المباشر الذي فرضه المماليك من خلال "النواب الموالى" المعيّنين من قبلهم، فعل القضاء على الحكم المحلي الذي كان سائدًا قبلاً. فقد أضحي الأمراء مجرد ملتزمي إقطاع، لا يملكون سوى الالتزام المؤقت لبعض المناطق. وكان النائب، أو السلطان، يجرّد الأمير/الإقطاعي من الممتلكات التي تحت التزامه ساعة يشاء. وبذلك، لم تبقى الإمارة التتويحية مثلاً تحت أمره أمير، بل أصبح هنالك عدة أمراء من التتويحيين لكلّ منهم التزام على عدد من القرى^١. وكان من الطبيعي أن ينسحب هذا الأمر على الموارنة، وأن يمنع المماليك الأهالي، على مختلف مستوياتهم وانتماءاتهم الدينية، من الاتصال بالغرب سواء لشؤون تجارية أم ثقافية أم سواها، وقد عمّموا على رؤساء الكنائس المسيحية وجوب الحرص على عدم مقابلة الأجانب أو استضافتهم خصوصاً إذا كانوا ينتمون إلى الدول الغربية المسيحية المشتبه بها، وعلى ألا يرسلوا حاكماً أو ملكاً أجنبياً. وبذلك انقطعت صلة البطريرك الماروني بروما^٢.

في ظلّ هذه الرقابة الصارمة، تمكّن الموارنة في شمال لبنان من ممارسة نوع من الاستقلال الداخلي بقيادة مقدّمهم الذين كان النواب المماليك يكلّفونهم جباية الضرائب وإصدار الأحكام. وكانت الكنيسة المارونية بحسب تراتيّتها التنظيمية وعلى رأسها البطريرك، تقضي في شؤون الأحوال الشخصية^٣. وتطالعنا المدونات العائدة إلى تلك الحقبة بأنّ منطقة وادي التيم* كانت تحت حكم الأمراء الشهابيين المسلمين، وكان مقرّهم في "حاصبيا"^٤؛ وأنّ منطقة الشوف كانت تحت حكم الأمراء المعنّيين المسلمين، وكان مقرّهم في بعقلين^٥؛ وأنّ منطقة صور و"جبل عمل" من جنوب لبنان

١ - راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢٦٧ - ٢٨٧.

٢ - العمري، التعريف بالمصطلح الشريف (القاهرة، ١٣١٢) ص ١٤٥ - ١٤٦.

٣ - راجع: التوبهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٧٩؛ الشدياق، تاريخ الأعيان، مرجع سابق، ٢٣ و ٢٤٤.

٤ - راجع: الشدياق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢٨٩.

كانت تحت حكم بني عاملة الشيعة^١؛ وبعد أن "نحر الظاهر بيبرس المملوكي الصليبيّين سنة ١٢٦٨م. واستولى على مملكة "الشقيف" في جنوب لبنان، جعلها دار نيابة قاعدتها القلعة^٢. ونقع على ذكر لأسرة مملوكية تُعرف بـ"بني سودون"، أو "أبي سودون"، حكمت جبل عامل أو القسم الجنوبيّ منه في عهد المماليك، وقد تكون هذه العائلة السنية متحدرة من "سودون" نائب الشام المملوكي سنة ٨٨٣هـ / ١٤٧٨م، وبذلك يتّضح أن بني عاملة قد فقدوا الحكم على جبلهم في الحقبة المملوكية، وقد أساء السونيّون معاملة شيعة جبل عامل إلى أقصى الحدود^٣. وذكر مؤرخون أنّه قبل الفتح العثمانيّ، كان الوائليّون قد استعادوا حكم جبل عامل على يد علي الصغير الوائليّ جدّ بني علي الصغير^٤. أمّا منطقة الغرب، وهي سفوح الجبال المجاورة لبيروت والتي تمتدّ جنوبًا إلى أعالي الدامور، فكانت تحت حكم البحتريّين المتحدّرين من سلالة الأمراء التتوخيّين، وكان مقرّهم في سرحمول وعرمون الواقعتين اليوم في قضاء عاليه، وقد عُرِفوا منذ ذلك الحين بأمراء الغرب^٥؛ وكانت منطقة كسروان الكبرى تحت حكم الأمراء التركمان الذين فوّض إليهم المماليك حماية المعابر وأسكنوهم الأزواق الممتدّة من منطقة ساحل المتن إلى وسط ساحل كسروان، ومن هؤلاء سوف يتحدّر الأمراء العسافيّون^٦؛ وقبل نهاية القرن الخامس عشر، أُضيف إلى تلك الأسر الاقطاعيّة الحاكمة بنو سيفا الذين تولّوا عكّار وطرابلس^٧؛

١ - راجع: محمد جابر آل صفا، تاريخ جبل عامل، ص ٣٦. ٢ - القلشندي، صبح الأعشى، مرجع سابق، ١٤: ٤٠.

٣ - راجع: صفا آل محمد جابر، تاريخ جبل عامل، دار متن اللغة (بيروت، لا.ت.)، ص ٢٥. ٣٧ - ٤٢.

٤ - راجع: صفا، تاريخ جبل عامل، مرجع سابق، ص ٤٤ - ٤٩.

٥ - راجع: الشديقي، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ١٢٩.

٦ - راجع: الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٢٥: ٢٥؛ الشديقي، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٠٣.

٧ - راجع: الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٩٣: ١١؛ الشديقي، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٠٤؛ جيلس د. فلوق،

تاريخ عكّار الإداري والاجتماعي والاقتصادي (بيروت، ١٩٨٧) ص ١٧٣.

وبنو شعيب^١ الذين تولّوا طرابلس وناهضهم بنو سيفا في حكم عكار. وبنو حمادة الشيعة الذين تولّوا في مناطق جبيل والبترون وامتدّت مقاطعاتهم أحياناً شمالاً وجنوباً^٢؛ وبنو الشاعر^٣ السّنة الذين نازعهم بنو حمادة حكم البترون؛ وتناوبت عائلات إقطاعيّة على مناطق البقاع كبنّي الأعمى^٤ وبنّي الحنش^٥ وبنّي الحرفوش الشيعة^٦؛ وفي ظلّ هذه التقسيمات، أرسى المماليك نظام إقطاعهم المستمدّ من نظاميّ الإقطاع السلجوقي والصليبي. وكانت الدولة تجدّد أو تغيّر في حدود المقاطعات وتبدّل الملتزمين في مناسبات مختلفة^٧. وكانت تلك المرحلة الأخيرة من مراحل ما قبل نشوء الكيان السياسي اللبنانيّ الوطنيّ الذي سيقوم على مفاهيم وطنيّة.

إِحْصَارُ الْمَوَارِنَةِ فِي بِلَادِ جُبَيْلٍ

ذكر الدويهي في حوليّاته عن سنة ١٣٠٢ ما يلي:

بهذه السنة اجتمعت النواب جمال الدين أقوش الأقرم نائب دمشق وسيف الدين اسندمر نائب طرابلس وشمس الدين سنقر المنصوري وجمعوا جيوش الشام إلى مقاتلة الجرديين وأهل كسروان، فاجتمعوا مقدّمين الجبال وتوابعهم وأحاطوا بالجيش من كلّ جهة فهزموه وقتلوا نفراً كثيراً وغنموا بأمتعتهم.

١ - راجع: منير الخوري عيسى أسعد، تاريخ حمص، طرابلس (لبنان، ١٩٨٣ - ١٩٨٤) ٢: ٢٩٤؛ لحمد أبو سعد، معجم أسماء الأسر والأشخاص ولمحات من تاريخ العائلات، دار العلم للملايين (بيروت، ١٩٩٧) ص ٤٨٠.

٢ - راجع: الشديق، أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٠٦؛ المطوف عيسى لسكنر، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني، وقف على نشره رياض المعلوف، المطبعة الكاثوليكيّة (بيروت، ١٩٦٦) ص ٢١٤؛ أبو سعد، مرجع سابق، ص ٢٦٠.

٣ - راجع: أبو سعد، مرجع سابق، ص ٤٥٧. ٤ - راجع: أبو سعد، مرجع سابق، ص ٩٥.

٥ - راجع: الصليبي كمال، متعلّق تاريخ لبنان (بيروت، ١٩٧٩) ص ١٥١؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٩٨: ٢.

٦ - راجع: الأمين السيّد محسن، أعيان الشيعة (بيروت، ١٩٨٦) ٢: ٢١٦؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٩٥: ١٧.

٧ - راجع: مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص ٢٣٨ - ٢٤١.

ويقول الدويهي إنّ الواقعة كانت عند مدينة جبيل، وإنّ المقدّمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين في العدد...

وكان المشهورون فيهم خالد مقدّم مشمش، وسانان وأخوه سليمان مقدّم إيليج، وسعادة وسركيس مقدّم لحفد، وعنتر مقدّم العاقورة، وبنيامين مقدّم حردين؛ فجعلوا ألفين مقاتل يكمنوا على نهر "الفيدار" وألفين غيرهم على نهر "المدفون"، ثمّ انحدروا بثلاثين ألف إلى قتال الجيش فوقعوا بـ"حمدان" قائد الجيش على الطريق منفردًا فقتلوه وهجموا على الجيش فأهلكوا غالبه وغنموا بأمتعتهم وسلاحاتهم وأخذوا أربعة آلاف رأس من خيلهم؛ وقدمت الأكراد لنجدتهم فوقعوا بيد المكمين على الفيदार فلم يخلص منهم إلّا القليل؛ وقتل من الإمارة التتوخية "تجم الدين محمد" وأخوه "شهاب الدين أحمد" ولدي "جمال الدين حجي"، وغزت الجردية بلادهم فأحرقوا منها عين صوفر وشمليخ وعين زوينه وبحطوش وغيرها من بلاد الغرب؛ وقتل أيضًا من المقدّمين بنيامين صاحب حردين فدنفوه عند صاحب الأركان في جبيل

ثمّ ذكر في تدوينه لأحداث سنة ١٣٠٤ ما يلي:

في سنة ألف وثلاثماية وأربع مسيحية أرسل أقوش الأفرم نائب دمشق إلى الجبليّين والكساروه (أهل كسروان) الشريف "زين الدين إين عدنان" بسبب الإصلاح مع التتوخية، وأن يرجعوا إلى الطاعة، ثمّ أرسل "تقي الدين بن التيمية" وبصحبه الأمير "بهاء الدين قراقوش" فلم يحصل الإتفاق؛ فأفتى العلماء بنهبهم لأنّهم فتكوا بجيش الإسلام ... فجزّدت العساكر ثمّ تجمّعت الرجال من كلّ بلاد الشام ولم تزل تردد من كلّ ناحية إلى سلخ هذه السنة

ثمّ ذكر في تدوينه لأحداث سنة ١٣٠٧ ما يلي:

في سنة ألف وثلاثماية وسبع مسيحية يذكر "إين الحريري" و"إين سباط" أن سار يوم الإثنين ثاني محرّم "أقوش الأفرام" نائب دمشق بخمسين ألف فارس وراجل إلى

جبال الجرد وكسروان المسابقة ببيروت؛ فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة
أمراء بعشرة آلاف مقاتل وتلاقوا عند عين صوفر وجرى بينهم قتال عظيم وكانت
الكسيرة على الأمراء فهربوا بحريمهم وأموالهم وأولادهم وبنحو ثلاثماية نفس
واحتموا في الغار غربي كسروان يُعرف بمغارة نبيه وهي فوق إنطلياس بالقرب
من مغارة البلانة، فحاموا عن نفوسهم بالقتال ولم يقدر الجيش عليهم فبذلوا لهم
الأمان فلم يخرجوا فأمر نائب دمشق أن يبنوا على الغار سدًا من الحجر والجير ثم
هدموا على بابه تلّ عظيم من التراب والحجر وجعلوا الأمير "قطلوبك" حارسًا
عليهم مدة أربعين يومًا فهلكوا داخل الردم؛ ثم أحاط العسكر بتلك الجبال من كلّ
الجهات ووطنوا أرضًا لم يكن أهلها يظنون أن أحد من خلق الله تعالى يصل إليها
فأخربوا القرايا وقطعوا الكروم وهدموا الكنائس وقتلوا وأسروا جميع من بها من
الدرزية والكساروه وغيرهم فخربت تلك الجبال المنيرة وذلت قلوب أهلها^١.

وهكذا يتّضح أن مقامي جبيل، قد صنّوا الممالك ومنعوه من الدخول إلى بلاد
جبيل الممتدة بين نهري المدفون و ابراهيم، فأضحت تلك المنطقة بامتدادها حتّى جرود
بعلبك، ملجأ للذين نجوا من حملة الممالك، وبقيت ملجأ لهم إلى أن قوّض العثمانيون
أركان الدولة المملوكيّة في معركة مرج دابق سنة ١٥١٦.

واختصارًا، كان اللاتين قد منحوا موارنة لبنان جميع الحقوق الكنسيّة والمدنيّة
التي كانت لأبناء الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة. تلك الامتيازات جعلت الممالك
يخصّون هذه الكنيسة بامتيازات من نوع آخر، فجردّوا سنة ١٢٨٣ حملة عسكرية ضدّ
معاقل الموارنة في بشريّ وإهدن وحدث الجبّة من أعالي لبنان الشمالي وخرّبوها^٢.

١ - راجع: الدويهي، تاريخ الأزمنة، في تواريخ السنوات المذكورة أعلاه؛ فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ١٥ - ١٩؛ للشديق،
أخبار الأعيان، مرجع سابق، ١: ٢٠٧ - ٢٠٨؛ زجليّت لين للقلاعي، منيحة جبل لبنان.

٢ - الدويهي للبطريك إسطفانوس، تاريخ الأزمنة، مجلة المشرق، المجلد ٤٤ (سنة ١٩٥٠)، ص ١٤٥ - ١٤٦.

وقد أصدر السلطان قلاوون منشورًا إلى عامله في دمشق "أقوش الأفرم"، وإلى عامله الآخر في طرابلس "أسندم"، وإلى سواهما من القادة، ليشنوا حرب إبادة على منطقة كسروان التي كان يقطنها مسيحيون وشيعة ونصيرية، وأطمعهم "في أن من نهب امرأة كانت له جارية، أو صبيًا كان له غلامًا، ومن أتى منهم برأس مقتول كان له دينارًا"^١. فكانت الحملات العسكرية التي تعرضت لها كسروان من أعنف الحملات التي تعرض لها لبنان ومن أشدها فتكًا وخرابًا، وقد توافقت مع إفتاء ابن تيمية، مفتي دولة المماليك وأحد أعظم فقهاء عصره، بأن العلويين^٢، هم دون النصاري مرتبة ويجب إبادتهم^٣. واشترك ابن تيمية نفسه في هذه الحملة. وبالرغم من المقاومة العنيفة التي أبدتها المسيحيون، كما الأقليات الدينية المنشقة، والتي مكنتهم من الصمود في وجه حملة الإبادة زهاء خمس سنوات، جاءت المعركة الفاصلة سنة ١٣٠٥ التي انتهت في عين صوفر حيث أباد جيش المماليك البالغ عدده حوالي خمسين ألف مقاتل، زهاء عشرة آلاف كسرواني، كان معظمهم من الدروز، وخرّبوا بلادهم، وقطعوا أشجارهم، وذبّحوا نساءهم وأطفالهم، وتناست ثلاثمئة عائلة تركمانية المنطقة الساحلية الواقعة شمالي بيروت إلى جنوبي طرابلس كإقطاعات بينها^٤.

١ - راجع: الحتوني الخوري منصور، نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية (الطبعة القديمة) ص ٤١ وما يليها؛ إلا أن هذا المرجع قد ذكر من بين الذين قاتلوا إلى جانب المماليك في تلك الحملة "أمراء الغرب التتوخييين"، وذلك خطأ دون شك، كون هؤلاء كانوا قد أضحووا دروزًا فكفوا بدورهم مضطهدين كما تشهد بذلك معركة عين صوفر.

٢ - المقصود بالإفتاء بالعلويين، اقتباع علي من شيعة ونصيرية وسوام.

٣ - صلاح الدين المنجد، ولاية دمشق في العهد العثماني (دمشق، ١٩٤٩) ص ٦ - ٧.

٤ - راجع: عواد إبراهيم، لبنان في عهد المماليك، المشرق، مجموعة ١٩٤٢ المجلد ٤٠، ص ١٦ - ٢١، الدويهي، تاريخ الأزمنة، المشرق، المجموعة ١٩٥٠ المجلد ٤٤، ص ١٦٠ - ١٦٤؛ صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٣٢ - ٣٣، ١٠٠ - ١٠١.

لم تتجح محاولات المماليك في إيادة الكنائس المسيحيّة، كما أنّها لم تتجح في إيادة المذاهب المنشقة عن السنة، على أنّها أضعفت هؤلاء جميعاً "وقد وجّهت هذه السياسة أنظار السكّان، في شمالي سورية وفي لبنان وفلسطين التي ظلّت زمنًا طويلًا تحت الحكم الأوروبي، وفي الدرجة الأولى الإفرنسي، إلى الغرب"^١. وكما كانت ردّة الفعل ضد الأوروبيين عميقة في سلبيتها لدى انكسار هؤلاء على أيدي المماليك، كذلك ستكون ردّة فعل الجماعات الدينيّة التي عانت ظلم المماليك سلبيةً بعمق، وستوجّه أنظار تلك الأقليات نحو الغرب حتّى بعد زوال حكم المماليك وطوال مدة حكم خلفائهم: العثمانيين.

وفي هذه الحقبة الممتدة بين ١٣٠٢ و ١٥١٦، اكتظّت منطقة جبيل بالسكّان الموارنة، وما إن نشأت الإمارة اللبانيّة على عهد الأمير فخر الدين الأول، كما سيأتي لاحقًا، حتّى تدفّق عدد كبير منهم من بلاد جبيل إلى مناطق كسروان - الفتوح والشمال والشوف والجنوب.

بَطَارِكَةُ

الحقبة المظلمة

تكاد أخبار حقبة المئة عام الأولى من حكم المماليك لجبل لبنان أن تكون مغمورة كليًا، خاصّة تلك التي تختصّ بالكنيسة المارونيّة على كافّة مستوياتها. ذلك أنّ المماليك قد واجهوا الإرساليات بتقيد شديد. وفي كتاب البراءة الذي أرسله السلطان إلى بطريرك الملكيين، ينبّهه ألاّ يقابل الأجانب وألاّ يستضيفهم، لا سيّما إذا كانوا من المشتبه بهم، وألاّ يرسل حاكمًا أو ملكًا في دولة أجنبيّة. وقد أرسل تنبيهًا مماثلاً إلى

١ - حتّى، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٣٩٩.

بطريرك اليعاقبة^١. وفي الإطار نفسه انقطعت الرسائل بين روما وبطيريك الموارنة الذي استمرّ طيلة عهد المماليك ينقل مقرّه من قرية إلى أخرى نظراً للحالة القلقة التي كانت سائدة^٢. وجلّ ما كشفت عنه الأبحاث بالنسبة لأخبار البطاركة في خلال تلك المدّة، أنّه قد جرى انتخاب البطريرك شمعون الثالث^٣، بحسب المقالة السمعانيّة، سنة ١٢٩٧. ويتّضح من مخطوط لـ "سابا ابن القسّ جرجس القناتي"^٤ كان محفوظاً في كنيسة مار ميخائيل في "عينطورين"^٥ أنّ ذلك البطريرك كان حيّاً سنة ١٣٢٢، إذ ذيل النسخ المخطوط بعبارة: "كان النجاز منها في سنة ١٣٢٢ في أيّام المختار البطريرك شمعون". كذلك ذكر القسّ "يعقوب" رئيس دير "مرت مورا" في إهدن، في نهاية إنجيل نسخه كان محفوظاً في كنيسة "بجّة"^٦ في بلاد جبيل: "كان الفراغ منه سنة ١٣٣٩ في أيّام البطريرك شمعون"، ما يعني أنّ البطريرك شمعون كان لا يزال حيّاً في تلك السنة^٧. وجاء في سلسلة العنيسي أنّ هذا البطريرك قد توفّي سنة ١٣٣٩^٨.

ويستقى من سلسلة العنيسي أنّ البطريرك يوحنا العاقوري الذي خلف البطريرك شمعون قد انتُخب سنة ١٣٣٩^٩، وجاء في سلسلة النويهي: "رأينا محرراً في كتاب

١ - العمري، للتعريف بالمصطلح للشريف (القاهرة، ١٣١٢) ص ١٤٥ - ١٤٦.

٢ - داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٣٦؛ قبل: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ١: ٢٠٠ الذي جعله شمعون الثالث،

وبرأينا أنّ هذا الترتيب خاطئ.

٤ - القناتي: نسبة إلى بلدة قنات بقرب بشري.

٥ - عينطورين: قرية بقرب إهدن تقع على متوسط ارتفاع ١٣٠٠ م. عن سطح البحر.

٦ - بجّة: قرية في قضاء جبيل بقرب ميغوق تقع على متوسط ارتفاع ٧٠٠ م. عن سطح البحر.

٧ - داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٣٦ - ٣٧.

٨ - فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٣٨.

٩ - العنيسي، سلسلة البطاركة، ص ٢٧؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٤٤.

بكنيسة مار سركيس حدثت أنه كمل سنة ١٣٥٧، في أيام يوحنا بطرك أنطاكية وجبل لبنان والشطوط البحرية، ويوحنا أسقف قبرص. ومات البطريك يوحنا سنة ١٣٥٧^١. وذكر محققون كنسيون موارد محدثون أن هذا البطريك قد اتبع المونوفيزية استناداً إلى ابن القلاعي الذي ظهر بعد هذا البطريك بمئة عام. ونسب إليه التسبب في انشطار الكنيسة المارونية إلى شطرين: موارد بلاد جبيل والبترون الذين تمسكوا بالإيمان الخلقيدوني، وموارد جبة بشرّي أو بعضهم الذي انساق مع البطريك^٢. وقد ذكر ابن القلاعي أن جماعة "من أهل الأمانة المستقيمة هاجوا على البطريك وأنزلوه عن كرسيه ومات منحنطاً. وأقاموا عوضه راهباً أصله من حجولا..."

هذا البطريك الجديد، إسمه جبرائيل، وهو منسوب إلى قرية حجولا الجبلية. وقد أدار شؤون البطريكية مدة عشر سنوات مات بعدها شهيداً في سنة ١٣٦٧. سبب ذلك أن "بيار دي لوزينيان"، ملك قبرص الفرنجي، قد أغار سنة ١٣٦٥ على الإسكندرية برجاله فنهبوا وأعملوا السيف في أهلها. فأحدثت هذه الغارة ردة فعل ضد المسيحيين في مختلف الأنحاء المصرية والشامية، الذين تعرضوا على الأثر لإضطهادات عنيفة. وكان الموارد من جملة من اضطهدها، فقبض المماليك على عدد من أساقفتهم واقتادوهم إلى السجن في دمشق، وهرب البطريك جبرائيل الحجولائي من أمام الإضطهاد واستتر في قريته حجولا بناء على إلحاح الإكليروس والأعيان والشعب. فأرسل نائب طرابلس جنوده في طلبه وألقى القبض على زعماء المقاطعة وأنذرهم بالهلاك إن لم يسلم البطريك. عندئذ سار البطريك إلى طرابلس مستسلماً، وقد حكم

١ - فهد، بطركة الموارد، مرجع سابق، ٢: ٤٤.

٢ - ضو، تاريخ الموارد، ٤: ٣٠، نقلاً عن ابن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٤٩ - ٢٥٢.

عليه ظلمًا بالموت ونفذ فيه الحكم عند جامع "طيلان" خارج المدينة في أول نيسان (إبريل) ١٣٦٧^١. ويستخلص من زجلية اين القلاعي أن هذا البطريك قد قضى ضحية شهادات زور أذاها ضده فريق من السريان الماردينيي الأصل^٢. وقد ذكر استشهاد البطريك جبرائيل من حجولا كتاب المجمع اللبناني^٣. وفي سنة ١٩٣٧ جُمع ملفٌ حول استشهاد بامر البطريك أنطون عريضة^٤.

يرى باحثون كنسيون موارد أنه بعد مقتل البطريك الحجولاوي، أقام خلفاؤه في دير سيده ميفوق، وظلّوا تحت سيطرة نائب طرابلس. فاضطروا إلى الانقطاع عن العالم المسيحي في الخارج. غير أنهم ظلّوا متمسكين بالاعتاب الرسولية والاتحاد الوثيق بالأخبار الأعظمين. وكانوا، فور انتخابهم، يسعون إلى الحصول على درع التثبيت وكمال الرئاسة من الأخبار الرومانيين بواسطة المرسلين الفرنسيين. وكان هذا التثبيت يتأخر وصوله أغلب الأحيان، بسبب صعوبة المواصلات، بضع سنوات^٥.

فقد خلف البطريك الشهيد، البطريك داود الذي نسبته بعض الباحثين من أبناء جاج إلى جاج^٦، وجعلوا كنوته يوحنا، وقالوا إنه أقام بسبب الإضطهادات في دير مار

١ - وذكر الدويهي في تاريخ البطاركة، ص ٣٧: "وإلى اليوم قبره يهب الأتفة لمن يطلبها، وقد اتخذه المسلمون مزارًا يسعون له الشيخ مسعود".

٢ - داغر، بطركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٣٨؛ الدويهي لبطريك إسطفاس، الشرح المختصر، طبعة فهد (١٩٧٤) ص ٢٠٨؛ الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ١٢٨.

٣ - فهد الأبائي طرس، المجمع اللبناني، ص ٤٣١.

٤ - اللبس، الجامع المفصل، ١: ٢٢٩؛ فهد، بطركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٥٠.

٥ - صفيير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١١.

٦ - السمراني الأب فيليب، جاج في التاريخ، (بيروت، ١٩٨٢) ص ٧٥، إستنادًا إلى الدويهي، تاريخ الأزمنة، أخبار سنة ١٤٠١.

سركيس القرن بأرض حردين لأنه دير عاصٍ. ولكن هذه النسبة ليست ثابتة بحسب بعض الباحثين الذين ينسبون هذا البطريك إلى لحفد وليس إلى جاج^١. ولم يحسم واضعو سلاسل البطارقة الموارنة تاريخ انتخاب هذا البطريك بسبب الاضطهادات التي كانت سائدة عند استشهاد البطريك الحولائي، ولكن بعض المدونات يفيد بأنه قد انتخب قبل سنة ١٣٩٣، إذ ذكر الدويهي في كلامه على سنة ١٣٩٣ أنه كان جالساً على كرسي أنطاكية. والثابت أن هذا البطريك قد توفي سنة ١٤٠٤^٢. فخلفه البطريك يوحنا الجاجي الذي لقبه أبناء جاج بالكبير (بطريك ١٤٠٤ - ١٤٤٥). واعتبر مؤرخو البلدة أنه بدأ حياته الإكليريكية في دير مار ضوميط في جاج. وبعد انتخابه بطريكاً أقام في دير ميفوق. وأعاد الصلاة بروما بعد انقطاع بسبب إقفال دروب البحار. وفي العام ١٤٣٨ تلقى البطريك يوحنا دعوة من البابا أوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) لحضور المجمع الفلورنسي^٣، فأرسل "قراجوان" رئيس رهبان القديس فرنسيس الأسيزي (الفرنسيسكان) في بيروت، ليُعرب للحبر الأعظم عن استعداداته لقبول كل ما يحدده المجمع من عقائد وما يسنه من قوانين، ويكرّر طلب منحه براءة التثبيت^٤.

في ١٢ شباط (فبراير) ١٤٣٩، عُرضت في ذلك المجمع مراسلات البطريك يوحنا و"أمة الموارنة في لبنان والقدس وقبرص. وفي ١٠ حزيران (يونيو) من السنة

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٢٨.

٢ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٢٨.

٣ - يقول صغير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١١، أنه عندما قُضح للبابا أوجانيوس الرابع، قبيل انعقاد مجمع فلورنسا ١٤٣٩، أن الكنيسة المارونية هي وحدها على علاقة حسنة بكنيسة روما، وكان متسلماً زمام سلطتها آنذاك البطريك يوحنا الجاجي، أرسل إليه دعوة لحضور هذا المجمع.

٤ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٠.

نفسها، تقرر تثبيت البطريرك وإيلاؤه كل الإنعامات التي تمتع بها أسلافه. وأرسل إليه البابا، مع الباليوم^١، رسالة^٢ أبان له فيها كل ما بذله من جهود حتى توصل إلى إقناع ملك الروم وبطريرك القسطنطينية بالرجوع إلى حضن الكنيسة الجامعة وإزالة شقاق مضى عليه ٤٥٠ سنة، "حتى شاهد العالم أساقفة الشرق والغرب على أتم وفاق في ما يتعلق بالقضايا المختلف عليها سابقاً، أخصها قضية رئاسة البابا ومسألة انبثاق الروح القدس من الأب والابن وعدم انفصام عقد الزواج... فتَهَلَّ العالم أجمع وفرحت السماء بهذا اليوم الذي صنعه الرب"^٣. غير أن "هذه البهجة" لن تدوم طويلاً، فبعد ثلاثة عشر عاماً، سوف تفضل القسطنطينية "عمائم الشيوخ على تيجان الكرادلة"^٤. وفي ١٤٧٢، سوف ينعقد في القسطنطينية مجمع يتقرر فيه، تحت تأثير سياسة السلطان العثماني، العودة إلى الانفصال.

في هذه الأثناء، كان المماليك لا يزالون يسيطرون على لبنان. ولدى عودة القاصد الرسولي "قراجوان" إلى طرابلس، هرعت الوفود المارونية إلى المدينة لاستقباله، فأقلق ذلك نائب طرابلس. وكانت قد سرت إشاعة بين سكان المدينة المسلمين بأن الروم والفرنجة إنما اجتمعوا في فلورنسا لرسم خطة جديدة لاسترجاع الأماكن المقدسة من يد سلطان مصر. فأمر نائب طرابلس بالقبض على الأخ جوان ورفاقه^٥، بحجة أنه عميل للغرب، "وما أن درى السيد البطريرك بالأمر، حتى دعا بعض الأعيان وكلفهم

١ - يقول صغير، للكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٢١٢، أن البابا أرسل إلى البطريرك الجاجي درع التثبيت معترفاً به بطريركاً على فطاكية وماتر المشرق.

٢ - نص رسالة التثبيت في كتاب: السمراني، تاريخ جاج، مرجع سابق، ص ٩٥.

٣ - للمرجع السابق.

٤ - رستم، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى، ٣: ٣؛ راجع: الجزء التاسع من هذه الموسوعة.

٥ - صغير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٢١٢.

السعي لإخلاء سبيل القاصد الرسولي، فشحصوا إلى المدينة وخاطبوا الحاكم في قضية الإفراج عن الموفد البابوي، فصرّح لهم بأنه لا يُطلق سراحه إلا لقاء كفالة شخصية يتعهد القيام بها كلّ أعضاء الوفد الحاضرين، فقالوا: نحن كلّنا كفلاء. عندئذ صدر الأمر بإخلاء سبيل القاصد الذي شحّص حالاً إلى ميفوق، وسلّم البطريك درع الرئاسة ثمّ توارى".

إثر تسلّم البطريك يوحنا الجاجي التثبيت والإحتفال به في ميفوق، أدرك النائب المملوكي بتواري "قراجوان"، فأمر بإحضار الكفلاء، وفرض عليهم غرامة مالية باهظة. فمن تمكّن من الدفع فاز بالنجاة، ومن عجز كان نصيبه الشنق. ثم أمر الحاكم بمداهمة دير ميفوق والقبض على الرهبان، فأخذهم الجند إلى طرابلس بعد أن قتلوا بعضهم وأحرقوا البيوت والأرزاق، أمّا البطريك فلجأ إلى وادي قاديشا وسكن دير قنوبين^١. وبانتقال هذا البطريك من ميفوق إلى قنوبين، أصبح دير قنوبين المقر الدائم للبطريركية المارونية في حمى المقتمين وحمى وعورة المسالك في الوادي المقدّس، ما يقارب الأربعمئة سنة^٢. وفي سنة ١٤٤٥ توفّي البطريك يوحنا الجاجي ودُفن في مغارة القديسة مارينا في قنوبين التي صارت من بعده مدفنًا للبطاركة^٣. وقد أقامت بلدة جاج تمثالاً لهذا البطريك في ساحتها^٤، أزاح الستار عنه البطريك أنطونيوس خريش في ٢٩ آب (تموز) ١٩٨٢^٥.

١ - داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤١.

٢ - راجع مقال الأب د. بولس صغير بعنوان: البطريك يوحنا الجاجي من خلال الوثائق والمستندات لتاريخية، في كتاب: السمراني، جاج في التاريخ، مرجع سابق، ص ٥١.

٣ - الدويهي، تاريخ الأزمنة، ٢: ١٦٢.

٤ - نحت هذا التمثال الفنّان أنطون كامل من بلدة ترنج المجاورة.

٥ - راجع: السمراني، جاج في التاريخ، مرجع سابق، ص ١٠١ و ٢٣٢ - ٢٧٢.

عندما فتح العثمانيون القسطنطينية سنة ١٤٥٣، ومن ثم جعل الفاتحون بطريرك القسطنطينية ممثل المسيحيين في الأمبراطورية تجاه الأمبراطور، كان على السدة البطريركية المارونية الأنطاكية، في جبل لبنان، البطريرك يعقوب الحنّي (١٤٤٥ - ١٤٥٨) الذي انتُخب في اليوم التاسع لوفاة سلفه، وقد تلقى من روما برأيتين كانتا مصونتين في خزانة دير قنّوبين^١، وأقام في بلدة ميفوق من أعالي بلاد جبيل. وكانت وفاة يعقوب في ٨ شباط (فبراير) ١٤٥٨.

في اليوم التاسع لوفاة البطريرك يعقوب، انتُخب خلفاً له البطريرك بطرس بن يوسف بن يعقوب الحنّي الشهير بابن حسان (١٤٥٨ - ١٤٩٢)، فأرسل البادري الفرنسيكانيّ "فرا غريفون"^٢ إلى روما ليُجلب له البراءة الرسولية ودرع التثبيت سنة انتخابه، فأتاه بهما من البابا بولس الثاني في ٥ شباط (فبراير) ١٤٧٥. وقد نقل غريفون إلى البابا "ما كانت دولة المماليك تحمّل الموارد من صنوف المحن والمغارم، إذ كانت تبعث إليهم من جندها وجباتها من ينهبون بيوتهم بحجة تحصيل الضرائب، ويضربون الفقراء العاجزين منهم عن الدفع. وأخبر غريفون البابا أن البطريرك بطرس باع آنية الكنائس وتبرّع بمداخل الكرسيّ البطريركيّ ليدفع الضرائب عن

١ - داغر، بطريركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤١.

٢ - راجع: فهد، بطريركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٧٧ - ٨٤؛ ضوّ، مرجع سابق، ٣: ٨٥ وما يليها؛ اللويهي، الشرح المختصر، مرجع سابق، ص ٢٣٤؛ مسعد، الدر المنظوم، مرجع سابق، ص ١٥٣؛ البياتي مرهج بن نمرون، أصل الموارنة، مرجع سابق، ص ١٣١.

٣ - فرا غريفون: راهب فرنسيسكانيّ جاء إلى لبنان من القدس موقداً بابرياً ومكث في لبنان بين الموارنة خمساً وعشرين سنة يعظ ويشرح أسرار الإيمان ويقوم بالاتصالات بينهم وبين الكنيسة الرومانية وأوروبا، انتقل إلى روما مرتين للاهتمام بشؤون الموارنة عند البابا كليمستوا والبابا بولس الثاني، وقد قبل في رهبانيته جبرائيل ابن القلاعي اللحفي الذي سيصبح أسقفًا مصلحًا وعالمًا بامتياز؛ راجع: فهد، بطريركة، مرجع سابق، ٢: ١٣١ وما يليها.

الفقراء، وأنه يستغيث بقداسته، فبادر البابا إلى معونته بما خفف كثيراً من الأثقال عن شعب لبنان. وبعد ترؤسه البطريكية المارونية في إحدى أصعب مراحلها مدة دامت أربعاً وثلاثين سنة، توفي البطريك بطرس الحدي في ١٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٤٩٢.

خلف البطريك بطرس الحديّ ابن عمّه سمعان أو شمعون الحديّ (١٤٩٢ - ١٥٢٤) وهو ابن داود بن يوسف بن حسان الحديّ، آخر البطارقة الموارنة في عهد المماليك، وأولهم في عهد العثمانيين.

المطران جبرائيل ابن القلاعي

برز في هذه الحقبة عدد من الأساقفة الموارنة في العلوم والشؤون الكنسية والقيادية. فبالإضافة إلى الأساقفة الأربعة الذين رسمهم البطريك اللحديّ ليعاونوه في إدارة شؤون الرعية، كما سبق وذكرنا، وهم أول الأساقفة الموارنة برأينا، نلتقي بذكر لأسقف مارونيّ اسمه يعقوب اللحديّ، وهو من أساقفة الموارنة في القرن الرابع عشر، ذكره الدويهي في الفصل العاشر من كتاب "ردّ التهم" وقال إنه نسخ كتاب الناموس للمطران داود الحديّ وذيله بحاشية^٢، وهو سابع الأساقفة الموارنة من حيث الأقدمية^٣. وقيل فيه إنه كان قاطناً في لحف بدير السيّدة المعروف بدير المرج، وإنه دوّن أخبار المجاعة التي كانت بسورية تلك السنة^٤. ثم نلتقي المطران كيرلس الجاجي (١٣٩٩ - ١٤٠٥) الذي جاء عنه أنه كان تاسع أساقفة الموارنة من

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٤٢ راجع: فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٨٥ - ٩٣.

٢ - النيس، الجامع المفصل، ١: ١٥٦ راجع: النيس، الجامع المفصل، ١: ١٥٤.

٣ - النيس، الجامع المفصل، ١: ١٥٦.

٤ - للدويهي، تاريخ الأرمنة، ١٥٠: ١٠، ١٥٢: ١١٤ الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، ١: ١٥٧.

حيث الأقدمية^١. يليه المطران جرجس الجاجي (١٤٩٥ - ١٥٢١)^٢. وهناك المطران سمعان بن داود بن يوسف الحدثي: رَقَاه البطريرك بطرس الحدثي سنة ١٤٨٠ إلى أسقفية العاقورة واليمونة^٣.

أما أبرز أسقف، على الإطلاق ومن دون منازع، أنجبته الكنيسة المارونية قبل نهاية القرن الخامس عشر، فهو المطران جبرائيل بن بطرس اللحدفي المعروف بابن الفلاحي. علامة زمانه. كان له الفضل في ردّ المارونية إلى الإيمان المستقيم بعد أن كانت المونوفيزية السريانية قد تغلّغت إلى داخل المجتمع الماروني على يد مرسلين سريان، فانتشرت بشكل خطير في مناطق الشمال وطالت لحفد وبلاد جبيل بشكل كثيف في خلال حقبة حكم المماليك. وحفظت لنا مدونات السريان أنه قد كان للسريان اليعاقبة (المونوفيزيين) أمير من لحفد أواسط القرن الخامس عشر كان مقره في بشري؛ وكان من أساقفة السريان المطران ديوسقورس عيسى ابن ضو المولود في لحفد مطران بيت المقدس (١٤٤٥ - ١٤٧٧)؛ وفي هذه الحقبة بنى السريان لهم في لحفد دير مار سابا، وسمّوا هذه المنطقة "بورخا"، والكلمة سريانية أصلها: بُرخا، أي: المبارك، ولكن بعد مجيء ابن القلاعي من روما إلى لبنان ومحاربته للمعتقد المونوفيزي وطرده (اليعاقبة) من لحفد بمعاونة مقدّمها الموارنة، أصبح اسم هذه المنطقة "غمليتا"، والإسم من مقطعين سريانيين: GAMMA أي معبد، والثاني: LĀA أي الملعون من جذر LĀA أي لعن. GAMMA LĀA: يعني المعبد الملعون.

١ - راجع: الدبس، الجامع المفصل، ١: ١٥٤، ١٥٧؛ الدويهي، تاريخ الأزمنة، تاريخ سنة ١٤٠٠.

٢ - الدبس، الجامع المفصل، ١: ١٧٠.

٣ - الدبس، الجامع المفصل، طبعة خاطر، ١: ١٦٩.

عاش المطران جبرائيل ابن القلاعي اللحدي (١٤٤٧ - ١٥١٦)، وُلد في لحفد وتعلّم في القدس عند الفرنسيّسكان وترهّب عندهم. إنتقل إلى روما وقضى فيها يحصل العلم لمدة عشرين سنة (١٤٧١ - ١٤٩٢). تخصصّ في ١٦ اختصاصًا. (١) علم اللغتين اللاتينية واليونانية. (٢) الخطابة والبيان. (٣) المنطق. (٤) الفلسفة. (٥) الهندسة. (٦) الفلك. (٧) اللاهوت. (٨) الحساب. (٩) فلسفة العلوم. (١٠) الموسيقى. (١١) القوانين الكنسية. (١٢) الفيزياء. (١٣) الأبراج. (١٤) الطبيعيات. (١٥) الجراحة. (١٦) التاريخ. أرسلته روما إلى لبنان فبقي فيه خمس سنوات (١٤٩٢ - ١٤٩٦) يحارب البدع التي كانت متفشية في الشرق وكانت تحاول احتواء الموارد. إستعمل الشعر العامي في كتاباته فكان واضع أسس الشعر العامي اللبناني (الزجل). وضع وهو في لبنان ٤٦٥ رسالة في محاربة البدع، ما عدا ما كتب من صلوات ومدائح وما ترجم من كتب إلى العربية. وضع في اللاتينية ١٢ مؤلفًا في فلسفة الدين وأخبار القديسين لا تزال محفوظة في الفاتيكان. عيّن أسقفًا على قبرص سنة ١٥٠٧، وفيها توفي سنة ١٥١٦. وكان للمطران جبرائيل شقيق اسمه الحاج مخايل، انتقل من لحفد إلى قرية "طالا" في جزيرة قبرص مع المطران جبرائيل وزاد على كنيسة السيدة هناك سوقًا ومذبحًا على اسم القديس عبدا^١.

قد يكون المطران جبرائيل ابن القلاعي اللحدي أهمّ أبحار الكنيسة المارونية من بعد البطريرك يوحنا مارون. وبرأينا أنّ عدم محاولة إبراز تراث هذا الحبر من قِبَل الإكليروس المارونيّ ومن قِبَل أبناء لحفد هو بمثابة تلكؤ وتقصير، فإننا نعجب أشدّ العجب لذلك، كما نعجب لأن يكون لعدد من الشعراء والسياسيين أنصبّة في المدن

١ - راجع: النويهي، تاريخ الأزمنة، ١٧٨: ١٦ وما يليها؛ الدبس، الجامع المفصل ص ٢٠٩ وما يليها؛ النويهي، الشرح المختصر، نشر فهد، ١: ١٥٧، ٢: ٢٥٣؛ الجميل الأب بطرس، زجلات ابن القلاعي، المكتبة لشرقية (بيروت، ١٩٨٢)؛ المشرق، عدد ٢ (١٩٨٨) ص ٦٤٧ وما يليها؛ فهد، بطرقة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ١١١ وما يليها.

والقرى التي أنجبته، بينما يغيب وجه المطران جبرائيل العظيم عن باحة لحفد، ويغيب اسمه عن شوارعها، وتبقى محاولات إحياء تراثه من غير دعم ومؤازرة.

المقدّمية بين الصليبيين والعثمانيين

ظلّ الوارنة، في شمالي لبنان، في خلال الحقبة المملوكيّة، يمارسون نوعاً من الاستقلال الداخلي بقيادة رؤسائهم: المقّمين^١، الذين كانوا "يجمعون الضرائب وينشئون المحاكم القضائيّة لإجراء العدل. وكانت الأمور التي تتعلّق بالأحوال الشخصية تُترك للمحاكم الروحيّة التي كان الاكليروس يقضي فيها"^٢. وجاء في بعض المدونات أنّ الموارد قد نظّموا أمورهم في شمال لبنان، وفي بلاد جبيل، بعد هدأة اجتياح المماليك، وذلك تحت سلطة البطريرك. وقسموا مناطق سيطرتهم إلى مقاطعات على رأس كلّ منها مقدّم. وكان المقدّمون، مع خضوعهم لنائب طرابلس، يديرون جماعاتهم على طريقتهم الخاصّة، ويتوارثون الوظيفة. وكان حكم الإقطاع قد ازداد تأصلاً في عهد الصليبيين. وعلى هذا الشكل حكم الأمراء والمقدّمون والمشايخ إلى أن فتح البلاد السلطان سليم العثمانيّ سنة ١٥١٦^٣.

يرى باحثون أنّه للحدّ من سلطة البطارقة الزمنيّة، شجّع المماليكُ وقوّوا سلطة مقّمي القرى والبلدات المارونيّة. وراح يتنازع السلطة عندئذٍ، بطريقة خفيّة أو علنيّة، كلّ من الفريقين. وكان المقدّمون على علاقة حسنة بحكام طرابلس ونوابها، ودعم هؤلاء سلطتهم واعترفوا لهم بالزعامة في مختلف مناطق الجبل، وقد وجدوا فيهم خير عون وسند على جباية الأموال والضرائب^٤.

١ - راجع: الشديق، لخبار الأعيان، مرجع سابق، ٢٠١ - ٢٢٣. ٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٤٠٣ - ٤٠٤.

٣ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٢.

٤ - راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ٢١؛ صفيّر الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣١١.

يطالعنا من أسماء أولئك الأمراء، في تلك الحقبة، في جبيل: إسطفان ١٢٩٦ - ١٣٥٢؛ موسى ويوحنا إلى ١٣٩٩؛ يوسف العبدلي إلى ١٤٠٠؛ وفيها انتقلت الإمارة من بلاد جبيل والبترون إلى الجبة وذلك عند قدوم تيمورلنك، وأصبح الأمراء مقتميين. وذكر باحثون أن الشدياق يعقوب البشراني كان أول من أنعم عليه الملك برقوق المملوكي ليكون مقدماً على جبة بشري هو وأولاده من بعده، وكتب لهم ذلك بخطه على صفحة من نحاس سنة ١٤٤٠^١. ثم خلفه ابنه المقدم عبد المنعم الذي حكم حتى وفاته سنة ١٤٩٤؛ ثم ابنه يوسف إلى ١٥١٩؛ وكان أول مقم يتولى الحكم في بشري بعد الفتح العثماني سنة ١٥١٦، المقدم كمال الدين بن عبد الوهاب بن عجرة من أيطو فقتله يوحنا بن يوسف مقم بشري سنة ١٥٤٧...

اعتُبرت المرحلة التي حكم خلالها المقدمون، من جبة بشري، من المراحل المميزة والمهمة في تاريخ بشري والموارنة عموماً. وقد وصل نفوذ بشري السياسي والعسكري، آنذاك، إلى أقصاه، بفضل قدرة بعض مقميه وحسن درايتهم. وجاءت تسمية بشري "مدينة المقدمين" تعبيراً عن هذا الواقع، حتى أن هذه التسمية غلبت على الاسم الحقيقي أحياناً. وفي نظرة تأملية لأحد الباحثين في تراث بشري وتاريخ الجبة^٢، استنتج أن هذه المنطقة لم تكن إطاراً جغرافياً فحسب، بل وأرض قداسة ورسالة، ولا تزال مغاور النساك فيها تشهد على ذلك. وعلى رغم السقطات الكثيرة، ظلت هذه المنطقة تنهض في استمرار، وكلما وصلت إلى حدود الهاوية، كانت تعود إلى الذات. واعتبر الباحث أن المقدمية لعبت دوراً تخطى معناها الإداري، فقد أنيط بها

١ - مكّي محمد علي، لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني، دار النهار للنشر (بيروت، ١٩٧٩) ص ٢٦٤.

٢ - ججع غلزي، تاريخ بشري الحديث ١٤١٥ - ١٩٢٠، منشورات بشاريا (لبنان، ١٩٩٤).

تنظيم شؤون الموارد الزمنية، ومعاونة البطريرك، والدفاع عن أبناء الكنيسة. حتى أن المقدم كان يكرّس من قبل البطريرك في احتفال ديني، واعتُبر جزءاً من مقدّسات الموارد. ولا شكّ في أن الأدوار التي قام بها المقدمون اختلفت بين مقدّم وآخر. فالبعض ازدهر عهدهم، وحلّ فيه الأمان، ووصلت أخبارهم إلى الكرسي الرسولي في روما، فأعطاهم براءة التثبيت، وكافأهم على دورهم وغيرتهم على أبناء قومهم. بينما بعضهم الآخر، نتيجة لمواقفهم المتهورّة، أثّروا سلّياً في "الوجدان الماروني"، فأحدثوا شرخاً داخل التركيبة المجتمعة التي كانت قائمة عند الموارد. فمركزيّة القرار القائمة على البطريركيّة والتي وجدت في المقدمين امتدادها التنظيمي، وفعاليتها السياسيّة، أضعفها هؤلاء، أحياناً، بمحاولتهم التفرد بالسلطة للتمايز عن البطريرك ومنافسته. وتمثّل ذلك في دخول المونوفيزيّة إلى جسم الكنيسة المارونيّة أحياناً، مع بعض المقدمين، ما أضعف من مكانة البطريرك الزمنيّة، فأصبح في حاجة إلى دعم البابا الدائم. لا بل إن مكانة المقدم أصبحت، بسبب تلك الأخطاء، أقلّ أهميّة، إذ فقد استقلاليّته، وبات والي طرابلس يتحكّم بتعيينه، وتحوّل عنده جابي ضرائب. أضف إلى ذلك أن الخلافات التي وقعت بين المقدمين، وأدت إلى حروب تصفية بين بعضهم البعض، زادت في الطين بلة، وقضت على سلالة المقدمين في النهاية. وهكذا سوف تنتهي ممارسات المقدمين السياسيّة إلى سقوط المقدميّة وبالتالي فقدان الموارد استقلاليّتهم في حكم أنفسهم، مباشرة بعد الفتح العثمانيّ.

الحقبة العُثمائية

الموارنة في بداية الحقبة العُثمائية؛ من المُقدمة إلى المديرة؛

بطاركة الموارنة في بداية الحقبة العُثمائية؛

إسطفانس الدويهي العالم والقديس؛

بطاركة القرن الثامن عشر؛ المجمع اللبناني؛

صراع على البطريركية؛ البطريرك إسطفان ومُشكلة هندية.

الموآرنة

في بداية الحقبة العثمانية

أدى الفتح العثماني، على يد السلطان سليم^١ في معركة مرج دابق^٢ سنة ١٥١٦، إلى طي الصفحة الأخيرة من فصول تاريخ المقتمين، وإلى فتح الصفحة الأولى من تاريخ لبنان الحديث، الذي بدأ مع اتحاد كيانات المجتمعات / الطوائف في لبنان في إمارة الجبل اللبناني الذي كانت حدوده تتسع وتضيق تبعاً للظروف، وسط مجموعة صراعات متزامنة، منها: الصراع السلطوي على الحكم بين أفراد الأسر الحاكمة، والصراع الحزبي القيسي اليمني، والصراع "الوطني" مع السلطة العثمانية التي كانت تسعى لتحقيق مصالح السلطنة على حساب جميع باقي الاعتبارات.

أجمع المؤرخون على خبر مفاده أنه إثر انتصار السلطان سليم في معركة مرج دابق على المماليك سنة ١٥١٦، ذهب وفد من أمراء لبنان إلى دمشق وهناً السلطان التركي وأبدى له الولاء. وقد ضمّ الوفد رهطاً من الأمراء والمقتمين اللبنانيين على

١ - السلطان سليم الأول: تاسع السلاطين العثمانيين ١٥١٢ - ١٥٢٠، قضى على دولة المماليك في موقعة مرج دابق بالقرب من حلب ١٥١٦ وفتح سوريا ومصر فخفضت كل البلاد العربية للحكم العثماني.

٢ - مرج دابق: موضع في سوريا الشمالية بين منبج وانطاكيا على نهر قويق، اتخذهُ السلطان سليمان بن عبد الملك معسكراً، وفيه مات، فيه أيضاً قُام هارون الرشيد، وفيه انتصر السلطان سليم على المماليك ١٥١٦.

رأسهم الأمير فخر الدين المعني الأول^١. وبعد خطبة ولائيّة ودُعائيّة إطنائيّة، ألّفها الأمير المعنيّ أمام السلطان الفاتح، وأبدى فيها الاستعداد لكلّ الطاعة والوعد بالوفاء، أعجب السلطان بالأمير اللبناني "وبشخصيّته الوقورة وبإخلاصه الظاهر"، وخلق عليه لقب "سلطان البر"، وأقرّه، كما أقرّ سائر الأمراء اللبنانيين معه، على إقطاعهم، وسمح لهم بممارسة استقلالهم وامتيازاتهم التي كانوا يمارسونها في حكم المماليك، وفرض عليهم جزيّة طفيفة في مقابل الضرائب الباهظة التي كان يجيئها المماليك، وأمرهم بأن يعدلوا بين الرعية^٢. ولكنّ هذا الوضع الاستثنائي، أي حسن معاملة الحكّام العثمانيين تلك، لن يدوم طويلاً. فلم تكن تلك المبادرة سوى مظهر دبلوماسيّ قضى به ظرف معيّن. وحدّد أكثر الباحثين هذا الحدث بدءاً لتاريخ لبنان الحديث. إذ هكذا بدأ الكيان السياسيّ الوطنيّ اللبنانيّ يبصر النور على يد الأسرة المعنيّة.

لمّا استتبّ الأمن في ظلّ حكم السلطان الجديد، أعيد تنظيم البلدان والأقطار العربيّة وفقاً للنظم العثمانيّة، واستُعيض عن الممالك بالولايات والأيالات. فجُعِلت مصر ولاية واحدة وبلاد الشام ثلاث ولايات، هي: دمشق وحلب وطرابلس لبنان. وأصبح المواردنة، في جبة بشريّ وبلاد جبيل والبترون وجبة المنيطرة، تابعين لولاية طرابلس والعثمانيين، كما كانوا تابعين لنوابها المماليك من ذي قبل^٣.

١ - فخر الدين المعني الأول: أمير لبناني من بني معن ١٥١٦ - ١٥٤٤، شتهر بفصلحته، اغتيل بأمر من والي دمشق العثماني ١٥٤٤، خلفه ابنه قرقماز ثم فخر الدين الثاني بن قرقماز.

٢ - حتّى، لبنان في التاريخ، ص ٤٣٧ - ٤٣٨؛ هذا الخبر تنقله المؤرّخون عن: لحمد حيدر الشهابي، الفرر الحسان في تواريخ حوادث لزمان، نشر نغوم مخيخ (قاهرة، ١٩٠٠) ٢: ٥٦١ - ٥٦٢؛ عيسى سكندر المطوف، تاريخ الأمير فخر الدين المعني الثاني (جونه، ١٩٣٤) ص ٩؛ أمّا الدويهي، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ١٨٤: ٨٣ - ٨٥، فنكر لأنّ الأمير المعني الذي كان في لوفد إنّما هو الأمير قرقماز ابن الأمير يونس بن معن.

٣ - منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ٣٣.

ففي تلك الحقبة، تَبَتَّ السلطان سليم إقطاع الأمراء العساقين^١ على كسروان وجبيل، فبدأ الأمير عساف بالعمل على فرض سيادة إمارته على منطقته، ويبدو أن مقمّم العاقورة المارونيّ يومها: مالك بن أبي الغيث اليمني^٢، قد مال إلى الأمير عساف وامتنل لحكمه، خاصّة وأنّ هذا المقمّم، على ما قيل، كان من الذين اشتركوا في الوفد اللبنانيّ الذي زار السلطان سليم مهنّأً بالنصر سنة ١٥١٦؛ وأبعد إلى الشمال والشمال الشرقيّ، كانت منطقتا جبّة بشريّ وإهدن تشهدان حالاً من الهدوء في ظلّ المقمّمين الموارنة، وذكر باحثون أنّ مقمّم بشريّ كان يُعتبر المقمّم الرئيس لسائر المقمّمين الذين كانوا يحكمون المناطق الممتدّة من نهر بيروت جنوباً إلى حدود عكار شمالاً إلى بلاد بعلبك شرقاً^٣.

في هذه الأثناء، كانت أسرة هاشميّة الأصل: آل حُبَيْش، قد سكن جدودها في أول عهدهم بلبنان في "دير الأحمر"^٤، ومن هناك انتقلوا إلى محلّة تقع بين يانوح والعاقورة سُمّيت "تدمر"، وهي المعروفة اليوم بالخربة. ومن تدمر انتقلوا مرّة ثانية إلى يانوح المجاورة لها، حيث انضمّوا إلى الكنيسة المارونيّة، وأضحوا من أبرز حماة

١ - يتحقّر الأمراء العساقين من نسب تركمانيّ، جاء جدودهم مع حملات المماليك قبل القرن الرابع عشر واستقروا في منطلق للكورة وعكار، لمرّ المماليك بعضهم على كسروان الكبير، فنقلب أميرهم الأكبر عساف على المماليك في معركة مرج دابق وقتل مع السلطان سليم فكفاه بأنّ ثبته على إمارته؛ بخصوص هؤلاء الأمراء راجع: مفرّج طوني، لبنان الأصيل ليس طائفياً، منشورات بيورغرافيا (جبيل، ١٩٩٩)؛ مفرّج طوني، صلعو للتاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانية، نشر دار نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠) المجلد السابع؛ فهد، بطركة، مرجع سابق، ٢: ١٤٥ وما يليها.

٢ - يتحقّر مالك أبو الغيث أو بن أبي الغيث من أسرة مشايخ مسيحيّة عريقة في العاقورة، أصلها من اليمن، سكنت حوران، ثم غوطّة الشام، وبسبب الإضطهاد الديني رحلت إلى العاقورة، وكان منها مقمّمون عام ١٥٢٣، ولسلاتها فرعان كبيران: فرع المقمّم مالك، وفرع أخيه المقمّم حنش، وإليهما تنسب أسر عديدة اليوم.

٣ - راجع: الخوري فرنسيس رحمة، تاريخ بشري، مطبعة صفدي للتجارة (١٩٥٦) ١: ٢٤٣ - ٢٤٥.

٤ - دير الأحمر: بلدة كبيرة بجوار بعلبك سكّتها موارنة إلى اليوم، ترتبط اجتماعياً ببلدة بشريّ.

البطيريك، وأصبح للحبيشيين حقّ المشورة في تثبيت البطيريك الماروني. وعندما ثبتّ السلطان سليم الأمير عسّاف التركمانيّ المسلم السنّي أميراً على كسروان الكبرى التي كانت شبه خالية من السكّان منذ اجتياح المماليك لها حوالي سنة ١٣٠٥، انتقل الحبيشيون من يانوح إلى غزير، حيث دخلوا في خدمة الأمير عسّاف التركماني. وجاء في بحث للأب شيخو اليسوعيّ أنّ "أهل غزير كانوا في تلك الحقبة كلّهم مسلمين، فلمّا دخل بينهم الشيخ حبيش المارونيّ ولقي عندهم حظوة، اقتدى بمثله غيره من الموارنة فأتوا غزير عام ١٥٤٦^١. وإذ أدّى أفراد الأسرة الحبيشيّة خدمات جلّي لحفيد عسّاف: الأمير منصور العسّافي^٢ الذي اتّخذهم مدبرين له، فكانوا من أكبر أعوانه وفي مقدّمة أنصاره، وأحبطوا مكيدة لقتله، فوَض هذا الأخير إليهم عهدة غزير والكفور وفتقا من نواحي كسروان ومنحهم رتبة المشايخ. فعمل هؤلاء على استقدام أسر مارونيّة كثيرة من مناطق جبيل، حيث كان الموارنة قد انحصروا طوال حقبة الحكم المملوكي، وأسكنوهم في نواحي غزير وفتوح كسروان. ولمّا قضى "يوسف باشا سيفاً"^٣ على العسّافيين، مال الحبيشيون إلى المعنيتين، وناصروا فخر الدين الثاني^٤،

١ - وثائق غزيريّة، وصفحات ومخطوطات عن غزير، جمعها حبيب مرعي (غزير، ١٩٧١).

٢ - الأمير منصور الصافي (١٥٢٢ - ١٥٨٠): أبرز الأمراء العسّافيين اللبنانيين، امتدّت سلطته حتّى بيروت حيث بنى الجامع المعروف باسمه، كان مركز حكمه في غزير.

٣ - يوسف باشا سيفاً (١٥٧٢ - ١٦٣٥): من أمراء التركمان في بلاد عكا وطرابلس، عاصر فخر الدين المعني الثاني وحالفه ثمّ ناصبه الحدا ونزاعه للولاية مترسّلاً لحزب اليميني فيما كان فخر الدين على رأس الحزب القيسي؛ راجع: مفرّج طوني، صاعقو التاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانيّة، نشر دار نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠) المجلد الثامن، ص ٩ - ٣٩.

٤ - فخر الدين المعني الثاني (١٥٧٢ - ١٦٣٥): أمير لبناني، ولد في بعلبك، والده الأمير قرقماز بن فخر الدين الأوّل، والدته الأميرة نسب التّوخيّة، خلف أباه في حكم الإمارة اللبنانيّة، أنشأ جيشاً حديثاً لها ١٥٩١، نظّم الضرائب وسعى إلى توحيد البلاد، تحالف مع توسكانا وتعاقد مع امرأتها ثمّ لجأ إليها زمنًا، مدّ نفوذه على صيدا وصفد ونابلس وعجلون، عمل على تنمية الزراعة فاستقّتم مزارعين من إيطاليا لتعليم اللبنانيين طرقهم فيها، نزح إلى الاستقلال، نفاه الحماقيون إلى الأستقة حيث قتلوه؛ راجع: مفرّج طوني، صاعقو التاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانيّة، نشر دار نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠) المجلد الثامن، ص ٧٧ - ١٢٨.

وبرز منهم يومذاك الشيخ "يونس بن سليمان"^١ الذي أضحى من رجال فخر الدين وخاصته^٢. كما استقدم الأمير منصور العسافي أبناء مقتمي بلدة جاج المواردة الذين نشأت منهم عائلات مارونية قيادية، كالمشايع آل الجميل في بكفيا، والمشايع آل الخازن في كسروان، والمشايع آل غبريل في بيت شباب، فشجع هؤلاء الأسر المارونية على الانتقال إلى نواحي المتن وكسروان لإحياء تلك المناطق وإعادة بنائها.

مِنَ الْمُقَدِّمَةِ

إِلَى الْمُدْبِرَةِ

ذكرنا سابقاً، في نهاية عهد المماليك، أن أول مقتم تولى الحكم في بشرى بعد الفتح العثماني سنة ١٥١٦، كان المقتم كمال الدين بن عبد الوهاب بن عجرمة من أيطو. ويذكر مؤرخو بشرى أن كمال الدين هذا قد قُتل على يد يوحنا بن يوسف مقتم بشرى السابق سنة ١٥٤٧... ثم تولى المقتم "عاشينا" وقتله المسلمون في طرابلس ١٥٧٥، وفيها سار المسلمون إلى افتتاح قبرص وتولى المقدمية ابن أخي عاشينا: عساف بن موسى وأخوه داغر إلى ١٥٧٧؛ وتولى خاطر الحصري "الإبيونياكن"^٣ إلى ١٥٩٤؛ ثم ابنه رعد إلى ١٦١٢؛ ثم مقلد إلى ١٦١٤؛ ثم ظهر أبو نادر الخازن في كسروان ووُلد له أولاد نالوا الحظوة عند الأمراء وانتشرت أخبارهم شرقاً وغرباً^٤.

١ - الشيخ أبو ضاهر يونس بن سليمان حبش: أمين خزنة الأمير فخر الدين المعني لثاني الكبير، كبير قومه، عين فخر الدين ضاهر بن يونس حبش وكيلاً للشيخ أبي نادر خازن الخازن حاكم بيروت؛ حول الأمير منصور العسافي وآل حبش راجع: مفرج طوني، صاترو لتاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانية، نشر دار نوبليس (بيروت، ٢٠٠٠) المجلد السابع، ص ٩١ - ١٩٧.

٢ - المطرف، تاريخ الأمير فخر الدين، مرجع سابق، ص ٦٩.

٣ - الإبيونياكن: رتبة كسبية شرقية، والكلمة يونانية، يقبلها في العربية "الشديق" وهي من أصل سرياني.

٤ - الدويهي، تاريخ الطائفة المارونية، مرجع سابق، ص ٢٧٩ - ٢٨٠.

إنّ ما قصد به الدويهي من عبارة "ظهور أبو نادر الخازن وسلالته ونيلهم الحظوة عند الأمراء"، يعني بعبارة أخرى: بداية عهد المدبرين المواردنة مع نشوء الإمارة اللبنانية الموحدة، وقد أصبح بذلك المدبر ممثلاً للمجموعة المارونية في الإمارة، وبالتالي لسائر المسيحيين فيها، وبذلك انتهى عهد المقتمين.

في وسعنا اعتبار معادلة المقتمية في عهد الإمارة اللبنانية بداية ما أصبحنا نسميه اليوم "الصيغة اللبنانية"، التي رُتّت بدايتها، من دون تعمق، إلى سنة ١٩٤٣. علماً بأنّ مرتبة المدبر الأول للأمير في عرف الإمارة، كانت بمثابة المرتبة الثانية بعد الأمير في بنائية الحكم. وما يجب إبرازه في هذا المجال أنّ هذه الصيغة التي بدأ الأمير منصور العسافي العمل بموجبها، وطبقها الأمير فخر الدين الثاني، قد استمرت طوال حكم الإمارة.

فقد اختار الأمير منصور العسافي، في كسروان، مدبريه المواردنة من آل حبيش، كما مرّ. وتميّزت زعامة آل حبيش، بنوع خاص، بالانفتاح على المسلمين من جهة، والسعي لحماية مصالح المواردنة من جهة ثانية. وهي لم تكن زعامة دينية روحية كزعامة البطارقة، كما أنّها لم تكن زعامة محلية ضيقة ذات أطماع ومآرب خاصة كزعامة المقتمين. فوقفوا موقفاً محايداً من الكنيسة، ولم يكن هناك أيّ تنافس بينهم وبين البطارقة كما كان بين هؤلاء والمقتمين، بل أظهروا، بالعكس، غيرّة قويّة على مصالح الكنيسة المارونية، فكانوا يحمونها من جور حكام طرابلس، بما لهم من نفوذ لدى الأمراء، ويدعمون بطاركتها وأساقفتها ضدّ مقدّمي بشري وغيرهم الذين استمروا ينالونهم من وقت إلى وقت^١. واعتبر باحثون آخرون معاصرون متخصصون أنّ

١ - راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ٢٥؛ صغير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١٤.

"مدبريّة آل حبيش قد أرسّت التوازن السياسيّ في انطلاقه لبنان الحديث (١٥٢٣ - ١٥٩٣)^١. وفي الإطار نفسه، لم يجد فخر الدين أفضل من الرجلين اللذين اتّمنا على حياته وهو حديث، ليجعلهما أقرب الموارد إليه، فمنح سنة ١٥٩٨ لقب المشيخة لأبي صقر ابراهيم الخازن وشقيقه أبي صافي رباح، واتّخذ الأول مدبراً وجعل الثاني رئيساً لجيش المشاة^٢. وكان من الطبيعيّ أن يقوم الخازنّان بالسعي إلى ضمّ ما أمكن من الرجال إلى جيش الإمارة. وذكر مؤرّخون أنّه بعد أن تقلّبت الأحوال على الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني، واضطرّ إلى التخلّي عن الإمارة طيلة خمس سنوات، وبعد أن عاد إلى بلاده سنة ١٦١٨، تعاضم شأنه مرّة أخرى، وحارب "يوسف سيفاً" واستولى على بلاد جبيل والبترون وجبّة بشرّي. وباستيلائه على هذه البلاد، انتهى فيها أمر سطوة المقدّمين، وجعل فخر الدين عوضاً عنهم مشايخ آل الخازن وكلاء عليها، كما جعلهم وكلاء على بلاد جبيل. وكان آل الخازن قد تسلّموا، سنة ١٦١٥، حكم كسروان عن يد شقيقه الأمير يونس، عندما كان فخر الدين مقيماً في إيطاليا. وبعد أن أضيفت إليهم بلاد جبيل وجبّة بشرّي، أصبحوا الأسرة الأولى بين الموارد دون منازع، وسار آل الخازن على خطى من سبقهم من مشايخ آل حبيش. فاتّبّعوا تجاه ملتهم السياسة نفسها التي اتّبّعها أولئك قبلهم، فسهرّوا على تعزيز شأن الموارد وخدمة مصالح بني قومهم الماديّة والمعنويّة بشتّى الوسائل، وبكلّ ما كان لهم من نفوذ لدى الأمراء المعنويّين^٣.

١ - ضوّد. طوني، لبنان والكيان ومؤسّسة المدبريّة (لبنان، ١٩٩٤) ٢: ٧٩.

٢ - للمطوف، تاريخ فخر الدين، ص ٦٦.

٣ - راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ٢٨؛ صغير الأب د. بولس، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣١٦ -

وكان المعنويون، منذ عهد الأمير قرقماز والد فخر الدين الثاني، قد جعلوا مدبرهم الأول مارونيًا، وهو الحاج كيوان نعمة ضو^١ من دير القمر^١، وأصل عائلته من لحفد في بلاد جبيل. وذلك قبل أن يجعل الأمير فخر الدين الثاني مدبريه من المشايخ آل الخازن، مع المحافظة على معاونه الحاج كيوان حتى وفاة الأخير. وبذلك امتدّ الموارد إلى بلاد الشوف وجزّين بشكل كثيف^٢. وسوف يزداد هذا الامتداد ويتوسّع إلى بلاد عكار في عهد فخر الدين الثاني، وإلى وادي التيم من أعمال البقاع الغربي وجنوب لبنان في عهود الأمراء الشهابيين^٣. ويقول المؤرخ يوسف مزهر، في معرض حديثه عن الأمير فخر الدين الثاني: "كان سكان بشري من أشهر مربّي دود القز، فسجّعهم الأمير على النزوح إلى بقية المقاطعات لإصلاح أراضيها واستثمارها، فنشروا هذه الصناعة في لبنان وحتى في الخارج، وكان الحرير اللبناني يستهوي أصحاب مصانع النسيج في أوروبا..." وبعد نكبة سنة ١٥٨٥ التي قتل فيها إبراهيم باشا ستين ألفًا من الدروز، لم يعد باستطاعة الأمير فخر الدين أن يجنّد منهم أكثر من اثني عشر ألفًا، فاستعان عندئذٍ بالموارنة الذين انضموا من شبّانهم إلى ألوية جيشه عشرون ألفًا، وكان أكثر قادة هذا الجيش منهم^٤. ونقل عن البطرك الدويهي قوله

١ - إعتبر ضو^١ د. طوني، لبنان والكيان ومؤسسة المدبرية، ٢: ١٠٣، الحاج كيوان رجل المدبرية الأول ورائد التحولات في كيان الإمارة المعنوية حوالي ١٥٥٠ - ١٦٢٣.

٢ - بدأ نزوح الموارنة من الشمال إلى الشوف قبل أن يتولّى الأمير فخر الدين الإمارة سنة ١٥٨٤، كما ألمح إلى ذلك الأب "جيوفاني بطيستا إبانو" في تقريره الذي رفعه إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر سنة ١٥٧٨، وجاء فيه عن الموارنة: "إنهم بدلوا يسكنون بين الدروز". راجع الخوري بولس قرالي: فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان إدارته وسياسته (حريصا - لبنان، ١٩٣٧) ص ٣٦؛ صفيير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١٤، ANAÏSSI TOBIA, COLLECTIO DOCUMENTARUM, (LIVOURNE, 1921, PP. 56- 61.

٣ - حول هذا الموضوع راجع: مغرّج طوني، لبنان الأصلي، مرجع سابق.

٤ - مزهر يوسف، تاريخ لبنان العام، ١: ٣٦٢.

٥ - راجع قرالي، مرجع سابق، ص ٣٨؛ صفيير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١٥.

في كتاب "الإجماع": "ففي سنة ١٦٢٢ كان جبل لبنان في أمان واطمئنان بسبب الأمير فخر الدين الثاني (الذي) ولّى مشايخ آل الخازن، أبا نادر وأبا صافي، على بلاد جبيل والبترون وجبة بشرّي. ولأجل ذلك إعتد الناس على خدمة الله وحياة النسك وعلى بنيان الكنائس والمدارس. وقدم أناس من بلاد الإفرنج، كثيرون من الأخوة الكبوشيين وأناس حبساء وأخذوا السكن في جبة بشرّي...".

وسوف تستمرّ المديرية المارونية في المعادلة إلى جانب الأمراء المعنّين وخلفائهم الشهابيين من دون انقطاع، حتّى تتصرّف الشهابيين وصيرورة الأمير نفسه مارونيًا، كما هي الحال في عهدَي الأميرين يوسف، ربّما، وبشير الثاني مؤكّداً. إذ سوف يتوالى على المديرية، إضافة إلى آل حبيش في عهد العسّافيين، مع وبعد الحاج كيوان (نحو ١٥٥٠ - ١٦٢٣) في العهد المعنّي، آل الخازن في نهاية العهد المعنّي وبداية العهد الشهابي (١٥٩٨ - ١٦٩٧)، آل الخوري صالح (١٧٥٤ - ١٧٩١)، وآل باز (١٧٩٢ - ١٨٠٧) في العهد الشهابي. وقد تولّى، في خلال تلك الحقبات، شخصيات من عائلات سياسية مارونية مسؤوليات رسمية كبرى، منهم: الحاج كيوان الماروني الذي تعاطى، إضافة إلى أعمال المديرية، المفاوضات الدبلوماسية والدولية وتأسيس جيش إمارة فخر الدين وتنظيمه على أسس حديثة؛ واهتمّ الخازنيون بتمتين العلاقات المتبادلة بين الأمير والبطريرك الماروني، وتبوّأوا المراكز القنصلية والمعاهدات الدولية وقاد بعضهم جيش الإمارة في أكثر الأحيان، وشكّلت المديرية في عهدهم واجهة التحالف المسيحيّ - المعنّي؛ وتسلمّ بارزون من آل الشدياق وآل الدحداح وآل الضاهر وآل إدّه وآل أبي صعب وآل باخوس وسواهم من الموارنة أرفع المناصب في تدبير شؤون الإمارة على مدى تاريخها^١.

١ - للتوسّع في الاطلاع حول هذا الموضوع راجع: ضوّد. طوني، لبنان والكيان ومؤسسة المديرية، جزءان، مرجع سابق.

بَطَارِكَةُ المَوَارِنَةِ فِي بَدَايَةِ الحَقَبَةِ العُثْمَانِيَّةِ

ذكرنا سابقاً أنّ سمعان أو شمعون الحثي (١٤٩٢ - ١٥٢٤)، كان آخر البطاركة الموارنة في عهد المماليك، وأولهم في عهد العثمانيين. وقد ذكر مؤرخو البطريركية المارونية أنّ السلطان سليم "لم يفرض على البطريرك الماروني الفرمان السلطانيّ مع أنّه فرضه على كلّ بطاركة المشرق". وقد كان وراء ذلك عدّة أسباب سياسيّة، منها أنّ السلطان سليم أراد أن ينال تأييد تلك الأقليات التي طالما عانت من ظلم المماليك، وأنّ أكثر الأمراء اللبنانيين قد ساندوا السلطان سليم في معركته الفاصلة بمرج دابق ضدّ المماليك، وكان من بين جنود أولئك الأمراء مقاتلين موارنة.

هذا البطريرك "قاسى الأهوال، في بداية عهده، جرّاء خروج مقدّم بشريّ عبد المنعم المتوفى سنة ١٤٩٥، عن الإيمان المستقيم، وانحرافه إلى المونوفيزيّة^١. وهناك مشكلة أخرى عاشها البطريرك سمعان تتعلّق بموضوع طلب التثبيت من روما. ذلك أنّه، في الرسالة التي بعثها سنة ١٥١٤ مع القسّ بطرس المارونيّ إلى البابا لاون العاشر، كتب يقول:

إن الموارنة بأجمعهم هم حافظون ومتمسكون بأكيد على الأمانة الأرثوذكسيّة، وإنهم، كالأبناء الصالحين والمتعبّدين، يكرّمون كنيسة رومية المقدّسة غاية التكريم، ولم يختلفوا عنها بشيء ما البتّة بما يجب ويختصّ بخلاص النفوس، ما خلا بعض عوائد تعمّ كهنة الشرق وقد أثبتّها لهم "قرا غريفون" قاصد الكرسي الرسولي^٢.

١ - داغر، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٣.

٢ - الوهيبي، الشرح المختصر، ٢: ٢٢٦؛ راجع: فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٩٧.

ولكن يبدو، بحسب سلسلة البطارقة المجددة للبطريرك الدويهي، أن الموفد البطريركي لم يتمكّن من الوصول إلى روما بسبب الحروب، رغم محاولته السفر مرتين. غير أن مراجع أخرى^١ ذكرت أنه في سنة ١٥١٤ و ١٥١٥ أرسل البابا لاون العاشر إلى بطريرك الموارنة ١٢ رسالة يذكر فيها أن مكاتيب البطريرك الكرشونية انتهت إليه مع البراءات الأصلية للبابوات اينوشنسيوس الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) واسكندر الرابع (١٢٥٤ - ١٢٦١) وأوجين الرابع (١٤٣١ - ١٤٤٧) ونقولا الخامس (١٤٤٧ - ١٤٥٥) وكاليكستس الثالث (١٤٥٥ - ١٤٥٨) وبولس الثاني (١٤٦٤ - ١٤٧١) ويثبته بطريركاً أنطاكيًا، ويمنحه الدرع المقدسة علامة ملء الخدمة الحبرية^٢. ويقول الدويهي:

في سنة ١٥١٥، وصل القاصد الرسولي (فرا غريفون) إلى رومية، وبعد تقبيل أقدام الحبر الأعظم (لاون العاشر) قدّم له السجلات المذكورة مع مكاتيب البطريرك شمعون والباردي فرنسيس سوريانو^٣، فلما وقف عليها البابا وتحقّق حسن أمانة البطريرك وسائر الملة المارونية وعواندهم وسلوكهم المستقيم واحتمالهم المظالم بصبر جزيل، أشهر في الرسالة التي كتبها البطريرك أنه أقبل عليه فرح عظيم وامتلأ قلبه سرورًا لم يوصف. حتّى إنه رفع التسابيح لله سبحانه وتعالى الذي آثر بحلمه العظيم بأن يبين الكنائس الشرقية يكونوا وسط الكفر والبدع، عبيده المؤمنين منصائين كالورد في وسط الشوك لتسبحة اسمه القدّوس، ولاسترجاع غير المؤمنين، وأنهم يكونوا بغير عيب متمسكين في أمانة الكنيسة الجامعة المقدسة الرومانية وعوايدها من غير أنهم يبتعدوا عن أمانة المسيح بسبب المظالم والخسائر

١ - الخنيسي، سلسلة البطارقة، ص ٣٣.

٢ - راجع هذه البراءات المارونية باللاتينية في بولاريوم الخنيسي، من عدد ١٣ إلى عدد ١٢٣ راجع: فهد، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ٢: ٩٩.

٣ - راجع: فهد، بطارقة، مرجع سابق، ٢: ١٣٩ وما يليها.

والاضطهادات التي يحتملونها من ذوي البدع والانشقاق، ومن غير المؤمنين الذين يمقتون اسم المخلص... ومن خصوص الأمور التي بعث (البطيريك) طلبها منه (البابا) أرسل له مكتوبًا تحرّر في أوّل شهر أيلول (سبتمبر) يعلمه به أنّه أرسل إلى "ليوناردس لاوردان" أمير البندقيّة مكتوبًا بأن يكون ذا حلم وشفقة على الموارنة القاطنين في قبرص، ومكتوبًا آخر إلى المتقدّم "الياس الماروني" ^١ بأن يكون غيورًا على أمور البيعة ومنتبهًا على سياسة طائفته، ومكتوبًا آخر إلى مطران "الأفقيّة" في الجزيرة (قبرص) ينبّهه فيه بأمر الطاعة عن أرزاق "دير ماري يوحنا" وعن وقوفات الطائفة المارونيّة، ثمّ مكتوبين آخرين: أحدهما للبطرك والآخر عمومًا بأن كنيسة "ماري يوحنا" التي في أرض الأفقيّة وسائر الوقوفات التي للموارنة في قبرص يكونوا بتصريف البطرك الماروني، وأنّ المخالف يسقط تحت الحرومات القاطعة، وإن كان أسقفًا أو مطرانًا يكون مربوطًا. ثمّ أرسل أيضًا مكتوبًا إلى البادري "فرنسيس" والبادري "سوريانو" بأن يستمرّوا على زيارة البطرك الماروني وطائفته ليرشدوهم بما يخصّ أمور الإيمان، إذا دعت الضرورة... وعندما وصلت هذه المكاتيب مع البدلات ودرع الرئاسة إلى البطيريك شمعون، حصل له فرح جزيل، وشكر الباري تعالى الذي لم يخيب عبيده من تسليّة رحمته ^٢...

أمّا بشأن مقدّم بشريّ، فيروي مؤرّخو بشريّ أنّه قبل عبد المنعم، كان مقدّمًا على بشريّ: رزق الله الكبير، وهو من أشهر مقدّميه. وكان والده قد أوكل أمر تهذيبه، وإخوانه، إلى "الأب يوحنا" رئيس دير مار نقلا في "قلعة الحصن" التي كانت تعرف باسم قلعة "بيتوكيكي"، فانطبع باخلاق مهذّبة ونشأ على حبّ الوطن وإقامة العدل بين الرعيّة، كما ذكر الأب لامنس. وقد لقّب بـ"أمير الأرز"، وذاعت شهرته إلى روما بعد أن بنى قصرًا من الطراز العربيّ والنسق الغوطي، فغدا ملقّى بعض رجال الأدب

١ - هو المقدّم الياس ابن المقدّم يوسف ابن المقدّم عبد المنعم ليّوب البشريّ الذي سيرد خبره لاحقًا.

٢ - الدويهي، تاريخ الأزمنة، أخبار سنة ١٥١٥، مرجع سابق، ص ٢٢٠.

والفكر... إلّا أنّ المونوفيزيّة قد تسرّبت في أيّامه إلى لبنان والجليل، فأوفد إليه بابا روما، القاصد الرسولي "قراغريفون" وتشارورا بحضور الأب يوحنا وبعض مقّمي المناطق بشأن اتّخاذ التدابير الفعّالة لصدّ دخول "بدعة الطبيعة الواحدة" إلى الجبل، خاصة بعد أن تأثّر المقدم "عبد المنعم أيّوب"، الذي نصّبه عمّه "أمير الأرز" على جبيل، بهذه البدعة. وكان هذا الأمير قد أقسم، في خطاب شهير ألقاه أمام القاصد الرسولي ومقّمي المناطق بأنّه "سيعاقب بالموت كلّ من يعبث بالسلام... وبأنّه لا ينتهي ولا يرعوي عن أن يوطّد السلام ويصون الكنائس ويحمي الأديار ويعضد اليتيم وينصف الأرملة ويفرّج عن الملهوف ويعين من يستعين به ويطلب مؤازرته..." وطلب إلى ابن أخيه المقدم عبد المنعم الإبتعاد عن "أهل البدعة" فوعده بذلك، ولكن ما أن توفي "أمير الأرز" حتّى عاد المقدم عبد المنعم إلى مناصرة المونوفيزيين، وأفسح في المجال لهم حتّى استقنموا من القدس أسقفهم "ديوس قورُس" الذي استولى على عدّة أديار في لبنان. وقدم عبد المنعم للسريان الأرض قرب "بقوفا" بين شرّي وإهدن ليسكنوا فيها، ونالوا بطريرك الموارنة الذي أتاه بحرّم لم يأبه المقدم به، وقد كان شديد الصولة فلم يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه، فراح يضايق رجال الدين الموارنة ويدعم السريان المونوفيزيين المعروفين باليعاقبة. "عندئذ أوقد البطريرك نار الحمية في نفوس أبنائه، فنهض الإهنيون وحملوا على الهراطقة حملة شتّتت شملهم. فغضب عبد المنعم واستجد بأولاد الشيخ زعزوع المتأولة (الشيعة) أصحاب (قرية) بشنّات، فحشدوا جيشاً من رجال مقاطعة الضنيّة وقصدوا إهدن، حتّى إذا وصلوا إلى محلة "تولا" انقضّ عليهم الإهنيون وضربوهم الضربة القاضية، ولمّا رأى اليعاقبة أن لا قبل لهم بالإقامة بين الموارنة رحلوا عن لبنان مكرهين^١.

١ - داغر، بطرركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٣.

ومع أن عبد المنعم كان قد أوصى ولده يوسف بأن يحمي "اليعاقبة" بعد موته، فإن الإبن، على ما يبدو، لم يعمل بمشيئة والده. ويفيد المطران يوسف الدبس نقلاً عن الدويهي عن "أن المقدم يوسف أصلح ما أفسده أبوه، وظلّ مجاهداً في سبيل العمران... وجاء بعده ابنه المقدم الياس الذي سار على خطى "أمير الأرز" رزق الله، وامتدت سلطته حتى البقاع والضنية، وزاغت شهرته بأن أرسل له البابا لاون العاشر براءة بابوية تعينه معتمداً بابوياً، يحثه فيها على أن تكون له العناية بأمر الدين الكاثوليكي واليقظة لسياسة ملته^١...

وقد رأى مؤرخون مستقلون أنه مع نهاية القرن الخامس عشر، ونهاية وجود الطائفة السريانية (اليعقوبية) في لبنان، ونهاية عبد المنعم مقدم بشري، كان وضع المقتمين المواردنة في الشمال قد تدهور بسبب طغيانهم وخروجهم على الدين أحياناً، وبرز الدور الفعال للبطاركة ورجال الدين المواردنة في خدمة المجتمع الماروني، نظراً للصلة الوثيقة بين هؤلاء وعامة الشعب^٢. وقد كان البطريرك شمعون الرابع الحنطي واضع هذا التحول من خلال قضائه على المقدم الخارج على الدين: عبد المنعم.

وكان البطريرك شمعون، بعد وفاة عبد المنعم، قد اهتم بإصلاح ما أحدثته سياسة الأخير من فساد. وعاش بعدها تسعاً وعشرين سنة، وتوفي في ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) من سنة ١٥٢٤، وله من العمر مئة وعشرون سنة، وقد دام بطريركاً مدة اثنتين وثلاثين سنة^٣.

١ - الدويهي، تاريخ الأكرنة، أخبار سنة ١٥١٥؛ خلفه ابنه يوحنا الملقب بعبد المنعم الثالث، وسار على خطى والده، ورسم دير مار اليشاع في الوادي المقدس ونال براءة البابا بولس الثالث، كما نال سنة ١٥٣١ براءة البابا كليمنضس السابع. وبالمقدم يوحنا توفقت سلسلة المقتمين من أبناء أبي المقتمين المقدم يعقوب، لصغر سن ابن المقدم حنا، فجاء دور المقتمين "الخاطلة" (نسبة إلى عين حليا في سورية التي قدم جودهم منها، ومنهم أسرة الحلو الشهيرة في لبنان) وغيرهم من مقتمين بشري.

٢ - مكّي، لبنان، مرجع سابق، ص ٢٧٩. ٣ - داغر، بطاركة المواردنة، مرجع سابق، ص ٤٣.

خلف البطريرك شمعون الحثي البطريرك موسى سعادة العكاري الذي انتُخب في ٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٥٢٤. ويتحدر هذا البطريرك أصلاً من آل سعادة من قرية بجة في بلاد جبيل، وهو منسوب إلى "الباردة" في عكار. وكانت المسألة الشرقية، في عهده، قد استعادت أهميتها وأعارها الكرسي الرسولي التفاتاً خاصاً. ذلك أنه في هذه، المرحلة كانت العلاقات قد بدأت تسوء بين الحكم العثماني والأقليات اللبنانية وأكثريتها الممثلة بالموارنة، مما قرّب بين الدروز والموارنة إلى درجة جعل الأولين يشاركون في وفد قصد روما طالباً مساعدتها للتخلّص من الحكم العثماني، ضمّ أيضاً، إضافة إلى الموارنة، ملكيين. فعين الحبر الأعظم من يمثله تجاه هذا التحالف بين أبناء الملل في الإمارة اللبنانية. وبسبب موت موفد البطريرك في البحر متأثراً بمشقات السفر، وعدم تجرؤ أحد بعده على السفر، لم تسمح الظروف بأن ينال هذا البطريرك درع التثبيت إلا في سنة ١٥٦٢ أي قبل وفاته سنة ١٥٦٧ بخمس سنوات، إذ أرسل إليه البابا الباليوم مع براءة قال فيها:

الحمد لله الذي أبقى في الأمصار المشرقية آلافاً من أناس لم تجث ركبهم للبعل، ولم يفسدهم القرب من الهرطقة^١.

وكان العكاري قد راسل الأمبراطور الفرنسي "شارلكان"^٢ سنة ١٥٢٧ يدعو لاستخلاص لبنان من أيدي العثمانيين، واعدًا بأن يضع بتصرفه خمسين ألف مقاتل. وقد جاء في الرسالة:

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٥.

٢ - شارلكان أو كارل الخامس CHARLES QUINT : ولد ١٥٠٠، ملك إسبانيا ١٥١٦ - ١٥٥٦، امبراطور الغرب ١٥١٩ - ١٥٥٦، احتل تلمسان ١٥٣٠، وتونس ١٥٣٥، ونصف الجزائر ١٥٤١، قزوي في دير "يوسنت" وفيه توفي.

منذ أربع سنوات ونحن نترجى جلالكم لكي تهتموا بمساعدتنا على نيل استقلالنا
وعندنا خمسون ألف من الرماة مدربون أحسن تدريب وعلى أتم استعداد لخدمتكم
في الحرب الاستقلالية^١...

ومتى ربطنا هذه الرسالة المؤرخة في سنة ١٥٢٧، بموضوع زيارة وفد من
الموارنة والملكيين والدروز اللبنانيين للفاثيكان ومقابلة البابا في الحقة نفسها،
وبموضوع قيام والي دمشق "مصطفى باشا" باغتيال الأمير فخر الدين الأول سنة
١٥٤٤، أدركنا أن البطريك موسى سعادة العكاري كان يتكلم باسم الإمارة اللبنانية
وليس باسم الموارنة فقط. وكان يحاول تحقيق ما سوف يحاول تحقيقه الأمير قرقماز
ابن فخر الدين الأول، ومن ثم ابن قرقماز فخر الدين الثاني الكبير، من استقلال
للإمارة اللبنانية عن الدولة العثمانية. وعندما ينس هذا البطريك الوطني الطموح من
مساعدة الغرب، أرسل في سنة ١٥٥٠ الأب "أنطون الحصري" ^٢ ابن الحاج فرحات
إلى حلب لمقابلة السلطان سليمان ^٣ الذي كان فيها يومذاك. وكان الأب المذكور يجيد
التكلم باللغة التركية، فأعجب السلطان بفصاحته وقوة برهانه، وأنفذ أمراً هامياً إلى
قاضي طرابلس كي لا يسمح لأحد بأن يتعرض للبطريك الماروني بشيء، وأن
يصير السهر على أن تبقى حقوق الكنيسة المارونية مرعية بنوع خاص، وأن يعاقب

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٤٥ راجع أيضاً تعريب هذه الرسالة لكميل اليرام البستاني بعنوان "رسلتان إلى
الأمبراطور شارلكن"، مجلة "الفصول" عدد ١٢ (١٩٨٤)، ص ٨٦ - ٩٢ راجع: صفيير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق،
ص ٣١٣.

٢ - نسبة إلى حصرون، بلدة في أعالي قضاء بشري من شمال لبنان، ويحتل هذا الكاهن من الأسرة الحصرية المشروقة التي أُنحيت
للكنيسة المارونية بشقيها الإكليريكي والزمني بطارقة وأساقفة وعلماء ومقتمين.

٣ - السلطان سليمان القانوني: عاشر السلاطين العثمانيين وأعزهم ١٥٢٠ - ١٥٦٦، لقبه الأتراك بالقانوني والإفرنج بالعظيم، قد بذاته
ثلاثة عشرة حملة في أوروبا وآسيا، دون القوانين والشرائع، بلغت الأمبراطورية العثمانية بهمه لوج مجدها فلزدهرت الآداب
والفنون، أوثق عرى الصداقة بين الباب العالي ودول أوروبا ومنح فرنسا الأول ملك فرنسا الامتيازات الأجنبية.

بشدة كل من يتجاسر على مخالفة هذا الأمر. وعليه، بقي البطريرك الماروني معفى من طلب الفرمان السلطاني^١.

وكان هذا البطريرك، المميّز ببعد نظره الثاقب وسعة آفاقه، قد زار الأراضي المقدسة سنة ١٥٦١ حيث تداول مع رئيس الرهبانية الفرنسيسكانية حارس القبر المقدس^٢ بشأن إرسالها علماء من رهبانيته لتدريس العلوم الفلسفية واللاهوت في مدارس لبنان. وفضّ خلافاً كان ناشئاً بين أبناء كنيسته والأقباط حول كنيسة مار جرجس في القدس. وقد نُسب إلى هذا البطريرك إجراء مصالحات بين العائلات المارونية المتخاصمة، واهتمامه بالأوقاف والمدارس والأديار. وفي عهده تفرّعت عائلات مارونية كثيرة من مناطق جبيل إلى مناطق كسروان والمتن والشوف، وتقارب الموارد والدروز في لبنان إلى ما يشبه اللحمة الوطنية. فانتشر العمران في جبال لبنان. ويرى باحثون أنه لا يمكن أن يكون من المصادفة تدفق الأسر المارونية من شمالي لبنان إلى جباله الغربية الجنوبية في عهد ذلك البطريرك الداهية. فإنّ القرائن تدلّ على أنه كان للبطريرك موسى سعادة العكاري اليد الطولى في التشجيع على ذلك الانتقال. وقد ورد في بعض المدونات أنّ العكاري قد سعى لنقل الشدياق سرّكيس الخازن، جدّ الأسرة الخازنية، من جاج إلى عجلتون، وأولاد الجميل من جاج إلى بكفيا، وبيت كميد إلى غزير^٣. ونُسب إليه أنه كان وراء علاقة الصفاء والمودة التي قاربت بين الموارد والدروز الذين عقدوا في عهده تحالفاً مكّنتهم من الوقوف في وجه أهل الفساد وتجاه باشوات الباب العالي، حتّى جعلوا ولاية هؤلاء تقتصر على بعض المدن الساحلية.

١ - داغر، بطريركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٥ - ٤٦.

٢ - راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة.

٣ - الدويهي، تاريخ الأزمنة، نشر فهد، مرجع سابق، ص ٣٩٢.

وتوفي البطريرك موسى سعادة العكاري في ١٩ آذار (مارس) ١٥٦٧ بعد إدارته لشؤون الكرسي البطريركي الأنطاكي الماروني، بنشاط يدعو للإعجاب الشديد، طيلة أربع وعشرين سنة^١.

حاول البطريرك مخايل الرزي، الذي خلف العكاري إثر وفاة هذا الأخير سنة ١٦٥٧، أن يسير على خطى سلفه. وكان أهم نشاط له أنه سعى إلى إنشاء مدرسة الكنيسة المارونية في روما، وبدأ بإعداد مجمع ماروني لن يعقد إلا بعد وفاته سنة ١٥٨١. وقد خلفه شقيقه سرقيس الرزي الذي نشأت في عهده المدرسة المارونية في روما سنة ١٥٨٥. وقد قامت هذه المدرسة بدور هام في تاريخ الكنيسة المارونية، وساهمت إلى حد بعيد في النهضة العلمية والثقافية التي قام بها مشاهير علمائها وتوزع طلابها في لبنان والشرق^٢؛ يوم كان البابا غريغوريوس الثالث عشر (١٥٧٢ - ١٥٥٨) على سدة روما. وعلى أثر رجوع الأفواج الأولى من هذه المدرسة إلى وطنهم الأم، نشطت الاتصالات بين الكنيسة المارونية والكنيسة الكاثوليكية، وأفضت البعثات التي قام بها المرسلون الأجانب، من فرنسيسكان ويسوعيين وغيرهم، إلى عقد أول مجمع ماروني، في دير قنوبين المقر البطريركي آنذاك، حضره ممثل البابا الأب "هيرونيمس ننديني" اليسوعي^٣، وثبت هذا المجمع صلات الإتحاد الوثيقة التي كانت

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٦ - ٤٧.

٢ - صفيير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ١٣١٥ حول هذا الموضوع راجع المحاضرات والندوات التي أقيمت في جامعة الروح القدس - الكسليك بعنوان: للذكرى المئوية الرابعة لتأسيس المدرسة المارونية، ١٥٨٤ - ١٩٨٤، (لكسليك - لبنان، ١٩٨٦)؛ أيضاً: مجلة المنارة (١٩٨٤) عدد خالص عن المدرسة المارونية؛ GEMAYEL NASSER, *LES ÉCHANGES CULTURELS ENTRE LES*

MARONITES ET L'EUROPE, 2VOLS. (BEYROUTH, 1984)

٣ - DANDINI GIROLAMI, *MISSIONE APOSTOLICA AL PATRIARCA E MARONITI DEL MONTE LIBANO*, - ٣

(CESÈNE, 1956)

قائمة منذ نشأة البطريركية بين روما والكنيسة المارونية^١. وقد عُقد ذلك المجمع قبل وفاة البطريرك سر كيس الرزّي بسنة واحدة، فخلفه ابن أخيه البطريرك يوسف الرزّي الذي نقل الكنيسة المارونية إلى اتّباع التقويم الغريغوري المنسوب إلى البابا غريغوريوس الثالث عشر، فكانت ردّة فعل الروم على اتّباع الموارنة التقويم الغربيّ بالغة المعارضة والاستتكار، إذ سارع بطريركهم إلى مراسلة حافظ مدينة دمشق، "بقوله إنّ الأمة المارونية بلبت جميع الكنائس الشرقية بتغييرها حساب السنين وزمن الأعياد". فما كان من الباشا إلا أن أمر بإلقاء القبض على كهنة الموارنة وأعيانهم، وقد بذل البطريرك الرزّي أقصى الجهود لفك أسرهم^٢.

في آخر سنيّ هذا البطريرك، شهد لبنان أزمة اقتصادية خانقة، بسبب رفع الضرائب من قبل السلطة على أبناء الجبل انتقاماً من انتفاضة قام بها "علي باشا جنبلاط"^٣، وهو من حلفاء الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني الكبير، فكان الانتقام يصل إلى جميع المناطق التي كانت تحت سلطة هذا الأخير. وقد سجّلت المدوّنة لهذا البطريرك أنّه: "احتمل من أتعاب الكفاح في سبيل إعادة السلم ما لا يمكن وصفه. فاعتلّت صحته وانتقل إلى جوار ربه في شهر آب (أغسطس) ١٦٠٨. وبقي الكرسيّ البطريركيّ شاغراً مدة تسعة أشهر بسبب ذلك الاضطراب^٤.

١ - صغير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١٥.

٢ - داغر، بطريركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٤٩ - ٥٠.

٣ - عليّ باشا جنبلاط (ت ١٦١١): عُنّي في بدء شبابه حكماً على البقاع المزريّ، ثمّ تولى كلّس وعزاز وعينتاب والمعرة ولضنة عنوة ومكّ النقود باسمه ١٦٠٧، تحالف مع الأمير فخر الدين المعنيّ الثاني ضدّ ابن سيف، ثمّ حصلت حوادث أدّت إلى قتله لصلوات عليه عند السلطان.

٤ - داغر، بطريركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٥٠؛ الدويهي تاريخ الأزمة، نشر توتل، ص ٢٩٨ - ٣٠٠.

خلف البطريرك يوسف الرزّي سنة ١٦٠٩ بطريرك إهنيّ هذه المرة، هو: يوحنا مخلوف الإهدناتي أو الإهنيّ. وكان هذا البطريرك بعد سيامته كاهناً ترأس على دير قزحياً وحسن أملكه، ثم رَقاه البطريرك يوسف الرزّي إلى الأسقفية واتّخذهُ مساعدًا له في شؤون قنّوبين. وإثر وفاة البطريرك يوسف الرزّي، "اجتمع الرؤساء وأكابر الشعب وأجلسوا على الكرسيّ الأنطاكيّ الأسقف يوحنا مخلوف الهدناتي باختيار كلّ الرعية"^١. وقد دَوّن الدويهي في سيرة هذا البطريرك التالي:

من كثرة المظالم التي كانت صائرة على الكرسي من القسّلق ومن الشدياق خاطر مقدّم بشريّ^٢، اضطر (البطريرك) إلى أن يتوجّه إلى ناحية الشوف ليكون تحت حماية الأمير فخر الدين. وعندما حضر على الأمير فخر الدين، قبله بكلّ كرامة. وصدف، قبل ذلك الزمان، أن وقعت الفتنة بين المسلمين سكان قرية مجدل المعوش وكثرت القتلى بين الجانبين حتّى أنهم اتّفقوا على بيع القرية والخروج منها. فاشترأها منهم الأمير علي ابن الأمير فخر الدين باثني عشر ألف ودفعها للتصارى. فنزل البطريرك في مجدل المعوش وعمر كنيسةً وداراً واستمرّ فيها حتّى قصد زيارة القدس^٣.

وكان هذا البطريرك الشفوق، كما وُصف، قد نال درع النشيت من البابا بولس الخامس سنة ١٦١٠. وكان "مسموع الكلمة لدى الباب العالي، يأتّمر بأمره الحكّام". وقد تمكّن من استصدار أوامر العفو من الباب العالي عن محكومين قبيل إعدامهم بساعات. واقتنى للكرسيّ البطريركيّ أملكاً واسعة. وفتح للموارنة مدرسة إكليركيّة في "حوقا"^٤،

١ - الدويهي، تاريخ الأزمنة، أحداث سنة ١٩٠٦.

٢ - المقّم الشدياق خاطر الحصري.

٣ - راجع للدويهي، تاريخ الأزمنة، نشر توتل، مرجع سابق، ص ٤٦٢.

٤ - حوقا: قرية في قضاء زغرنا من لبنان الشمالي بقرب إهدن على متوسط ارتفاع ١,٣٥٠م عن سطح البحر، أنشأ البطريرك يوحنا مخلوف مدرسة حوقا ١٦٢٤ في دير سيّدة حوقا الذي بناه "ابن الصبّاحا الكفرصغابي" في وادي قلديشا ١٢٨٣ - مسجد، الدر المنظوم، مرجع سابق، ص ١٥٩.

أعدت لمدرسة المواردنة في روما طلاباً متفوقين، وقد أشرف شخصياً على إكليريكية حوقا هذه، وكانت علاقته مع الطلاب مباشرة. وكان مخلوف أول من سام مطراناً متخرجاً من مدرسة روما. هذا المطران هو "أسحق الشدراوي" الذي رُسم أسقفًا على طرابلس، واشتهر ببراعته في العلوم الطبيعية والفلسفية واللاهوتية. وبرز أسقف آخر من تلامذة روما في هذه الحقبة هو "يوحنا الحصري"، الذي ترجم بعض مؤلفات القديس "توما الأكويني" إلى اللغة العربية، ونادى بـ "الحساب الغريغوري" في حلب. وعندما استدعاه والي دمشق لمحاكمته إثر "قيام القيامة" عليه من قبل رؤساء الكنائس الشرقية، دافع هذا الأسقف عن صحة تقويم حساب السنين الحديث ببراهين أفحمت الحاضرين، وكان لها الأثر الفعال في إدخال هذا التقويم إلى الشرق. بيد أن هذا الأسقف كان قصير العمر فتوفي سنة ١٦٢٨، وتبعه البطريك مخلوف بعد خمس سنوات، وكان قد أدار شؤون البطريركية مدة ربع قرن^١.

يُستفاد من هذه المستجدات أن الكنيسة المارونية كانت قد بدأت تحقق، في الربع الأول من القرن السابع عشر، بعض التقدم على دروب العلم والتحصيل. وكان لمدرسة روما المارونية أعم الفضل في ذلك. وكانت هذه الحقبة زمن ازدهار نسبي بالنسبة للكنيسة المارونية التي عمرت معابد عديدة. "وتحرر أبناؤها من شروط أهل الذمة، فركبوا الخيل بسروج، ولفوا شاشات بكرور، وحملوا البنادق المجوهرية"^٢. واستقبلوا الإرساليات، وكان أولها الكبوشيين^٣. وكان الأمير فخر الدين يرجع في أهم الأمور إلى البطريك الماروني. وكان أكثر جنده ومستشاريه وكواخيه^٤ من

١ - راجع: داغر، بطارقة، مرجع سابق، ص ٥١ - ٥٥.

٢ - الدويهي، تاريخ الأزمنة، طبعة فيد، مرجع سابق، ص ٤٩٧؛ وطبعة توتل، مرجع سابق، ص ٣٢٩.

٣ - راجع: الجزء الحادي عشر من هذه الموسوعة.

٤ - كاخية: جمعها كواخي، كلمة تركية، بمعنى وزير أو مفوض أو مستشار.

المسيحيين، وخاصة الموارد. وفي هذه الحقبة حاول الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير توحيد الإمارة وتحصيل استقلالها، وتوسيع حدود البلاد. وعقد التحالفات مع أوروبا. حتى إنه طمع بالآستانة ذاتها. وبرز في هذا الدور المطران جرجس عميره الذي سيجلس بطريركاً بعد مخلوف، وهو الذي أرسله البطريرك مخلوف^١ سفيراً إلى روما و"توسكانا"^٢ للمفاوضة مع البابا ومع الغراندوق "فردينان" الأول أمير توسكانا، وسائر أمراء وملوك أوروبا لخلق حلف ضد تركيا^٣. وكان العلامة إبراهيم الحاقلي^٤ صاحب مكانة خطيرة في الفاتيكان، فساعد كثيراً البطريرك والأمير على ما فيه خدمة الجبل اللبناني. وعندما حضر الأمير فخر الدين إلى روما، كلف المطران جرجس عميره بوضع كتاب في الاستراتيجية الحربية يومذاك، يتناول هندسة الأبراج والحصون والقلاع، "أتمه على أحسن ما يرام، حتى خيل للمطلعين عليه كأنه من صنع ذوي الاختصاص في بناء القلاع والحصون وفي معرفة فنون

١ - جاء في بعض التواريخ الموثوقة أن إرسال عميرة سفيراً إلى إيطاليا جاء نتيجة اتفاق بين الأمير فخر الدين والبطريرك مخلوف للمفاوضة مع البابا لورينس الثامن، والغراندوق فردينان الأول، أمير توسكانا، لإيجاد صيغة تحالف بينهما وبين الأمير فخر الدين للتخلص من العثمانيين، وكان إبراهيم الحاقلي* ذا مقام خطير في إيطاليا والفاتيكان، فساعد كثيراً البطريرك والأمير المعني على ما فيه خدمة وطنه لبنان، حتى لُقّب بسفير الأمير المتجول. وشملت مهمة الحاقلي شراء أسلحة وتخزينها وفتحها وخبراء في صلب المدافع، وبيع كمية من حديد الأمير في توسكانا وإيداع ثمنه في مصرف "الرحمة" في فلورنسا؛ راجع: صفيح، الكنيسة المملوكية، مرجع سابق، ص ٣١٦؛ قرأني، فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان وفرندندو الثاني أمير توسكانا ١٦٢١ - ١٦٣٥، (حريصا - لبنان، ١٩٣٨) ص ٣١٥.

٢ - توسكانا TOSCANA: مقاطعة في إيطاليا الوسطى قاعدتها فلورنسا، هي بالتقريب أثرويا القديمة، نشأت فيها دوقية كبرى حكمتها أسرة مديتشي ١٥٦٩ - ١٧٣٨، خضعت للنمسا ثم ضُمَّت إلى الدولة الإيطالية ١٨٦٠.

٣ - راجع: مفرج، صانعو التاريخ، مرجع سابق، الجزء الثامن.

٤ - إبراهيم الحاقلي أو الحاقلي (١٦٠٥ - ١٦٦٤): من مشاهير علماء الموارنة، ولد في حقل من أعمال بلاد جبيل في جبل لبنان، تعلم في روما، عمل كاتباً في خدمة فخر الدين المعني الثاني، علم اللغات السامية في روما وبيزا وباريس، توفي في روما، له: "مختصر مقاصد حكمة فلاسفة العرب".

غير أن رياح الأقدار جرت بما لم تشتهه سفينة فخر الدين. فكانت حرب الثلاثين سنة التي اشتدت وطأتها في أوروبا. وكان نقشي وباء الطاعون في إيطاليا، مما شغل البابا والغراندوق عن الأمير والبطيريك، فاغتتمت السلطنة هذا الانتشغال وجهزت حملة قاضية على فخر الدين، الذي توقفت عنه الإعانات الغربية، فاضطر إلى الإستسلام، ونُقل مع أنجاله إلى اسطنبول حيث عُذر بهم بعد وفاة البطيريك مخلوف بسنتين (١٦٣٥). وتلاشى حلم^٢.

ب وفاة البطيريك يوحنا مخلوف سنة ١٦٣٣، وإعدام الأمير فخر الدين المعني الثاني سنة ١٦٣٥، خلف الأول بطيريك إهدني آخر هو جرجس عميره، وخلف الثاني ابن أخيه يونس: الأمير ملحم. وقد تعاون الخلفان مثلما تعاون السلفان. وسعى البطيريك عميره لدى الفاتيكان ليتوسط مع فرنسا كي يقنع ملكها حليفه العاهل العثماني

١ - صغير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١٦، الذي أضاف: لم تقتصر علاقة فخر الدين بروساء الموارنة على البطيريكين مخلوف وعميره، بل تعدتهما إلى بعض الأساقفة وأعيان الشعب، فاستعمل هذان البطيريكان نفوذهما لدى الأحيار الأعظمين والحكام الغربيين، ووضعاً تحت تصرف الأمير نخبة من الأساقفة والعلماء لبدء المفاوضات وإعداد المعاهدات، كالمطراتين سركيس الجمري وجرجس ابن مارون، قتلما بالمهمة خير قيام. وكان الهدف من سفارة المطران جرجس ابن مارون، من قبل الأمير فخر الدين إلى الغرب المسيحي، مفاوضة الكرسي الرسولي ودولتي إسبانيا وتوسكانا في احتلال الأراضي المقتمة واستخلاصها من يد الدولة العثمانية؛ راجع قرألي، مرجع سابق، ص ٢٦٦.

٢ - الدويهي، تاريخ الأزمنة، ص ٣٠١ - ٣٠٢، ٣١٠، ٣١٣، ٣٢٥، بولس قرألي: فخر الدين المعني الثاني (حريصا، ١٩٣٧) ص ١٣ - ١٤، ٣٧ - ٣٨، المملوف، تاريخ الأمير فخر الدين، مرجع سابق؛ الصفي أحمد الخالدي، تاريخ الأمير فخر الدين، نشره لشد رسم وفؤاد قنرام البستاني، (بيروت، ١٩٣٦)؛ النصولي أنيس، رسائل الأمير فخر الدين (بيروت ١٩٤٦)؛ CARALI

PAOLO, *FAKIR AD-DIN II, LA CORTE DI TOSCANA* (ROME, 1936); CHURCHILL COLONEL, *MOUNT LEBANON: A TEN YEAR'S RESIDENCE* (LONDON, 1853); DE LAMARTINE, *VOYAGE EN ORIENT* (PARIS, 1859); SANDYS GEORGE, *A RRELATION OF A JOURNEY* (LONDON, 1621); CHEBLI MICHEL,

FAKHREDDINE II MAAN, PRINCE DU LIBAN (BEIRUT, 1946).

بأن يعترف بالأمير ملحم خلفاً لعمه في الإمارة، وقد تمّ ذلك بفضل وساطة البطريرك^١. بيد أن عمر هذا البطريرك كان قصيراً، فتوفي سنة ١٦٤٤، كما توفي الأمير سنة ١٦٥٨. وكان عمر خليفة الأول: البطريرك يوسف العاقوري أقصر من سلفه، فتوفي سنة ١٦٤٦، بعد أن أشرف على عقد مجمعين مارونيين صدر عنهما قوانين كنسية هامة. ويُعزى إليه أنه كان المؤسس الروحي لكنيسة السريان الكاثوليك^٢. وقد انتقلت السدة البطريركية بعد وفاته إلى البطريرك يوحنا الصفراوي، وهو البطريرك الثاني عشر من البطارقة الذين أقاموا في قنوبين^٣. أصله من أسرة البواب، وقد نُسب إلى بلدة الصفرا في فتوح كسروان حيث نشأت عائلته. وفي السنة التي انتُخب فيها البطريرك الصفراوي، صدر عن الملك الفرنسي لويس الرابع عشر مرسوم جاء فيه:

ننهي إلى سفيرنا في الشرق وإلى الذين سيخلفونه أن يُسعفوا الموارنة لدى صديقنا المعظم (السلطان) لينجزوا أعمالهم ويتصرفوا بمقتضيات مراتبهم الروحية بتمام الحرية. ونأمل من قناصل دولتنا في كل موانئ الشرق بأن يساعدوا السيد البطريرك وكل أبنائه الموارنة. ونطلب من السادة الكبار، باشوات ومأموري الحضرة السلطانية العلوية، أن يعاونوا البطريرك ورئيس أساقفة طرابلس وجميع الإكليروس الماروني وكل أبناء الطائفة المارونية^٤.

بلغت مكانة البطريركية المارونية في هذه الحقبة شأواً أصبح فيه البطريرك يعين قناصل فرنسا في لبنان. فقد أرسل الصفراوي إلى فرنسا المطران اسحق الشدراوي* ليطالب باسمه قنصلية فرنسا في مدينة بيروت للشيخ أبي نوفل الخازن فأجيب إلى

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٥٦.

٢ - راجع: الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

٣ - لنويه، تاريخ الأزمنة، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

٤ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٥٨.

طلبه^١. ومن شأن رواية ما جرى للبطريرك المنتخب جرجس حبقوق البشعلاني الذي كان من المفروض أن يخلف يوحنا الصفراوي المتوفى سنة ١٦٥٦، أن نفيدنا عن مدى الزهد الذي كان يتحلّى به رجال إكليروس الكنيسة المارونية في ذلك الزمان. علماً بأن القداسة تُنسب إلى صاحب السيرة السابق، البطريرك الصفراوي، الذي دُوّنت عنه شهادات تُفيد بأن نوراً سماوياً كان يسطع منه وحوله عندما كان ينفرد للصلاة ساعات وساعات.

في اليوم التاسع بعد وفاة البطريرك الصفراوي، اجتمع الأساقفة والمشايع والأعيان وانتخبوا المطران جرجس حبقوق البشعلاني بطريركاً على الكرسي الماروني لأنطاكية وسائر المشرق. أمّا المطران جرجس فقد خرج من المجمع واختبأ في صومعة أحد الرهبان، فخلع الشعب باب الصومعة وحملوه عنوة إلى دهليز الكنيسة، حيث قال: "دعوني أسترح قليلاً وما ترغبون فيه سيكون". فتركوه ليأخذ بعض الراحة، غير أنه تمكّن من الفرار واختفى في وادي قنّوبين إلى أن تمّ انتخاب البطريرك البسبعلاني^٢، وهو جرجس ابن الحاج رزق الله من قرية بسبعل من أعمال زاوية طرابلس، الذي عُرِف عنه أنه أجاد جميع اللغات الشرقية، وخاصة التركية، وكان بارعاً في علم الحقوق البيعية. وكان يخاطب حكام البلاد وأولياء الشأن في الأستانة، ويضع التقارير لإطلاع الباب العالي مباشرة على أحوال البلاد، ولإبلاغه شكاوى المظلومين^٣.

١ - وطّد مكانة مشايخ آل الخازن، بوجه خاص، تعيين دولة فرنسا الشيخ أبي نوفل الخازن كنصلاً لها في مدينة بيروت. وقد تمّ تعيين الشيخ أبي نوفل الخازن نائباً لتصل لدولة فرنسا ثمّ كنصلاً لها في بيروت سنة ١٦٥٥، وظلّ أحفاده يتراثون هذا المنصب حتى ١٧٥٨. وجرى، في ما بعد، تعيين مارونيين آخرين في هذا المنصب، أحدهما غنّود السعد من عين تراز، كبير معلوني الأمير يوسف. راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ٤٢.

٢ - قنّوبيني، تاريخ الأزمنة، ص ٣٥٤. ٣ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٦٠ بالاستناد إلى: De la Roque.

في هذه الأثناء كان شأن الإمارة قد ضعف نسبة لما كان عليه في عهد فخر الدين. وقد توفي الأمير ملحم في السنة نفسها التي تمّ فيها انتخاب البطريرك جريس البسبيلي (١٦٥٧) لينتقل الحكم إلى ولده الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيين. أمّا شأن البطريركية المارونية فكان يزداد خطورة، خاصّة إثر انتخاب إسطفانس الدويهي بطريركاً خلفاً للبطريرك جرجس البسبيلي سنة ١٦٧٠.

ويقول باحث ماروني كنسيّ معاصر حول هذه الحقبة وما سببها مباشرة:

إذا تطلّعنا إلى الماضي، يبان لنا، على ضوء الأحداث التاريخية المتتالية، تأثير الكنيسة المارونية في الإمارات اللبنانية الثلاث: العسافية، والمعنية، والشهابية. فمنذ بداية القرن السادس عشر، بدأ الانفتاح، من خلال نزوح العائلات المارونية إلى الوسط فالشوف فالجنوب، على بقية الطوائف والحكّام المحليين. ثم خرجت الكنيسة المارونية من معقلها القديم في وادي قاديشا وقزحياً وقنوبين، وراحت تتغلغل في الجبل اللبناني من الشمال إلى الجنوب. فدخل الموارنة كعنصر فعّال في الإمارات الثلاث، والتقت مصالح كنيستهم مع مصالح هؤلاء الأمراء من الناحية المادية والاقتصادية والمعنوية والسياسية. وكانت حيوية الشعب الماروني تستمدّ قوتها من قداسة سيرة، وصلابة عقيدة، وشدة مراس، وثبات عزيمة، في الإكليروس المارونيّ والرهبانيّات. فاستقرّ الفلاحون والمزارعون من أبناء الشعب الماروني، بعد نزوحهم من الشمال إلى المناطق الشوفية، في المزارع والقرى الجبلية، حيث تعاطوا حراسة الأرض وتربية دود القرز، في حين زاول غيرهم الأعمال التجارية في المدن الكبرى. وهكذا توطّدت وحدة الحال بين الطرفين. فأصبح نشاط الفلاحين والتجار قواماً لاقتصاد الإمارة، كما كان تأييد البطارقة والأساقفة الموارنة دعامة لسطوة الأمراء... ولم يقتصر الانفتاح على المجتمع اللبناني، وعلى أبناء سائر الكنائس المشرقية فحسب، بل تعدّاه إلى الغرب المسيحي، عن طريق المراسلات وإيفاد المرسلين الكاثوليك من فرنسيسكان وكبوشيين وكرمليين ويسوعيين

ولعازرين وغيرهم. ونتيجةً لذلك، توطدت العلاقات بين الكنيستين المارونية والرومانية، وزاد اهتمام الأعبار الأعظمين بشؤون الكنيسة المارونية، فأخذوا يعيّنون لها كردينالاً من كرادلة الكنيسة لرعاية مصالحها. وأنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر، سنة ١٥٨٤، المدرسة المارونية في رومة. وعقد سنة ١٥٩٦ أول مجمعٍ إصلاحيّ في الكنيسة المارونية جدّدت فيه تمسّكها بالاعتساب الرسوليّة وخضوعها لروما... ومع رجوع تلامذة المدرسة المارونية بدأت الكنيسة المارونية تقطف ثمار انفتاحها على الغرب المسيحيّ. ففي غضون القرنين السابع عشر والثامن عشر، تبوأ الكرسي الأنطاكيّ ستّة من خريجي هذه المدرسة، كما رُقّي عشرات الكهنة منهم إلى الدرجة الأسقفية. فراحوا ينشطون معاً في إعادة تنظيم كنيستهم وتدير أبنائهم وإدارة معابدها وأوقافها، وضبط طقوسها، وتعزيز النشاط الرسوليّ في الأبرشيات. فساهموا إلى حدّ بعيد، في ارتداد بعض أبناء الكنائس الشرقية الأرثوذكسية إلى الكنيسة الكاثوليكية، ووفروا لرؤسائهم الروحيين، من أساقفة وبطاركة، مع بعض العائلات المارونية النافذة، مقراً لسكانهم في جبل لبنان. وتوصّل الكليرس المارونيّ، بواسطة مداخلته ونفوذه، ويدافع من غيرته الرسوليّة، إلى تنصيب الأمراء الشهابيين في نهاية القرن الثامن عشر... وعلى الصعيد الثقافي، تجلّى نشاط الكنيسة المارونية في بحث النهضة العلميّة التي قام بها تلامذة المدرسة المارونية في لبنان والشرق. فمن هذه المدرسة المارونية انطلقت الشرارة الأولى التي أضاعت مشعل الحضارة والنهضة الثقافيّة التي قاد مسيرتها تلامذتها المجلّون، وإليها يعود الفضل في انفتاح الغرب المسيحيّ على كنوز الشرق وبقية الأديان والمذاهب، كما أفسحت في المجال لأبناء الشرق لاكتشاف حضارة الغرب، عن طريق الترجمات وتعليم اللغات الأوروبية على أنواعها. فكانت المدرسة المارونية نقطة انطلاق لدفع عجلة العلم والتربية في لبنان، وإنشاء المدارس المحليّة العديدة التي تخرّج منها، وبوجهٍ خاص، من مدرستي عين ورقة وعينطورا، عدّة وافر من الشبّان الموارنة الذين أثّروا أجلّ الخدمات لوطنهم ولمحيطهم المشرقيّ، فدخلوا في خدمة الأمراء الحاكمين، وأصبحوا، مع توالي

الأيام، طبقةً مارونية متعلّمة ذات شأن في البلاد. وجلى منهم غيرُ واحد في العلم والأدب والشعر في لبنان والبلدان العربية، فرقعوا مستوى اللغة، وأغنوا آدابها بالتأليف النفيسة، كما رأس العديدون منهم تحرير المجلات والجرائد اليومية. وأفسحت المدرسة المارونية في مجال تفوق بعض تلامذتها في شتى العلوم في المجتمعات الأوروبية، حتى عُرِفَ بهم في تلك الأوساط والأندية العالمية هناك، بلقب "عالم كماروني". وتعتبر مصنفاتهم، حتى يومنا هذا، مرجعاً أولياً لا يُستعاض عنه بسهولة. فتأليف السمعاني* الكبير (العلامة يوسف سمعان السمعاني) كانت ولا تزال مفتاح العلوم الشرقية ومنهلاً للأدب السريانية العريقة. وللسمعاني أندادٌ قبله وبعده، كإبن القلاعي*، وشلق^١ والدويهي*، والحاقلاني*، والسماعنة الآخرين^٢ ونمرون الباني* في روما*، والصهيوني* والحصريوني* في باريس، والغزيري^٣ في إسبانيا، وتادروس العضم وأنطون عريضة* في براغ وغيرهم^٤.

١ - نصرالله شلق الملقب (ت ١٦٣٥): من رجال النهضة الشرقيين، ولد في العقورة لبنان، تعلّم في المدرسة المارونية بروما حيث عمّ العربية والسريانية، أسّس مدرسة للموارنة في رافينا.

٢ - المونسينيور الياس شمعون الحصري (١٦٧٣ - ٤): ولد في حصرون، سافر إلى روما ملتحقاً بالمدرسة المارونية ١٦٨٥ برفقة الخوري يعقوب عواد الذي أصبح بطريركاً، عاد إلى لبنان ١٦٩٧ حيث سامه البطريرك الدويهي كاهناً ثم أرسله مبعوثاً إلى روما وفرنسا لاستحصله على مرسوم لتخفيف الضرائب على أهل الجبّة؛ المطران إسطفان عواد السمعاني (١٧٠٩ - ١٧٨٢): وُلِدَ في حصرون، سافر إلى روما ١٧٢٠ حيث نال الملقبة، عُيِّنَ في المكتبة الفاتيكانية تحت إدارة خاله يوسف السمعاني، سبب كاهناً وبقى في وظيفته إلى ١٧٣٦، حضر إلى لبنان مع خاله السمعاني ليقّد المجمع اللبناني وكان من أبنائه، أسقف على حماه ووكيل للبطريرك يوسف الخازن في الدول الأجنبية وروما التي عاد إليها في العام نفسه وعيّن حافظاً للمكتبة الفاتيكانية، جال في مصر وسوريا وما بين النهرين مرسلًا للمجمع المقدس بالحناء عن الآثار الشرقية، اقتنبه الباباوات لمهمات دينية وعلمية في بلدان لورونية، له مؤلفات شهيرة منها "مهرست المكتبة الشرقية الخطية في المكتبة الماديشية"، وشرح أعمال الشهداء الشرقيين والغربيين لأوسابيوس القيصري، و"المحاضرة عن القديس يوحنا مارون" بالإيطالية، وفهارس عديدة، توفي في روما؛ المونسينيور يوسف لويس السمعاني (١٧١٠ - ١٧٨٢): ولد في حصرون، تخرّج باللغات والطوم والفنون من مدرسة الموارنة في روما، عيّنه البابا بنيكتوس الرابع عشر مطراناً للغات الشرقية والطقوس الملكية في كنيسة سايفيسا، له مؤلفات منها باللاتينية "كوديكس ليتورجيكوس" أي كتاب رتب القدّس، ومجموعة نصوص طقسية في ١٣ مجلداً، ومؤلفات في تاريخ بطاركة الكلدان والقساطرة، والوحدة الكنسية، وفي الكنائس واحترامها وحمايتها، ومقالات كنسية، ترجم الشحيم إلى أربع لغات، وقدّس الكلدان إلى اللاتينية، وله شرح على كتاب يوحنا مورنيوس في الرسامات ١٧٥٦، عضو الأكاديمية البابوية، توفي ودفن في روما.

٣ - الأسقف ميخائيل الغزيري (ت ١٦٩٧): ذكر الدويهي وفاته وقال أنّه كان مطران دمشق، وإنّه دفن بدير طلميش.

٤ - صفيّر، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٣١ - ٣٣٤.

إسطفانس الدويهي

العالم والقديس

البطريرك إسطفانس الدويهي، أحد أعظم بطارقة الموارنة في التاريخ (١٦٣٠ - ١٧٠٤) وُلد في إهدن من أعالي شمالي لبنان. تعلّم في روما وعاد إلى بلاده يعظ ويعلم. عُيّن أسقفًا على أبرشيّة قبرص قبل أن يُنتخب بطريركًا. له مؤلفات دينيّة وتاريخيّة أهمّها: "منارة الأقداس" و"ردّ التّهم" و"تاريخ الأزمنة" و"تاريخ الطائفة المارونيّة". أرسله البطريرك يوحنا الصفراوي إلى حلب حيث أقام خمس سنوات أقنع في خلالها عددًا غير قليل من روم ونساطرة ومونوفيزيّين باتّباع الإيمان الكاثوليكي. كان هذا البطريرك أوّل من سكن مطوّلًا قريبًا من مركز الإمارة في الشوف، إذ جعل له مقرًا مؤقتًا في قرية مجد المعوش، التي كان لجأ إليها قبله البطريرك مخلوف كما ذكرنا سابقًا. ثم انتقل الدويهي إلى كرسي قنوبين، حيث عانى من مطاحنات أهليّة كثيرة جرت في أيّامه، جعلته يتحمّل مشقّات ومظالم عديدة، ما اضطرّه في أحيان كثيرة إلى أن يلجأ إلى أماكن نائية ليجتهد في تصنيف مؤلفاته. وقد بلغ تحمّله لشظف العيش أقصى الحدود، فهو لم يأكل لحمًا طيلة حياته إلّا عند اعتلال صحّته وبناءً على إشارة الطبيب. وقد ركّز الدويهي على إصلاح شؤون كنيسته من النواحي الإيمانيّة والتنظيميّة. فطاف في مختلف الأبرشيّات، فجمع المدوّنات والوثائق، واختار كهنة نوي علم وتقوى، وتفحص الكتب البيعيّة، وأصلح ما أوقعه فيها النساخ من أغلاط، وردّ القواعد إلى أصولها، وغرّبل مصاحف المؤرّخين، ومصنّفات الآباء القديسين من شرقيّين وغربيّين، وزادت مؤلفاته على الثلاثين كتابًا جلّها محفوظ في مكتبة الفاتيكان. وبفضل عناية هذا البطريرك الفذّ، نشأت حوالى سنة ١٦٩٤ رهبانيّة القديس أنطونيوس المارونيّة، التي ازدهرت بتدريبه وتوجيهاته، فصار إثباتها من قبله أوّلًا ثم

من قبل الحبر الأعظم. وعندما تعرّض مسيحيو لبنان للحييف من قبل السلطات العثمانية، تدخل في سنة ١٧٠٠ مع ملك فرنسا طالباً الموازنة لرفع الحييف عن رعايا كنيسته، فكان له ما أراد بفضل تدخل السفير الفرنسي بقوة لدى الباب العالي. وعندما طالبت السلطنة بأن يقدّم إليها طلباً لتثبيتته من قبل الباب العالي بطريقاً عبر فرمان سلطاني، اعتصم البطريرك الدويهي بامتيازات طائفته رافضاً الخضوع للباب العالي. وبعد أربع وثلاثين سنة قضاها البطريرك إسطفانس الدويهي جاداً ساعياً دون أن ينوق طعم الراحة، توفي سنة ١٧٠٤، وقد أصبح ضريحه مزاراً لمؤمنين كثيرين ذكروا أنهم نالوا بشفاعته منحاً ونعماً غزيرة^١، ونسبت إليه مكرّمات عديدة في حياته وبعد مماته. وهناك اليوم دعوى بطلب إعلان طوباويته قدّم ملفه إلى روما، وبدأ العدّ العكسي لهذا الإعلان. كرّمه أبناء بلدته إهدن بإقامة نصب تذكاري عملاق لشخصه المبارك في وسط المدينة^٢.

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٦٠ - ٦٢؛ راجع: فهد، بطارقة، مرجع سابق، بطارقة القرن السابع عشر، ص ١٥٩ - ٢٢٨؛ الكفرنيسي القس بولس مبارك الخوري، تاريخ عائلة الخوري تادي (بيروت، ١٩٥٧) ص ٣٨٨.

٢ - أنجبت أسرة الدويهي في إهدن العديد من الكهنة والأساقفة، منهم بحسب الأقدمية: المطران إبراهيم الدويهي الإهدني: أسقف ١٤٨٨ - ١؟؛ المطران قرياقوس الدويهي الإهدني: مطران إهدن ١٥١٣ - ١٥٥٠؛ المطران جبرائيل الدويهي الأول: أسقف ١٥١٩ - ١٥٥٦؛ المطران سركيس الدويهي الإهدني: أسقف ١٥٦٥ - ١٥٧٧؛ المطران إلياس بن يوحنا صرصر الدويهي: أسقف ١٦٣٨؛ المطران بولس الدويهي: أسقف ١٦٥٩ - ١٦٦٠؛ المطران بطرس الدويهي الهنقي (١٦٣١ - ١٦٨٣)؛ سامه البطريرك الدويهي أسقفاً مساعداً له في مصالح الكرسي؛ المطران جبرائيل الدويهي الثاني: أسقف ١٦٩٣ - ١٧٣٩؛ المطران إسطفان الدويهي الأول: أسقف ١٧٢٨ - ١٧٦٢؛ المطران إسطفان الدويهي الثاني (ت ١٨٤٤)؛ تلميذ مدرسة الموارنة في روما، مطران عرقا ووكيل بطريركي ١٨١٠، تنازل عن الوكالة وتسلّم رعاية أبرشية إهدن ١٨١٣ حتّى وفاته؛ الخوراسقف إسطفان الدويهي (١٨٨٢ - ١٩٥٩)؛ الخوري سمعان الدويهي (١٩٢١ - ١٩٨٨)؛ كاهن وسامسي، نائب في ثلاث دورات، عضو كتلة نواب حزب الوطنيين الأحرار؛ المطران إسطفان هكتور الدويهي: لاهوتي ومربّ وأستاذ جامعي ونشط اجتماعي معاصر، خوراسقف ١٩٨٣، رقي إلى الدرجة الأسقفية ١٩٩٧، حمل اللحد من الأوسمة؛ الأب روفائيل الشبيخا الدويهي: رئيس عام للأباء الكرمليين في المكسيك.

بَطَرِيْرْكَةُ

الْقَرْنُ الثَّامِنُ عَشَرَ

خلف الدويهي بطريرك لم يعيش سوى سنة واحدة: ١٧٠٤. هذا البطريرك هو جبرائيل البلوزائي، الذي انتُخب في دير ما شليطا مقبس في كسروان. وللدلالة على مكانة البطريرك الماروني في بداية القرن الثامن عشر، تفيد المراجع أنه لما تقرر موعد انتقاله إلى كرسيه في قنوبين، أعد له استقبال حافل على مستوى وطني، إذ أرسل الشيخ "عيسى حمادة" الشيعي، متولي مقاطعة الجبة آنذاك، أحد أنجاله على رأس أربعين خيالاً لمواكبته. وأرسل باشا طرابلس الفرقة الموسيقية الرسمية مع عدد من الموظفين ليشتبكوا في استقبال البطريرك مع المشايخ والأعيان وجمهور الشعب.

غير أن مكانة هذه البطريركية قد تزعزعت في بداية القرن الثامن عشر، إثر انتخاب يعقوب عوَّاد بطريركاً سنة ١٧٠٥ وتبنيته من قبل روما سنة ١٧٠٦. فقد حصلت ضجة داخل الكنيسة إثر رواج إشاعات حول سلوكه، اعتقد صحتها المطران جرجس يمين الإهدني، الذي استدعى الأساقفة إلى اجتماع طلبوا بخلاله محاكمة البطريرك الذي لم يتأخر عن الحضور، وقد صدر الحكم بعزله، وأقيم مكانه السيد يوسف مبارك الريفوني. وعندما وصل الخبر إلى روما، سارع البابا كليمانضس الحادي عشر (١٧٠٠ - ١٧٢١) إلى توجيه حارس القبر المقدس إلى جبل لبنان ليحقق في الأمر. وبعد أن نظر المجمع المقدس في تقرير الموفد الباباوي سنة ١٧١١، تأكّدت له براءة البطريرك عوَّاد، فأمر بإرجاعه إلى منصبه وبمعاقبة المطران يمين بفرض الإقامة الجبرية عليه في روما، وبمنعه من الرجوع إلى لبنان. وعاد البطريرك إلى كرسيه بعد أن رضخ جميع خصومه لحكم روما، وبقي يدير شؤون البطريركية بعد

ذلك مدة اثنتين وعشرين سنة انتهت بوفاته سنة ١٧٣٣، ليخلفه البطريك يوسف
ضرغام الخازن^١.

المجمع اللبناني

كان هذا البطريك من أسرة مشايخ إقطاع كسروان، وهو أول بطريك من تلك
الأسرة. في عهده عُقد "المجمع اللبناني"^٢ الشهير سنة ١٧٣٦ في دير سيّدة اللوزية من
أعمال كسروان. وبخلال هذا المجمع، فضّت الخلافات التي كانت قائمة داخل المؤسسة

١ - راجع: داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٦٤ - ٦٧.

٢ - المجمع اللبناني: قرّر نهائياً إتحاد الكنيسة المارونية بالكنيسة الكاثوليكية في روما، وقد جاء إنعقاد المجمع نتيجة حركة بدأت قبل
هذا الموعد بسنة قرون، غايتها ضم الكنيسة المارونية إلى كنيسة روما. كان المجمع أكثر من مجمع كنسيّ مارونيّ إذ ضمّ
علمانيين من مشايخ الأعيان الموارنة وممثّلين عن الكنائس الشرقية الأخرى، واشترك فيه ثلاثة عشر مطراناً. كان لسلس البحث
في المؤتمر رسالة بابوية ترجمها السمعاني إلى العربية. قرّر المجمع بالمجامع للكنيسة السابقة، والإيمان الروحاني على طريقة
السؤال والجواب، وأدخل اسم البابا في خدمة الذبيحة الإلهية، وحصر زواج الخوارنة بالرتب الكهنوتية الدنيا، وحرّم سكّنى الرهبان
والراهبات في دير واحد، وسمح بامتزاج الرهبان والراهبات في الأديار دون العلمانيين. قرارات هذا المجمع يمكن إعتبارها
إعادة صياغة للقرارات التي اتّخذت قبلاً في مجمع عقد من قبل في قنوبين لتنظيم الكنيسة المارونية كما نعهدها اليوم. كما قرّر
المجمع إعادة النظر في القوانين الكنسية التي لها علاقة بالأحوال الشخصية التي كان قد وضع أساساً لها المطران "عبدالله قرّلي"
في مؤلف حول هذا الموضوع، وكان قرّلي قد انتقل من حلب إلى لبنان منتصف القرن ١٧ حيث أسس الرهبانية المارونية قبل أن
يصبح أسقفاً. وحتى تاريخ هذا المجمع لم يكن للكنيسة المارونية في جبل لبنان سوى أبرشية واحدة هي الأبرشية البطريركية يعلون
البطريك فيها مطارينه، موزعاً عليهم بعض المدن والقرى ليقوموا فيها بوظيفة الأسقف الأبرشيّ، فالوجد المجمع الأبرشيات
بحصر المعنى، فقسم البطريركية المارونية إلى ثماني أبرشيات منها لأبرشية البطريرك الخاصة، غير أن ذلك التقسيم ظلّ حبراً
على ورق حتى سنة ١٨١٩. وعندما أراد السمعاني أن يضع بعض القضايا موضع العمل، عاكسه البطريرك يوسف ضرغام
الخازن، ورفع الأمر إلى المجمع المقدس، ففضّ الخلاف البابا بنديكتس الرابع عشر وثبّت المجمع تثبيتاً خاصاً في سنة ١٧٤٤.
وفي نيسان (إبريل) ١٨١٨ عُقد المجمع الثاني في اللوزية تحت إشراف القاصد "غوندلفي"، وكان مدار هذا المجمع ثلاثة مواضع:
لفترق الرهبان عن الراهبات في الأديار التي كانت لا تزال مختلطة، تدبير الكرسي الإطاعي، تعيين كرسي ثابت لكل مطران
ضمن أبرشيته. وقد ثبتت هذه المقررات من قبل البابا ببراءة مؤرخة في ٢٥ أيار (مايو) ١٨١٩؛ راجع كتاب: المجمع اللبناني
(جونيه - لبنان، ١٩٠٠)؛ فهد، بطارقة، مرجع سابق، بطارقة القرن الثامن عشر، ص ١٦٦ وما يليها؛ فهد الأقباطي بطرس، المجمع
للمارونية (جونيه - لبنان، ١٩٧٥)؛ الدبس، الجامع المفصل، مرجع سابق.

الكنيسة المارونية على يد البابا بِنْدِيكْتُس الرابع عشر (١٧٤٠ - ١٧٥٨). وكان أبرز مَنْ وضع مقرّرات ذلك المجمع الشهير، أحد عظماء علماء الموارنة في الشؤون الشرقية، وهو يوسف سمعان السمعاني (١٦٨٧ - ١٧٦٨) الحصريّ الأصل، المولود في طرابلس والمتوفّى في روما، والمعروف بالسمعانيّ الكبير، لتمييزه عن "يوسف لويس السمعاني" * (١٧١٠ - ١٧٨٢)، المولود في حصرون لبنان والمتوفّى هو الآخر في روما، وهو ابن اخت السمعانيّ الكبير الذي ألّف مجموعة نصوص طقسية. ولتمييزه أيضًا عن "إسطفان عوَاد السمعاني" * (١٧١١ - ١٧٨٢)، أمين المكتبة الفاتيكانية. وأيضًا عن "سمعان السمعاني" * (١٧٥٢ - ١٨٢١) الذي وُلِد في حصرون وتوفّى في "بادوا"^١ حيث علّم اللغات الشرقية.

أمّا السمعاني الكبير، فتعلّم في روما، وعمل أحد أمناء المكتبة الفاتيكانية قبل أن يعيّن موفدًا بابويًا للمجمع اللبنانيّ سنة ١٧٣٦. له: "المكتبة الشرقية الكليمانتينية الفاتيكانية" باللاتينية، التي صنّف فيها المخطوطات العربية والسريانية والفارسية والتركية والعبرية والسامرية والأرمنية والحبشية واليونانية والمصرية والأبندلسية والملابارية التي تحويها هذه المكتبة وجغرافية وتاريخ الشرق.

صـرّاع

على البطريركيّة

رغم أنّ المجمع اللبنانيّ قد حلّ جميع الشؤون العالقة داخل الكنيسة المارونية، فإنّ عملية انتخاب بطريرك ليخلف البطريرك يوسف الخازن المتوفّى سنة ١٧٤٢، قد أدت إلى حصول انقسامات. ذلك أنّ المقام البطريركيّ، كان قد أضحى، عند الموارنة،

١ - بادوا PADOVA : مدينة في شمال إيطاليا غربي البندقية، اشتهرت بجامعتها.

٢ - للملابارية: لغة هندية. راجع الكنيسة الملابارية في الجزء الثالث عشر من هذه الموسوعة.

رمز القيادتين الدينيّة والسياسيّة على السواء، ولم يكن هناك، مارونيًا، مركز آخر مماثل أو قريب منه مكانة. فأضحى التنافس على هذا المركز تنافسًا سياسيًا في أحد وجوهه، لعبت فيه العائليّة والإقليميّة دورًا خطيرًا. وإذا لم يكن ذلك التنافس بين المرشّحين على البطريركيّة أنفسهم، فقد كان بين القريبين منهم بصلة الدم أو بصلة الإقليميّة. وكانت بواذر هذا الصراع قد بدأت في عهد البطريرك إسطفانس الدويهي. ويمكن القول إنّ مجتمع الكنيسة المارونيّة كان دومًا، ولا يزال، يتحدّ عندما يتعرّض للخطر الداهم من الخارج، ويتفرّغ للتصارع على القيادة والزعامة عندما يتراءى له، ولو خطأ، أن لا خطر عليه من الخارج. تجدر الإشارة إلى أنّ أعيان الموارنة وأسرهم الاقطاعيّة، كانوا يشتركون في انتخاب البطريرك.

وسط هذه المعطيات، عندما انتخب الأسقف سمعان عوّاد بطريركًا ليخلف البطريرك يوسف ضرغام الخازن، إثر وفاة هذا الأخير ربيع ١٧٤٢، وإذ رفض عوّاد قبول هذا المقام السامي زهّدًا وتعقّفًا، صار انتخاب الأسقف الياس محاسب الغوسطاوي^١ بطريركًا. وكان أحد أبناء الأسرة الخازنيّة الإقطاعيّة المارونيّة: المطران طوييّا الخازن، غائبًا، فلمّا حضر ادّعى أنه لم يبلغ الدعوة إلى مجمع الانتخاب، واعترض على قانونيّةته، واتّفق مع اثنين من المطارنة على رسم أسقفين جديدين انضمّا إلى مريديه، ضامنًا بذلك الأكثرية اللازمة لانتخابه. وهكذا عقد مريدوا الخازنيّ مجمعًا أقاموه فيه بطريركًا. وكانت النتيجة أن أصبح للكنيسة المارونيّة، لأول مرّة في تاريخها، بطريركان. ثم رفع كلّ من المنتخبين أمره إلى روما التي سارعت إلى الحكم ببطلان الانتخابيين معًا، وأقدم البابا بنديكتس الرابع عشر، أيضًا لأول مرّة في تاريخ الكنيسة المارونيّة، وتقاديًا للخلاف والبلبلّة، على تعيين الأسقف سمعان عوّاد بطريركًا،

١ - الغوسطاوي: نسبة إلى بلدة غوسطا من أعمال كسروان في جبل لبنان.

وهو الذي كان قد رفض قبول هذا المقام عند انتخابه. وقد رأت روما في ذلك أنها لم تقدّم على تعيين بطريرك للكنيسة المارونيّة، إنّما هي فرضت على البطريرك المنتخب شرعيّاً القبول بمنصبه^١.

أقام هذا البطريرك في ناحية الشوف، ليبتعد عن مسرح الخلافات في كسروان والشمال، بحجّة رغبته في أن يكون قريباً من مركز الإمارة لتسهيل عليه المراجعات مع أمير لبنان. وقد اختار محلاً لسكنه في إقليم جزّين، قرب صيدا، حيث بنى ديراً للربان اللبنانيين يُعرف بدير "مشموشة"^٢. غير أنّ البطريرك طوبياً الخازن، الذي خلف عوّاد بعد وفاته سنة ١٧٥٦، وهو أحد البطريركيّين المنتخبين اللذين أبطلت روما انتخابهما، قد نقل كرسي البطريركيّة إلى مسقط رأسه عجلتون^٣ وترأس هذا البطريرك السدّة مدّة عشر سنوات، ليخلفه سنة ١٧٦٦ البطريرك يوسف إسطفان^٤.

البطريرك إسطفان

ومشكلة هندية

يبدو واضحاً، من خلال مراجعة سيرة البطريرك يوسف إسطفان، وهو من أسرة غوسطاويّة كسروانيّة مرموقة، أنّ الصراعات السياسيّة كانت لا تزال دارجة على السدّة البطريركيّة، إذ كانت هذه الأخيرة لا تزال تشكّل المركز القياديّ الروحيّ والزمنيّ الأوحد لدى الموارنة.

١ - راجع: داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٦٧ - ٧٣.

٢ - مشموشيّة أو مشموشي: قرية في قضاء جزّين من جنوب لبنان على تملّص مع قضاء الشوف في جبل لبنان، تقع على متوسط ارتفاع ٨٠٠ م. عن سطح البحر، وعلى مسافة ٧٤ كلم عن بيروت عبر صيدا - جزّين.

٣ - عجلتون: مصيف في كسروان من أعمال قضاء كسروان - الفتح في جبل لبنان، على متوسط ارتفاع ٨٥٠ م. عن سطح البحر.

٤ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٥٥ - ٧٢.

كان هذا البطريك صلب العود لا يهادن في الحق ولا يداور ولا يعرف مرونة أو ليناً، ومن أبرز إنجازاته أنه، بناءً على إلحاح الشيخ غندور بن سعد الخوري^٢، قد حوّل دير "عين ورقة"، الذي كان موقوفاً لأسرة البطريك في غوسطا، إلى مدرسة إكليريكية وعامة، فتحت عبرها الكنيسة المارونية تاريخ التربية في لبنان، إذ مثلت عين ورقة، أمّ المعاهد في لبنان، دوراً خطيراً في الحقول الدينية والوطنية والثقافية، فخرّجت للموارنة خمسة بطاركة وثلاثين مطراناً وعدداً كبيراً من الكهنة، إضافة إلى معظم مؤسسي المعاهد اللاحقة. كما تخرّج منها عدد كبير من رجال العلم والسياسة، كالمعلّمين من آل البستاني والشدياق والحدّاح وغيرهم ممّن ذاعت أسماءهم في الشرق^٣.

ويبدو أنّ الطموحين من خصوم هذا البطريك، لم ييأسوا من إيجاد مسألة ليحاربوه من خلالها، فأوجدوا مشكلة بدأت صغيرة ولكنها ما لبثت أن تعاظمت فعُرفت بـ"قضية هندية". وهندية هي راهبة مارونية اسم مولدها حنة عجمي (١٧٢٠ - ١٧٩٨)، قيل إنّ أصل عائلتها من بشري، ولدت في حلب وجاءت إلى لبنان سنة ١٧٥١ وبمعيّتها بادري يسوعي هو الأب "قانتوري"، ونزلت في دير عينطورة

١ - العقيلي تطوان، ثورة وفتنة في لبنان (بيروت، ١٩٣٨).

٢ - للشيخ غندور المسد (١٧٥٧-١٧٩٠): من أعيان الموارنة اللبنانيين في القرن التاسع عشر، ولد في رشميا (قضاء عاليه - لبنان) خلف أباه منبّزاً للأمير يوسف الشهابي، عُيّن قنصلاً لفرنسا في بيروت سنة ١٧٨٧ بناءً على طلب من البطريرك الماروني يوسف إسطفان إلى الملك لويس السادس عشر، لحق بالأمير يوسف إلى عكة حيث قُتل مع الأمير يوسف بأمر الجزائر.

٣ - لمزيد من المعلومات حول معهد عين ورقة راجع: مفرّج طوني، الموسوعة اللبنانية المصورة، منشورات مكتبة البستان (بيروت، ١٩٧١) ٣: ٢٥٧ - ٢٦٢؛ الحوّني، المقاطعة الكسرواقية، مرجع سابق؛ الشبّابي الأب مخلص غبريل، كشف للتقلب عن بقعة بيت شبّاب (العقبة - لبنان، ١٩٦٣)؛ المعلوف عيسى سكندر، دواني القطوف في تاريخ بني المعلوف، المطبعة العثمانية (بغدا - لبنان، ١٩٠٧ - ١٨٠٨)؛ خاطر لحد، آل المسد في تاريخ لبنان، مطبعة الراهبات المارونية اللبنانية (بيروت، ١٩٧٠).

للراهبات. وقد ألحَ عليها البادري اليسوعي بالإنضمام إلى تلك الرهبانية، لكنها أصرت على الرفض لأنها كانت تخطط لتأسيس رهبانية مستقلة باسم راهبات قلب يسوع، ولم تشأ أن تلتحق بأية رهبانية أجنبية. وإذ رأى منها البادري اليسوعي ذلك الإصرار، أرسلها مع إحدى النساء إلى "دير حراش" للراهبات المارونيات في كسروان. وفي ذلك الدير، لاقت الراهبة هندية من المصاعب ما استطاعت أن تتغلب عليها، إلى أن تعرفت إلى المطران "جرمانوس صقر" واتخذته مرشدًا لها وأطلعتة على غايتها، فساعدتها الأسقف الماروني على تحقيق أمنيتها، إذ أقدم على شراء دير سيّدة بركي^١ ووضعه بتصرفها، فاتخذته مركزًا أساسيًا لرهبانيّتها^٢. ويذكر الحتوني في "المقاطعة الكسروانية" أنه كان لهنديّة شقيق مترهب في الرهبانية اليسوعية، قد عارض مشروعها بشدّة، إلا أنه تركها في النهاية وشأنها.

ما أن تسلمت الراهبة هندية دير سيّدة بركي حتّى بدأت في إنشاء مبنى جديد "على أسلم بناء وأجمل أسلوب، ثمّ جمعت إليه الشابات واعتنت بتقفيهن وإخالهن في رهبانيّتها، ولم يلبث مشروعها أن ازدهر ازدهارًا عجيبًا بتوافر عدد المنتميات والمنتمين إليه، وصار لها ذكر قداسة فائقة في كلّ مكان". وأخذت النذور تتدفّق على دير سيّدة بركي، حتّى أضحي من "أغنى الأديرة وأبعدها شهرة"، كما أضحي مركزًا ممتازًا للنقل والترجمة والتأليف. وقد اعتبر بحاثون ذلك المركز "امتدادًا لحركة النقل التي شهدتها حلب في القرن الثامن عشر. وأهمّ ما نُقل في ديرها إلى الفكر العربي:

١ - دير سيّدة بركي: في كسروان من أعمال جبل لبنان، اشتراه المطران جرمانوس صقر من الرهبانية الأنطونية بعد أن وقّعه لها مفرّج الحلاي الزوقي، وهو الدير الذي سيصبح المقرّ الشتويّ للبطريرك الماروني كما سيأتي لاحقًا؛ راجع: صغير الأب د. بولس، بركي في محطّاتها التاريخية ١٧٠٣ - ١٩٩٠.

٢ - خاطر لحد، آل المسد في تاريخ لبنان، مرجع سابق.

التصوّف، اللاهوت، القانون، الكتاب المقدّس والفلسفة، وقد تطعّم هذا التراث في بركي بروح شرقيّة لبنانيّة".

وما لبثت هندیّة أن ضمت إلى ديرها ثلاثة أديرة أخرى في كسروان هي: دير سيّدة البزاز في جونية، ودير مار جرجس ساحل علما، ودير ماريوسف الحصن. وعندما برزت أعمال هندیّة الناشطة واحتلّت تلك المرتبة الرفيعة ونالت شهرتها الواسعة "ظهر لها أعداء أقوياء على رأسهم بعض المرسلين الأجانب، فتصدّى للوقوف في وجههم الإكليروس المارونيّ، وكان على رأس مَن دعموا تلك الراهبة، البطريك سمعان عوّاد، وهو البطريك الأسبق قبل البطريك يوسف إسطفان. وقد رفع الخصوم الشكاوى ضد هندیّة إلى روما التي وجّهت سنة ١٧٥٣ أحد مبعوثيها ليحقّق في أمر الراهبة، فكان تقريره مبرّراً لها من أيّ اتّهام.

في عهد بطريكيّة طويلاً الخازن، الذي استمرّ عشر سنوات، نامت مسألة هندیّة، كون البطريك الخازنيّ قد أحسن علاقة الكرسيّ البطريكيّ مع جميع الأطراف، فلم تحرك ضدّ الأمّ هندیّة أيّ مسألة. وبوصول يوسف اسطفان إلى السدة البطريكيّة، واختلافه مع فريق من الأساقفة جرّاء قيامه بالإصلاحات في أبرشيّاتهم، ألف هؤلاء حزباً ضده ضمّ فريقاً من الأعيان، وانضمّ جميع هؤلاء إلى خصوم هندیّة السابقين، وراحوا يناصرون البطريك العداء، ما دفعه إلى انزال التّأديبات الكنسيّة بهم دون هوادة. فاحتدم النزاع حتّى أجمع خصوم البطريك على تنظيم عرائض ورفعها إلى الكرسيّ الرسوليّ وإلى الأمير "يوسف شهاب"، مضمّنين محتواها شتّى الاتّهامات

١ - الأمير يوسف شهاب (ت ١٧٩٠): أمير لبنانيّ ين الأمير ملحم، من آل الشهاب القرشيين الذين حكموا حوران إلى عهد نور الدين في القرن ١٣، انتقلوا إلى وادي التيم في لبنان حيث حكموا لبنان بعد الأمراء للمختين، حكم يوسف بلاد جبيل ١٧٦٣ - ١٧٧١، نودي به أميراً للجبل اللبناني في مؤتمر الباروك ١٧٧٠ بعد تنازل عمّه الأمير منصور، قرّر الأمن في بلاد جبيل وللشمال، قاوم ضاهر العمر ثمّ حلفه على الجزر واستجد على هذا بالأسطول الروسي لاسترجاع بيروت ١٧٧٣، قتلته الجزر في عكا.

ضدّ البطريرك وهنديّة. فما كان من روما إلّا أن أرسلت قاصداً جديداً إلى لبنان أواخر سنة ١٧٧٨ لإعادة النظر في موضوع الراهبة هنديّة. فكانت توصية القاصد الرسوليّ، هذه المرّة، نقضي بحلّ رهبنة هنديّة للشكّ في صحّة إيمانها بموضوع اللاهوت والناسوت، وصدر الأمر الفاتيكانيّ بنفي تلك الراهبة التي ماتت في العذاب والشقاء. وكان قد شارك في مخاصمة البطريرك الأمير يوسف شهاب الذي كان يطمع بثروة الدير^١، إلّا أنّ البطريرك إسطفان قد أكمل ولايته حتّى توفاه الله في نيسان (إبريل) ١٧٩٣ فخلفه البطريرك مخايل فاضل الذي لم يعيش سوى سنة ونيّف. جاء بعده البطريرك فيليبّس الجميل الذي عاش عشرة أشهر فقط.

١ - لمزيد من المعلومات حول الراهبة هنديّة راجع: مفرّج، الموسوعة اللبنانيّة المصوّرة، مرجع سابق، ٣: ٤٤ - ٤٦؛ الحتوني، المقاطعة الكسروانيّة، مرجع سابق؛ خاطر، آل السعد في تاريخ لبنان، مرجع سابق؛ فهد، بطارقة الموارنة، بطارقة القرن الثامن عشر، ص ٢٨٩ وما يليها.

تبدلاتٌ سياسيّةٌ بداية القرن التاسع عشر

تبدلاتٌ سياسيّةٌ؛ تداعياتُ الصراعِ بينَ البطريركِ والأميرِ؛

في عهدِ القائمتين؛ البطريركِ مسعدٍ وأحداثِ ١٨٦٠؛

الموارنة وعهدِ المتصرّقة؛

تَبَدُّلاتُ سِيَاسِيَّةٍ

بوفاة آخر أمير معنيّ سنة ١٦٩٧، وهو الأمير "أحمد"، انتقل حكم الإمارة من إلى الأمراء الشهابيين الذين تسنّموا كرسيّ الإمارة إثر اجتماع قوميّ عقده وجهاء لبنان سنة ١٦٩٧ في مرج "السّمقانيّة" بالقرب من "بعقلين" في منطقة الشوف، حيث أجمعوا على انتخاب الأمير "بشير الشهابيّ الأوّل"، من "راشيا الوادي" من أعمال وادي التّيم* أميراً للبنان. وكان هذا الأمير ابناً لأخت الأمير أحمد، آخر الأمراء المعنيّين. ولمّا أرسل قرار اجتماع السّمقانيّة إلى اسطنبول، أصّر الباب العالي على أن "حيدر الشهابيّ" من حاصبيّا* في وادي التّيم، ابن بنت الأمير "أحمد المعنيّ"، آخر المعنيّين، هو أحقّ بالولاية من بشير الشهابيّ ابن أخت أحمد. وإذ كان حيدر ابن اثنتي عشرة سنة، وافق الباب العالي على أن يتولّى بشير الحكم بالنيابة عن حيدر إلى أن يبلغ هذا الأخير أشدّه. واحتفظ الأمير بشير الأوّل بولايته حتّى ١٧٠٧ لمّا توفّي مسموماً. وقد اتّهم من كانوا يتولّون أمر وصيّة بدسّ السمّ له^١.

حكم حيدر حتّى سنة ١٧٣٢، وقضى على الحزب اليميني المناوئ في معركة عين دارة سنة ١٧١٢، وأعاد التقسيم الإقطاعيّ لصالح القيسيين^٢. وكان مشايخ الإقطاع المارونيّ من الحزب الأخير، بحيث أن التوافق الذي نشأ بين الإمارة والبطريركيّة في

١ - راجع: مفرّج، لبنان الأصيل، مرجع سابق.

٢ - حول الحزبين القيسي واليميني راجع: مفرّج، لبنان الأصيل، مرجع سابق، حيث المعلومات الوافية.

عهد المعنيتين، قد استمرّ مبدئيًا في بداية عهد الشهابيين. وسوف يستمرّ الشهابيون في الحكم قرابة قرن ونصف (١٦٩٧ - ١٨٤١)، وقد عمل الشهابيون خلال هذه المدة من أجل المحافظة على نوع من التوازن السياسي بين الموارنة والدروز، بتحريض حزب على حزب، أو إثارة شيخ ضد شيخ آخر^١. فبعد أن استتبّ الأمر للأمير حيدر، إثر معركة عين دارة، وانتزع معظم مناطق اليمنيين من زعمائها ووزّعها على أنصاره من القيسيين، اعترف، في الوقت ذاته، بمشيخة آل الخازن في كسروان، ومشيخة آل حبيش في قاطع غزير، فوضع هاتين الأسرتين على قدم المساواة مع المشيخات الدرزية في الجرد والغرب والشوف. وهكذا أصبحت الإمارة الشهابية شراكة إقطاعية بين المشايخ الدروز والموارنة على حدّ سواء، يترأسها الأمير الشهابي السنيّ كوالٍ للبلاد^٢. فارتاح الموارنة إلى هذا التنظيم الجديد الذي ساوى بينهم وبين الدروز في المكانة. وشكّل هذا التنظيم منعطفًا تاريخيًا في حياة الموارنة إذ لم يسبق، حتّى في عهد المعنيتين، أن تساوى رجال الإقطاع الدروز برجال الإقطاع الموارنة. فدعم الفلاحون والتجار منهم الإمارة الشهابية، إذ وجدوا فيها ضمانًا لهم ضدّ سطوة الغزاة. ولم يختلف آل الخازن وآل حبيش في دعمهم للإمارة عن سائر الموارنة^٣.

كان قد خلف ثاني الأمراء الشهابيين الأمير حيدر: الأمير موسى شهاب (أمير ١٧٠٦ - ١٧٣٢) الذي خلفه ولده الأمير ملحم شهاب (أمير ١٧٣٢ - ١٧٥٣). وقد تمكّن هذا الأخير من إسقاط ثلثي الضرائب التي كان يتقاضاها السلطان من لبنان. وأقرّ سيادته على البقاع واتخذ بيروت مرفأً لإمارته. وفي سنة ١٧٥٤ تنازل الأمير

١ - حنّ، لبنان في التاريخ، ص ٤٧١ - ٤٧٢.

٢ - صغير الأب د. بولس، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١٧ - ٣١٨.

ملحم عن الإمارة وانقطع إلى حياة تدين وزهد وأقام في بيروت. علماً بأن الشهابيين لم يكونوا يوماً دروزاً بل كانوا من المسلمين السنة. وقد عكف الأمير ملحم، بعد ترهده، على درس الفقه، ومعاشرة علماء الإسلام. أما ولده، فقد اعتنق المسيحية على الطقس الماروني، ثم تبعهما أقاربهما، بالمصاهرة، من الأمراء الدروز للمعنيين^١. وأما أخواه: الأمير منصور، الذي كان يميل إلى الحزب الجنبلاطي، والأمير أحمد الذي كان يميل إلى الحزب اليزبكي^٢، فقد اختصما وتحاربا في سبيل الحصول على الإمارة.

في خضم الصراع على السلطة، وبعد الحروب الحزبية القيسية اليمنية، استمرت الاضطرابات الأهلية في الجبل اللبناني إلى أن نودي بالأمير يوسف شهاب، ابن الأمير ملحم، أميراً على لبنان في مؤتمر الباروك سنة ١٧٧٠ بعد تنازل عمه الأمير منصور. وقد أقر يوسف الأمن في جرود جبيل والشمال بعد أن شهدت هذه المناطق نزاعات بين الموارنة والشيعة. وكان الوصي على الأمير يوسف مارونياً من "رشمياً"^٣ اسمه سعد الخوري^٤. هو والد غندور سعد الخوري الذي كان البطريرك يوسف إسطفان عمل على تعيينه من قبل فرنسا قنصلاً لها في لبنان^٥. ويعتبر باحثون الأمير يوسف

١ - ذكر باحثون أنه إضافة إلى الأسباب الدينية التي أدت إلى اعتناق الأسرة الحاكمة الدين المسيحي، هناك أسباب أخرى منها: النزاع اليزبكي - الجنبلاطي الذي جعل من الدروز أقلية في مناطقهم، ولزيادة قوة الموارنة في شتى الميادين، وتوسّعهم الشامل، وارتباطهم بصناعة الحرير التي أحييت الصلات التجارية بين أوروبا والشرق وعزّزت ثقتهم الاقتصادي في البلاد، فتأثر الأمراء باختلال هذا التوازن بين الملل، وأقضى لزيادة النفوذ الماروني إلى اعتناقهم دين هذه الكنيسة. راجع: الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، مرجع سابق، ص ٤٠ - ٤١؛ ويرى باحثون كنسيتيون موارنة أنه مهما تكن الأسباب السياسية التي أدت إلى تنصّر الحكّام الشهابيين، إلا أن حكمة الاكليس الماروني وتقواه ومثله الصالح والمهر الدائب على خلاص النفوس قد ساعدت كثيراً ورافقت عن قرب طريقة اعتناق الأسرة الحاكمة للديانة المسيحية. - صفيّر، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١٩.

٢ - حول الحزبين الجنبلاطي واليزبكي راجع: مفرّج، لبنان الأصل، مرجع سابق، حيث المطومات الوافية.

٣ - رشمياً: بلدة في قضاء عاليه من جبل لبنان، أنجبت سياستين وقادة كباراً في التاريخين الحديث والمعاصر.

٤ - راجع: حيدر شهاب، الغرر الحسان، ص ٧٨٣.

٥ - بشأن السيرة الكاملة لسعد الخوري وغندور سعد راجع: مفرّج، صانعو التاريخ اللبناني، في الموسوعة اللبنانية، مرجع سابق.

شهاب (١٧٧٠ - ١٧٨٨) أول أمير مسيحيّ يَتَمَتَّعُ بالسلطة التّامة من السلطنة العثمانية^١. ومع نهاية القرن الثامن عشر انتقلت الإمارة الشهابيّة إلى الأمير بشير الثاني الكبير، بعد أن أمر والي عكّة، أحمد باشا الجزّار^٢ سنة ١٧٨٨ وجهاء لبنان بأن ينتخبوا بشير، وهو أحد أقارب يوسف الذي قتله الجزّار في سجن عكّة، وكان بشير في الحادية والعشرين من عمره. ولن يطول الزمن حتّى يدرك الجزّار "أنّ الأمير بشير لم يكن بالحاكم الذي يتلقّى التعليمات، ويدرك المشايخ والمقاطعيّة والوجهاء أنّ سلطتهم ستزول عندما يتسلّم أميرهم الجديد سلطاته كحاكم على لبنان"^٣.

تَدَايِيَاتُ الصَّرَاعِ

بَيْنَ الْبَطْرِيَرِكِ وَالْأَمِيرِ

تجدر الإشارة هنا إلى أنّه إذا كان بطاركة الكنيسة المارونيّة جهة من الجهات التي كانت تفرض، بشكل أو بآخر، بعض المواقف على الأمير، فإنّ استلام بشير الثاني الحكم لن يكون للبطريركيّة المارونيّة من سلطة، بعد بداية القرن التاسع عشر، كما كان لها من قبل.

١ - CHURCHIL CHARLES, *THE DRUZES AND THE MARONITES UNDER THE TURKISH RULE* (LONDON, 1862) - ١

P.109.

٢ - أحمد باشا الجزّار (١٧٢٠ - ١٨٠٤): ولد في البوسنة مسيحيّاً، في السادسة عشرة من عمره اعتدى على امرأة أخيه وهرب إلى اسطنبول وبيع نفسه إلى تاجر رقيق يهودي، استقرّ مبيعاً كعبد إلى علي بك في القاهرة الذي لقّاه جلاًداً. بعد أن اعتقه سيده انتقل إلى دمشق حيث التحق بالجيش السوري. جزاءً لخدمته في الجيش أعطي ولاية صيدا. سرعان ما استولى على بيروت ثم جرد لبنان من أقسامه الدلخية فأحكم قبضته على الجبل. لقّب بالجزّار بعد المجزرة التي أوّلها بالبنو في مصر فذهب ضحيّتها نحو سبعين ألفاً منهم. حصّن عكّة وقلوم فيها حصار بونابرت بمساعدة الاسطول الإنكليزي ١٧٩٩.

٣ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٠٠.

صادفت نهاية القرن الثامن عشر عملية زحف القائد الفرنسي نابوليون بوناپرت على المنطقة أوائل سنة ١٧٩٩. وقد وجه نابوليون إلى الأمير بشير منشوراً شهيراً قال فيه:

افتتحت مصر وقطعت التيه ودخلت سورية وهزمت جيش الجزائر وحصرته في عكة فأطلب أن توافوني لنسحق العدو المشترك...

ولما كان الأمير مدركاً قوة عكة الدفاعية التزم الحيداء، ناوياً، بحسب أكثر الباحثين، الانضمام إلى الجيش الفرنسي إذا ما سقطت قلعتها.

في هذا الوقت كان قد انتخب الأسقف يوسف التيان بطريكاً للكرسي الأنطاكي الماروني سنة ١٧٩٦. فأوعز إلى أبناء زعماء رعيته بأن يقودوا المتطوعين إلى ساحات القتال ضدّ العثمانيين. وأمر بإرسال المؤن والذخائر إلى الجيش الفرنسي مع وفد أعيان البلاد. ولكن حملة نابوليون قد فشلت أمام هجوم الجزائر في ربيع ١٧٩٩. وبذلك قوي مركز الأمير وضعف موقع البطريرك.

هنا بدأ الصراع واضحاً بين الأمير الطامح إلى الاستفراد بالحكم، والبطريرك الماروني الذي أراد أن يحافظ على موقع كرسيه ونفوذه. وإثر خلافات مبدئية، أقدم الأمير على رفع قيمة الضرائب ستة أضعاف، فعارضه البطريرك دون جدوى إلى أن هدده بالحرم إن لم يتراجع عن قراره. فما كان من الأمير إلا أن استدعى القاصد الرسولي إلى قصره في بيت الدين، ونقل إليه أنه من المستحيل عليه التفاهم مع هذا البطريرك، وأنه لم يعد بإمكانه الصبر. فنقل السفير تهديد الأمير إلى البطريرك في دير مار شليطا مقبس في كسروان. وكان ردّ البطريرك أنه بذل كلّ ما بوسعه لأجل الاتفاق مع هذا الأمير الذي أناء الشعب تحت وطأة الضرائب والفتن، فكانت نتائج سياسته حروباً ومداهمات، نخصّ منها بالذكر الثورتين المعروفتين بـ "عامية إنطلياس"

الأولى و"عامية لحفد" اللتين ذهب ضحيتّهما أبرياء^١. وتدخل الأمير في الشؤون الروحية، فأحدث تشويشًا في إدارة الكنيسة.

أنهى البطريرك كلامه إلى القاصد الرسوليّ بتسليمه نصّ استقالة كان قد أعدّها لتنتقل إلى الحبر الأعظم. وقد أصرّ هذا البطريرك على استقالته رغم مبادرة الأساقفة الموارنة إلى مطالبة الأب الأقدس بعدم قبولها. وعندما أدركت روما أنّ البطريرك التّيان قد أراد من خلال تنحيه عن الكرسيّ البطريركيّ خير البلاد^٢، ورد جواب من المجمع المقدّس يثني على فضيلة هذا البطريرك وتواضعه وتنازله، وسرعان ما دعا القاصد الرسوليّ الأساقفة إلى انتخاب بطريرك في دير مار يوسف عينطورة كسروان فانتخبوا المطران يوحنا الحلّو في ٨ حزيران (يونيو) ١٨٠٩ بطريركًا.

سجّلت الإمارة عبر هذا الحدث انتصارًا على البطريركية. ونجد البطريرك الذي خلف البطريرك المستقيل، ينصرف إلى إعادة ترميم دير قنّوبين البعيد عن مركز الإمارة. وفي عهده عُقد "المجمع اللبنانيّ الثاني" في دير سيّدة اللويزة في نيسان (أبريل) ١٨١٨ تحت إشراف القاصد الرسوليّ، وقد قرّر هذا المجمع فصل الرهبان عن الراهبات في الأديار المختلطة، وتعيين كرسيّ ثابت لكلّ مطران ضمن أبرشيّته.

١ - من شهداء هاتين العاميتين المطران يوسف إسطفان الثاني. فعندما هذ البطريرك الأمير بشير الثاني بالحرم لدى رفعه الميرة من قرش إلى ستّة قروش، وقف المطران إلى جانب الشعب الماروني الكادح في عاميّتي لحفد وإطيليس، وقد منّ الأمير بشير السّم القتال للمطران في فنجان القهوة عندما كان يقوم الأخير بزيارة للأمير في بيت الدين سنة ١٨٢٢، فمات على أثر ذلك وفن في دير مار روحنا البقيّة - كسروان.

٢ - يرى باحثون كنسيون موارنة أنّه بالرغم من تصرّ الحكّام الشهابيين، أخذت الكنيسة المارونية بشخص بطاركتها وأساقفتها موقفًا حكميًا عادلاً وشجاعًا من هؤلاء الحكّام، فكانت تساعدهم في المملّات وتشدّ لزرهم لإحقاق الحق وإحلال العدل، وتقف بوجههم عندما كانوا يعمّرون مصالح المواطنين للخطر، ويرهقون كاهل الشعب الكادح بفرض الضرائب الباهظة واستنزاف أمواله بمضاغفة الميرة المفروضة عليه. ومثل هذا الموقف الحازم من هؤلاء الأمراء كلّ البطريرك يوسف التّيان (١٧٩٦ - ١٨٠٨) تقديم استقالته من أعباء البطريركية إلى الكرسي الرسولي، بينما كثيرون يعتقدون أنّ استقالة البطريرك التّيان كانت حبًا للزهد ولتتمسك، أمّا في الواقع فكانت احتجاجًا على سياسة الأمور بشير الثاني الكبير الظالمة. راجع: صفيّر، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣١٩.

فانتقل بذلك اهتمام الكنيسة المارونية إلى الشأن الراعوي، وبقي البطريرك ينظر في الأحوال الشخصية لأبناء كنيسته. إلا أن البطريرك الذي خلف الحلو بعد وفاته سنة ١٨٢٣، وهو البطريرك يوسف حبيش، قد حاول استعادة مكانة البطريركية المارونية، فانتهاز مناسبة تحالف الأمير بشير مع المصريين ضد العثمانيين، وغضب الأساتنة عليه، ونقمة اللبنانيين على الحكم المصري الذي جاء إلى لبنان نتيجة تحالفه مع الأمير بشير، ودعا إلى اجتماع صار عقده في إنطلياس بحضور عدد من الإكليروس والمشايع والأعيان من دروز ونصارى ومسلمين، يتقدمهم الأمير حيدر اللمعي، صديق البطريرك. وفي هذا الاجتماع الذي عُرف بعلمية إنطلياس الثانية، تعاهد الدروز والنصارى والمسلمون على طرد المصريين وإسقاط الأمير بشير. وقد انتهت ثورتهم بتحقيق أهدافهم. ونفي الأمير بشير إلى مالطة في ١٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٤٠. وكانت ردة فعل الباب العالي على موقف البطريرك "تقديراً"، فأهدى السلطان العثماني البطريرك حبيش الوسام العثماني المرصع. واستجاب السلطان لطلب البطريرك تعيين "الياس الحلبي" وكيلاً عنه في الأساتنة، ليكون همزة الوصل مع الباب العالي مباشرة دون المرور بوزارة الخارجية. ثم طلب تخفيض الضرائب عن لبنان فأسقطت إلى ربع ما كان يُدفع في أيام المصريين. غير أن ما حققه البطريرك حبيش من تعزيز لكرسيه، لن يذهب من دون ثمن غال. فقد عينت الدولة العثمانية الأمير بشير قاسم ملحم عساف الشهابي المعروف ببشير أبو طحين خلفاً لبشير الثاني. ولا يدري أحد ما الذي حصل بعد هذا التعيين، لينقض دروز الشوف على موارد دير القمر وجزين وباقي القرى المارونية بمساعدة المتسلم التركي. ثم هاجم المدينة المسيحية البقاعية: زحلة، ستة آلاف مقاتل درزي سلّحهم والي الشام، ولكن القوى المارونية التي جمعها البطريرك قد تمكنت، مع الزحليين، من صد الهجوم وإيقاف المذبحة عند حد.

إنّ ما جرى في جبل لبنان قبل نهاية النصف الأول من القرن التاسع عشر بتدبير تركي، ونتيجة حالات سلطوية داخلية، لم يكن سوى محاولة فاشلة شبيهة بعملية إقناء المسيحيين وتهجيرهم التي ستجري لاحقاً، بعد حوالي أربعين سنة، في مناطق عراقية وتركية. ومثلما استعمل العثمانيون الدروز هنا، استعملوا الأكراد هناك. ولكن البطريك الماروني سارع إلى الصراخ، فاحتج لدى الباب العالي كما احتج لدى الدول الغربية. وإذ رأى الباب العالي الفرصة مناسبة لضمّ لبنان إلى الولايات العثمانية، أوفد إلى بيروت "مصطفى باشا نوري" الذي جمع أعيان البلاد وطلب إليهم أن يوقعوا على عريضة يلتزمون فيها من الباب العالي تعيين حاكم عثماني على لبنان، سرعان ما أوعز البطريك إلى أمراء الموارنة ومشايخهم بالامتناع عن توقيعها، فامتنعوا. على أنّ استنبول لم تبال بهذه الممانعة، وعيّنت سنة ١٨٤٢ "عمر باشا النمساوي" حاكماً على لبنان. وقد كان هذا مسيحياً فأسلم وتسلم فرقة من الجيش العثماني لمحاربة المصريين. وفي محاولة استرضاء البطريك، عيّن الحاكم العثماني، "أبو سمرا غانم" ^١ قائداً للجيش، و"يوسف الشنتيري" ^٢ مساعداً له، والشيخ "فرنسيس

١ - أبو سمرا غانم (نحو ١٨٠٢-١٨٩٥): بطل لبناني ماروني، ولد في بكاسين من أعمال قضاء جزين في لبنان الجنوبي وتوفي فيها، انخرط في خدمة الأمير بشير الثاني ١٨٢٥، اشترك في الثورة على إبراهيم باشا ١٨٤٠، وثورة جبل الأكراد ١٨٤٧، قد جزءاً من المقاومة الزحلبية سنة ١٨٤٠، عُيّن شيخاً على شمال لبنان ثم تقلّب في المناصب الإدارية والعسكرية.

٢ - يوسف آغا الشنتيري (١٨٠٨ - ١٨٧٨): بطل لبناني ماروني، في عمر السابعة عشرة هاجم المختارة باسم بشير الكبير وصارع بسيفه زعيم مقاتليها "علي هلال" واحتلّ سرايا كبير الجبلانيين، كان في مقدمة الثائرين على إبراهيم باشا المصري ١٨٤٠ وإلى جانبه البطل الآخر أبو سمرا غانم - راجع أعلاه - فلتصراً، نفي إلى منار مع الأمير حيدر أبي المص، خاض الحروب في حركات منتصف للقرن التاسع عشر، أخذه عمر باشا النمساوي قائداً في جيشه على الجنود المسيحيين، قهر بني العريان في الممقانية، نفذ للدولة بشخص الأمير حيدر أبي المص مهام حفظ الأمن وجمع الضرائب فقهر العصاة في الكورة وأسر عشرين زعيماً في بزيزا من شمال لبنان، عاون الفرنسيين ١٨٦٠، دخل سلك الحكومة إلى أن مات فيه فحزن واعتزل الخدمة وانصرف لتدبير مملأكته حتى مماته إثر مرض عضال.

الخازن^١ حاكماً على كسروان. وكان هؤلاء الثلاثة من المواردنة الأشداء الذين يناصرون البطريرك. وضيق الحاكم العثماني على الدروز الذين نقموا عليه وحاولوا الاتفاق مع المواردنة فلم يرضَ البطريرك بذلك. ولعل ذلك كان من جملة أسباب حركة ١٨٦٠ المشؤومة^٢.

لم يمض وقتٌ طويلٌ حتَّى أحدث العثمانيون فتنة بين المشايخ الدحادحة المواردنة وأندادهم المشايخ الحبيشيين الذين قُتل ثلاثة منهم. وكالعادة تحجَّج الوالي العثماني بهذه الفتنة ليرسل فرقتين عسكريتين إلى القرى المارونية في شمال لبنان حيث أحرقت الكنائس وعيَّثت بالقرى. وبدأت ملامح ثورة مارونية عارمة اضطر على أثرها الوالي التركي إلى زيارة البطريرك، حيث أكثر له من الوعود ليقبل به حاكماً على لبنان. فأجابه:

أنت من الأشخاص الأكفاء لتولِّي الحكم، إنَّما عيبك الوحيد هو أنَّك أجنبي ونحن لا نقبل أجنبياً^٣.

إثر هذا الاجتماع الذي لم يحقق منه مصطفى باشا أهدافه، إذ لم يتمكَّن من إقناع البطريرك بقبول حاكم عثماني، لجأ إلى تزوير أختام بعض الأعيان وإلى اغتصاب توابع قسم من المسيحيين في الجنوب، ونظَّم عريضة تطالب بعمر باشا حاكماً على لبنان. غير أنَّ البطريرك أوفد إلى اسطنبول مبعوثاً من قبَّله لينقل إلى سفراء الدول مطالبته بإيقاف المحاولة العثمانية للقضاء على الحكم الذاتي في جبل لبنان، ورغبته

١ - الشيخ أبو نادر فرنسيس الخازن: قلند عامية إيطيليس ١٨٤٠، بعد فشل العامية لفر من وجه الأمير بشير إلى قبرص، عاد إلى كسروان محارباً ضدَّ المصريين إلى جانب الجيوش العثمانية والبريطانية، عيَّنه العثمانيون شيخاً على كسروان بعد انهزام المصريين.

٢ - حول ملابسات هذه الوقائع راجع: مفرج، لبنان الأصل، مرجع سابق.

٣ - يوسف داغر، بطارقة للمواردنة، ص ٨٨.

بإعادة الأمير بشير الثاني إلى حكم لبنان لأنه وحده القادر على ضبط أموره. وكان هذا الأمير، قد اقتنع بمشورة البطريرك، بعد أن زال النفور من بينهما، وانتقل إلى اسطنبول مع أسرته ساعيًا لاسترضاء الباب العالي.

في عهد القائمقاميتين

نجح الموفد البطريركي في حمل سفراء الدول على تأييد رغبة البطريرك. وقد جابه الصدر الأعظم هؤلاء السفراء بالعريضة المزعومة التي يطالب فيها اللبنانيون بحاكم عثماني. وإذ أبانوا له أن تلك العريضة مزورة، اعترض السلطان على إعادة الأمير بشير إلى الحكم بحجة أنه خان الدولة وحارب إلى جانب المصريين، وبأن الدروز لا يقبلون حاكمًا نصرانيًا. وقد رأى السفير البريطاني الفرصة ملائمة لعرض اقتراحه بشطر لبنان إلى قائمقاميتين، يتولّى أمير درزي القائمقامية الجنوبية الآهلة بأكثرية درزية، ويحكم الشطر الآخر، حيث الأكثرية المسيحية، أمير ماروني. وسرعان ما أيد سفير النمسا هذا الاقتراح، وجرّ وراءه باقي السفراء ما عدا سفير فرنسا الذي قبله بصورة مؤقتة على سبيل التجربة. ورأى الباب العالي أن من شأن هذا التقسيم أن يزيد شقة الخلاف ويفسح في المجال للقضاء نهائيًا على استقلال لبنان فسرّ به، وعزل مصطفى باشا وعمر باشا فورًا وأرسل يسأل البطريرك الماروني عمّن يريده حاكمًا على القائمقامية المسيحية. وإذ لم يجد البطريرك مناصًا من القبول بهذا الحل، اختار الأمير "حيدر اللعي" لهذا المنصب، وهو يتحتر من أسرة مارونية كانت درزية وتنصرت منذ عهد قريب، تولّى اقطاع جدوده في منطقة المتن من جبل لبنان. وقد بقي هذا الأمير من سنة ١٨٤١ إلى يوم وفاته في ١١ أيار (مايو) ١٨٥٤ يدير شؤون القائمقامية المسيحية، مع رجال أكفاء بينهم كهنة يتولّون القضاء. وكان يحكم مع مجلس مؤلف من اثني عشر عضوًا، وكانت بكفيا من أعمال المتن في جبل

لبنان عاصمة حكمه. وكان حجم القانمقاميّة المسيحيّة، الذي يمكن تسميتها بالإمارة المارونيّة، يشكّل ثلثي لبنان آنذاك. وإذ أدرك الباب العالي أنّ من شأن هذه المساحة أن تزيد في مكانة تلك الإمارة، سلخ عنها مقاطعات جبيل والبترون والكوره والجبّة، وضمّها إلى ولاية طرابلس، وعيّن لها حاكمًا عثمانيًا، وفرض عليها جزية إضافية. فسارع البطريرك من جديد إلى إرسال مندوبه إلى باريس ليقدم لحكومتها تقريرًا يبيّن الإجحاف اللاحق بالموارنة وعموم المسيحيّين اللبنانيين جرّاء هذا التدبير، لأنّ لبنان الشماليّ هو مهد المارونيّة وقلبها ومركز بطريركها.

تلقت الحكومة الفرنسيّة هذا التقرير باهتمام بالغ، وأوعزت إلى سفيرها في الآستانة فاحتجّ على ذلك الاقتطاع الجائر، واقتنع الباب العالي بإرجاع المقاطعات المسلوخة، فبقي موضوع القرى المارونيّة الواقعة في حكم القانمقام الدرزيّ، وقد أطلع البطريرك سفراء الدول على ما في وضع الموارنة تحت رحمة خصومهم من خطر، فألحّو على الباب العالي حتّى رضي بتعيين وكيل مارونيّ في كلّ من تلك القرى، يرجع إليه بنو ملته في جميع مشاكلهم، وهو يتعاطى حلّها مع القانمقام^١. وتوفّي البطريرك يوسف حبيش مع بداية أحداث ١٨٤٥ التي سوف تقضي على نظام القانمقاميّين وعلى كلّ من القانمقاميّين المسيحيّة والدرزيّة، وستمهد لأحداث أكثر منها خطورة، هي أحداث ١٨٦٠ التي ستؤدّي بدورها إلى نشوء المتصرقيّة.

عندما صار انتخاب المطران يوسف الخازن بطريركًا للكنيسة المارونيّة في ١٨ آب (أغسطس) ١٨٤٥ ليخلف البطريرك يوسف حبيش، كانت الغيوم المكفهرّة المتلبّدة في الأفق السياسيّ تتذرّ بشرّ مستطير. فبعد أن أحرق الموارنة أربع عشرة قرية

١ - داغر، بطريركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٨٨ - ٩٠؛ راجع: سجل بركي III ص ٤٧٧ وما يليها؛ الشدياق، تاريخ الأعيان، مرجع سابق، ١: ٩٩ وما يليها.

درزية، زحفوا على المختارة مقرّ "الجنبلاطيين"^١ حيث كان بانتظارهم فيلق تركي أصلاهم ناراً حامية. وفي حادثة "عبيه"^٢ انحاز الأتراك أيضاً إلى جانب الدروز. وامتدّت نار الفتنة إلى "جزين"^٣ و"دير القمر"^٤ وأماكن أخرى^٥. فسارعت اسطنبول إلى إرسال وزير خارجيتها "شكيب أفندي" في صيف تلك السنة ومعه مطلق الصلاحيات، معزّزاً بقوة عسكرية لنزع السلاح من جميع السكّان، مبدئياً. وإذا سارع الوزير إلى البدء في تنفيذ مهمته، لاقى مقاومة مارونية في شمال لبنان حيث نشبت معركة بين المقاومين وعسكر السلطان، تدخل البطريرك الخازن لإيقافها بعد أن مالت كفة الحسم لمصلحة العثمانيين. وراح شكيب أفندي، الذي وضع نظاماً مؤقتاً ساد لبنان إلى سنة ١٨٦١ وعُرف بنظام شكيب أفندي، يسعى للحدّ من سلطة الأمراء والوجهاء، ما سيؤدّي، في النهاية، إلى الانفجار العنيف: حركة ١٨٦٠.

١ - الجنبلاطيون: من أسر لبنان الدرزية السياسية، تنسب إلى جان بولاد الكردي، استقلت بحكم كلس قرب حلب في بداية القرن السابع عشر، هاجرت إلى لبنان ١٦٣٠ بدعوة من فخر الدين ٢ المعني، فأصبح مشايخها من زعماء الإقطاع في لبنان.

٢ - عَبيّه أو أُعَبيّه: بلدة في قضاء عاليه من جبل لبنان، مقرّ أمراء الغرب التتويخين الدروز في القرن ١٤، والأمراء الشهابيين في القرن ١٧، فيها قبر الأمير عبدالله التتويحي المتوفى ١٤٩٧، والتتويحيون أو بنو تتوخ: قبيلة عربية مسيحية الأصل من شعوب مملكة الحيرة في العراق، انتقلت إلى بلاد حلب واعتنقت الإسلام في عهد المهدي العباسي (خليفة ٧٧٥ - ٧٨٥)، استوطنت جماعة منهم جبل لبنان اعتنق أفرادها مذهب التوحيد الدرزي مع ظهور الدعوة، استولوا على بيروت بعد نزوح الصليبيين منها ١٢٩٤، راجع: الدروز، الجزء الحادي والعشرين من هذه الموسوعة.

٣ - جزّين: بلدة في جبل لبنان الجنوبي، مركز قضاء جزّين المتصل بالشوف. بالقرب منها المغارة التي لجأ إليها فخر الدين الثاني، سكّنها مسيحيون جلّهم من الموارنة.

٤ - دير القمر: بلدة في قضاء الشوف من جبل لبنان، عاصمة النعل الماروني فيه، عاصمة الأمراء المعنيين والشهابيين، تحفظ آثاراً من عهد الإمارة: سرايا فخر الدين، ودوراً لبنانية من عهد الأمير بشير ٢، معبد سيدة التلة الماروني الشهير.

٥ - حتّى، لبنان في التاريخ، ص ١٥٢٩ اسكندر أبكاربوس، نولر الزمان في ملاحم جبل لبنان (مخطوط)، CHURCHIL, DRUZES,

OP. CIT., PP. 91-92; CORRESPONDANCE RELATIVE TO THE AFFAIRS OF SYRIA, PT. I, 1834, 1844, 1845,

(LONDON, 1844) PP. 106 SEQ.

أبقى شكيب أفندي لبنان مقسوماً إلى قائمقاميتين، على الرغم من كل ما بُذل من مساعٍ لإعادة الإمارة إلى الشهابيين. وأنشأ مجلساً إدارياً في كلٍّ من القائمقاميتين يمثل المذاهب جميعاً، ونظم القضاء والإدارة والضرائب، وأوجد هيئات إدارية أشرك فيها السكّان على اختلاف طبقاتهم ومللهم، وبقي القائمقامان موظفين يختارهما والي صيدا. وكان كل قائمقام يرأس مجلس الإدارة في قائمقاميته، ويراقب أعماله، دون أن يكون له حق مخالفة رأي المجلس، الذي كان يتخذ قراراته بالأكثرية، إلا أن القائمقام كان مسؤولاً عن تنفيذ القرارات.

بالرغم من أن نظام شكيب أفندي قد أضعف الاستقلال الإداري لجبل لبنان، فقد وافقت الدول الأوروبية عليه، إذ كانت ترغب في إنهاء المشكلة بأي ثمن. كما كان اللبنانيون بحاجة ماسة إلى الراحة والاستقرار، للانصراف إلى أعمالهم المنتجة، بعد أن أنهكتهم القلاقل وأفسدت عليهم حياتهم. بيد أن هذا النظام قد أضعف نفوذ الإقطاعيين في الحقلين: القضائي والإداري، بل وتعدّاهما إلى الحقل المالي، إذ أوجب أن تكون الضرائب عامة ومتناسبة مع الملكية. وقد اتضح أنه كان لذلك النظام ميزة رئيسية هي: إضعاف النظام الإقطاعي بشكل كبير، خاصة وأنه أوجب المساواة أمام القانون في دفع الضرائب، وفتح باب التوظيف وعضوية المجلس الإداري أمام جميع اللبنانيين، دون تفرقة في الطبقات. ويتضح من خلال مراجعة سيرة البطريرك يوسف الخازن أنه، رغم تحذره من أسرة إقطاعية، ورغم أن نظام شكيب أفندي، بإضعافه نفوذ الإقطاعيين قد أضعف نفوذ المقامات الروحية وخاصة البطريرك الماروني، فإن هذا البطريرك قد أصدر جملة مراسيم، وأوجب وضعها موضع التنفيذ، استهدف بعضها امتيازات الإقطاعيين، منها مرسومه الذي شدد فيه على عدم سماع الاعتراضات خارج منبر التوبة. ولما كان من عادات المشايخ استدعاء الكاهن إلى بيوتهم لسماع

اعترافاتهم، تهدّد البطريرك بالحرم كلّ كاهن يسمع اعترافاً في بيت أيّ كان من مشايخ أو غيرهم، إلّا في حالات المرض الشديد. ومن مراسيمه أيضاً تلك التي منعت النساء من الدخول إلى الكنائس كاشفات الرأس ولباس غير لائق. ولا شكّ في أنّه قد استهدف منهنّ نساء المشايخ لأنهنّ الوحيدات اللواتي كنّ يقدمن على "مثل هذه الجرأة". وكثيراً ما كان هذا البطريرك يندّر بسوء العقابة بعض أقاربه من جرّاء ما كانوا يأتونه من تصرفات غير لائقة^١.

البطريرك مسعد

وأحداث ١٨٦٠

عندما انتُخب بولس مسعد بطريركاً للكنيسة المارونية بعد عشرة أيّام من وفاة البطريرك يوسف الخازن في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤، كان نظام شكيب أفندي في منتصف عمره! وكان بولس مسعد من عائلة مارونية كسروانية من بلدة "عشقوت"^٢، وهو من خريجي مدرسة روما المارونية. وقد اشتهر ببراعته في العلوم الدينية والتاريخية، وبقواه، وبحكمته. وشهدت المدونات على أنّه عالّج بفطنة نادرة الأحداث التاريخية التي عايشها. وقد انصرف بشكل أساسي إلى تنظيم الشؤون

١ - يوسف داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٩٥ - ٩٦.

٢ - عشقوت: بلدة في وسط قضاء كسروان. إسمها سرياني الأصل: "عشقوت" أي "الوعرة والعاصية"، علماً بأنّ كسروان نفسه كان يعرف بالعاصية، سكنها الشيعة بعد أن خرب المماليك المنطقة في القرن الرابع عشر قبل أن يعود الموارنة إليها في أوائل القرن السابع عشر، وأصل أسرة مسعد من بني المشروقي الذين منهم عائلات عوّاد والشدياق والسمعاتي... راجع: مفرّج طوني، الموسوعة اللبنانية المصورة، مرجع سابق، ٣: ٢٠٦ - ٢٠٨؛ مفرّج طوني، بنو المشروقي أصول وفروع، منشورات بيوغرافيا (جيبيل - لبنان، ١٩٩٩)؛ الشباي الاب ميخايل غبريل، كشف النقاب عن بقعة بيت شهاب، مرجع سابق؛ عواد المحامي إبراهيم، لبرشية قبرص المارونية (بيروت ١٩٥٠)؛ فريحة د. انيس، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها، للجامعة الأميركية (بيروت، ١٩٥٦)؛ الحتوني، المقاطعة الكسروانية، مرجع سابق؛ مفرّج كوني، كرى ومدن لبنان، منشورات نوبليس، ٢١ جزءاً (بيروت، ٢٠٠٢) الجزء السادس عشر؛ مفرّج طوني، حصرون ٢٠٠٠ منشورات بيوغرافيا (جيبيل - لبنان، ٢٠٠٠).

الكنسيّة، فعقد بأمر من البابا بيّوس التاسع (١٨٤٦ - ١٨٧٨) مجمعاً مارونيّاً في بركري من ١١ إلى ١٣ نيسان (إبريل) ١٨٥٦، وُصف بأنّه أطول وأفضل مجامع الموارنة بعد المجمع اللبناني. أمّا الأحداث والقلقل التي حصلت في الحقبة التي تولى فيها مسعد البطريركيّة المارونيّة فأهمّها: ثورة الفلاحين على المشايخ الخوازنة في كسروان، وضع "نظام لبنان الأساسي" سنة ١٨٦١ ونشوء المتصرفيّة. وفي هذه الحقبة كان قائمقام النصارى الأمير بشير أحمد اللمعيّ.

سنة ١٨٥٨ كثرت القلاقل والفتن في المجتمع المارونيّ، وقد بدأت بغزو الحماديين الشيعة بلدة "قرطبا" في أعالي بلاد جبيل، ثم وقعت فتنة بين المتزعمين في "زحلة" وفي منطقة "المتن" وفي "العاقورة"، ونشأ خلاف بين مدينتين مارونيتين تُعدّان من أهمّ البلدات المارونيّة في شماليّ لبنان هما: "إهدن" و"بشريّ". كذلك اقتتل فلاحو بلدة "غزير" مع مشايخها من الحبشيين. وإذ كان للقائمقام خصوم يتزعمهم الشيخ ابراهيم الخازن، قرّر القائمقام، المنتمي إلى أسرة إقطاعيّة، محاولة القضاء على الإقطاع في كسروان أولاً، ثم في سائر المقاطعات. ذلك أنّ الحزب الذي كان يخاصم القائمقام، كان جله من الإقطاعيين.

كان أبرز معاوني القائمقام على إثارة هذه الفتنة الهوجاء رجل من الروم الكاثوليك من بلدة "زوق مكاييل" الكسروانيّة الساحليّة، يُدعى "الياس المنير"، نشر فكرة الثورة في قرى كسروان الجنوبيّة، وأقام في كلّ قرية وكيلاً لبثّ الدعاية، ووكيلاً عامّاً إسمه "صالح صفيّر العجلتوني". وكان القائمقام يرسل الأوامر من بيروت إلى الزوق، و"المنير" يرسلها بدوره إلى "العجلتونيّ" الوكيل العام. وأخذ المشايخ يستعتون للمقاومة. ولما أدرك "العجلتونيّ" غوائل الثورة، استقال من الوكالة العامّة، فعين مكانه "شيخ شباب ريفون" القريبة من عجلتون، "طانيوس شاهين سعادة" (١٨١٥ - ١٨٩٥)،

وهو رجل شديد المراس كان يتعاطى البيطرة. وسرعان ما هاجم الشعب بقيادته ثور المشايخ آل الخازن بإطلاق الرصاص، فهرب المشايخ بنسائهم وأولادهم إلى جهات جبيل والبترون ومنطقة "بيت شباب" من أعمال قضاء المتن، ونهب الفلاحون بيوتهم ووضعوا أيديهم على المواسم، وقتلوا عدداً من النساء والرجال والأولاد^١.

هكذا رأى بعض مؤرخي الكنيسة المارونية ما عُرف بحركة طانيوس شاهين، غير أن بعض المؤرخين الأكثر شمولية واستقلالية قد رأى أنه "في سنة ١٨٥٨ نشبت ثورة مارونية قام بها الفلاحون بزعامة رجل من العامة: طانيوس شاهين من ريفون، الذي كان بيطاراً يعمل في دير للعازارين هناك^٢. فطردوا آل الخازن وجماعة أخرى من أعيان الموارنة من إقطاعاتهم واستولوا عليها ووزعوها على الفلاحين. وفي السنة التالية أعلن شاهين قيام حكومة فلاحين ونصب نفسه حاكماً مطلقاً^٣. أما البطريرك الماروني، بحسب هذا النص، فقد تجاهل الأمر. وأما الخوارنة والقسس الذين كانوا من عامة الناس، فقد شجعوا الناس على الثورة هذه وأيدوها، لأن سلطة الأكليروس الماروني ونفوذه كانا قد تضاعفا كثيراً إزاء نفوذ الاقطاعيين الموارنة وسلطتهم الواسعة. أما موظفو الأتراك فإنهم وقفوا يترقبون أن تنتهي الحوادث الجارية إلى ما فيه صالحهم ونفعهم. وفي هذه الأثناء كانت حياة المسيحيين وممتلكاتهم في المناطق الدرزية على كفة عفريت. فإنه في غضون عشر سنوات قُتل منهم ما يربو على سبعمئة قتيل بدون أن يعاقب قاتل واحد وبدون أن يجري أي تحقيق قضائي"^٤.

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ٩٨.

٢ - COMTE DE PARIS, *DAMAS ET LE LIBAN* (PARIS, 1861) P. 102.

٣ - العقيلي أنطون، ثورة وفتنة في لبنان، مرجع سابق، ص ٨٢-٩٠.

٤ - حنّي، لبنان في التاريخ، مرجع سابق، ص ٥٣٠.

بيد أن مؤرخي البطيركية المارونية يبيّنون أن البطيريك بولس مسعد قد قام بجهود كبرى بخلال هذه الفتنة، خلافاً للرأي السابق، إذ "استدعى وكلاء القرى وكبار المشايخ وأشار بعقد اجتماع لانتخاب أحد المشايخ حاكماً للمقاطعة الكسروانية. وقبل الوكلاء بهذا الحل. أما المشايخ فلم يرضوا بأن يشترك معهم الفلاحون بهذا الانتخاب، وكانوا يأملون بأن "خورشيد باشا" سينجز وعده بإرجاع الأهالي إلى طاعتهم. عندئذ ازداد طانيوس شاهين اندفاعاً في شن الغارات. وكرّر المشايخ عرائضهم إلى الباشا الذي أتى بعسكره إلى "المديرج"^٢ ليدخل كسروان من الجهة الغربية، فاحتجّ البطيريك على دخول العسكر النظامي إلى لبنان بدون إنباء مجلسه، فرجع الوزير بجيشه إلى "بيت مري" من أعمال المتن، وطلب رأي ديوان قائممقاميّة النصارى الذي أشار بتبنيه الأهالي ونصحهم بالإخلاء إلى السكنة قبل اللجوء إلى القوة العسكرية، وكلّف الشيخ "عيد حاتم" القيام بهذه المهمة، فقام بها خير قيام وهدأت العاصفة... وأقام المشايخ ثلاثة وكلاء في بيروت للمطالبة بحقوقهم، فلم ينالوا سوى وعود فارغة. وظلّ البطيريك المرجع الوحيد، وتوصل بحكمته وطول أناته إلى كبح جماح الثائرين^٣.

في الوقت الذي كان الموارنة يقتتلون في عرينهم، كان الدروز يداً واحدة بزعامة أعيانهم. وما كاد الإقتتال الماروني ينتهي إلى ما انتهى إليه، حتّى جاءت سنة الشؤم في تاريخ لبنان: سنة ١٨٦٠ التي عُرِفَتْ أحداثها بـ "مذابح الستين" أو "حركة الستين" كما تعرفها العامة، وهي الحرب الأهلية التي وقعت بين الدروز والموارنة، والتي لم يكن

١ - خورشيد باشا: والي بيروت وصيدا العثماني ١٨٥٧ - ١٨٦٠، كانت له اليد الطولى في إشعال الفتنة في لبنان، حكم عليه بالنفي المؤبد.

٢ - المتمرّج: منطقة جبلية قرب "ضهر البيدر" على الطريق بين بيروت ودمشق، تصل جبل لبنان بالبقاع.

٣ - داغر، بطلركة الموارنة، مرجع سابق، ص ٩٨.

هنالك من أسباب مباشرة لنشوبها. "بل كان ما يدعو إلى الاعتقاد بأنها كانت فتنة مدبرة".^١ وقد بدأت الفتنة في شهر نيسان (إبريل) وظلّت نيرانها تستعر حتّى آخر شهر تمّوز (يوليو) من تلك السنة المشؤومة. وكانت الحوادث التي أدّت إلى نشوب الفتنة قد بدأت في صيف السنة السابقة عندما تشاجر صبيان، مارونيّ ودرزيّ، كما يتشاجر الصبيان. ولكنّ هذه الحادثة أدّت إلى قتال بين دروز القرية والمسيحيّين فيها أسفر عن مقتل عدد من الدروز، أكبر من عدد قتلى المسيحيّين. وقد حدثت مناوشات متقطّعة بين الدروز والمسيحيّين في المناطق التي يقطنها من الفريقين. ثمّ حلّ الشتاء، وكان شتاءً باردًا قاسيًا، فخيّل للناس أنّ هذه المدة من الهدوء النسبيّ كانت فترة تهيؤ واستعداد لأمر لا مفرّ منه. وكان مشايخ الدروز يتّصلون علنًا بخورشيد باشا في بيروت ويجرون معه مفاوضات. ويقال إنّهم تسلّموا أسلحة بواسطة. ولما نشبت الثورة شعر كلّ مسيحيّ قاطن في المنطقة الدرزيّة أنّ حياته في خطر شديد. وفي خلال أسابيع قليلة أحرّق أكثر من ستّين قرية من قرى المتن والشوف. أمّا الجيش التركيّ النظاميّ (باش بزق) فإنّه لم يحاول أن يوقف القتال، بل كان موقفه على نقيض هذا، إذ إنّ أساءة معاملة (المسيحيّين) الهاربين اللاجئين إلى بيروت ودمشق ونهب ما يحملونه من ثياب وأموال. أمّا كسروان ومنطقة شمال لبنان فلم يصبهما أذى من هذه الفتنة التي لم يكن لها من أثر حاسم في القتال، فقد جاءت قوّتان رمزيّتان من تلك المناطق لمساعدة إخوانهم في (جبل) لبنان الجنوبيّ وفي المتن، وكان على رأس أحدهما "يوسف بك كرم"^٢ من إهدن، وكان زعيمًا وطنيًا في منطقته، وطانيوس شاهين* من ريفون، وقد

١ - راجع: مفزّح، لبنان الأميل، مرجع سابق.

٢ - يوسف بك كرم (١٨٢٢-١٨٨٩): زعيم مارونيّ سياسي وعسكري وكاتب وشاعر ولاهوتي، اشتهر بفضائله ووسائله في مقاومة العثمانيين، ولد في إهدن من أعالي لبنان الشمالي، قاتمقام للنصارى ١٨٦٠ - ١٨٦١، اضطر إلى ترك لبنان فهاجر إلى إيطاليا وبقي فيها ٢٢ سنة، وفيها مات ١٨٨٩، وقد نقل الإهدنيّون رفاته إلى مسقط رأسه في إهدن، ووضعوه في قبر خاصّ دخل كنيسة

سبقت الإشارة إليه. غير أن الموظفين الأتراك حاولوا، بالوعد والوعيد، أن يمنعوا اتصال هذين الزعيمين بإخوانهم في الجنوب. وكذلك كان لتدخل فرنسا في الأمر يد في وقف هذه المساعدة. أما رجال الدين، من الموارنة، فكانوا يهاجمون الخصم بسيل من الاحتجاجات والتقييح ويشجعون أتباعهم على متابعة القتال بشتى الوسائل والوعود. ويرى باحثون أن مواقف الإكليروس، عموماً، في هذه الفتنة، كانت أقرب إلى الضرر منه إلى النفع. أما المعسكر المقابل: الدرزي، فقد انهالت عليه المساعدات العسكرية من حوران، إذ جاءت نجدة قوامها ثلاثة آلاف مقاتل بقيادة "اسماعيل الأطرش". وأما قائد الثورة في لبنان فقد كان "سعيد جنبلاط" يعاونه "خطار العماد" و"علي حمادة"، وجميعهم من أسر موحدة درزية قيادية^١. ثم جاء دور المدن. وكانت أساليب الثورة في المدن الأساليب ذاتها في الأرياف: كان قائد الحامية التركية في المدينة يعرض حمايته للنصارى مقابل تسليم الأسلحة، ثم يقف يتفرج عليهم يُذبحون. هكذا كان مصير دير القمر* حيث قُتل ٢٦٠٠ نسمة. وفي جزين* وجوارها قُتل ١٥٠٠ نسمة. وفي "حاصبيا"^٢ وادي التيم* قُتل من الروم الأرثوذكس حوالى ١,٠٠٠ نسمة من أصل مجموع سكانها الأرثوذكس البالغ ستة آلاف. وفي "راشيا

مارجرس، من آثاره الأدبية: "رسالة الاسكندرية" ١٨٦٣، و"رسالة المحمودية" ١٨٦٤، و"مذكرة إلى حكومات أوروبا وشعوبها" بالفرنسية ١٨٧١، و"مفكرة لمن يريد أن يطالعها" دعا فيها مفكري العالم إلى تأليف جمعية دولية باسم "جمعية حق البلاد" وذلك قبل نشوء "عصبة الأمم" و"مشرعة حقوق الإنسان" بعشرات السنين، وله "الرد على الأونيفر" ١٨٧٢، و"مذكرة إلى الكنيسة وفرنسا" بالفرنسية والعربية ١٨٧٦، و"مواقف الموارنة" بالفرنسية، و"مباحثات" ١٨٧٧، و"رسالة بشأن الأرمن" ١٨٧٤، و"مشروع اقتصادي سياسي" بالفرنسية، و"مقارير"، و"مذكرات روحية" طبعت ١٨٨٣، و"رسائل"، و"غراماطيق"، و"مختصر اللاهوت"، وله منظومات شعرية.

١ - راجع: الجزء الحادي والعشرين من هذه الموسوعة.

٢ - حاصبيا: بلدة في لبنان الجنوبي، قاعدة قضاء حاصبيا (وادي التيم سابقاً) بالقرب منها خلوة البياضة للدروز، وهي المقام الديني الأعظم للدروز لبنان وفيه مجلس شورا، وهي غير حاصبيا قضاء بعبدا؛ راجع: مفرج، قرى ومدن لبنان، مرجع سابق، ٩.

١٣١.

الوادي^١ هلك ثمانمئة نسمة^٢. أمّا "رحلة"^٣ أكبر المدن في داخلية لبنان، وكان عدد سكّانها آنذاك قرابة ١٢ ألف نسمة، فقد صمدت في بادئ الأمر بشجاعة إلى أن غلبت على أمرها في وجه هجمات جماعات كبيرة من الحوارة ومن بدو الصحراء. هذه المدينة، القابعة في وادي نهر "البردوني" المنساب سلسيلاً من سفح صنّين، لم ينجُ بيت واحد فيها من الحريق... وقد ازدحمت الطرقات المؤدية من القرى إلى مدن الساحل بالهاربين الذين لم ينجوا من تعديّات الجند التركي. فقتل مسلمو صيدا نحواً من ثلاثمئة لاجئ^٤. وقد كان عدد الضحايا الذين سقطوا خلال أشهر ثلاثة وفي بقعة قطرها بضعة أميال، اثني عشر ألف قتيل. وكانت الخسارة في الأملاك تُقدَّر بأربعة ملايين ليرة انكليزية ذهبية، خاصّة وأنّ الفتنة قد وقعت في موسم تربية دود الحرير، ذلك الموسم الرئيسيّ في حياة الناس الإقتصاديّة. ولم يقتصر الخراب والحريق على البيوت بل شمل الكنائس والأديرة^٥. وعندما لم يعاقب المجرمون في لبنان، وقد تواطأ

١ - رافياً الوادي: بلدة في البقاع الغربي من لبنان فيها قلعة للأمرء الشهابيين، عندها قتل الزعيم الدرزي شبلي العريان جيش إبراهيم باشا ١٨٤٠، وعندها سوف تقع المعركة بين الفرقة الأجنبية الفرنسية وبين فرسان الدروز ١٩٢٥، وإليها سوف تنفي حكومة الاستقلال ١١ - ٢٢ تشرين الثاني - نوفمبر ١٩٤٣ راجع: مفرّج، قرى ومدن لبنان، مرجع سابق، ١٢: ١٠٠.

٢ - راجع: FURTHER, PAPERS RELATING TO THE DISTURBANCES IN SYRIA, JUNE 1860 (LONDON, 1860) PP. 40-46.

٣ - راجع: مفرّج، قرى ومدن لبنان، مرجع سابق، ١٣: ١٤.

٤ - بيّنت دراستنا الموضوعيّة المؤكّدة أنّ قيادات وأسر مسلمة منيّة وشيعيّة في صيدا والنبطيّة وسائر جنوب لبنان، قد حمت الحديد من الأسر المسيحيّة اللاجئة في خلال تلك الأحداث المجنونة والمشوومة.

٥ - حتّى، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٠ - ٥٣٢؛ ليكاريوس إسكندر، نولر الزمان، ص ٤٢ وما يليها؛ مشاققة ميخائيل، مشهد العيان بحوادث سوريا ولبنان، نشر ملحم عيده وإندروس شخاشيري (القاهرة، ١٩٠٨)، ص ١٥٨ - ١٦٨؛ أبو شقرا حسين، الحركات في

لبنان، نشره عارف أبو شقرا (بيروت، ١٩٥٢) ص ١١٣ - ١١٢؛ للأطلاع على الوثائق الرسميّة: CORRESPONDENCE RELATING TO THE AFFAIRS OF SYRIA 1860 - 1861 (LONDON, 1861); DRIAULT EDWARD, LA QUESTION D'ORIENT, 8E ED. (PARIS, 1921) PP. 194 - 195; SOUVENIRS DE SYRIE, (PARIS, 1903) PP. 32 - 89; F. CHARLES-ROUX, FRANCE ET CHRÉTIENS D'ORIENT (PARIS, 1939) PP. 183 - 186; DE TESTA I., RECUEIL DES TRAITÉS DE LA PORTE OTTOMANE, VOL. VI, PP. 67 - 101; ISAAC, RILEY SYRIAN HOME - LIFE (NEW YORK, 1874) PP. 250

الموظفون الأتراك معهم، تشجّع أهل دمشق المسلمون على مهاجمة المسيحيين فأحرقوا الحيّ المسيحيّ في المدينة وقتلوا عشرة آلاف نسمة. وفي العام ١٩٢٦ طوّب البابا بيّوس الحادي عشر (١٩٢٢ - ١٩٣٩) ثلاثة إخوة من أسرة مسابكي المارونية كانوا قد استشهدوا عند مذبح الكنيسة الفرنسيّة في دمشق حيث كانوا لجأوا يومذاك هرباً من القتل^١.

كان أكثر ضحايا أحداث سنة ١٨٦٠ من الموارنة. وقد هزّت تلك المذابح الضمير العالميّ. فعقد مؤتمر دوليّ دعت إليه فرنسا ضمّ بريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا تقرّر فيه التدخّل لإيقاف المذابح، وإيفاد قوّة مشتركة إلى الجبل اللبنانيّ قوامها اثنا عشر ألف جنديّ. غير أنّ فرنسا وحدها نفّذت القرار وأرسلت جيشاً مؤلفاً من سبعة آلاف جنديّ. وقد قال الإمبراطور الفرنسيّ نابوليون الثالث (١٨٠٨ - ١٨٧٣؛ إمبراطور ١٨٥٢ - ١٨٧٠) في مجال شرّحه لذلك: "إذا كنت قد اقترحت بعثة عسكريّة إلى لبنان وسورية، فلأني أشعر كالشعب الذي انتخبني رئيساً عليه، ولأنّ أنباء سورية ولبنان أثارت مزيد استيائي. أنا أتمنّى أن لا أضطرّ إلى إرسال هذه البعثة لأسباب عديدة، إنّما يتعذّر عليّ مقاومة الرأي العام في بلادي"^٢. ومنذ ذلك الحين أصبح موارنة لبنان يرون في فرنسا السند القويّ، وأصبح تقليدهم يطلق عليها اسم "الأمّ الحنون".

كان على رأس الحملة العسكريّة الفرنسيّة الجنرال "بوفور دوتبول"، الذي كان اشترك في حروب سورية لما كان ضابطاً في أركان جيش الكولونيل "سيف SEVE". وقبل أن تصل الفرقة العسكريّة إلى لبنان منتصف صيف ١٨٦٠، كانت السلطنة

١ - 415 - 411 PP. (1926) ACTA APOSTOLICAE SEDIS, VOL XVIII؛ راجع: مفرّج، بنو المشروقي، ص ٥٥، ٧٠٥.

٢ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٠٠.

العثمانية قد أرسلت جيشًا على رأسه وزير الخارجية "فؤاد باشا" الذي راح يعاقب الموظفين الأتراك الذين تواطأوا مع القتلة، متشدّدًا في ملاحقة الأخيرين، وقد أعدم أكثر من مئة جنديّ تركيّ رميًا بالرصاص وشنق بعض الأهالي. ولمّا كان الأمير المغربيّ اللاجئ إلى سورية هربًا من الفرنسيّين في الجزائر، قد حمى في دمشق أكثر من ألف مسيحيّ من القتل، فقد قلّده وزير الخارجية التركيّ وسامًا رفيعًا لعمله الشريف. ثم شكّل فؤاد باشا لجنة دوليّة مهمّتها اكتشاف المسؤولين عن الفتنة، وجميع الذين اشتركوا في أعمال القتل، وتعيين التعويضات الواجب أدائها للمتضرّرين، ودرس الأنظمة التي من شأنها أن تمنع حدوث مثل هذه الكوارث في المستقبل، ورفع تقرير إلى حكومات تلك الدول لإجراء المقتضى. وإذ كان فؤاد باشا رئيسًا لهذه اللجنة، سيّرها بدهائه وتحاييله على هواه. وراح يماطل مدّعيًا بأنّ الخلافات بين أعضاء اللجنة هي التي تؤخّر الوصول إلى اتّفاق^١. وكذلك استطاع اللورد "دوفرل" الإنكليزيّ، بدهائه، أن يتفوّق على موفد نابليون الثالث ويضعف من شأنه. وكان دوفرل يقف إلى جانب فؤاد باشا ويدافع عن سيادة تركيا وسلامتها. وطالب بشدّة بأن تُخفّف الأحكام الصادرة بحقّ الدروز. وكان يماشيه في سياسته هذه ممثلًا النمسا وبروسيا. أمّا فرنسا فكانت تدافع عن وجهة نظر المسيحيّين وتحاول أن تدعم قضيتهم. وكانت روسيا تقف إلى جانبها وقفة المتردّد. وقد تسلّمت اللجنة قائمة بأسماء حوالي ٤,٦٠٠ متهم درزي. فحكمت على ٤٨ بالإعدام، وعلى ١١ بالسجن المؤبّد، وعلى ١٣ بالحبس ٦ سنوات، وعلى ٢٤٩ بالحجر أو بالنفي المؤقت^٢. واستُبدل حكم الإعدام الصادر بحقّ سعيد

١ - 276-274. PP. SOUVENIRS DE SYRIE.

٢ - للإطلاع على هذه الوثائق وعلى أسماء المتّهمين: - CORRESPONDENCE RELATING TO THE AFFAIRS OF SYRIA, 1860 - (LONDON, 1861), P. 509; SOUVENIRS, OP. CIT., PP. 238, SEQ., 270, SEQ.: CHURCHIL, DRUZES, OP. 1681 CIT., P. 222; DRIAULT EDWARD, LA QUESTION D'ORIENT,, OP. CIT., PP. 403 - 410.

جنبلاط، وهرب كثيرون من اتباع "خطار العماد" إلى حوران، ونُفي حوالي ١٢٠ شخصاً إلى طرابلس الغرب. ونجا خورشيد باشا من الموت. ولكنّ والي دمشق أُعدم، كما أُعدم قائد حامية حاصبيا، ونُفي بعض الموظفين الأتراك من ذوي المناصب الدنيا إلى قبرص ومالطة واسطنبول. وفي دمشق حُكم على ثلاثمئة رجل بالأشغال الشاقة مدى الحياة، وقد أحضروا مكبلين إلى بيروت في مظهر استعراضيٍّ سيراً على الأقدام، ومنها نُقلوا إلى اسطنبول... ولكن بعد غياب ستّة أشهر، عادوا ليظهروا في أسواق بيروت وهم في طريقهم إلى دمشق^١. وقد قُدّرت مبالغ التعويضات التي كانت ستُدفع للمتضررين بمليون ومئتين وخمسين ألف ليرة إنكليزية. واقترح في اللجنة أن يقوم الدروز بدفع هذه التعويضات. غير أن فؤاد باشا اعترض قائلاً إنّ الدولة العلية ستدفعها من خزينتها. ولكنّ الخزينة العثمانية دفعت قسطاً ضئيلاً منها ثمّ امتنعت بعد ذلك عن الدفع واعتبرت الأمر منتهياً^٢.

عندما سارع الباب العالي، بعد وقت قصير، إلى إعلان العفو عن المجرمين، كانت حالة المسيحيين الهاربين والمهجرين من بيوتهم وأرزاقهم إلى بعض المدن والبلدات تسوء كثيراً. وإذ أصيبوا بالمجاعة والأمراض الفتاكة كما أفادت تقارير معاصرة لتلك الأحداث، مات منهم كثيرون، وباعت نساء أولادهم ببيع العبيد، وأخذ بعضهنّ عنوة إلى حريم الرجال الذين سبوهن^٣.

١ - RILEY, OP. CIT., PP. 87 - 88.

٢ - حَتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٤-٥٣٥.

٣ - THE WORLD REVUE, APRIL 23 (NEWYORK, 1861)

المَوَارِنَة

وعَهْد المتَصَرَفِيَّة

إنَّ أحداثَ ١٨٦٠ التي دفع الموارنة بشكل خاص، والمسيحيّون بشكل عام في لبنان، وفي دمشق، ثمناً باهظاً جرّاءها، أدّت إلى خلق نظام جديد لجبل لبنان مضمون من الدول الست الكبرى في ذلك الوقت، ضمن استقلال لبنان من قبل الدول الأوروبيّة، وكان بمثابة خاتمة عهد من الفوضى والعنف. وقد وقّع على ذلك النظام في اسطنبول في التاسع من شهر حزيران (يونيو) ١٨٦١، كل! من فرنسا وبريطانيا والنمسا وبروسيا وروسيا وتركيا، وانضمت إلى هذه الدول سنة ١٨٦٨ إيطاليا. وقد عُرِف هذا النظام رسمياً بنظام المتصرفيّة، وبنظام لبنان الأساسي. وكان عدد بنوده سبعة عشر. وفي السادس من أيلول (سبتمبر) ١٨٦٤ جرت تعديلات طفيفة على ذلك النظام مدّت ولاية المتصرف إلى خمس سنوات، مع إمكانية تجديد ولايته. ونصّ النظام على أن يكون المتصرف مسيحياً أجنبياً توافق عليه الدول الموقّعة عليه. وقد اعترض بطريرك الموارنة بولس مسعد على بعض ما جاء في نظام المتصرفيّة خاصّة لجهة الأحكام الشرعيّة، فطالب بتأليف هيئة تشريعيّة وطنيّة، غير أن المتصرف اتّخذ لنفسه السلطة التشريعيّة. فوقع الخلاف بين البطريرك والمتصرف رستم باشا (١٨٧٣ - ١٨٨٣)، وهو المتصرف الثالث الذي حكم جبل. أمّا مجلس الإدارة فقد تألّف من اثني عشر عضواً منتخباً بواسطة مشايخ الصلح. وكان الهيئة الوحيدة التي تمثّل الشعب اللبناني في الحكم، إلّا أن سلطته كانت استشاريّة وقراراته لا تلزم المتصرف التقيّد بها^١.

١ - للاطلاع على النص الكامل لنظام المتصرفية وتعديلاته: BRITISH AND FOREIGN STATE PAPERS, 1860 - 1861, VOL. LI (LONDON, 1868) PP. 288-292; HOLLAND THOMAS E., THE EUROPEAN CONCERT IN THE EASTERN QUESTION (OXFORD, 1885) PP. 122-218.

إنَّ لبنان المتصرفية لم يكن، لا لبنان الإمارة التي سبقتها، ولا لبنان الدولة التي لحقتها، بل كانت المتصرفية مسلّخة عنه مناطق البقاع، ووادي التيم، وبيروت وصيدا وطرابلس وعكار. فلقد كان لبنان المتصرفية الجزء الجبلي من لبنان الإمارة فقط.

قُسِّم لبنان المتصرفية إلى سبعة أقضية، على رأس كل قضاء قائمقام من الملة التي تمثّل الأكثرية في القضاء. وعلى هذا كان للموارنة ثلاثة قائمقامين، بينما كان الأربعة الباقون: درزيًا ومسلمًا وأرثوذكسيًا وكاثوليكيًا.

رغم أنّ هذا النظام قد أعطى الموارنة حجمهم من خلال إعطائهم ثلاثة قائمقامين من أصل سبعة، فإنهم قد شعروا بكثير من فقدان الإستقلالية وخفض للشأن عندما تسلم "داود باشا"^١ الحكم في ٩ حزيران (يونيو) ١٨٦١، فسرت فيهم حركة نفور ظهرت بوادرها في أوساط "يوسف بك كرم"^{*} الذي ثار القوم بقيادته على داود باشا مثلما ثار أبأؤهم على عمر باشا سنة ١٨٤٢.

كان يوسف من مشايخ إهدن وتعلّم في مدرسة الآباء اليسوعيين في عينطورة كسروان. فأحسن الفرنسية ومال بجوارحه إلى ثقافتها وحضارتها. وكان أبوه يستضيف السيّاح الفرنسيين وهم في طريقهم إلى زيارة الأرز. وكان يوسف بك شابًا وسيما شجاعا دميث الخلق وقور الشخصية محبوبًا بين قومه وعشيرته. وكان الجنرال الفرنسي "ديكرو"، وهو الجنرال الثاني في قيادة الجيش الفرنسي في لبنان، قد سمى يوسف بك كرم، الذي ولّاه فؤاد باشا قائمقامية النصارى في نهاية أحداث ١٨٦٠، ليكون متصرفًا على لبنان. وقد أيّدت روسيا اقتراح فرنسا بدون حماس، وقاومته

١ - داود باشا (١٨١٨-١٨٧٣): سياسي عثماني، أول متصرف على جبل لبنان ١٨٦١ - ١٨٦٨، ولد في الأستنة، عدل النظام الأسلمي وطبقه، أنشأ جريدة رسمية.

السلطنة العثمانية مقاومة عنيفة، وكذلك فعل البريطانيون. وظلَّ يوسف بك كرم يتطلَّع إلى منصب المتصرفية، لذلك رفض قائممقامية جزين عندما عرضها عليه المتصرف الأول. ووجَّه كتابًا مفتوحًا إلى كلِّ من الفاتيكان وباريس يحتجُّ فيه على كون الحاكم غير لبناني، وعلى صلاحياته المطلقة، وعلى تحديد بعض الأقضية المسيحية، وعلى الفصل في القضايا التجارية في محاكم خارج لبنان (في بيروت)، وعلى سدِّ العجز في ميزانية لبنان من مال الخزينة العثمانية، ما يجعل لبنان خاضعًا لسلطة الباب العالي^١.

أعلن يوسف بك كرم العصيان ورفع لواء الثورة وخاض بعض المناوشات الدامية. ولكنه لم يكن بحجم الدولة العثمانية، فتمكَّن المتصرف من إلقاء القبض عليه وإرساله إلى اسطنبول، حيث بقي هناك حتَّى سنة ١٨٦٤ قبيل نهاية ولاية المتصرف، أملًا في أن يعيَّن متصرفًا. وكانت عودته خلسة، واستقرَّ في شمالي لبنان. غير أنَّ الولاية الثانية كانت من نصيب المتصرف الأول نفسه الذي جُدِّت له، فراح كرم، على مدى ثلاث سنوات، يطوف البلاد داعيًا إلى محاربة الحاكم الأجنبي، فتألَّب حوله محاربون سار بهم سنة ١٨٦٧ زاحفًا إلى بيت الدين، مقرَّ المتصرف. ولدى وصوله إلى بلدة بكفيا الواقعة في منطقة وسط قضاء المتن، منتصف المسافة بين الشمال وبيت الدين، نشب القتال بينه وبين العسكر النظامي. وفيما كان العراك على أشده وصل شيخ خازني ليبْلَغ كرم طلب قنصل فرنسا بأن يكفَّ عن القتال، وبأن ينتقل إلى ملاقاته في بركي^٢. وإذ أدرك كرم أنَّ الذين كان يعتمد عليهم قد تخلَّوا عنه، سار في درب

١ - كرم بطرس، قلاند المرجان في تاريخ جبل لبنان (بيروت، ١٩٣٢) ١: ١٩١ - ١٩٢.

٢ - كان دير سيدة بركي الواقعة على كتف مدينة جونيه الشرقي الجنوبي، قد أضحي مقراً شتوياً للبطريركية المارونية، وأول بطريرك دفن في بركي، كان فيليبوس الجميل الذي توفى في عجلتون سنة ١٧٩٦ فنقل إلى بركي ودفن فيها. غير أنَّ دير سيدة بركي، حتى ذلك التاريخ، لم يكن قد أصبح مقراً ثابتاً للبطريركية المارونية، فيما عقد فيه عام ١٨٥٦ بعهد البطريرك بولس مسعد

منفاه: إلى الجزائر أولاً، ثم إلى باريس، وأخيراً إلى نابولي إيطاليا حيث توفي وهو في الثالثة والستين من عمره سنة ١٨٨٨، ونُقل جثمانه إلى مسقط رأسه إهدن ووضع في كنيسة لها ليُعرض على الناس. وما زال بعض موارد تلك المنطقة من شمالي لبنان يقولون بقداسة هذا الرجل الذي أُقيم له نصب على مقبرة الكنيسة، ويروون أن جثمانه الذي لم يبل، غير مُحنط.

بالرغم من أنه كان للموارنة مأخذ على نظام المتصرفية، وأهمها أن النظام أخذ الحكم من أيدي اللبنانيين ووضعه في أيدي غريبة، فقد أتاحت الترتيبات الإدارية، التي أوجدها هذا النظام، لعدد كبير من الموارنة الإشتراك مع المتصرفيين في الحكم، وقد جاء ذلك نتيجة النضوج السياسي الذي كان الموارنة قد أحرزوه، كفئة حاكمة. فأخذوا يتدربون على تولي المسؤولية، وتحولت هكذا تدريجاً طموحاتهم الفردية كملة إلى ولاء

(بطريك ١٨٥٤ - ١٨٩٠) مجمع عام عُرف بالمجمع البلدي. في عهد البطريرك يوسف إسطفان (بطريك ١٧٦٦ - ١٧٩٣)، وهو من غوسطا في كسروان، عقدت ثلاثة مجامع عامة للطائفة المارونية قرّر في خلالها الآباء المجتمعون نقل المقرّ البطريركي من دير سيدة قنوبين إلى دير سيدة بكركي. ونلاحظ أن المجمع الثلاثة المذكورة قد ترأسها أعيان وطاركة كسروانيون، فالمجمع الأول عقد في ميفوق في تمّوز (يوليو) ١٧٨٠ وترأسه النائب البطريركي للمطران ميخائيل حرب الخزّان بحضور قاصد رسوليّ والمجمع الثاني عقد في عين شقيق بالقرب من وطى الجوز في كسروان في أيلول (سبتمبر) ١٧٨٦ وترأسه البطريرك يوسف إسطفان الغوسطاوي؛ أمّا المجمع الثالث فقد عقد في دير سيدة بكركي بالذات سنة ١٧٩٠ على عهد البطريرك يوسف إسطفان ويرأسه أيضاً وبحضور قاصد رسوليّ. ورغم بعض الاعتراضات التي برزت في المجمع الثالث، فقد تقرر في المجمع الثلاثة المذكورة نقل مقرّ الكرسي البطريركي الماروني إلى دير سيدة بكركي على أن يكون هذا الدير "مقرّاً ثانياً، وأن تكون كلّ خبراته الثابتة وغير الثابتة ملكاً موهباً لكرسي البطريركي... وأن يقيم البطريرك دائماً في هذا الدير ولا يذهب إلى غير مكانة إلا لأسباب داعية صوابية، وفي مدة غيابة الوجيزة يستمرّ للسادة الوكلاء في المكان نفسه، وأن ينقل كلّ مقتناه إلى هذا الكرسي ويوجه إليه كلّ المداخل البطريركية".

١ - راجع: البشعلاني إسطفان، لبنان ويوسف بك كرم (بيروت، ١٩٢٥) ص ٣١٢ - ٦٤٤؛ نوفل نعيم، بطل لبنان، (الاسكندرية، لا.ت.)، ص ٢٢٤ - ٢٤٨؛ الدبس، تاريخ سورية، مرجع سابق، ص ٢٢٦ - ٢٣٣؛ فهد، بطاركة الموارنة، مرجع سابق، بطاركة القرن للتاسع عشر، ص ١١٢ وما يليها.

لبنان كوطن يجمع بينهم وبين جميع الأقليات الأخرى في البلاد، ضامناً مصالح كل فئة ومؤمناً بالعيش الحرّ الكريم للجميع. فنشأت فكرة القومية اللبنانية وترعرعت في ظلّ طموحات مارونية، وغدت الكنيسة المارونية القوام الأساسي لهذه الفكرة والمؤسسة المجسدة لها في غياب دولة لبنانية تقوم بهذه المهمة^١.

ختم عهد المتصرفية العهد العثماني بالنسبة إلى لبنان، موئلاً المواردنة في الشرق، وكانت ثورة يوسف بك كرم آخر ثورة مارونية في ذلك العهد الذي ستكون خاتمة ويلاتة عليهم سنوات الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) التي علّق العثمانيون بخلالها نظام المتصرفية سنة ١٩١٥^٢، ودخلوا لبنان عسكرياً، وحاصروا السكّان، فدفع المواردنة من أرواحهم وكراماتهم وأرزاقهم، هذه المرة أيضاً، الثمن الباهظ. فقد مرّت على لبنان في سني الحرب العالمية الأولى، كما هو معروف، أيام ضيق وشدة لم يسبق أن احتمل الشعب اللبناني مثلاً من ذي قبل. فعمّت المجاعة والعوز جميع أنحاء الوطن، وقضت أسراب الجراد على مواسمهم الزراعية. فمات الآلاف من المواردنة وسائر اللبنانيين جوعاً ومرضاً، وأوغرت المقابر أفواهاها وابتلعت الكثيرين منهم. ولمّا ضاقت على جثث الموتى، كان الناس الأحياء يدفنون موتاهم بالقرب من البيوت^٣.

١ - صفيّر، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

٢ - احتلت تركيا لبنان وحلّت حكمته الشرعيّة التي كانت قائمة في عهد المتصرف لوهاش باشا، وألّفت هيئة حكومية جديدة برئاسة جمال باشا المعروف بالسفاح قائد الجيش العثماني الرابع، دامت حتى انتهاء الحرب. ولمّا تسلم القائد الجديد مهامه العسكرية والإدارية، أعلن الأحكام العرفية، وعلّق العديد من اللبنانيين على أعواد المشايخ، وأرغم البطريرك الياس الحويّك على طلب الفرمان من الدولة العثمانية. وكانت قد جرت قبل هذا التاريخ محاولات عدّة من قبل سلاطين بني عثمان لفرض طلب الفرمان على البطريرك المواردنة، وكان هؤلاء لا يطلبون تثبيتهم على الكرسي الأتليكي إلا من لعبار روما الأعظمين، وكفوا كلّما تعرّضوا لمثل هذا الطلب من الدولة العثمانية يجدون مخرجاً للتخلّص من تلبية رغبة السلاطين، ولمّا البطريرك الحويّك فلم يجد مهرباً تحت وطأة الحرب وتهديد جمال باشا من طلب الفرمان، ولو مكرهاً، تقليداً لشر مستطير قد ينزل بشخصه أو بإبناء كنيسة.

٣ - صفيّر، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٢٣.

المَوَارِنَةُ وَالْوَطَنُ اللَّبْنَانِيُّ الْمَعَاصِرُ

فِي الْوَطَنِ اللَّبْنَانِيِّ الْمَعَاصِرِ؛

آخِرُ بَطَارِكَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَأَوَّلِ بَطَارِكَةِ لُبْنَانَ الْكَبِيرِ؛

الْبَطْرِيْرُ الْيَاسُ الْحَوِيْكَ رَائِدُ لُبْنَانَ الْكَبِيرِ؛ الْمَوَارِنَةُ وَالْجُمْهُورِيَّةُ اللَّبْنَانِيَّةُ؛

بَطَارِكَةُ الْمَوَارِنَةِ فِي الْجُمْهُورِيَّةِ اللَّبْنَانِيَّةِ؛

الْبَطْرِيْرُ أَنْطُونُ عَرِيْضَةُ؛ "بَطْرِيْرُ الْعَرَبِ" مَار بُولُسُ الْمَعُوشِي؛

الْبَطْرِيْرُ الْيَاسُ الْمَارُوتِيَّةُ وَالْحَرْبُ اللَّبْنَانِيَّةُ؛ الْمَارُوتِيَّةُ وَلُبْنَانُ الْيَوْمِ.

فِي الْوَطَنِ اللَّبْنَانِيِّ الْمَعَاصِرِ

في ٢٩ أيلول (سبتمبر) ١٩١٨، وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها وجلا الأتراك عن لبنان بعد أن حكموه مع معظم بلدان الشرق الأدنى أربعمئة سنة (١٥١٦ - ١٩١٨). وفي تشرين الأول (أكتوبر)، عيّن الكولونيل "دي بياياب" الفرنسي حاكمًا عامًا إداريًا في بيروت^١. وكان أول عمل أتاح الحلفاء، بعد أن خسرت تركيا الحرب، إرجاع حكومة لبنان الشرعية إلى سابق عهدها. فعاد مجلس الإدارة المنبثق عن إرادة الشعب بانتخاب حرّ، إلى مزاولة مهامه الإدارية والسياسية، وهو المخوّل، دون سواه، بأن يتكلّم باسم الشعب اللبناني. وعلى أساس هذا العرف، سوف تستمدّ الوفود الثلاثة التي سيرسلها لبنان إلى مؤتمر الصلح في "فرساي" سلطتها التشريعية والقانونية من مجلس الإدارة الذي استمدّ بدوره سلطته من الشعب اللبناني.

آخِرُ بَطَارِكَةِ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ وَأَوَّلُ بَطَارِكَةِ لِبْنَانَ الْكَبِيرِ

ومتلما أنّت أحداث ١٨٦٠ إلى ما يشبه الكيان لهم في نظام المتصرفية، فإنّ معاناة الحرب العالمية الأولى سوف توصلهم إلى ترؤس جمهورية لبنان الكبير، ليتوهّموا بأنّ

١ - راجع: حروفوش الخوري إبراهيم، دلائل العناية الصمدانية، (جونيّه، ١٩٣٤) ص ٥٨٣ - ٥٨٨.

كياً متيناً قد تحقق لهم هذه المرة، تشاركهم فيه أقليّات متعدّدة أخرى. ومثلما قضى نظام المتصرفيّة على نفوذ الإقطاعيين ومكانتهم، كذلك هو انتزع، أو أنه ألغى، دور البطريركيّة المارونيّة كممثلة للموارنة تجاه السلطان. ومنذ ذلك التاريخ، وحتى إشعار آخر، لم يعد للبطريرك ذلك التأثير الذي كان له في شؤون السياسة والمجتمع. إلا أنّ الجبل اللبناني قد بقي، في الحقبة الفاصلة بين منتصف القرن التاسع عشر ومنتصف القرن العشرين، ملجأً للملّ المسيحيّة الكاثوليكيّة التي اضطهدت في الجوار. وبقي للبطريركيّة المارونيّة وللإكليروس المارونيّ ذلك الدور الذي وصفه الكاردينال "لودوكفسكي" رئيس مجمع نشر الإيمان المقدس بأنّه قد "حمى وحفظ في الشرق على مدى الأجيال الإيمان الكاثوليكي... ولم يألُ جهداً عن العمل في هداية قسم معتبر من الكنائس الشرقيّة المنفصلة إلى الإيمان القويم"^١. وجاءت هذه الرسالة بمناسبة براءة التثبيت الفاتيكانيّ سنة ١٨٩٠ للبطريرك يوحنا الحاج الذي انتُخب خلفاً للبطريرك بولس مسعد المتوفّى في ١٨ نيسان (إبريل) من تلك السنة. وكان البطريرك بولس مسعد قد سام الخوري يوحنا الحاج مطراناً لأبرشيّة بعلبك بناءً على طلب أهل الأبرشيّة. كما كان هذا البطريرك، قبل انتخابه، شغل منصب قاضٍ في عهد القائميّة، وفي ديوان الأمير بشير أحمد، وتقلّد وظيفة كاتب سرّ للقصادة الرسوليّة في لبنان، وكان ذا بعد نظر سياسيّ، وهو أول من نصّح المشايخ المخوازنة بإعادة النظر في سياستهم تداركاً لسوء العاقبة قبل ثورة طانيوس شاهين. وكان بخلاف أحداث ١٨٦٠ قد انتقل سرّاً إلى فرنسا حيث راح ينشر التقارير في الصحف حول المذابح التي كان يتعرّض لها شعبه في لبنان، ما جعل الرأي العام الفرنسي يتحرّك بفعالية. وكان المسؤول الوحيد الذي رفض توقيع الاتفاق الذي نصّته اللجنة الدوليّة لعدم

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٠٥.

إنصافه. ومن أجل أعماله أنه رطب الأجواء بين المشايخ الخوازنة والعامّة الذين ثاروا عليهم، فعاد الأولون وتسلّموا أرزاقهم التي كان رجال الثورة قد اسولوا عليها.

حاول السلطان العثماني أن يسلب البطريرك الماروني آخر امتيازاته، فأرسل إلى المتصرف يطلب إليه إيلاغ البطريرك المنتخب حديثاً أن عليه طلب الفرمان من السلطان وإلا اعتُبرت ولايته غير شرعية. فكان ردّ يوحنا الحاج:

نحن الموارنة أبناء لا غرباء، والأبناء ليسوا بحاجة لأن يُعترف بحقوقهم.

جعل يوحنا الحاج للبطريركية المارونية صرحاً شتوياً في بركي، حيث شيّد بناءً فخماً فسيح الأرجاء على أنقاض الدير القديم، لا يزال قائماً حتّى اليوم شاهداً على أنه كان أهمّ صرح عرفه لبنان يومذاك. وقد تمكّن من ضمّ أملاك واسعة إلى البطريركية، كما رصد أموالاً كثيرة لتجديد المدرسة المارونية في روما التي كانت قد أُفقلت مدّة قرن بسبب الأحوال الاقتصادية، وأنشأ وكالتين بطريركيتين مارونيتين في كلّ من أورشليم وباريس. ومن أهمّ مراسيمه أنه حرّم تعاطي الميسر وحضور مجالسه. وكان هذا البطريرك آخر بطاركة القرن التاسع عشر، إذ توفي نهاية سنة ١٨٩٨، ليلة الميلاد.

البطريرك الياس الحويك

رائد لبنان الكبير

خلف البطريرك الحاج أول بطاركة القرن العشرين: الياس الحويك، الذي انتخب بداية سنة ١٨٩٩، فاستهلّ منشوره الأول بقوله إنه سيبذل جهده لتعزيز رعيته. ثمّ إن اسم هذا البطريرك قد اقترن بـ "لبنان الكبير". فلقد كان من أهمّ الدّاعين إلى إعادة نطاق جبل لبنان إلى ما كان معروفاً به من التخوم تاريخياً وجغرافياً، ذلك أن ممثلي

الشعب اللبناني قد انتدبوه إلى مؤتمر الصلح في باريس بعد الحرب العالمية الأولى، للمطالبة باستقلالهم واسترجاع الأراضي المسلوكة من لبنان. وقد قام بمهمته بحماس وإخلاص، واثقاً من أن قيام دولة حديثة مركبة من شأنه أن يبعد عن رعيته مخاطر المستقبل، وقد اعتقد أن من شأن هذا الاتحاد أن يزيل الأحقاد من قلوب المتخاصمين. غير أن المستقبل لن يكون عند حسن ظنّ هذا البطريق. وسوف تعود ظروف الشؤم لتعيد الاقتتال بعد أكثر من مئة عام كانت قد مرت على أحداث بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ففي تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩، أُلّف مجلس إدارة لبنان وفداً من أعضائه ليعرض على مؤتمر الصلح مطالبه، وكان هذا الوفد مؤلفاً من: داود بك عمّون مندوباً أولاً، والأعضاء: محمود بك جنبلاط وأميل إدّه وإبراهيم بك أبو خاطر وتامر بك حمادة. وأمّا مطالب مجلس الإدارة، فتتلخّص بما يلي:

أولاً: إستعادة الأنحاء المنسلخة عن لبنان في عهد الدولة العثمانية.

ثانياً: الإعتراف باستقلال لبنان التام وبحقه في اختيار نوع الحكم الذي يصلح له.

ثالثاً: إنشاء مجلس نواب منتخب على قاعدة التمثيل النسبي تأميناً لحقوق الأقليات،

ويكون لهذا المجلس حقّ التشريع والتمتع بجميع ما تتمتع به مجالس النواب في

الحكومات الديمقراطية في العالم من الحقوق والامتيازات.

رابعاً: مساندة فرنسا له ومساعدتها لحكومته الوطنية وتأييدها لاستقلاله.

وفوض مجلس الإدارة إلى المندوبين المذكورين أعلاه عرض هذه المطالب على مؤتمر الصلح المشار إليه، وملاحقة تأييدها وتقريرها. وعاد الوفد بعد بضعة أشهر دون الحصول على مبتغاه، لأنّ الأمير فيصل لم ينفك عن مواصلة مسعاه في ضمّ لبنان إلى سورية، وحمل الحلفاء على الاعتراف بأنّ هذين البلدين هما من البلدان والممالك العربية. وفي ٣ شباط (فبراير) ١٩١٩، تقدّم هو بنفسه إلى مؤتمر الصلح

بمطالبه مدّعياً أنها مطالب الأقطار العربيّة برمتها، وفي مقدّمتها المطلب المتعلّق بسيطرته على لبنان وسورية. وبالرغم من أنّ المؤتمر لم يستجب إلى طلبه بضمّ لبنان إلى سورية، فقد تمكّن، خلال وجوده في باريس، من حمل الحكومة الفرنسيّة على الاعتراف بحكمه لسورية، مقابل وعد حرّ من جانبه بأن يوعز إلى "الحزب العربيّ" في دمشق بالاعتراف بالانتداب الفرنسيّ. وبعد رجوعه في أيار (مايو) ١٩١٩، أخذ يجهد بكلّ قواه من أجل استمالة لبنان إليه، على أن يكون هذا البلد مضمومًا إلى سورية التي هو أمير عليها. ومما زاد فيصل تشبّثًا بمطلبه ما شهده في باريس من فشل للوفد اللبنانيّ الذي أخفق في مهمّته، رغم مجاملة الحكومة الفرنسيّة لأعضائه، وما رآه من سعي الفرنسيّين لحمل اللبنانيّين على الانضمام إلى دمشق. فلم يذعن اللبنانيّون لما كان يصبو إليه الأمير، واتّفقوا على ألاّ يمتنعوا من بسط سيادته على لبنان. فعزموا على عدم ضمّ بلادهم إلى سورية ونادوا باستقلالهم، وأجروا مظاهرات سلميّة أمام سرايا بعدا وسرايا وجونيه وغير أماكن. وتألّفت وفود من كبار القوم وأتت إلى بكركي تطلب إلى البطريرك الياس الحويّك تحقيق رغبتها بأن يسافر إلى باريس سعيًا وراء استقلال لبنان^١. وقد انضمّ إليهم مسيحيّو بيروت والبقاع والشمال ومرجعيتون وقسم من دروز لبنان. أمّا البطريرك فجمع أساقفة الكنيسة المارونيّة في بكركي وفاوضهم في هذا الأمر الهامّ؛ فأجمع الأحرار على الاستجابة لرغبة اللبنانيّين. وبالرغم من أنّ البطريرك كان قد بلغ السادسة والسبعين من سنيه، فلم يحجم عن تجسّم مشقّات السفر وركوب البحر، مستهينًا في سبيل استقلال لبنان أغلى التضحّيات ومستسهلاً أقسى المشقّات. وفي يوم الثلاثاء ١٥ تمّوز (يوليو) ١٩١٩، سافر البطريرك الحويّك بتفويض من مجلس الإدارة، على ظهر الباخرة "كسار" إلى روما،

١ - لمزيد من التفاصيل عن سفر الحويّك إلى باريس، راجع حروفوش، مرجع سابق، ص ٥٩٤ - ٦٠٠.

ومنها إلى باريس، بصحبة المطرانين: اغناطيوس مبارك، وبطرس الفغالي، والخوري إسطفان الدويهي، وشقيقه لاون بك الحويك، وانضم إليهم في باريس المطرانان شكر الله خوري ويوسف الخازن لوجودهما صدفة في العاصمة الفرنسية، وكذلك المطران كيرلس مغيب مطران زحلة للروم الكاثوليك الذي انتخب في ما بعد بطريركاً، والكاهنان تودوسيوس معلوف وقبريائس شهاب معاوني المطران مغيب.

وصل البطريرك إلى روما في ٢٠ تمّوز (يوليو) وهناك قضى مدة شهر راح يمهّد فيها لنجاح زيارته إلى فرنسا. وفي ٢١ آب (أغسطس)، سافر إلى باريس حيث قوبل بأجمل مظاهر الترحاب والإجلال. وبعد أن استقبله الرئيس "ريمون بوانكره"^١ رئيس الجمهورية الفرنسية في قصر الإليزيه في ٢٨ آب (أغسطس) ١٩١٩، و"جورج كليمنصو"^٢ رئيس الوزراء وبعد أن اجتمع مراراً بأقطاب السياسيين الفرنسيين وتبادل الزيارات مع ممثلي الحلفاء في باريس، وباحثهم في ما قدّم لأجله إلى العاصمة الفرنسية، تقدّم البطريرك في ٢٧ تشرين الأول (أكتوبر) إلى مؤتمر الصلح بمنكره إضافية ضمنها مطالب اللبنانيين، وأثبت فيها أهلية لبنان للحكم الذاتي والاستقلال التام، وحقه في الحياة الحرة من القيود السياسية بالحجج والبيّنات، معللاً صواب مطالبه بما تجلّى لعيون العالم المتمدّن من فضائل قومه وأهليتهم لاقتباس أفضل ما في الحضارة العصرية من المميّزات المثبتة للأخلاق والمهذّبة للنفس والموسعة للإدراك^٣.

١ - ريمون بوانكره RAYMOND POINCARRE (١٨٦٠ - ١٩٢٤): محام وسيلسي فرنسي، عضو الأكاديمية الفرنسية، رئيس الوزراء الفرنسي ١٩١٢، رئيس الجمهورية ١٩١٣ - ١٩٢٠، رئيس الوزراء ١٩٢٢ - ١٩٢٤ و ١٩٢٦ - ١٩٢٩، احتلّ "الروور RUHR" ليعضط على ألمانيا لتوقيع معاهدة فرساي.

٢ - جورج كليمنصو CLÉMENTEAU (١٨٤١ - ١٩٢٩): صحافي وسيلسي فرنسي، رئيس الوزارة الفرنسية ليل الحرب للكونية الأولى ١٩١٧، لقّب بلبي النصر، وقّع معاهدة الصلح في باريس المعروفة بمعاهدة فرساي ١٩١٩.

٣ - صغير، الكنيسة المارونية، ص ٣٢٥ - ٣٢٦، حيث وضع الحاشية التالية: هناك نسخة عن هذه المنكره في أرشيف البطريرك الياس الحويك الذي نظّمناه حديثاً، وقد ضُمّت إلى إضبارة "سفر البطريرك الحويك إلى باريس سميّاً وراء استقلال لبنان".

وبعد هذه المراجعات والاتصالات، قدّم رئيس وزراء فرنسا السيّد كليمنصو إلى البطريرك الحويّك وثيقة يعترف فيها بحقوق لبنان وصواب مطالبه، ويعاهده، باسم الحكومة الفرنسيّة، على العمل لصيانة هذه الحقوق وتحقيق تلك المطالب. ومما جاء في هذه الوثيقة:

إنّ رغبة اللبنانيين في المحافظة على حكومة ذاتيّة ونظام وطنيّ مستقلّ تتفق تمام الاتفاق مع التقاليد الحرة الفرنسيّة. وليكن اللبنانيون على ثقة من أنّهم بمعاوضة فرنسا ومساعدتها سيحافظون على تقاليدهم ويوسّعون نطاق نظمهم السياسيّة والإداريّة ويعملون بأنفسهم لاستثمار كلّ منافع بلادهم، وذلك بالاستقلال عن كلّ جماعة خارجة عن نطاق وطنهم^١.

بعد تسلّمه عريضة رئيس الوزراء الفرنسيّ بسرور لنجاح مهمّته في باريس، غادر العاصمة الفرنسيّة مرتاح الضمير مطمئنّ البال إلى ما لقيه من الحفاوة والإكرام، وإلى ما أدّت تلك المساعي من تحوّل في السياسة الأوروبيّة بوجه عامّ، والسياسة الفرنسيّة بوجه خاصّ لصالح استقلال لبنان. وصادف وجود البطريرك الحويّك في باريس آنذاك ذهاب الأمير فيصل إليها. ولمّا قابل هذا الأخير كليمنصو رئيس الوزراء الفرنسيّ وباحثه بشأن مسألة لبنان والشواطئ البحريّة، حصل منه على هذا الجواب الفاصل:

قد كان لبنان دائماً مستقلاً، ولا أريد منذ الآن وصاعداً أن تفكّر به أو تطمع بضمّه إلى سورية.

وحمل البطريرك معه إلى لبنان، الذي وصل إليه في ٢٥ كانون الأوّل (ديسمبر) ١٩١٩، وثيقة كليمنصو المؤرّخة في ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩١٩، وحمل الأمير فيصل معه معاهدة موقّعة منه ومن كليمنصو نفسه، جاء في أحد بنودها:

١ - حروفش، مرجع سابق، ص ٦٠١ - ٦٠٢.

يعترف صاحب السمو الملكي الأمير فيصل باستقلال وسلامة لبنان تحت الانتداب الفرنسي، وستعين الحدود في مؤتمر الصلح ويؤخذ هذا بعين الاعتبار لإتمام حقوق ومصالح وأمانى الأهلىن^١.

غير أن الأمير فيصل لم يتقيد بالمعاهدة في ما يتعلق بحدود لبنان، وخصوصاً بعد عقد مؤتمر "سان ريمو"^٢، وصرح بعد عودته من مؤتمر الصلح، وبيده المعاهدة، بأن لبنان لا تتوسّع حدوده، وإنما يستقلّ عن سورية فقط. فقلقت الخواطر لهذا التصريح، واضطرب بال البطريك وأوجس خيفة من أن تهدم أنواء السياسة المعادية ما بناه في باريس من أسس واتفاقيات لقيام دولة الاستقلال. فعمد عندئذ إلى إيفاد نائبه المطران عبد الله خوري رئيساً للوفد الثالث، لإكمال ما بدأ به ومتابعته. فرافق المطران خوري في مهمته هذه كلّ من "الأمير توفيق أرسلان" و"الشيخ يوسف الجميل" و"إميل أدّه"، ولحق بهم في ٢٤ آذار (مارس) ١٩٢٠، المطران كيرلس مغبغب. وقد غادر المطران عبد الله خوري بكركي في أول شباط (فبراير) ١٩٢٠، وأبحر مع الوفد المرافق في الثاني منه، بعد أن أصحابه البطريك الحويك بكتابات توصية إلى رئيس الجمهورية الفرنسية ورئيس وزرائها والوزراء. ودفع إليهم بعد وصوله إلى العاصمة الفرنسية صكّ التوكيل الرسمي من البطريك الماروني ومن مجلس إدارة لبنان. وهذا أهم ما جاء فيه:

لما كان المجلس الممثل للشعب اللبناني نيابياً قد وجّه، في مضبطته الصادرة في تاريخ ١٩ حزيران (يونيو) ١٩١٩، رجاء وتكليفاً إلى غبطة البطريك الماروني الياس الحويك بالسعي لدى مؤتمر الصلح وسائر رجال الحلّ والعقد في باريس

١ - حرفوش، مرجع السابق، ص ١٦١١ راجع: صغبر، الكنيسة المارونية، ص ٣٢٦ - ٣٢٧.

٢ - مؤتمر سان ريمو SAN REMO : عقده مجلس الحلفاء الأعلى في مدينة سان ريمو في غربي إيطاليا ٥ أيار (مايو) ١٩٢٠ لدرس قضايا الانتداب والبترول في الشرق الأوسط، تقرر فيه تقسيم البلاد العربية ووضعها تحت الانتداب على أن يكون لبنان وسوريا لفرنسا، والعراق وفلسطين لبريطانيا.

وغيرها "في سبيل" تأييد استقلال جبل لبنان الكبير بحدوده التاريخية والطبيعية، استقلالاً تاماً إدارياً وسياسياً وفقاً لقرارات المجلس السابقة؛ ولما كان من الضروري للمصلحة الوطنية أن يوجد الآن من يلاحق المطالب اللبنانيّة المقدّم ذكرها لدى المراجع الإيجابية؛ فبناءً على ذلك كلّه، قد قرّر هذا المجلس توكيل سيادة المطران عبد الله خوري الموجود الآن في باريس لإكمال السعي لدى مؤتمر الصلح وسائر المراجع الإيجابية في باريس وغيرها للحصول على المطالب والأمانى المارّة بيانها على الشكل المصرّح به في هذه المضبطة، وتقرير هذه الحقوق في مؤتمر الصلح بالصورة النهائية في ٢٨ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠. وتلي التواقيع: حبيب باشا السعد رئيس المجلس، خليل عقل، سعد الله الحويّك، عبد الحليم الحجّار، محمود جنبلاط، داود عمّون، سليمان كنعان، محمد الحاج محسن، محمد صبرا دلاغور، فؤاد عبد الملك، الياس شويري، نقولا غصن، يوسف بريدي^١.

وصل الوفد إلى باريس في ١١ شباط (فبراير) ١٩٢٠، وأخذ فور وصوله في مباشرة مهمّته. فزار أولاً "جورج بيكو" المطلّع على ماجريات الحوادث في لبنان، فأعلمه هذا أنّ أرباب الأمور عقدوا العزم على توسيع حدود لبنان بضمّ بيروت والبقاع إليه. وبعد اتّصالات عديدة واجتماعات مطوّلة وزيارات فردية وجماعية لشخصيات فرنسية بارزة، وبعد مناقشات في المجالس الخاصة والعامة، وبوجه خاص في مجلسي الوزراء والنواب الفرنسيّين، عُيّنَت حدود لبنان بموجب الخارطة التي كان قد رسمها أركان حرب الحملة الفرنسية سنة ١٨٦٠، وهي تضمّ، إضافة إلى الجبل اللبناني، بيروت وطرابلس وصور وصيدا، وسهل البقاع مع راشيا وحاصبيا ومنطقة الهرمل -

١ - صغير، لكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٢٧ - ٣٢٨، حيث جاء هذه الحاشية: نستقي هذه المعلومات الدقيقة من يوميات سفر المطران عبد الله خوري إلى باريس التي ما تزال محفوظة في إضبارة خاصة به في أرشيف بكركي؛ ومن مؤلّف الأب حرفوش، مرجع سابق، ص ٦١٤ - ٦١٨؛ ومن مخطوطة أطروحة دكتوراه أعدّها حكمت الحذاد، وناقشها بإشرافنا في قسم لتاريخ في جامعة الروح القدس، ١٩٨٥، بعنوان: الأوضاع السياسية في لبنان بين ١٩١٨ - ١٩٢٠، ودور البطريركية المارونية في إعلان دولة لبنان الكبير.

بعلبك. ولمّا رأى رئيس الوفد مع مرافقيه أنّ مهمّتهم قد انتهت، عادوا إلى لبنان في ١٦ أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠. وفي هذه الأثناء كان "الجنرال غورو" قد أعلن في اليوم الأول من أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠، استقلال دولة لبنان الكبير في قصر الصنوبر في بيروت، وكان إلى يمينه البطريرك الياس الحويّك، وإلى يساره الشيخ مصطفى نجا^١، ومن حولهم الأساقفة والرجال الرّسميّون والوجهاء والأعيان. وعلى أثر هذا الإعلان، صدر مرسوم بتنظيم دولة لبنان الكبير؛ فقُسمت البلاد إلى متصرفيّات وأقضية، وأعيد تنظيم دوائر الحكومة المركزيّة على قاعدة الوزارات المصغّرة، وعيّن لها مستشارون فرنسيّون. أمّا منصب الحاكم العام فعُهد إلى "الكومندان ترابو" الذي بقي في منصبه حتّى ١٢ أيار (مايو) ١٩٢٣. وظلّ لبنان بحدوده الحاضرة تحت الانتداب الفرنسيّ من ١٩٢٠ حتّى ١٩٤٣. ولمّا كان، طيلة هذه المدّة، فريق من اللبنانيين يأبون الاعتراف بلبنان كدولة مستقلّة ويطلبون من حين إلى آخر الإلتحاق بسورية، عقّد في سنة ١٩٤٣ مؤتمر عامّ حضره أصحاب رأي ورجال سياسة مسيحيّون ومسلمون، وفي طليعتهم "الشيخ بشاره الخوري" و"رياض الصلح"، وتمّ الاتفاق فيه بالإجماع على أن يعترف المسلمون بلبنان ضمن حدوده الحاضرة وطناً لهم ويعدلوا عن طلب الإلتحاق بأيّة دولة في الجوار، مقابل تخليّ المسيحيّين عن التمسك بأيّ حماية غربيّة وموافقتهم على أن يكون لبنان وطناً لجميع أبنائه على السواء، وأن يتّجه في سياسته اتّجاءاً قومياً استقلالياً وطنياً. وهذا ما أسموه "بالميثاق الوطني"، منذ سنة ١٩٤٣، حتّى يومنا هذا^٢.

١ - الشيخ مصطفى نجا (١٨٥٢ - ١٩٣٧): علّامة، أحد كبار شيوخ العلم والشرع والوطنية في بيروت، مفتي بيروت الأكبر ١٩٠٩ وهو أول مفتي باسم مفتي الجمهورية اللبنانيّة ١٩٣٧ حتّى وفاته، أحد أركان إعلان دولة لبنان الكبير ١٩٢٠ مع البطريرك الياس الحويّك والجنرال الفرنسي غورو، من مؤسسي جمعية المقاصد الخيريّة الإسلاميّة، من آثاره: "مولد الصفا في مولد المصطفى"، "مظهر الصعود منبذ الوجود"، "تلاوى"، "ديوان شعر ولّغته"، "هنة المعراج"، "بيان مشروعيّة الحجاب"، كشف الأسرار لتوير الأفكار، "تصبيحة الإخوان بلسان الإيمان".

٢ - صفيّر، الكنيسة المارونيّة، مرجع سابق، ص ٣٢٧ - ٣٢٩.

المَوارِنَة والجُمهُورِيَّةُ اللَّبنانيَّةُ

مهما قيل في شكل النظام السياسي للبنان، ومهما تعددت النظريات والدعوات، يبقى أمر واقع لا يستطيع أحد طمسه، وهو أن هذه الرقعة الصغيرة من الأرض التي تقع وسط الشاطئ الإسلامي المقابل للشاطئ الغربي المسيحي، هي المونل الأخير للمسيحية الحرة في الشرق. ولم يأت هذا صدفة، بل جاء نتيجة تفاعلات سياسية وعسكرية متواصلة منذ الفتح الإسلامي دون انقطاع. هذا المونل المسيحي قد صهر في داخله أتباع جميع الكنائس المسيحية التي تقاثلت وتصارعت في الشرق عبر التاريخ. ويعود السبب في ذلك إلى أن الكنيسة المارونية التي اتخذت من لبنان قاعدة، والتي بقي قرارها بيدها عندما كانت قرارات سائر الكنائس المشرقية بأيدي سواها، قد صمدت في أرضها بوجه كل الفتوحات. وقد دلت أحداث القرن التاسع عشر، بوضوح، على أن مجتمع الكنيسة المارونية في لبنان ليس منسياً في ضمير الغرب المسيحي الذي، رغم تعارض النظريات، كان له الفضل في إنقاذه من المصير الذي شهدته مجتمعات كنائس أخرى كانت منسية في ضمير الغرب، مثل الأرمن والأشوريين والسريان وسواهم من الشعوب المسيحية التي هُجرت أو ضُربت كياناتها ضربات قاضية. وبتمكّن الكنيسة المارونية، القائلة بالكاثوليكية الرومانية، من البقاء على ما بقيت عليه من وجود كيان في لبنان، صار لبنان مقصداً لتلك الكنائس المسيحية التي شُنت أو هُجرت من أنحاء الشرق. وبذلك بقي الطابع المسيحي طاغياً على هذا البلد الذي كانت رقعته تتسع حيناً أو تضيق، على أن اسم لبنان قد اقترن باسم الكنيسة المارونية اقتراناً غير قابل للانفصام، مثل اقترانه بالمسيحية الحرة في الشرق.

خرج لبنان من الحرب العالمية الأولى التي استشرى فيها جور الأتراك وظلمهم، جائعاً مريضاً مهدّماً منهوك القوى. وبعد أن وُضع لبنان تحت الانتداب الفرنسي لسنتين، أعلن المفوض السامي الأول: الجنرال غورو، في أول أيلول (سبتمبر) ١٩٢٠ في بيروت، إعادة لبنان الكبير إلى الوجود. وقد أعيد إلى لبنان، تبعاً لذلك، بيروت التي أصبحت العاصمة، وصيدا وصور وطرابلس، إضافة إلى المدن والمقاطعات الداخلية مثل كامل البقاع وبعبك وحاصبيا وراشيا ومرجعيون، وقد كانت سابقاً جزءاً من لبنان تاريخياً وجغرافياً. مساحة الأرض هذه التي أعيدت إلى لبنان وكانت أن تضاعف مساحة لبنان المتصرفية وأن تضيف إلى عدد سكّانه النصف، شكّلت كسباً للبنان الدولة، قد قابله "عدم تجانس في السكّان ونقص في التمازج والترابط. ذلك أن لبنان فقد التوازن الداخلي الذي كان ينعم به سابقاً... أمّا الأكثرية المسيحية فلم تعد تلك الأكثرية الساحقة التي كانت تحتفظ بها من قبل"^١. فإنّ عدد سكّان لبنان حسب إحصاء ١٩١٣ كان يقدر بـ ٤١٤,٨٠٠ نسمة منهم ٣٢٩,٤٨٢ من المسيحيين (ومن هذا العدد ٢٤٢,٣٠٨ من الموارنة). أي أنّ نسبة المسيحيين من مجموع عدد السكّان كانت تشكّل ٤٣,٧٩ بالمائة. ونسبة الموارنة كانت تشكّل، في ذلك الإحصاء، ٥٨,٤١ بالمائة. غير أنّه بعد إعلان لبنان الكبير أصبح مجموع عدد السكان، ٦٢٨ ألفاً و ٨٦٣ نسمة. وأكثريّة عدد السكّان الذين أصبحوا لبنانيين بعد إعلان لبنان الكبير، أضحت من المسلمين الشيعة الذين كانوا يسكنون في مناطق مهمة ومتأخرة اقتصادياً واجتماعياً^٢.

١ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٩٨.

٢ - حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٧٩؛ راجع: HIMADEH SAÏD , *ECONOMIC ORGANISATION OF SYRIA* (BEIRUT, 1936).

بطَارَكَةُ المَوَارِنَةِ

فِي الجُمهُورِيَّةِ اللَّبْنَانِيَّةِ

فِي ٢٦ أيار (مايو) ١٩٢٦ أُعلنت دولة لبنان جمهوريّة. وكانت أول جمهوريّة من نوعها أسست في العالم العربيّ. وقد وُضع لهذه الجمهوريّة دستور مستمدّ في روحه من الدساتير الغربيّة العصريّة، فلم ينصّ على أنّ للدولة ديناً معيّناً كما هي الحال في دساتير البلدان العربيّة المجاورة، بل إنّ حرّيّة العبادة في لبنان حقيقة ثابتة. وفي سبيل المحافظة على التوازن الاجتماعيّ الطوائفيّ، نشأ تقليد يكون بموجبه رئيس الجمهوريّة مارونيّاً، كون الموارنة هم المجموعة الدينيّة الأكبر في لبنان، ورئيس المجلس النيابيّ شيعيّاً، ورئيس الوزراء مسلماً سنيّاً، ووزير الدفاع درزيّاً^١.

فِي هذه الأثناء أصبح الحكم الفرنسيّ في لبنان غير مباشر، وقد استعيض عن "المفوض السامي" الفرنسيّ بـ "مستشار". هذا لناحية التسمية، أمّا عمليّاً فقد كانت صلاحيّات المستشار أضعف بقليل من صلاحيّات المندوب، خاصّة وأنّ القوى الأمنيّة كانت لا تزال في أيدي الفرنسيّين. وقد شهدت حقبة الانتقال من وضع الحدود والدستور للبنان الكبير إبان الانتداب الفرنسيّ إلى مرحلة الاستقلال التامّ الناجز بعض الأحداث السياسيّة والأمنيّة، إذ كان الفرنسيّون، قبل الحرب العالميّة الثانية، يسعون إلى الحفاظ على موقع لهم في لبنان عن طريق المعاهدات الأمنيّة والسياسيّة، بينما كان القادة الوطنيّون يعملون على تحقيق استقلال كامل لبلدهم. وقد اشترك زعماء جميع المجتمعات / الطوائف، أو أكثر أولئك الزعماء على الأقلّ، في العمل من أجل هذا الهدف الذي تحقّق فعلاً في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٤٣. وفي ٣١ كانون الأوّل

١ - راجع: حتّي، لبنان في التاريخ، ص ٥٩٩؛ يشير إلى أنّ للعرف قد أصبح في صلب نصّ الدستور بعد تعديله بموجب اتفاق الطائف وتعديلاته ١٩٩٨.

(ديسمبر) ١٩٤٦ تمّ جلاء الجيوش الفرنسيّة عن كامل الأراضي اللبنانيّة، فأصبح لبنان بذلك بلدًا سيّدًا حرًّا مستقلًّا يمتّع بكامل الصفات الحقوقيّة الدوليّة والإقليميّة.

قبل ذلك التاريخ، وبينما كان الحلفاء يقرّرون الشكل الجيوسياسيّ لمستقبل الشرق الأوسط، كانت قد عمّت البلاد العربيّة دعوة لإنشاء دولة عربيّة آسيوية واحدة. وكان الداعي لذلك الحسين بن عليّ (١٨٥٦ - ١٩٣١)، شريف مكّة المولود أصلًا في الآستانة حيث نشأ حتّى عُيّن شريفًا على المدينة الإسلاميّة المقدّسة: مكّة، وعلى الحجاز سنة ١٩٠٨. ومن هذا الموقع راح يدافع عن حقوق العرب ويعرقل التدخّل التركيّ ويرفض التجنيد الإجباريّ قبل الحرب العالميّة الأولى وفي خلالها. وقد أقام اتصالات سرّيّة مع الإنكليز من جهة، ومع الجمعيّات السريّة العاملة ضدّ العثمانيّين في مصر وسوريّة. وبينما كانت الحرب العالميّة الأولى مشتعلة، انتهز الشريف حسين الظروف فأعلن الثورة العربيّة في صيف ١٩١٦ ضدّ الأتراك، الذين طردهم من مدن الحجاز، وأعلن نفسه ملكًا عليها ثم خليفة سنة ١٩٢٤. لكنّ سياسة الحلفاء، واتفاقيّة سايكس - بيكو^١، حالتا دون تحقيق هدفه القاضي بإنشاء دولة عربيّة آسيوية واحدة تحت التّاج الهاشميّ. وقد هاجمه ابن سعود سنة ١٩٢٤ فاضطرّ إلى ترك الحجاز وأقام في نيقوسيا القبرصيّة. ثمّ توفيّ في عمّان ودُفن بالحرم الشريف. وكان ابنه فيصل (١٨٨٣ - ١٩٣٣) الذي ثار هو الآخر على العثمانيّين في الحرب العالميّة الأولى، قائّدًا عامًّا للجيش العربيّ المحارب في فلسطين. وقد نوّدي به ملكًا عربيًّا على كامل منطقة الهلال الخصيب سنة ١٩٢٠، فتزعّم تيّارًا مناهضًا لتقسيم

١ - إتفاق سايكس - بيكو SYKES - PICOT : هو اتفاق سرّي جرى بين فرنسا وبريطانيا وروسيا حول مناطق النفوذ في أسيّة للصغرى بعد انهيار الأمبراطوريّة العثمانيّة في الحرب العالميّة الأولى. حول بنود هذه الاتفاقية السريّة راجع: زين نور الدين زين، الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتيّ سوريا ولبنان، دار النهار للنشر، (بيروت، ١٩٧٧) ص ٧٠ - ٧١.

المنطقة إلى دول متعدّدة، وقاد ثورة التحق بها تيّار كثيف من تلك البلدان، فكان ذلك التيّار جامعاً بين المسلمين السنّة الذين حلموا بإعادة الخلافة العربيّة، وسائر أبناء المذاهب الاسلاميّة المنشقّة التي عجزت عن تحقيق أهدافها بإنشاء كيانات مستقلّة لها في النظام الجديد لهذه المنطقة الذي رسمه الحلفاء. غير أنّ المسيحيّين اللبنانيين قد ناهضوا التيّار الفيصليّ من منطلقهم الاستراتيجيّ الطبيعيّ. هذه هي الخلفيّة الأساسيّة لاختلاف الرؤية الكيانيّة لدى مختلف القوى التي باتت تشكّل شعب "لبنان الكبير" وبالتالي شعب "الجمهورية اللبنانيّة".

فعندما أقرّ مجلس الحلفاء الأعلى في "سان ريمو" الانتداب الفرنسيّ على سورية ولبنان في ٢٨ نيسان (إبريل) ١٩٢٠، بالرغم من احتجاج الحكومة الفيصليّة العربيّة في دمشق، صُعق القوميّون العرب للنبا، فيما استقبلته أغليّة المسيحيّين في لبنان بالارتياح. وقد عقب ذلك مقاومة من قبل جيش فيصل للجيش الفرنسيّ الذي هزم الجيش العربيّ في معركة "ميسلون" غرب دمشق في ٢٢ تمّوز (يوليو) ١٩٢٠، وواصل زحفه فاحتلّ دمشق التي غادرها فيصل. وبينما أدّى تعاون اللبنانيين مع سلطة الانتداب إلى قيام الجمهوريّة اللبنانيّة، تعرّض حصول مثل ذلك في سورية نتيجة للموقف العدائيّ الذي اتّخذه القادة الوطنيّون سنة ١٩٢٥ ليشمل سورية كلّها سنة ١٩٢٧. وقد امتدّت هذه الثورة إلى المناطق اللبنانيّة التي يسكنها دروز وشيعة. وكانت الأكثرية المسلمة في المناطق التي أعيدت إلى "لبنان الصغير" سنة ١٩٢٠ قد اعترضت على هذا الإجراء. فلقد كان المسلمون، وخاصّة السنيّون منهم، يرون أنّ انضمامهم إلى الدولة اللبنانيّة التي يسيطر عليها المسيحيّون، يهدّد بفصلهم فصلاً تامّاً عن العالم العربيّ الإسلاميّ الذي ينتمون إليه. فما أن أعلن لبنان الكبير حتّى هبّ المسلمون في بيروت والبقاع ومناطق طرابلس وصيدا وصور إلى المعارضة، فأعلنوا مقاومتهم

للانضمام وطالبوا بإلحاق مناطقهم بسورية"^١. وعندما شَبَّت الثورة الدرزيّة في حوران انضمّ دروز لبنان إلى مسلميه السنّة في مقاومتهم للسياسة الفرنسيّة. وإذا وجد الروم الأرثوذكس أن الفرنسيّين يُظهرون عناية خاصّة بالموارنة "أحجموا عن إظهار الولاء الكامل لدولة كان الموارنة فيها العنصر المسيطر"^٢. كذلك انضمّ الشيعة في بداية تلك المعارضة إلى مقاومة الدولة الجديدة، ومع الأيّام، "أقلع جانب كبير منهم عن المقاومة... إذ أدركوا، تدريجاً، أن وضعهم كأقليّة كبرى في لبنان خير لهم من وضعهم كأقليّة صغرى في دولة سورويّة شاملة"^٣. وعندما دعا هنري دي جوفينيل^٤ المجلس التمثيليّ إلى سنّ دستور للبنان سنة ١٩٢٥، قامت المظاهرات وأعمال الشغب في مختلف المناطق الإسلاميّة بحجّة أن المسلمين لا يرغبون في دستور لبنانيّ لا بدّ من أن يكرّس حدود لبنان الكبير.

وبعد ثلاث سنوات من ذلك التاريخ، حدث ما أقلق مسيحيّ لبنان، إذ قصد فريق من وجهاء المسلمين اللبنانيّين العاصمة السوريّة دمشق، حيث كان ينعقد اجتماع الجمعيّة التأسيسيّة السوريّة، وطالبوا بأن يتضمّن الدستور السوريّ الذي كان قيد الوضع "حقّ سوريّة بالمناطق الإسلاميّة في لبنان". فكان من نتيجة ذلك أن برز تيّار مارونيّ بزعامة "إميل إدّه" يشدّد على ضرورة إيجاد الضمانة الخارجيّة لاستقلال لبنان، يناهضه تيّار مارونيّ آخر بزعامة "بشارة الخوري" رأى في البلاد العربيّة مجالاً طبيعياً لنشاط لبنان الاقتصاديّ. وقد أصرّ قادة هذا التيّار على ضرورة توثيق

١ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، مرجع سابق، ص ٢١٢.

٢ - المرجع السابق، ٢١٣. ٣ - المرجع السابق.

٤ - هنري دي جوفينيل JOUVENEL (١٨٧٦ - ١٩٣٥): ولد وتوفي في باريس، منسوب فرنسا للسامي في سورية ولبنان ١٩٢٥ - ١٩٢٦، في عهده وضع دستور للجمهورية اللبنانيّة وانتخب الرئيس اللبنانيّ الأوّل شارل بعلس.

العلاقات مع البلدان العربيّة دون الوصول إلى حدّ الوحدة^١. ومن هذين المنطلقين كان تيّار إدّه الذي سيُعرف في ما بعد بحزب "الكتلة الوطنيّة"، يرى في استمرار الانتداب الفرنسيّ ضماناً لاستقلال لبنان، بينما كان تيّار الخوري وهو الذي سيُعرف في ما بعد بالحزب الدستوريّ، يعتبر الانتداب حائلاً دون تحقيق التعاون بين المسيحيّين والمسلمين، وفيما امتعض تيّار إدّه من إصرار اللبنانيين المسلمين على معارضة الكيان اللبنانيّ بوضعه الراهن، رأى تيّار الخوري بأنّ هذه المعارضة الإسلاميّة لا بدّ من أن تزول، أو على الأقلّ تتعدّل، إن أبدى المسيحيّون بعض التفهّم لموقف المسلمين من الانتداب وكفّوا عن المغالاة في إظهار الصداقة لفرنسا^٢.

كان من الطبيعيّ أن يتسلّم المواردنة، كلبنانيّين، دقّة الحكم في جمهوريّة كان لهم الدور الأساسيّ في خلقها. وكان من الطبيعيّ أيضاً، بعد أن قامت الجمهوريّة اللبنانيّة لتجسّد فكرة الاستقلال والدفاع عن حدود الدولة وسلامة أراضيها، أن تحلّ هذه الدولة محلّ الكنيسة المارونيّة في تحمّل المسؤوليّات السياسيّة والوطنيّة. إلّا أنّ الكنيسة، كمؤسسة دينيّة وروحيّة، بقي عليها أن تدافع عن حرية المعتقد والأخلاق، وأن تُنمّش الروح الوطنيّة في الكيان اللبنانيّ، وأن تحارب الإلحاد والنود عن الإيمان في مواجهة الهرطقات، وأن تقاوم الجشع والطمع وكَبّت الحريّات، وأن تُكافح الظلم والإباحيّة وتردّي الأخلاق من استرسال في استباحة المحرّمات والإدمان على المخدرات، وأن تسهر على القيم والآداب السليمة والمثلّ العليا. هذا ما برح ينادي به، ويدافع عنه، ويدعو له جميع البطارقة الموارنة على مرّ التاريخ، وبوجه خاص بطارقة القرن

١ - راجع: HOUANI ALBERT, *LEBANON FROM FENDALISM TO MODERN STATE*, MIDDLE EAST STUDIES, II (1966) PP. 262-263

٢ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢١٧.

العشرين: من الياس الحويك إلى أنطون عريضة، فإلى بولس المعوشي، فإلى الكردينال أنطونيوس خريش^١، إلى الكردينال نصرالله صفيّر*، الذي لم يترك ساحة دون أن يُسمع صوته في المحافل الدينية والمدنية المحلية والدولية، ويتخذ الموقف الحكيم والرزين الذي يمليه عليه الضمير، من الأشخاص والأحداث.

على صعيد الكيان، شهد لبنان المستقل على مدى الخمسين سنة من استقلاله خضات سياسية وأمنية، كان أخطرها تلك التي وقعت بين سنتي ١٩٧٥ و ١٩٩٠، ناهيك عن تلك التي وقعت سنة ١٩٨٥. ومهما حاول المجمعون ترميم صورة تلك الأحداث، فلا شك في أنّ "الطائفية" التي تشكّل أساس الانتماء الاجتماعي السياسي في لبنان، كانت المرتع الخصب لوقوع تلك الأحداث. وإنّ إلقاء نظرة سريعة على ما حفلت به الصراعات السياسية بين المجتمعات / الطوائف اللبنانية حول مواضيع شكل الدولة وهويتها السياسية ونظامها، منذ إعلان لبنان الكبير، من شأنه أن يظهر الصورة الواضحة لحقيقة مسألات المسيحيين وسائر المجتمعات / الطوائف في لبنان. وعلى ما لعبه كلّ من بطاركة لبنان الجمهورية من أدوار بناءة في المجال الوطني وغير مجال.

البطريـرك

أنطون عريضة

إلى جانب قيام البطريرك الياس الحويك بدوره الوطني الرائد الذي ساهم بشكل أساسي في نشوء دولة لبنان الكبير، أسّس هذا البطريرك العظيم مدرسة مارونية في باريس وأخرى في روما. كما أنشأ الدار البطريكية في القدس. وبنى المقرّ

١ - صفيّر، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

البطريركي الصيفي في الديمان^١. وخصّص جميع أمواله لإنشاء جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات ورعايتها، وبنى لها ديرًا في بلدة عبرين من أعمال البترون ثم اشترى لها ديرًا في بيروت^٢. وبنى معبد "سيّدة لبنان"^٣ الشهير في حريصا

١ - الديمان: قرية في قضاء بشري بجوار حصرون على متوسط ارتفاع ١,٤٠٠ م. عن سطح البحر، وعلى مسافة ١٠٠ كلم عن بيروت عبر كوسبا - حدث الجبّة - بريسات. نقلت البطريكية المارونية مقرّها الصيفي من وادي قنّوين إلى الديمان سنة ١٨٢٣ في عهد البطريك يوحنا الحلو، الذي أقام في منزل قريب من المركز الحالي للبطريكية، المشرف على الوادي المقصّ. بعد الحلو، بنى البطريك يوسف حبيش كنيسة مار يوحنا مارون في الديمان سنة ١٨٦٠، ثم خلفه البطريك يوحنا الحاج الذي باشر بتشييد الكرسيّ البطريكيّ القديم، وتوفّي قبل الانتهاء منه. قتلاه البطريك الياس الحويك الذي قرّر أن يبني الصرح البطريكيّ الحالي ١٩٠٠، وانتهى العمل ١٩٣٩. ثم أكمل البطريك عريضة بناء الكنيسة بتمويل من شقيقه رشيد عريضة. أمّا البطريك المعوشي فأدخل تجديدًا عمرانيًا على الكرسي. ثم جاء عهد البطريك خريش الذي رَمّم الطابق العلويّ. أمّا البطريك الكاردينال صغير فقد كسّى الكنيسة بالقرميد، وجدّد بعض الأقسام والغرف القديمة، وأدخل عددًا من التحسينات على الكرسيّ.

٢ - راجع: راهبات العائلة المقدسة، في فصل "الرهانيّات" من هذا الكتاب.

٣ - معبد سيّدة لبنان: بروي للتكليف أن لوّل من بنى كنيسة في المكان كان جنود أسرتي رزق ويونس الذين جاؤوا من منطقة حريصا قرب تّورين وجلبوا معهم صورة كنيسةهم سيّدة حريصا هناك، وبنوا معبدًا صغيرًا في المكان المسمّى بالرويس من درعون فُرف للمكان منذ ذلك بحريصا. وفي ١٩٠٤ أنشأ معبد حريصا الحالي في محلّة الصخرة المسجّد الذّكر البطريك مار الياس الحويك والمونسنيور كارلوس دوفال القاصد الرسولي في لبنان وسوريا لمناسبة اليوبيل الخمسيني لتحديد عقيدة الحبل بلا دنس التي أعلنها البابا بيوس التاسع ١٨٥٤. أمّا النصب فهو من البرونز المسكوب صنع فرنسا، طوله ٨,٥ م. وعرضه ٥، ووزنه ١٥ طنًا. أمّا القاعدة فمبنية من الحجر الطبيعيّ. علوّها ١٢ م، محيطها الأسفل ٦٤ م. والأعلى ١٢، إذ لها شكل مخروطي، يُصعد إلى قمّتها بدرج لولبيّ محاط بحاجز، فهي، وإن خلت من الفنّ الخزفيّ، تلفت الأنظار بشكلها وروعها. وقد بلغ مجموع ما أنفق على بناء القاعدة ورفع التمثال ما يزيد على ٢٠,٠٠٠ فرنك ذهبًا. وبلغ ثمن التمثال مع كلفة إيصاله إلى حريصا ١٤,٦٠٠ فرنك ذهبًا، وهو مبلغ باهظ يعجز عنه فرد. فكان من البديهيّ أن يشترك فيه الشعب المسيحيّ بأسره بعد أن وجّه البطريك الحويك منشورًا إلى أبناء كنيسة كما وجّه القاصد الرسوليّ للمونسنيور كارلوس دوفال نداء إلى الكنيسة اللاتينيّة لأجل جمع الإعانات والتبرّعات، فكان أن كلّأ من الكنيستين جمعت نصف المبلغ تمامًا. وتمّ إنجاز الصل ١٩٠٧ على يد الملقّم إبراهيم مخلوف من عين الريحانة تحت إشراف الرئيس العام للرئاسة اللبنانيّة الأب شكر الله خوري مطران صور في ما بعد. وتمّت حفلة للتشّفين الأحد الأوّل من أيار ١٩٠٨. وأسندت خدمة المعبّد وإدارته إلى جمعية المرسلين اللبنانيّين البازيليّ: عندما لم تعد كنيسة المعبّد تستوعب العدد الكبير الذي يقصد زيارته خاصّة في شهر المريميّ، قرّرت الإدارة بناء كنيسة كبرى تستوعب ٢,٠٠٠ شخص جلوسًا، تتوسّط ساحات تستوعب ١١٥ ألف شخص، وشمل المشروع مدرسة مجلّبة داخليّة وخارجيّة، وبيت الرياضات للروحانيّة وقاعة محاضرات. ووضّع الحجر الأساس لهذا البناء في ٣١ أيار (مايو) ١٩٧٠ في خلال حفل رسميّ وشعبيّ كبير، وبارك الحجر البطريك مار بطرس بولس المعوشي والسفير البابوليّ. كان ذلك على أثر نجاح تصميم المهندس الشيخ بيار خوري في مسابقة لأجمل تصميم، وكان قوام اللجنة التحكيميّة كبار المهندسين العالميين. وكان المنفّذ المهندس لويس القرداحي وتمّ إنجاز كامل المشروع ١٩٧٥.

ودفع من أمواله الخاصة نصف التكاليف. وفي مدة ثلاث وثلاثين سنة أصدر مناشير كثيرة ألّفت مجموعة كبرى طبعت سنة ١٩٣١ في مطبعة المرسلين اللبنانيين. وبعد جهاد طويل في خدمة الدين والوطن قضى قرير العين بما شاهده من ثمار جهاده، وله من العمر تسعون عامًا، وفي البطريركية ثلاث وثلاثون سنة. وكانت وفاته يوم عيد الميلاد سنة ١٩٣١، فدفن في دير سيّدة بكركي ثم نُقل رفاته بناء على رجاء بنات جمعية راهبات العائلة المقدّسة، غرسة يمينه، إلى دير عبرين من أعمال قضاء البترون، وهو أول دير لهذه الجمعية ومقرّ رئاستها العامة. وأودع رفاته ضريحًا فخماً يعلوه تمثال عظيم من وضع أخيه النحات يوسف الحويك^١.

بعد انقضاء أسابيع على وفاة البطريرك الحويك، اجتمع السينودس الماروني في ١٧ كانون الثاني (يناير) ١٩٣٢، وانتخب مطران طرابلس أنطون عريضة بطريركًا خلفًا للراحل العظيم.

وُلد هذا البطريرك في بشرّي في ٨ آب (أغسطس) ١٨٦٣، والده عبد الأحد، تلقى دروسه العربيّة والسريانيّة في مدارس بشرّي، دخل مدرسة مار يوحنا مارون الإكليريكية سنة ١٨٧٩ ثمّ انتقل إلى مدرسة "سوليبس" الإكليريكية لينهي دروسه العالية، سيم كاهنًا سنة ١٨٩٠. بعد عودته إلى لبنان عيّنه البطريرك يوحنا الحاج كاتماً لأسراره ومحامياً لدعاوى الزواج وفاحصاً للكهنه. رَقاه البطريرك الياس الحويك إلى درجة خوراسقف سنة ١٩٠٥ واصطحبه معه إلى روما حيث منحه البابا رتبة "حاجب سرّي" مع لقب "مونسينيور". عيّنه البطريرك الحويك مطراناً لأبرشية طرابلس سنة ١٩٠٨. عاش حقبة الحرب العالميّة الأولى وهو أسقف فكان من جملة ما فعله أنّه رهن صليبه الذهبي لإطعام جياع خلال الحرب العالميّة الأولى وقد لُقّب بـ

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٢١.

"أب الفقراء". بعد انتخابه بطريركاً بنى جناحاً واسعاً في الديمان وأقام فيه كنيسة فخمة زيتها الفنان صليباً الدويهي بتصاوير رائعة. اشترى داراً في "مرسيليا" فرنسا وجعلها مقراً لكاهن يمثله ويقوم بخدمة الزائرين اللبنانيين والجالية الساكنة هناك. بنى كنيسة ومدرسة للراهبات في "أميون" من أعمال الكورة في شمال لبنان. أسس شركة الترابية اللبنانية في ساحل "شكّا" من أعمال قضاء البترون في شمال لبنان. أنشأ "الإكليريكية العامة" في مدرسة القديس مارون في دير الآباء اليسوعيين في غزير وسلّم إدارتها إلى الآباء اليسوعيين، إضافة إلى إكليريكية ثانية بإدارة البطريرك في مبنى معهد "عين ورقة" في غوسطا ثم نقلت إلى "مار عبدا هريريا"^١، شيد مزاراً لـ "قلب يسوع الأقدس" في بشرى سنة ١٩٣٨. بنى كاتدرائية مار سابا في بشري. أنشأ ميتماً في طرابلس. وعندما وقعت كارثة فلسطين، أصدر أوامره لاستقبال المنكوبين في الأديار وكان يرسل إليهم الإعانات. ويوم الطوفان في سوريا أرسل إلى أحد التجّار السوريين ستين ألف كيس دقيق ليوزّعها باسمه على المنكوبين. له مؤلفات منها: "احكام القراءة السريانية والعربية" ١٩١٤، "رتبة الشهر المريمي" ١٩٣٤، "رسالتان في فن الزراعة"، ١٩٣٥، "لبنان وفرنسا" أو "الكتاب الأزرق" ١٩٣٦، "رسالة في تربية دود القز"

١ - بنت أسرة أصناف المارونية دير مار عبدا هريريا في القطين بقرب غزير على مراحل منذ ١٦٥٥، كان أول البناء الخوري يوسف ابن الخوري أصناف من عرمون الذي ليس إسكيم الرهبان وتبعه في ذلك إخوته إندراوس وقطونيوس ويوحنا وأختهم رققا، ثم تبعهم والداهم بعد أن تشاركوا حقوق الزواج طوعاً وبإذن مطران الأبرشية، وسكنوا جميعاً في هذا المكان الذي حوّلوه إلى دير، (الدويهي، تاريخ الأزمنة، تاريخ ١٦٥٥؛ الدبس، الجامع المفصل، ص ٢٥٧). تعاقب على الدير قس من آل أصناف فرمّموه ووسّعوه. بقي ديراً مختلطاً إلى أن فصل مجمع للويزة ١٨١٨ بين أديار الرهبان والراهبات، وجعل دير مار عبدا هريريا واحداً من الأديار السبعة التي خصّصت لإقامة الراهبات. (الدبس، الجامع المفصل، ص ٣٧١، ٣٧٢). حوّل إلى مدرسة إكليريكية بلمر من البطريرك يوسف حبّيش ١٨٣٠ ووزّعت الراهبات اللواتي كنّ فيه على أديرة الراهبات في كسروان ما عدا الرئيسة وكانت من بيت أصناف، التي فضلت الإقامة في محلّ قرب الدير. نشأ من هذه المدرسة رجال أفاضل منهم المطران يوسف أبي نجم الذي أصبح نائباً بطريركياً، والمطران إسطفان عوّاد، والمطران جرماتوس الشمالي، والمطران يوسف مسعد، ولغيف من الخولانة. (الحتّوني، المقاطعة الكسروانية.)

١٩٣٨، "رتبة منح البركة بالصليب المقدس" ١٩٣٨، "رفيق الإكليريكي" ١٩٣٩، كتاب "الطقوس" لخدمة الأسرار المقدسة ١٩٤٢، "إرجاع الكلام إلى لغة سام" مخطوط، وفي عهده طُبِعَ كتاب الطقوس المارونية القديمة. في آخر أيامه قضى سنتين في الفراش مقاسيًا الآلام مصليًا، توفي في ١٩ أيار (مايو) ١٩٥٥ ودُفن في كنيسة الديمان. ترك وصية أمر بموجبها توزيع أمواله الوافرة الموروثة من عائلته على البطريركية وللمشاريع الخيرية، ولإعالة الكهنة خدمة الرعايا^١.

في بداية ولاية البطريرك عريضة على سدة البطريركية المارونية، كان بعض المسلمين يتعاملون مع النظام اللبناني الناشئ، من خلال اشتراكهم في مؤسساته الرسمية، بينما استمرت أكثريتهم في وضع المعارض للكيان. وكان بعض هؤلاء يُطالب بالاتحاد مع سورية، بينما بعضهم الآخر يدعو إلى وحدة عربية شاملة. وكان بعض زعماء المسلمين قد دعا في ١٩٣٣ إلى مؤتمر برئاسة الزعيم البيروتي السنّي "سليم سلام"، عُرف بمؤتمر الساحل الأول، قرّروا بخلاله بالإجماع المطالبة بضمّ المناطق اللبنانية الإسلامية إلى سورية. وعندما وقعت الاضطرابات في سورية في بداية سنة ١٩٣٦ بين الوطنيين والفرنسيين، اضطربت الأحياء الإسلامية في بيروت، وقامت التظاهرات في طرابلس وصيدا، وسارع سليم سلام إلى عقد مؤتمر الساحل الثاني في آذار (مارس) ١٩٣٦، وصدرت المقررات نفسها التي كانت قد صدرت عن المؤتمر الأول بشأن المطالبة بضمّ المناطق اللبنانية الإسلامية إلى سورية، وقد لاقت هذه الدعوة هبة إسلامية في لبنان ظهر معها وكأنّ الكيان غير قابل للاستقرار.

في مقابل هذا التيار الإسلامي، تكوّن تيار مسيحيّ جديد قال بوجود التمسك بالكيان اللبناني الراهن. وقد تمثّل هذا التيار في منظمة أسسها فريق من الشباب

١ - داغر، بطارقة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٢٢ - ١٢٦.

المسيحيّ على رأسه بيار الجميل الماروني، عُرفت باسم الكتائب اللبنانية. بينما ظهر داعية مسيحيّ آخر، هو "أنطون سعادة" الأرثوذكسيّ المذهب، الذي قال بقوميّة تختلف عن القوميّتين: العربيّة المسلمة، والمسيحية اللبنانيّة، وكانت تلك القوميّة السوريّة، التي التقت مع المسلمين في ضمّ كلّ لبنان إلى سورية دون أن تلقّي معهم في ضمّ أجزاء منه إليها أو إلى سائر العالم العربيّ المسلم. وبينما لاقت دعوة "الكتائب" إقبالاً بين المسيحيّين الموارنة بشكل خاص، راجت الدعوة إلى القوميّة السوريّة في الأوساط الأرثوذكسيّة والإنجيليّة وعند بعض الشيعة والدروز.

وفي الجهة الأخرى، أنشأ المسلمون مجلساً استشارياً لتنسيق مطالب أبناء المذاهب الإسلاميّة في البلاد، فقال هذا المجلس بتشجيع الشباب المسلم على تأسيس منظّمة "النجادة" أوائل سنة ١٩٣٧ للوقوف في وجه "الكتائب".

بقيت الأحوال مضطربة سنة ١٩٣٦ حتّى تمّ توقيع المعاهدة الفرنسيّة السوريّة في باريس. فهدم المسلمون في لبنان حينذاك، ما سمح ببدء المفاوضات في بيروت لعقد معاهدة مماثلة بين فرنسا ولبنان. وبما أنّ السوريين كانوا قد وقّعوا تلك المعاهدة، أصبح القادة المسلمون في لبنان قابليين بتوقيع معاهدة مماثلة. غير أنّ القوى الشعبيّة الإسلاميّة التي كانت لا تزال غير مستعدّة على الإطلاق للاعتراف بالكيان اللبناني، وقد وجدت في المعاهدة تكريساً نهائياً له بحدوده القائمة، هبّت للمعارضة من خلال تظاهرات عنيفة في المناطق الإسلاميّة من بيروت، كما أضربت طرابلس، ووقعت مواجهات دامية "طائفية" في المناطق المختلطة. إلّا أنّ ذلك لم يمنع من توقيع المعاهدة.

أحكم الفرنسيّون قبضتهم على لبنان خلال الحرب العالميّة الثانية، فاضطر جميع القوى السياسيّة إلى الركون. بيدّ أنّه مع سيطرة "الديغوليين" على الموقف في المنطقة، وإعلانهم مع الانكليز منح لبنان وسورية الاستقلال، عادت الحركة السياسيّة في لبنان

سنة ١٩٤٢ إلى سابق نشاطها. وعاد المسرح ليشهد المبارزة بين الكتلة الوطنية (إذه) وبين الكتلة الدستورية (الخوري)، وتجددت الدعوة في أوساط المسلمين إلى الوحدة العربية، بينما دعت الكتلة الدستورية إلى استقلال لبنان استقلالاً تاماً، ودعت الكتلة الوطنية، التي تحفظت بشأن هذا الاستقلال، إلى الحفاظ على بعض الصلات السياسية مع فرنسا.

أمام هذا الواقع، كان من الطبيعي أن تكون دعوة الكتلة الدستورية أقرب إلى المسلمين من دعوة الكتلة الوطنية. وشيئاً فشيئاً وجد بعض القادة المسلمين أن الظرف لا يسمح بأكثر من تحقيق موقع فعال داخل الكيان القائم، وفسّروا موقفهم الجديد بمقولة إن لبنان جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، له خصائص مميزة تستدعي، إلى حين، استقلاله التام. فتمّ على هذا تفاهم بين الدستوريين وكبار الزعماء المسلمين على أساس ما أصبح يُعرف في ما بعد بـ "الميثاق الوطني". وعلى هذا حققت الكتلة الدستورية انتصاراً على الكتلة الوطنية، تُرجم في انتخابات نيابية جرت سنة ١٩٤٣.

في ٧ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٤٤، وقّع لبنان بروتوكول الإسكندرية إعداداً لتأسيس الجامعة العربية الذي سيتمّ في ٢٢ آذار (مارس) من السنة التالية، إلى جانب سورية وشرقي الأردن والعراق ومصر. وإذ أثار هذا الحدث ضجة سياسية مسيحية لأن البروتوكول يحول لبنان إلى بلد غير مستقل، طلب البطريرك أنطون عريضة تشكيل لجنة من المحامين والقضاة، لدراسة بنود البروتوكول وتعديله، فاستُبدل بـ "ميثاق القاهرة".

عايش البطريرك عريضة عهدين إستراتيجيين: عهد الرئيس بشارة الخوري (١٩٤٣ - ١٩٥٢) ونصف عهد الرئيس كميل شمعون (١٩٥٢ - ١٩٥٨) إذ توفي سنة ١٩٥٣. ومنذ فجر الاستقلال كان عريضة يشدّ أزر الحكم الوطني ويمدّه بكلّ عون يعود بالخير

على الجميع. وكان للبطريرك شأنه وكلمته المسموعة في القضايا الحيويّة الكبرى. وقد مدّ هذا البطريرك يداً مخلصّة لكلّ من الرّئيسين من أجل تحقيق أمانى الشعب المشروعة، فاستفاد العهدان من تأييده، وأتى التعاون بين البطريرك وبين رئيس الجمهوريّة بثمار طيّبة. ذلك أنّ البطريرك عريضة لم يكن يبغى من دنياه سوى خير الوطن وشعبه. حتّى إنّهُ في ساعاته الأخيرة أوصى الرئيس كميل شمعون بأن يحافظ دائماً على استقلال الوطن وكيانه^١.

"بطريرك العرب"

مار بولس المعوشي

بعد مرور عشرة أيّام على وفاة البطريرك عريضة، وصل إلى مقرّ البطريركيّة المارونيّة في بكركي في ٢٩ أيّار (مايو) ١٩٥٥ القاصد الرسوليّ في القدس المطران "سيلفيو أودّي"، موفداً من البابا بيوس الثاني عشر، واجتمع إلى أساقفة الكنيسة المارونيّة، بعد أن طلبوا رسمياً للاجتماع في الرابعة من بعد ظهر اليوم المذكور، لسماع براءة موقّعة من الحبر الأعظم. فتلا عليهم الموقد البابويّ البراءة باللغة اللاتينيّة، كما تلا ترجمتها باللغة الفرنسيّة. وهي تعلن تسمية مطران صور بولس المعوشي بطريركاً على كرسي أنطاكية وسائر المشرق للكنيسة المارونيّة خلفاً للبطريرك أنطون عريضة. فتلقّى البطريرك المعين وجميع الأساقفة هذا التدبير البابويّ بمنتهى الخضوع والاحترام^١.

هو الشيخ فريد بن الشيخ أسعد بن شديد بن عازار بن بطرس المعوشي، وُلد في جزّين في أوّل نيسان ١٨٩٤. تلقّى علومه الأولى في مدرسة جزّين وانتقل بعدها إلى

١ - داغر، بطريركة الموارنة، مرجع سابق، ص ١٢٥ - ١٢٦.

٢ - المرجع السابق.

مدرسة الأخوة المريميين في دير القمر ثم إلى معهد الحكمة في بيروت ١٩٠٨. أرسل إلى مدرسة روما حيث تخرج ١٩١٧ مجازاً في الفلسفة واللاهوت وسامه المطران نعمة الله أبي كرم كاهناً باسم بولس على مذبح دير مار أنطونيوس روما، أتقن العربية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والإنكليزية. عاد إلى لبنان ١٩١٩ فعيّنه المطران أغوستين البستاني كاتماً لأسراره. رقي إلى درجة الأسقفية وعيّن أسقفًا على أبرشية صور ١٩٢٧، فوجّه عناية خاصة لرعاياه في حيفا ويافا والناصرية والجليل. عُيّن رئيساً للجنة الأسقفية الرسولية^١ في عهد البطريك عريضة سنة ١٩٤٨. في عهد بطريكيته أنشئت ثلاث أبرشيات في المهاجر، وطوبّ الأب شربل مخلوف لدى اختتام المجمع المسكوني الثاني. وأنشأ المعوشي مؤسسة في جزين نذر لها جميع ما ملكت يدها. وكان من ذواقه الأدب والرواية والشعر وسيد قلم وأمير منابر. لعب دوراً كبيراً في المسار السياسي محلياً وإقليمياً. لُقّب ببطريك العرب. تميّز بشخصيته القويّة وجرأته وشجاعته. زار عدداً من الرؤساء الفرنسيين والأميركيين الذين منحوه أوسمة رفيعة، توفي ودُفن في بركي ١٩٧٥.

عندما بدأ البطريك المعوشي عهده لم تكن الصيغة اللبنانية قد أصبحت متينة البنیان بعد. ذلك أنّ أكثر القادة المسلمين، قد ساروا بهذه الصيغة وبما عُرف بالميثاق

١ - في يوم الأحد ١٣ حزيران (يونيو) ١٩٤٨، زار السفير البابوي "المونسينيور مارينا" صرح بركي، وأعطى البطريك عريضة رقيماً بابوياً صادراً في ٢٨ أيار (مايو) ١٩٤٨ يحدّد فيه، إلى جانب البطريك، بناء على طلب من الأساقفة الموارنة، لجنة أسقفية رسولية من ثلاثة أساقفة مزوّجين بالسلطات الخاصة ليكونوا إلى جانب البطريك في شيخوخته، وذلك "لأنّ الكنيسة المارونية، لأسباب عدّة، كانت تعاني صعوبات خاصة". وقد عيّنت تلك اللجنة برئاسة المعوشي وعضوية الأسقفين عبدالله الخوري وبطرس ديب، وحلّ محلّ الخوري بعد وفاته في شباط (فبراير) ١٩٤٩ المطران اغناطيوس زيادة. وانتهت مهمّة اللجنة الأسقفية بتعيين المعوشي بطريكاً. (خاطر لحد، لبنان ولفتيكان، دار لحد خاطر (بيروت، ١٩٨٩) ص ٨٨ - ٨٩.

٢ - يفهم من الرقم البابوي الصادر عن البابا بيوس الثاني عشر بتاريخ ٢٥ أيار (مايو) ١٩٥٥ الذي عيّن بموجبه المعوشي بطريكاً من قبل روما، أنّ ذلك التعيين كان استثنائياً.

الوطني انطلاقاً من مقولة إنَّ "لبنان خصائص مميّزة تستدعي، إلى حين، على الأقل، استقلاله التام"، وأن يكون استقلال لبنان "تدبيراً عابراً". ولقد عبّر مفتي الجمهورية اللبنانية صراحة عن خلفية موقف المسلمين هذا بعد حوالي خمس وثلاثين سنة، إبان الأحداث "الطائفية" الدامية التي عصفت بلبنان بين منتصف السبعينات وبداية التسعينات من القرن العشرين، إذ قال إنه "لم يكن بإمكانهم أن يغيّروا ما حصل، أملاً بأن يأتي يوم آخر يكون أبرك من هذا اليوم، وظرف أحسن من هذا الظرف، لعلّ الله يحدث بعد ذلك أمراً...".^١

ولم يكن الميثاق الوطني، بنظر المسلمين في لبنان، حاضياً باعتبار أفضل من الاعتبار الذي حظيت به الصيغة. ففي بداية تلك الأحداث اللبنانية المشؤومة في الربع الأخير من القرن العشرين، ومع اشتداد قوّة المقاومة الفلسطينية التي نشأت وترعرت في لبنان، حيث نشأ وترعرع بينها وبين المسلمين تحالف استراتيجي وثيق، وقد شعر المسلمون بأنهم، بالتعاون مع تلك المقاومة، بات بوسعهم أن يقلّبوا المعادلة القائمة، قال مفتي المسلمين: "إنّ المواثيق في حال حصولها، تفقد قيمتها إذا تضمّنت تكريس التمايز بين المواطنين في الحقوق والواجبات... أوليس الميثاق عقداً أجري بين طرفين إختاراه بالتفاهم بينهما منهجاً خاصاً للتعايش والتعاون؟! فهل إذا رأى أحد هذين الطرفين أنّ هذا العقد لم يعد صالحاً، وأنّه على العكس، أصبح ضاراً بمصلحته، ويسيء إلى قضاياءه، بل ويمزّق وحدته وتعاونه مع الطرف الآخر، يجوز أن يستمر هذا العقد قسراً وجبراً؟!... أفليس من الحكمة والمصلحة العامّة وحسن المواطنة استجابة الطرف الآخر لأمنية الآخرين!"^٢.

١ - خالد الشيخ حسن مفتي الجمهورية اللبنانية، المسلمون في لبنان والحرب الأهلية، دار الكندي (بيروت، ١٩٧٨) ص ١٢٥ - ١٢٦.

٢ - خالد، مرجع سابق، ص ٨٢ - ٨٣.

لم يكن جميع المسيحيين في لبنان بحاجة إلى وقوع أحداث ١٩٧٥ واستمرارها أكثر من خمس عشرة سنة ليتوقعوا حقيقة ما ينتظر الصيغة والميثاق من سوء مصير، وإن كان بعضهم الآخر قد اعتبر أنّ تمكّن عهد بشاره الخوري من توطيد دعائم الإستقلال اللبناني يعني نشوء دولة ثابتة الأركان لن تقوى رياح السياسة الإقليمية والدولية على تقويضها. إلا أنّ الأولين، مع هذا، ماشوا سيّد العهد وتيّاره في سياسة تقوية العلاقات بين لبنان والدول العربية.

ورغم أنّ الدول العربية كانت قد أعربت، عبر ميثاق القاهرة وميثاق جامعة الدول العربية، عن تقفها بسياسة لبنان العامة، وتعهّدت باحترام سيادته وكيانه ضمن حدوده القائمة، فقد استمرّ أصحاب النزعة إلى القومية العربية من المسلمين على ما كانوا عليه. وجاء إخفاق الأنظمة العربية التي كانت قائمة في محاولتها منع قيام دولة إسرائيل في أرض فلسطين، ليُفقد الحكومات العربية، ومنها الحكومة اللبنانية، الكثير من دعائم الإستقرار، ما أدّى بالفعل إلى إطاحة الجيش السوري في ربيع ١٩٤٩ حكومة سورية الدستورية، وإطاحة المعارضة اللبنانية المختلطة حكم بشاره الخوري صيف ١٩٥٢، وإلى إطاحة الملكية المصرية بعد الأحداث التي وقعت هناك على يد الضبّاط الأحرار بين ١٩٥٣ و ١٩٥٤ وأسفرت عن تسلّم "جمال عبد الناصر" قيادة الثورة المصرية. وقد شرع الزعيم المصري الجديد، في السنوات التالية، في بسط نفوذه على العالم العربيّ، محاولاً بذلك تحقيق الوحدة العربية. وأيقظت سياسة عبد الناصر، في لبنان، حماس دعاة الوحدة العربية من المسلمين الذين راحوا صيف ١٩٥٧ يقومون بأعمال الشغب، فقامت الفنة الدرزية المعارضة للنظام اللبناني القائم بنسف الجسور وسدّ الطرق في منطقتها: الشوف. وألقيت القنابل المتفجّرة في بعض أحياء بيروت، وانهار الأمن في المناطق الأخرى. وفي ٢٢ شباط (فبراير) ١٩٥٨،

حين اتّحدت الدولتان السوريّة والمصريّة باسم الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، هنّأت الحكومة اللبنانيّة الرئيس عبد الناصر لهذه المناسبة. وقد كان رئيس الجمهوريّة آنذاك أحد دهاة السياسة الموارنة في لبنان: كميل شمعون. بيد أن تلك التهنئة الحكوميّة بقيام الوحدة بين مصر وسورية، لم تمنع من ازدياد تدهور الوضع اللبناني الداخليّ. فاستمرّت الأعمال المخلة بالأمن في مختلف المناطق. وتكثّفت التظاهرات الاسلاميّة المؤيدة للوحدة وللرئيس عبد الناصر، ما جعل الكيان اللبنانيّ يبدو مهدّداً جدّياً. وفي أيّار (مايو) من تلك السنة، أقدمت يد مجهولة على قتل الصحافيّ المارونيّ المعارض لسياسة شمعون: نسيب المتّي، أمام منزله في بيروت، وسرعان ما اتّهم "العهد الشمعونيّ" باغتيال الصحافيّ، ودعت المعارضة، ذات الصبغة الإسلاميّة، إلى إضراب شامل إعراباً عن الإحتجاج. ولم يمضِ يومان حتّى تحوّل الإضراب إلى ثورة مسلّحة في الأحياء المسلمة من المدن الرئيسيّة اللبنانيّة المختلطة وخاصّة العاصمة بيروت. وفي اليوم الذي بدأت فيه الاضطرابات في طرابلس، هاجمت عصابة مسلّحة من الأراضي السوريّة الموقع اللبنانيّ في المصنع، على الحدود، وقتلت خمسة من حراسه. "ولم يمضِ وقت طويل حتّى كادت الحكومة اللبنانيّة تفقد السيطرة على حدودها الشرقيّة والشماليّة بكاملها"^١، خاصّة وأنّ الجيش اللبنانيّ الذي كان قادراً على سحق الثورة بالقوّة آنذاك، بقي على الحياد، لكون قائده اللواء "فؤاد شهاب"، الذي سيصبح رئيساً للجمهوريّة بعد كميل شمعون، قد أصرّ على أن هذا الجيش لا شأن له في دعم موقف العهد ضدّ المعارضة، بل إنّ مهمّته تقتصر على الدفاع عن البلاد ضدّ العدوان الخارجيّ والحفاظ على الأمن الداخليّ عند الحاجة.

١ - الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، مرجع سابق، ص ٢٤٦.

بينما كانت الحالة في لبنان تزداد سوءاً، وقع انقلاب عسكري في العراق في ١٤ تمّوز (يوليو) أطاح الحكم الملكي الهاشمي هناك. وإذ بدا هذا الانقلاب في مصلحة عبد الناصر، زادت حماسة دعاة الوحدة العربية بين المسلمين اللبنانيين. ما دفع بسيد العهد: كميل شمعون، إلى دعوة الولايات المتحدة الأميركية، بإلحاح، لإرسال قوة عسكرية تحمي الكيان اللبناني من الانهيار. فلبّت الولايات المتحدة هذه الدعوة وأنزلت في تمّوز (يوليو) قوة من "المارينز" على الشاطئ الشمالي لضاحية بيروت، حيث السكّان من المسيحيين الموالين للجمهورية. على أن هؤلاء المارينز لم يحاولوا وضع حدّ للثورة في البلاد، إنّما هم أوقفوا، بمجرد نزولهم، التدخل الخارجي. وكان هذا كافياً لتحويل أهداف الثورة من الوحدة العربية إلى منع التجديد للرئيس شمعون، الذي كان قد أعلن بلسان رئيس وزرائه: سامي الصلح، قبل ذلك التاريخ بأكثر من شهر، أنه لا ينوي التجديد لنفسه. وقد أكمل شمعون ولايته حتّى آخر ساعة منها. وكان وكيل وزير الخارجية الأميركية: "روبرت مورفي"، قد زار بيروت في السادس عشر من تمّوز (يوليو) واجتمع إلى الفريقين: الموالي والمعارض، وعاد إلى بلاده بعد أن اتّضح له أن الحلّ الأنسب هو في انتخاب قائد الجيش اللبناني اللواء فؤاد شهاب خلفاً للرئيس شمعون^١، وقد تمّ هذا الانتخاب في ٣١ تمّوز (يوليو). إلّا أن الرئيس المنتخب لم يستلم مقاليد الحكم من سلفه إلّا بعد نهاية الساعة الأخيرة من ولاية هذا الأخير في الثاني والعشرين من أيلول (سبتمبر).

في خضمّ تلك الأحداث الخطيرة، تعاطى البطريرك المعوشي مع الأزمة اللبنانية تعاطي المترفع عن الحالات السلطوية والانتمائية. فعارض، جهاراً وعملياً، التجديد

١ - راجع: MILLER 466 - 43 9 PP. (NEWYORK, 1964), MURPHY ROBERT, *DIPLOMAT AMONG WARRIERS*

RICHARD L., *DAG HAMMARSKGOLD AND CRISIS DIPLOMATY* (NEWYORK. 1961), P. 178

للرئيس كميل شمعون. حتّى أنّه زار واشنطن، بل البيت الأبيض بالذات، الذي خرج عن تقاليده لاستقبال رئيسٍ روحيٍّ من لبنان، وتمكّن من عقد خلوةٍ مع الرئيس كنيدي جرى فيها التفاهم على عدم التجديد للرئيس شمعون، دون أن يتنبّه للأمر لا السفير اللبناني ولا وزير خارجية أميركا^١.

ما أن تسنّم اللواء شهاب كرسى الرئاسة حتّى سارع إلى تأليف وزارة جديدة من معارضي العهد السابق من المسلمين، ومن المسيحيين المحايدين، برئاسة أحد كبار زعماء الثورة، الزعيم الطرابلسي المسلم السنّي: رشيد كرامي. وإذا أعلنت هذه الوزارة، في بيانها الأول، عن عزمها على "قطف ثمار الثورة"، ثارت نقمة الفئات الموالية للعهد السابق بما في ذلك أكثرية المسيحيين. "وحدث في اليوم التالي أن اختطف الأديب والصحافي المسيحي الكتّابي "فؤاد حدّاد" الملقّب بـ"أبو الحن"، وانتشرت الأخبار عن تعذيبه وقاتله. فدعا حزب الكتائب على الفور إلى إضراب عام، وساندت هذا الإضراب الفئات المستاءة من تبشير العهد الجديد، ومنها الحزب السوري القومي الاجتماعي. وسرعان ما تطوّر إضراب ٢٣ أيلول (سبتمبر)، كما تطوّر إضراب ٨ أيار (مايو)، إلى ثورة مضادة وقفت في وجه الثورة الأولى. فعادت الأحوال فجأة إلى التدهور، حتّى أصبحت البلاد مهدّدة بحرب أهلية^٢.

لم يستطع موارنة لبنان إلّا أن يظنّوا على الأقل، بأنّ يدًا معيّنة كانت تسعى إلى القضاء على الكيان اللبناني، في ذلك الموسم الوحدوي العربي. وأنّ تلك اليد التي كانت وراء اغتيال الصحافي نسيب المتّي، الذي كان إضراب الاحتجاج على مقتله

١ - مكاف جورج، صفحات من لبنان، منشورات نوبليس (بيروت، ٢٠٠٢) ٥: ١٩٥، حيث جاء أنّ الذي دبّر هذه الخلوة كان

الدبلوماسي اللبناني كميل شكري نوفل.

٢ - كمال الصليبي، تاريخ لبنان الحديث، ص ٢٤٩.

يوم الصفر لانطلاق ثورة ١٩٥٨ المسلمة، هي اليد التي كانت وراء اغتيال الصحافي فؤاد حدّاد ليكون يوم الإضراب، احتجاجاً على مقتله، يوم الصفر لبداية ثورة مضادة تعيد شقّ ما كان يُعمل على إعادة لحمة الدولة. غير أنّ المداخلات الأجنبية لدول القرار جعلت السيّد الجديد للعهد: اللواء الأمير فؤاد شهاب، الذي دعم الأميركيّون انتخابه رئيساً، يعني أنّه لن يتمكّن من تثبيت أركان الحكم إلّا متى تمثّلت قوى البلاد الأخرى في الوزارة. لذلك سعى إلى تأليف وزارة أقطاب مثّل الثورة فيها رئيس الوزارة رشيد كرامي، ومثّل الثورة المضادة رئيس الكتائب بيار الجميل، وكان الوزيران الآخران: "الحاج حسين العويني" من وجهاء السنة في بيروت، و"ريمون إدّه"، نجل اميل إدّه... وعيميد حزب الكتلة الوطنيّة. وأطلق على هذه الحكومة شعار: "لا غالب ولا مغلوب". وبذلك عادت الحياة الطيعيّة إلى البلاد، بلمح البصر، لتستقرّ بضع سنوات، وسوف تكون نهاية ذلك الاستقرار الهشّ مع بدء ازدياد قوّة المقاومة الفلسطينيّة في لبنان، نهاية ستينات القرن العشرين، تلك المقاومة التي ستصبح يعرف مفتي الجمهورية اللبنانيّة آنذاك: "جيش المسلمين في لبنان"^١.

وفي نهاية عهد الرئيس فؤاد شهاب سنة ١٩٦٤، اتخذ البطريرك المعوشي موقفاً ضدّ التجديد للرئيس شهاب تماماً كما فعل في نهاية عهد الرئيس شمعون، ذلك أنّ موقفه كان مبدئيّاً، إذ تمسكّ بأحكام الدستور اللبنانيّ الذي لا يسمح لرئيس الجمهوريّة الواحد بأكثر من ولاية واحدة على التوالي، وهكذا انضمّ البطريرك إلى خصم الأمس، الرئيس شمعون، الذي عارض التجديد للرئيس شهاب.

١ - في لقاء تمّ بين المفتي حسن خالد والزعيم الدرزي كمال جنبلاط قال الأخير للمفتي: "ولا الفلسطينيين لهزمنا ودخل الكتائب المنطقة (قلب الأحياء البيروتية المسلمة)... رأى المسيحيون الموارنة أنّوا إذا قويا الفلسطينيين رح بقوى المسلمين. ويطالبوا بحقوقهم أكثر وأكثر، وقالوا في خطر من الفلسطينيين علينا، يعني على امتيازاتهم... الفلسطينيون كما كنت تقول سملحتك هم جيش المسلمين... (نذكر هذا المحضر في كتاب الشيخ حسن خالد، مرجع سابق، ص ٧٨٧)

البطريكيّة المارونيّة والحربُ اللبنانيّة

بين نهاية عهد الرئيس شهاب سنة ١٩٦٤، وبداية عهد الرئيس الياس سركيس سنة ١٩٧٦، كان قد خلف الرئيس شهاب رئيسان للجمهورية هما: الصحافي اللبنانيّ الشهابيّ النهج^١ السياسيّ شارل حلو (١٩٦٤ - ١٩٧٠) ثمّ الزعيم الزغرتاويّ سليمان بك فرنجيّة (١٩٧٠ - ١٩٧٦) المعارض للنهج الشهابيّ. وإذا كان الرئيس حلو قد تجاوز "القطوع" على مدى السنوات الستّ من عهده، فإنّ ما جرى في ذلك العهد من تسلّح وانفلاش للوجود الفلسطينيّ في لبنان، ونشوء ما يشبه الدولة الفلسطينيّة المسلّحة داخل الدولة اللبنانيّة الشرعيّة، ومن انتهاكات خطيرة أمنيّة وسلطويّة من قبل عناصر الأولى لسيادة الثّانية، لن يمكّن الرئيس فرنجيّة من إنهاء ولايته بسلام.

في الحقبة نفسها، كان قد خلف البطريرك المعوشي إثر وفاته سنة ١٩٧٥، المطران أنطونيوس خريش الذي انتُخب في ٣ شباط (فبراير) بطريركاً. وهو مولود في عين ايل من أعمال قضاء بنت جبيل في جنوب لبنان سنة ١٩٠٧، وكان أسقفًا معاونًا في أبرشيّة صيدا سنة ١٩٥٠ ثمّ رئيس أساقفتها سنة ١٩٥٧. وفي أيّامه انفجرت الحرب الأهليّة في لبنان، فحاول حمل الأطراف، دون جدوى، على اتّباع وسائل الحوار والمواقف السياسيّة المعتدلة. وفي سنة ١٩٨١ استقال البطريرك خريش^٢ من منصبه، فعينّ النائب البطريركي المطران نصرالله صفيّر مدبرًا

١ - أطلقت تسمية "النهج" على السّياسيين والإداريين والعسكريين الذين ألّفوا ما يشبه التّيّار السّياسيّ الذي ذهب مذهب الرئيس فؤاد شهاب السّياسيّ وعُرف بـ "النهج للشهابيّ"، كما أطلقت على هؤلاء أيضًا تسمية الشهابيّين.

٢ - توفّي البطريرك خريش سنة ١٩٩٤.

بطريركيًا، ثمّ انتخبه سينودوس الأساقفة بطريركًا أصيلاً في ١٩ نيسان (إبريل) ١٩٨٦، وسرعان ما زار روما وتقلّد من الحبر الأعظم درع التثبيت.

هو البطريرك السادس والسبعون في سلسلة البطاركة الموارنة لأنطاكية وسائر المشرق، وُلد في ريفون كسروان في ١٥ أيار (مايو) ١٩٢٠، أتمّ دروسه الابتدائية والتكميلية في مدرسة مار عبدا هرهريّا ١٩٣٣ - ١٩٣٦، ودروسه الثانوية في مدرسة مار مارون الإكليريكية - غزير ثمّ في الجامعة اليسوعية ١٩٤٤ - ١٩٥٠، سيم كاهنًا في ٧ أيار (مايو) ١٩٥٠، درّس الأدب العربيّ وتاريخ الفلسفة العربية والترجمة، خدم رعية ريفون وعين أمين سرّ أبرشية صربا ١٩٥٠ - ١٩٥٦، وأمين سرّ البطريركية المارونية ١٩٥٦ - ١٩٦١، رسم أسقفًا وعين نائبًا بطريركيًا عام ١٩٦١، ثمّ مدبرًا بطريركيًا ١٩٧٤ - ١٩٧٥، رئيس اللجنة التنفيذية لمجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان ١٩٧٥ - ١٩٨٦، انتُخب بطريركًا للموارنة في ١٩ نيسان (إبريل) ١٩٨٦، زار روما وتقلّد من قداسة الحبر الأعظم درع التثبيت ١٩٨٦، رئيس مجلس البطاركة والأساقفة الكاثوليك في لبنان منذ ١٩٨٦، شارك في عدّة مجامع عامّة لسينودس الأساقفة، عين كاردينالاً في ٢٦ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩٤، شارك في عدّة مجامع فاتيكانية، عين نوابًا بطريركيين في مناطق الأبرشية البطريركية وسام ٣٠ أسقفًا، أنشأ خمس أبرشيات جديدة وبدل أوضاع بعض الأبرشيات القائمة وأعاد تنظيمها، أعاد إصدار "المجلة البطريركية" منذ ١٩٨٦، عقد السينودوس من أجل لبنان ١٩٩٥، استقبل قداسة البابا يوحنا بولس الثاني في زيارته إلى لبنان في أيار ١٩٩٧، ترأس في الفاتيكان احتفاليّ تطويب نعمة الله الحرديني وإعلان قداسة رفقا، قام بالعديد من الزيارات الرعوية الرسمية في لبنان وبلاد الانتشار في أنحاء العالم، غدا مرجعًا في الشؤون الوطنية والسياسية والاجتماعية، ألقى عظات تضمّنت المطالبة الجريئة بإحقاق

الحق وإشاعة العدالة وتقويم الاعوجاج والدفاع عن المظلومين مشدداً على سيادة لبنان وحرية أبنائه، له مؤلفات منها: "من ينابيع الإنجيل" ١٩٧٥، و"غابت وجوه" في جزعين ١٩٨٣ و ١٩٨٤، و "عظة الأحد" في ١٢ جزءاً، وله في الترجمة: "يسوع حياة النفس" ١٩٦٦، و"دستور رسولي في عقيدة الغفرانات" ١٩٦٧، و"إرشاد راعوي بشأن وسائل الإعلام"، وترجم عن اللاتينية رسالتين عامتين بعنواني "قادي الإنسان" و"في الرحمة الإلهية"، وعن الفرنسية ثلاث رسائل بشأن مأساة لبنان، وله العديد من المؤلفات الأخرى تصنيفاً وتأليفاً وترجمة، وهب منزله العائلي في ريفون ١٩٩٩ لجعله مستوصفاً لأبناء البلدة التي أطلق اسمه على أحد شوارعها الرسمية تكريماً.

لم يقض اخفاق الثورة المسلمة في لبنان سنة ١٩٥٨ في تحقيق أهدافها على استراتيجية المسلمين الثابتة، بل راحوا ينتظرون... "يوماً يكون أبرك". وقد بدا لهم أن ذلك اليوم قد أتى عندما أصبحت الثورة الفلسطينية في لبنان، دولة أقوى من الدولة التي هي ضمنها. وإذ بدا للمسيحيين أن خطراً داهماً بات يهدد مصيرهم، ولهم في ذلك من الماضي القريب والبعيد أحداث وعبر، راحت قياداتهم وأحزابهم تتسلح سراً في مقابل الترسانة الإسلامية الفلسطينية، وراح شبانهم يتدربون على حمل السلاح. ولم يكن من الصعب توقع اشتعال لبنان من قبل أي مراقب للأحداث التي كانت تجري في السنوات السبع السابقة لـ ١٣ نيسان (إبريل) ١٩٧٥، يوم أدت حادثة تصادم بين الفلسطينيين من جهة، وبعض أعضاء نواة ميليشيا حزب الكتائب من جهة أخرى، إلى مقتل عدد من الطرفين، وسط منطقة مسيحية هي ضاحية جنوبية لبيروت: عين الرمانة، وقد كانت تلك الحادثة الشرارة التي أشعلت فتيل هذا الوطن الذي كان قد أضحى برميل بارود.

ومن يراقب ما سبق ذلك الحادث من تحضيرات، لا بدّ له من أن يلاحظ أنّ التيّارين السياسيين اللذين برزا مع تشكيل لبنان الكبير، كانا لا يزالان هما هما على نفس المسار الذي انطلقا عليه من عشرينات القرن العشرين إلى أربعيناته، فكان المسلمون يعملون سرّاً وعلانية على دعم تشكّل ونموّ الثورة الفلسطينية في لبنان، وهي الثورة العربية المسلمة، وإن كان بعض فصائلها قد رفع راية اليسار، بينما راح التيار الثاني يتوجّس خيفة من ذلك النموّ، حتّى إذا ما تأكّد له أنّ من أهداف تلك الثورة السيطرة على لبنان كوطن بديل... بدا أنّ المحذور قد بات قريب الوقوع، راح يتسلّح. وإذ لم يكن في الأجواء ما من شأنه أن يبدّد تلك الرؤية، وكانت الأوضاع الإقليمية والدولية في حرب باردة ينذر أفقها بالإنفجار، وقد كان لبنان الأرض الأخصب لإشعال موقد انضاج طبخة إعادة ترتيب أوضاع الشرق الأوسط بوصفة صهيوايمركية جديدة، تزيج عن المائدة أطباق حلفاء الحرب العالمية الثانية، كانت حادثة عين الرمانة كناية عن إشعال عود نقاب ووضعه داخل الموقد.

كان مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ حسن خالد أصدق من تكلم عن حقيقة العلاقة بين المسلمين اللبنانيين والثورة الفلسطينية في ما يختصّ بحرب لبنان إذ قال: "... قبلاً، كنّا نلجأ إلى الضغط السياسي دائماً، وهذه كانت وسيلتنا الوحيدة للإصلاح والمساواة. من جهة أخرى، برزت القضية الفلسطينية، فوجدنا أنفسنا متلاحمين مع الفلسطينيين لأننا معاً نشكّل إيدولوجية واحدة. نحن والفلسطينيون شيء واحد: عربياً ودينياً ووطنياً"^١. وعندما سأل الرئيس اليبّي مفتي المسلمين السنة في لبنان عن قدرة ملته على الصمود، أجاب:

١ - خالد، مرجع سابق، ص ٢٨٢.

"... إنني أريد أن أقول لك أن قدرتنا مستمدة من قدرة العرب، ومن قدرة الفلسطينيين في آن معاً، فإذا قالوا بأنهم قادرون على استمرار المعركة، فنحن قادرون أيضاً... نحن أقوياء بكم وبالفلسطينيين، هذا جوابي..."^١.

والحال هذه، لا تختلف نظرة المسيحيين إلى الموضوع عن حقيقة موقف المسلمين. فقد ذكر أحد الأساقفة في رسالة وجهها إلى الفاتيكان بمناسبة الحوار المسيحي الإسلامي أن "المسلمين اغتتموا الوجود الفلسطيني المسلح على أرض لبنان، علماً بأن أكثرية الفلسطينيين الساحقة من المسلمين، وحاولوا الإستيلاء على السلطة بقوة السلاح، بهدف جعل لبنان بلداً مسلماً كسائر الدول العربية في الشرق الأوسط حيث نظرياً، وغالباً عملياً، دين الدولة الإسلام، والإسلام مصدر التشريع، ذلك لأن لبنان هو البلد الوحيد في المشرق الذي يشذ عن هذه القاعدة"^٢.

لقد كان الميثاق الوطني، الذي توافّق عليه اللبنانيون في بداية عهد الاستقلال، يقضي بأن لا يكون لبنان للغرب ممراً ولا للشرق مقراً. وفلسفة هذا الشعار أن لا يستقوي المسيحيون على المسلمين بالغرب ولا المسلمون على المسيحيين بالشرق. غير أن الأحداث، في نهاية ستينات القرن العشرين وبداية سبعيناته، كانت تعزّز موقع المسلمين في لبنان، وقد تمادوا في خروجهم على الميثاق فراحوا يستقوون بالمقاومة الفلسطينية وبالأموال العربية، عاملين، علانية وسراً، من أجل القضاء على الصيغة اللبنانية وعلى الميثاق الوطني. وكان المسيحيون قد فقدوا ذلك الدعم التقليدي الذي عهدوه بالغرب، حتّى إنه، في وقت من الأوقات، بان أن الكرسي الرسولي ينطلق في اعتباره من منطلقات قد تكون خطرة على كيانهم.

١ - المرجع السابق، ص ٢٨٣.

٢ - باسم المطران بول، لسفّ الثلاثين في بيروت، في مذكرة إلى الفاتيكان بمناسبة الحوار المسيحي الإسلامي، تموز (يوليو) ١٩٧٨.

فلقد بدى أن الفاتيكان يحمل المسيحيين اللبنانيين، وخاصةً الموارنة، وزر مسيحيي الشرق الأوسط وبالبلدان الإسلامية الأخرى. وقد كان في ذلك سبباً أساسياً في تعارض وجهات النظر بين الفاتيكان وبعض القوى الممثلة في "الجبهة اللبنانية" التي مثلت بخلاف تلك الحرب مجموعة القوى المسيحية المقاومة. وعندما أرسل البابا بولس السادس "الكاردينال بارتولي" إلى لبنان لتدارس الوضع والبحث "عن صيغة مقبولة للتعايش من قبل جميع الفئات" قال بارتولي لمن اجتمع بهم من قادة "الجبهة اللبنانية"^١: "إنّ الفاتيكان يهتم بمجموع المسيحيين المتواجدين في المنطقة... ويعارض فكرة التقسيم لأن ذلك سيحمل أسوأ النتائج على ملايين المسيحيين في الشرق العربي"^٢.

وكان البابا قد استقبل خلال الحرب أحد مطارنة الموارنة، فحيّاه بقوله: "إنّي أحبي من خلاك كلّ الشعوب التي تعيش عندكم هناك"^٣.

لقد كانت تلك التحيّة من قبل رأس الكنيسة الكاثوليكية للمطران الماروني، خروجاً على المألوف... إذ كان التقليد المتبع يقضي بأن يحيي البابا من خلال ممثلي الكنيسة المارونية "الشعب اللبناني" ويدعو له بالتوفيق.

ولمّا وصل خبر تحيّة قداسة البابا "الجديدة" إلى بيروت، والحرب كانت في أوجها، توجّس الكثيرون من قادة القوى المسيحية خيفة، معتبرين أنّ الفاتيكان يقصد من تحيّته

١ - الجبهة اللبنانية: جبهة مارونية سياسية نشأت في بداية حرب الربيع الأخير من القرن العشرين في لبنان، ترأسها الرئيس الأسبق للجمهورية اللبنانية كميل شمعون، وكان من أعضائها رئيس حزب الكتائب اللبنانية الشيخ بيار الجميل، والدكتور شارل مالك الأرثوذكسي، ورئيس عام للرهبانية اللبنانية الأباتي شربل قسيس، والنائب والوزير السابق إدوار حنين، والأكاديمي فؤاد افرام البستاني، وسواهم. ساندت رئيس الجمهورية سليمان فرنجية حتى نهاية ولايته، ونشأت عنها "لقوّات اللبنانية" كذراع عسكرية برئاسة الشيخ بشير الجميل الذي تنتخب رئيساً للجمهورية ١٩٨٢ واغتيل قبل ستلام مهامه.

٢ - مجلّة "الحوادث" اللبنانية، للحد ١١٦٦، تاريخ ٩ آذار (مارس) ١٩٧٩، ص ١٤.

٣ - مفرّج طوني، حرب الردّة، دار "الجريدة" (بيروت، ١٩٧٩) ص ٩٤.

الجديدة شمل الفلسطينيين. وعندما قدم الكاردينال برتولي إلى لبنان، سمع من أكثر من مسؤول حزبي وديني مسيحي ما يعبر عن خيبة الأمل المسيحية من موقف الكرسي الرسولي "غير المتفهم تمامًا لحقيقة الأوضاع اللبنانية". وقد تبع ذلك سلسلة لقاءات بين وفود مسيحية لبنانية ووفود من الفاتيكان، فتبين أخيرًا أن الموقف النهائي للكرسي الرسولي هو:

١- معارضة الفاتيكان لتقسيم لبنان. ٢- معارضة الفاتيكان "لضم لبنان"

إنما الحلول التي يعمل الفاتيكان من أجلها منبقة من جوهر الصيغة اللبنانية.

وهكذا فإن اعتبارات الفاتيكان جعلت مسيحيي لبنان يتحملون، في أصعب ظروفهم، أوزار ومسؤوليات سلامة مسيحيي الشرق الأوسط وسائر البلدان الإسلامية. فإن مواقف الفاتيكان، النابعة من تلك الإعتبارات الإنسانية، قد حرمت مسيحيي لبنان، في صراعهم المرير، من دعم معنوي كان من شأنه أن يساعد على إيجاد التوازن المفقود بعد خروج المسلمين اللبنانيين على الميثاق الوطني وبروز الفلسطينيين كقوة ثقيلة تقاوم إلى جانب المسلمين، وشيوع إرسال الأسلحة والعتاد والمال والرجال إليهم من بعض الدول العربية لدعمهم في مقاتلة المسيحيين.

أما الدعم التقليدي الآخر، الذي اعتاد المسيحيون اللبنانيون أن يأملوا به، وهو دعم الغرب عامة، وفرنسا خاصة، فكان، في تلك الظروف، مستحيل المنال. لأن فرنسا، وغيرها من بلاد الغرب المسيحي، كانت في وضع سياسي ضعيف من جهة، ومن جهة ثانية كانت مهتمة بشؤون الاقتصاد والطاقة، وليس بوسعها أو من مصلحتها أن تُعادي ملايين المسلمين العرب من أجل صداقة بضع مئة ألف مسيحي، ليس لديهم مال ولا نفط. أما السياسية الأميركية فكانت بعيدة كل البعد عن المفاهيم المجردة، وخاضعة، من جهة، للأهداف المنبقة من أجهزة الاستخبارات، ولتلك المنبقة، من

جهة ثانية، عن المصالح اليهودية، ومن جهة ثالثة من الفلسفة الأميركية البراغماتيكية... وكانت استراتيجية الإتحاد السوفياتي أممية يسارية، بينما المسيحيون في لبنان، وبخاصة المقاومون منهم، متديّون بعيدون كل البعد، لا بل إنهم معادون لكل ما من شأنه أن يتّصف بالإلحاد.

تجاه هذا الواقع، لم يبقَ أمام الشعب المسيحي في لبنان، المتمسك بأرضه وحرّيته، إلّا أن يتكل على نفسه وأن يقاوم وأن يدافع عن أرضه ومهد وجوده، مقاومة اليأس المستميت. حتّى إن بعض قادة هذا الشعب قد صرّح، في ظروف قاسية يائسة، بأنّه مستعدّ للتعاون مع الشيطان من أجل إنقاذ نفسه^١. أمّا الشيطان المقصود فكان: إسرائيل.

ليس من المعقول تبرئة إسرائيل من... دم اللبنانيين. فلقد كان لهذه الدولة الأحدية الدين، استراتيجية مناهضة تمامًا لشكل الصيغة اللبنانية والميثاق. ولقد برز هذا التناقض نافرًا عندما قصد رئيس الجمهورية اللبنانية سليمان فرنجية منبر الأمم المتحدة سنة ١٩٧٤ برفقة رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ياسر عرفات، ليدعو إسرائيل إلى انتهاج نظام تعايشي بين اليهود والمسلمين والمسيحيين، شبيه بالنموذج اللبناني الذي برهن عن حضارته الراقية. ولم يقابل كلام الرئيس اللبناني الماروني بغیظ إسرائيلي أقلّ من الغیظ الذي قوبل به كلام الرئيس الأعلى للمنظمات الفلسطينية المقاومة: ياسر عرفات، الذي اعتلى منبر الأمم المتحدة معلناً أنّه يحمل غصن زيتون بيد، وبنديّة باليد الأخرى...، وطالب بنظام تعددي في فلسطين شبيه بالنظام اللبناني، يعيش فيه العرب المسلمون والمسيحيون مع اليهود في شراكة وطنية.

١ - أعطى هذا التصريح الشهير الشيخ بيار الجمیل رئيس حزب الكتائب اللبنانية وعضو الجبهة اللبنانية.

كان من الطبيعي أن تعمل إسرائيل كل ما بوسعها لتبرهن للملأ، عملياً، عن أن النظام اللبناني المطروح كنموذج لإسرائيل فلسطينية، إنما هو محكوم بالانفجار. وسرعان ما انزلق الفلسطينيون في الفخ الإسرائيلي، سواء عن جهل أو عن تواطؤ، ليعلنوا، بعدما أشعلوا لبنان، "أن طريق فلسطين تمرّ في جونه". علماً بأن جونه ليست في جنوب لبنان، بل هي تشكّل قلب القلب الماروني في وسط شاطئ الجبل اللبناني.

وركب جميع الحاقدين والطامعين المطيّة الفلسطينية لينقضّوا على المسيحيين. فتألّف لكلّ ملة إسلامية ميليشيا: للسنة. للشيعه. للدروز. وكان كلّ من هؤلاء يسعى لأهدافه، بعضهم باطنياً نقيّة، وبعضهم سنة على سنّ الرمح. واستقطر المسلمون مرتزقة ومتعصّبين أصوليين من الصومال ومصر والحبشة وسواها من البلدان. واستقطر اليساريون ثواراً هواة ومرتزقة. وتحالف جميع تلك القوى تحالفاً غريباً عجيباً ليؤلّفوا جحافل حاولت اجتياح لبنان المسيحي، فتمكّنت من أطراف المناطق المسيحية، وأعادت إلى الأذهان ذكرى القرون الغابرة القاسية. وأضحى لبنان، الذي كان يوصف بأنّه سويسرا الشرق، مسرح أحداث دموية مروّعة، رخص فيها الإنسان وانهارت القيم والعهود والأصول.

عانى المسيحيون في لبنان الكثير في خلال حرب سبعينات القرن العشرين وثمانيناته، مثلما عانى أبناء سائر الملل، أو المجتمعات / الطوائف، التي يؤلّف مجموعها شعب هذا البلد الذي أريد له أن يكون نموذجاً حضارياً متقدّماً لتعايش الأديان. وقد وُصفت تلك الحرب، حيناً بأنها أهلية، وحيناً آخر بأنها طائفية، وأحياناً بأنها حرب الآخرين على أرض لبنان. وقد يكون من الأصحّ عدم حصر وصف هذه الحرب بصفة واحدة من كلّ تلك الصفات، التي قد يكون جميعها صحيحاً، لا بل بالإمكان إضافة صفات عديدة أخرى إليها. ذلك أن حرب لبنان قد جاءت نتيجة عوامل

كثيرة، داخلية وإقليمية ودولية، سوف يمضي وقت طويل قبل التمكن من فك رموزها. إنَّما الذي يعنيننا في هذا المجال، أنَّ المسيحيين في لبنان خرجوا من تلك الحرب منهوكي القوى، وليس بالإمكان، حتَّى الساعة، تحديد الخسائر التي مُتوا بها جرّاء تلك الحرب، وإن كانت الصورة الظاهرة تدلّ على أنَّهم قد خسروا كثيراً.

المارونية

ولبنان اليوم

اليوم، يبدو للناظر سطحياً أنَّ المسيحيين في لبنان، هم في حالة إحباط، وقد يكون السدّج منهم كذلك، إلّا أنَّ الناظر عمودياً يدرك أنَّ المسيحية ولبنان توأمان سياميان لا ينفصلان. ولن يكون شرق بلا مسيحية حرّة. ولن يكون مسيحية حرّة في الشرق بلا لبنان. ولن يكون لبنان بلا موارد. وننقل في ما يلي ما يراه باحثون كنسيون موارد معاصرون في مسألة الوضع الماروني ولبنان اليوم. يقول الباحث:

إنّ دور الكنيسة^١ المارونية اليوم، وحضورها حالياً في لبنان، هو هو كما كان بالأمس، في أيّام المماليك، وفي عهد العثمانيين، وإبان أحداث ١٨٦٠... أي أن تطلّ محافظةً، بدافع فطرتها القومية، على هويّتها التاريخية عن طريق الثبات في الموقف، والصمود المستمرّ في وجه الجور والظلم، والتعلّم من الأخطاء، والحكمة في انتقاء الأصدقاء، والاستعداد للتفاهم مع الأخصام، والانفتاح للحوار مع الآخرين بصدق وإخلاص ووفاء... وإنّ تجربة الميثاق الوطني كانت تجربة ناجحة في بدء استقلال الجمهورية اللبنانية سنة ١٩٤٣، وقد تمكّن اللبنانيون، مسلمون ومسيحيون، إلى حدّ ما، من العيش في وطن حرّ، سيد، مستقلّ، يضمن لهم، في آنٍ معاً، عدم الانحياز إلى الغرب وعدم الإلتحاق بالشرق. واجتازوا المراحل الأولى، بعد

١ - المقصود هنا بكلمة "كنيسة" المزمّنة ببعيها الإكليزيكي والعلماني، وهو ما اصطلاح خطأ، على تسميته "لطانة".

١٩٤٣، بنجاح. وتوصلوا إلى المحافظة على كيانهم وعلى النظم الديموقراطية الحرة برغم الصعوبات والأخطار الكثيرة التي كانت تُحيق بهم. وعرف لبنان، قبل أحداث ١٩٧٥، عهد ازدهار اقتصادي وأخوة إنسانية، بدا معه، وكأنه في وقت من الأوقات، مثلاً يُحتذى به، ورائداً في مجال إقامة نوع جديد من العلاقات بين الناس. وجاء نموذج التعايش السلمي بين اللبنانيين دليلاً على أنه بالإمكان إقامة مجتمع وطني متماسك الأطراف، متعدد المعتقدات والثقافات والإيديولوجيات، وهذا ما جعل من لبنان رمزاً بين الأمم. وإنّ التوازن في الاستقرار الذي أراده الموارنة واللبنانيون نهائياً لوطنهم وثابتاً، قضت عليه قضاءً مأساوياً، في الآونة الأخيرة، تحركات في المنطقة الشرق - أوسطية، ومداخلات أجنبية في لبنان. وجاءت المأساة الفلسطينية لتزيد من خطورة هذا الوضع وتوقد نيران الفتنة وتطلق الأزمة. وجاءت بعد ذلك الأحزاب المتطرفة، كالشيوعية والاشتراكية والقومية، والحركات الدينية المتعصبة...، لتمعن في تفتيت البلد، وتشرذم الجيش وتضعف الشرعية... قد يكون الموارنة، وبوجه خاص، الذين تحملوا مسؤولية الحكم في لبنان، قد أساءوا حسن الإدارة والتدبير. ولكن، يبقى أن جوهر الأزمة هو أبعد من المطالبة بحقوق، وإصلاح النظام، والتمتع بمبدأ المساواة، وإبطال امتيازات طائفة على حساب طائفة أخرى. إنّ تتابع الأحداث من سنة ١٩٧٥ حتى اليوم، يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن ما يريده الأخصام إنما هو اقتلاع المسيحية من الشرق، والقضاء على المارونية وغيرها من الطوائف المسيحية في لبنان... إنّ دور الكنيسة المارونية اليوم وحضورها في لبنان، هو أن تظلّ منفتحة في محيطها الجغرافي وعلى بقية الطوائف اللبنانية، وأن يكون لها التأثير الفاعل والمميز في مختلف التفاعلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في هذا الشرق^١.

١ - صفيير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

من النسك إلى الرهبانيات والمدارس

في نساك الموارنة؛ رهبانيات الرهبان الموارنة؛ نشوء الرهبانيات المارونية؛

الرهبانية المارونية المريمية؛ الرهبانية المارونية اللبنانية؛ الرهبانية الأنطوية؛

جمعية المرسلين اللبنايين الموارنة؛

رهبانيات الراهبات الموارنة؛ الراهبات اللبنانيات المارونيات؛ الراهبات الأنطويات؛

جمعية راهبات القلبيين الأقدسين؛ جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات؛

جمعية راهبات الصليب؛ جمعية راهبات القديسة تريزينا؛

جمعية راهبات القرآن الأقدس المرسلات.

نَسَاكُ الْمَوَارِنَةِ

يرى مؤرّخون كنسيّون أنّه بعد أن حطّ الموارنة رحالهم في لبنان، واستوطن العدد الكبير منهم في منطقة الجبّة ووادي قاديشا وقزحيّا وقنّوبين، نما بينهم عدد الزهّاد والنّسّاك، ودلف كثيرون منهم إلى تلك المغاور الطّبيعيّة والصّوامع النّائيّة. وهنا، تجب الإشارة إلى أنّ الحياة النّسكيّة كانت مزدهرة في لبنان قبل مجيء الموارنة إليه. فإذا كان من الصّعب جدًّا ذكر هؤلاء النّسّاك وسرد حياة البعض منهم، فإنّ آثارهم تدلّ عليهم. ولا يزال يوجد في لبنان، حتّى يومنا هذا، مغاور قديمة، في أماكن عديدة نُحِتَت في الصّخور الطّبيعيّة، ولا يُستبعد أن يكون قد قطنها النّسّاك في القرون الأولى للنّصرانيّة. منها، مثلاً، مغاور "عدلون"، التي تربو على المنّتين، والتي تقع على نصف مسافة الطريق بين صيدا وصور من جنوب لبنان. فهذه المغاور نُحِتَت في الصّخور، ولا يزال يشاهد الزائر بقايا الذّباح وآثار الصّليبان فيها حتّى اليوم. ويقول عنها علماء الآثار إنّها قديمة العهد جدًّا؛ ومغاور "وادي الحبّساء"، بالقرب من بلدة "الفرزل" في قضاء زحلة من أعمال البقاع، في الوادي المطلّ على السهل، الشّبيهة بمغاور عدلون، واسمها يدلّ على قدمها، وعلى أنّ النّسّاك سكنوا المكان في سالف الأزمان؛ ومغاور وصوامع "أفقا" و"العاقورة"* التي يرجّح أن يكون قد سكنها النّسّاك الموارنة قبل

١ - لفّقا: بلدة لّثريّة في جرود جبيل الجنوبيّة الشرقيّة عند منبع نهر إبراهيم، كانت مركزاً رئيساً لعبادة لّثريس وعشتروت، ولا تزال بقايا المعبد الكبير قائمة فيها إلى اليوم.

صوامع "قاديشا" و"قنوبين"؛ ومغاور دير مار مارون على نهر العاصي القريب من الهرمل. وهذا المكان يُسمّى، إلى يومنا هذا، "مغارة الراهب"، وهو كناية عن صوامع نُحِتَتْ في الصخر على شكل هندسة فرضتها يد الطبيعة وهيئة المكان. وقد حُفرت أيضاً أدراج في الصخر داخل المناسك، ليتمكن سكّانها من النزول إلى قعر الوادي عند مخرج النهر لاستقاء الماء؛ ولعلّ المكان الذي كثر فيه عدد النسّاك الموارنة، ونال شهرة طبقت الآفاق على مدى الأجيال، هو وادي قاديشا وقزحيا وقنوبين، في لبنان الشمالي. ففي هذا الوادي المقدّس، اتّسمت الحياة النسكية بطاقة روحية رائعة فجّرتها نخبة رائدة من النسّاك الموارنة، الذين تميّزوا، هم بدورهم، كنسّاك القورشية الأقدمين، بنزعة إنجيليّة نابغة من أغوار الوحي الإلهيّ وغنى التراث المارونيّ الجليل. وهذه النزعة، هي الخيط الدقيق المتين، الذي حاك الروحانيّة المارونيّة، وربط النسّاك الموارنة بعضهم ببعض، وكان الحافز لهم لبلوغ أعلى درجة من التضحية والبذل والكفر بالذات، فألّف في ما بين خصائص هذه الروحانيّة كلّها، كما تنتظم حبّات اللآلئ المندرجة في العقد الثمين. وقد لُقّب هذا الوادي بوادي القديسين، والوادي المقدّس، ووادي قاديشا. وقاديشا لفظة سريانيّة الأصل، وتعني "القديسين"، وذلك للدلالة على قداسة المكان وسكّانه. ثمّ لُقّب أيضاً بوادي قنوبين، وهي لفظة يونانيّة الأصل تعني "تجمّع الرهبان" وذلك نسبة لدير قنوبين، مقرّ البطارقة الموارنة على مدى أربعماية عام، الذي كان يجتمع فيه من النسّاك والرهبان والأساقفة والكهنة عدد غير يسير. ولُقّب أيضاً بوادي قزحيا، السريانيّة الأصل، وتعني "كنز الحياة"، وذلك للدلالة على أنّ اعتصام أولئك النسّاك في تلك المغاور والوديان، وتمسّكهم بالإنكباب على الصلاة والتأمّل ومطالعة الكتاب المقدّس والأصوام والإماتات والتجهد والشغل اليدويّ، يشبه، إلى حدّ ما، تمسّك صاحب الكنز الثمين بكنزه. وقد ساعدت الطبيعة كثيراً على نموّ

الحياة النسكية في هذا الوادي المقدّس، فجذبت الكثيرين من طلاب الكمال المسيحيّ إلى عيش حياة التأمل والصمت في مغاوره الطبيعية^١.

إنّ المراجع التاريخية عن النساك الموارنة في وادي قاديشا نادرة جدّاً، والسبب في ذلك يعود إلى عاملين أساسيين: أولهما لأنهم راموا العيش في الخفاء، فلا أحبّوا الظهور أو الدعاية ولا كتبوا سيرة حياتهم أو كلّفوا أحدًا بكتابتها؛ وثانيهما لأنّ الاضطهاد والمنازعات وحرق المكتبات ونهب الديورة والمناسك لم تترك مجالاً لجمع المعلومات الكافية عنهم^٢.

إنّ أوّل حبيس ذكره الدويهي من الأجيال الوسطى في تاريخه، هو "يوحنا من قنات"، الذي استحبس سنة ١٢٢٨ في وادي قنّوبين؛ وفي سنة ١٣٩٣ كان الحبيس "أليشاع الحدّثي" قاطناً في محبسة مار سركيس الواقعة قرب دير "مار أبون" المشرف على الوادي المقدّس؛ ولما توفّي البطريرك يوحنا الجاجي سنة ١٤٤٥، انتخب الأساقفة ورؤساء الديورة والشعب، خلفاً له، الأسقف يعقوب بن عيد الحدّثي، وهذا كان قد تربّى، في السيرة الملائكية، في محبسة مار سركيس الأنفة الذكر؛ وفي سنة ١٤٧٢ كان "القسّ جرجس الإهنّي" ساكناً مع تلميذه "الشّماس تادروس" من عينطورين في محبسة مار أنطونيوس قزحياً؛ وفي سنة ١٤٩٥ بنى "القسّ بركات" من بقوفا محبسة

١ - صفيّر الأب بولس، مجلّة "الفصول اللبنانية"، العدد ١، شتاء ١٩٨٠، ص ١٢٦ - ١٣٣.

٢ - المرجع السابق؛ وأورد هنا أنّه يكتفي في هذا الملف، بجمع التّبذات التاريخية واللمعات المختارة التي دوّنها البطريرك العلّامة اسطفانوس الدويهي عن سيرة حياتهم في مخطوطه تاريخ الأزمنة، ويذكر أنّ "بين المخطوطات العديدة التي وصلت إلى أيدينا عن تاريخ الأزمنة" لا يرجع منها إلى يد المؤلّف نفسه سوى المخطوط الفاتيكانيّ المرياتيّ رقم ٢١٥، وهذا المخطوط أرسله المؤلّف سنة ١٦٨٠ لطبع هناك، فبقي دون طباعة حتّى المنوالت الأخيرة، حيث قام بهذه المهمة الأبّيّ بطرس فهد، رئيس عام الرهبنة المريميّة سنة ١٩٧٦، وبما أنّ هذه الطبعة لم تقدّم للقارئ درساً كافياً للنصوص والشروح والحواشي، فقد أثّرنا في دراستنا هذه للرجوع إلى المخطوط المرياتيّ رقم ٢١٥ وليس إلى الطبعة المذكورة.

مار مخائيل شمالي - غربي دير قزحيا وسكن فيها إلى آخر حياته؛ ثم تعاقب على العيش فيها كلّ الحبساء الآتية أسماؤهم: موسى من اليمونة، يعقوب من برناسا قرب ميفوق، ميخائيل الأول من إهدن، ميخائيل الثاني وابن أخيه جبرائيل من إهدن، ثم ميخائيل الثالث من إهدن، وكانت وفاة هذا الأخير سنة ١٦١٧. فهؤلاء جميعهم دوّنوا أسماءهم في كتاب إنجيل المحبسة المذكورة^١.

وبين الحبساء الموارنة اللامعين، في القرن السادس عشر، ذكر الدويهي، الحبيس "يوانان المتريتي". فهذا البارّ جاهد في حياة النسك، مدة خمسين سنة، وكتب عنه تلميذه الحبيس جبرائيل الإهدني يقول: "إنه لم يكن يأكل إلا مرة في اليومين. أمّا في الصوم الأربعيني، فلم يكن يذوق طعاماً إلا يومي السبت والأحد، وكان صيامه يمتد من العنصرة إلى الميلاد، ومن عيد الغطاس إلى الفصح، ولم يكن يشرب الماء إلا يوم السبت. وكان في سبّة الآلام، يسجد إلى الأرض أربعاً وعشرين ألف سجدة (مطانية)، وفي سائر أيام الصوم كان يسجد حتّى يجري عرقه، وبالرغم من هذه القساوة الشديدة على نفسه، ظلّ الحبيس يوانان متحلياً برحمة وحنوّ لا نظير لهما نحو الآخرين". وأخبر عنه تلميذه الآخر "يوحنا اللحفدي" هذه الحادثة الخارقة، قال: "نفذ الزيت مرة في الخابية الكبيرة الموجودة في المحبسة، فأعلم الحبيس يوانان بالأمر، فجاء وصلى عليها وبخرها فامتألت إلى فوق. فأخذ العجب من التلميذ كلّ مأخذ. فقال له الحبيس: مجد ربنا يسوع المسيح، وتأمل عجائبه على يد أحقر عبيده. ثم أوصاه بالآي خبر أحداً بهذه الأعجوبة قبل وفاته". وعندما أحسّ الحبيس يوانان بنحو أجله، أرسل وطلب البركة من البطريرك موسى العكاري ومن المطران قورياقوس بن حبلص الإهدني. فحضر

١ - صفيّر، المرجع السابق، عن المخطوط السرياني للدويهي.

الإثنان إلى محبسته، وبعدما حرّضهما على المحبة والوفاق وأوصاهما بالسهر واليقظة على خراف المسيح، أسلم روحه الطاهرة بيد الخالق. فشاع خبر وفاته في كلّ الأنحاء، وهرع رؤساء الديورة والأخوة والنسّاك وأعيان الشعب إلى دير قزحيا ليتباركوا من لمس جسده الطاهر، الذي أضناه، في مدى خمسين سنة، بالعبادة والصوم والتّقشّف. وبعد أن زيّحوه بالبكاء والدموع، دفنوه بكلّ إكرام في مقبرة المحبسة. ويُقال إنّ جسده لم يزل حيّاً بدون فساد حتّى يومنا^١. وكان للحبيس يونان المترتي تلامذة عديدون، أشهرهم "يوحنا اللحفدي"، الذي خدم معلّمه المريض مدة أربع عشرة سنة. فهذا ضاهى معلّمه في أعمال النسك، وأخذ النفس بالشدة، وكان في سبّة الآلام يسجد إلى الأرض ستاً وعشرين ألف سجدة؛ ومنهم أيضاً "جبرائيل الإهني". فهذا كان رجلاً متّقشفاً جدّاً، وفاز على أقرانه بممارسة الإماتات والأصوام والتّقشقات القاسية: في أيّام الصوم ألف سجدة في اليوم، وفي سبّة الآلام لم يكن يتوقّف عن صنع السجّدات، ولم يكن يذوق الماء مطلقاً، ابتداء من الصوم حتّى خميس الأسرار، وكان طعامه في اليوم أقلّ من أوقيتين، ورغم هذه التّقشقات، لم يتوقّف عن نسخ الكتب والمخطوطات، حتّى امتلأ جبل لبنان كتباً منسوخة بخطّه الجميل^٢.

وإضافة إلى هؤلاء النسّاك، ذكر الدويهي في تاريخه، وفاة الحبيس "ملكا البقوفاني"، سنة ١٥٦٠. فهذا البارّ قضى في حياة النسك ستين سنة. فسكن، أولاً، في محبسة قزحيا، ثمّ في محبسة مار ضوميّط داريّا، ثمّ في المحبسة المنقورة في الصخر

١ - صغير، المرجع السابق، عن المخطوط السرياني للدويهي؛ إن لفظة "حتّى يومنا" تعني التاريخ اللّذين كان يدوّن فيه البطريرك الدويهي كتبه تاريخ الأزمنة أي في ١٦٦٨ - ١٦٧٠.

٢ - صغير، المرجع السابق، عن المخطوط السرياني للدويهي؛ ولورد صغير في الحاشية: هنا تجب الإشارة إلى أنّ المخطوط الفتيكانيّ السريانيّ المنكور، والمحفوظ في مكتبة الفتيكان هو من خطّ يد الحبيس جبرائيل الإهنيّ وقد نسخه وأهداه إلى كنيسة رعيته إهني، وهو يحتوي على رتب الطقوسات المارونية.

والموجودة قبالة عرجس، وأخيراً في محبسة مار مخايل فوق دير قزحياً. وكان قدوة صالحة ومثالاً حياً لكل الناظرين إليه، فيطوي، في أيام الصوم، أسبوعاً كاملاً، ولم يأكل طعاماً إلا يوم الأحد. وكان يقهر جسده، ويميته بالجوع والعطش والسهرة المتواصل. وكان يمشي حافي القدمين، ولم يكن ليبطل عن ذكر اسم الله، ولم يتفرس في وجه امرأة طوال حياته. ولزيادة فضله وقداسته سيرته، رَقاه البطريك موسى العكاري إلى الدرجة الأسقفية^١.

ومن نساك وادي قاديشا وقزحياً وقنوبين، كان يُنتخب بطاركة الطائفة المارونية وأساقفتها، إضافة إلى عشرات الأساقفة الذين رَقّوا إلى الدرجة الأسقفية، تبوأ ثلاثة منهم الكرسيّ البطريكّي، فأرغموا على الخروج من صوامعهم ليدبروا شؤون الطائفة. وهم مخايل الرزّي (١٥٦٧ - ١٥٨١) وسركيس الرزّي (١٥٨١ - ١٥٩٦)، ويوسف الرزّي (١٥٩٦ - ١٦٠٨). وفي أواخر القرن السادس عشر، ذكر الدويهي وفاة حبيسيّين لامعّين في محابس الفراديس، هما: "يوسف البسلوقيّتي" (ت ١٥٨٠) في محبسة مار أنطونيوس الفراديس؛ و"يعقوب عصّاص السمراني" (ت ١٥٨٤)، فهذا ترهب أولاً في دير قزحياً، ثم قضى حياته في أعمال النسك بقداسة وطهارة فائقتين في محبسة مار سمعان الفراديس، وظلّ جسده حياً بعد وفاته ولم يمسه فساد^٢.

يبدو أنّ شهرة قداسة الحبساء الموارنة، في الوادي المقدّس، عطّرت الآفاق، بدليل أنّ "فرنسوا غالوب دي شاستويل" FRANÇOIS DE CHASTEUIL الفرنسيّ الأصل، وافى لبنان في منتصف القرن السابع عشر، وأقام في غرفة ضيقة في دير مار يعقوب إهدن، ثمّ في دير مار سركيس رأس النهر، ثمّ في دير مار أليشاع القديم في الوادي

١ - صغير، المرجع السابق، عن المخطوط السرياني للدويهي.

٢ - المرجع السابق.

المقدّس. ولم يكن يخرج من قلايته ليختلط بالناس، بل ظلّ اثنتي عشرة سنة مكبّاً على قراءة الكتاب المقدّس في اللغات السامية، وعاكفاً على الصلوات والتأمّلات وأنواع الإماتات الجسدية المختلفة. وما عثم أن اقتفى آثاره أربعة شبّان آخرون من بني أمّته، فقدموا لبنان سنة ١٦٦٨، من فرنسا، طالبين الوحدة وحياة النشّاف في محابس وادي قاديشا وقنّوبين. فقبلهم البطريرك، آنذاك، جرجس السبعلي في عداد الحبساء الموارنة. فاختار البعض منهم السكن في محبسة مار شليطا الواقعة قرب كفرصارون^١، والبعض الآخر في محبسة مار أنطونيوس المنقورة في الصخر فوق دير قنّوبين، والبعض في محبسة مار أبون قرب حدث الجبة^٢.

في النصف الأخير من القرن السابع عشر، كان عدد النساك الموارنة يزداد في وادي قاديشا وقنّوبين. وكانت المجالس تكثّر بازديادهم. فذكر الدويهي، إضافة إلى مَنْ استعرضنا أعلاه، الحبيس "سركيس السمراني"، الذي انزوى في محبسة مار أنطونيوس قزحياً، وكان رجلاً ديناً راغباً في العلوم ومتضلّعاً من اللغة السريانية والعربية. ثمّ ذكر الحبيس "سركيس بن موسى الرزي"، فهذا كان قد تلقّى علومه في روما، ثمّ عاد إلى لبنان، ولما انتُخب أخوه يوسف بطريركاً سنة ١٥٩٦، خلفه هو في محبسة "مار بيشاي" قرب دير قزحياً. ويرجع إلى هذا الحبيس العالم العلامة الفضل الكبير في جلب أول مطبعة إلى الشرق وطباعة أول كتاب فيها سنة ١٦١٠ وكان هذا "كتاب المزامير"^٣.

وبعد أن أسست الرهبانيّات، وبأقول نجم القرن السابع عشر، لم يأفل معه نجم الحياة النسكية في الكنيسة المارونية، لا بل نظّمت هذه الحياة، فسُنّت لها القوانين

١ - في قضاء الكورة من شمال لبنان.

٢ - المرجع السابق.

والرسوم، وعادت فعمرت المحابس من جديد بالزهاد والمتوحدين. بلغ عدد هؤلاء النسك العشرات في الرهبانية اللبنانية المارونية، وكان من أبرزهم اسمًا وأرفعهم شأنًا وأعظمهم قداسة القديس شربل مخلوف^١، فخر الكنيسة المارونية ومثال الحياة النسكية الأعلى في العصر الحديث، كما كان القديس مارون مثالها في العصر القديم^٢.

١ - القديس شربل مخلوف (١٨٢٨ - ١٨٩٨): قديس لبناني، ولد في في بقاعكرا في ٨ أيار (مايو) ١٨٢٨ وسمي يوسف، والده أنطون زعرور مخلوف وأمه بريجيتا لينة لباس يعقوب الشدياق من بشرّي، ترك بيت أبيه بعمر الثالثة والعشرين وقصد القرب في الرهبانية المارونية اللبنانية، دخل الابتداء في دير سيدة ميغوق ١٨٥١ ثم انتقل إلى دير مار مارون عُنّايا حيث أتمّ عامه الثاني من الابتداء، أبرز نوره الأولى في دير عُنّايا ١٨٥٣، عيّنه الرؤساء تلميذًا فأرسل إلى دير كخيفان حيث درس الفلسفة واللاهوت ١٨٥٣ - ١٨٥٩، كان من جملة معلميه الطوباوي نعمة الله الحرديني، سيم كاهنًا في دير سيدة بكركي على يد المطران يوسف المريض في ٢٣ تموز (يوليو) ١٨٥٩، أقام في دير مار مارون عُنّايا ١٨٥٩ - ١٨٧٥ متمرّنًا بأسمى الفضائل الرهبانية لا سيما الطاعة والتواضع، أجرى الله على يده آيات باهرة منها "آية السراج" الذي ملأه الخادم ماء بدل الزيت فأضاء له ساعات صلاته الليلية، استحب في محبة دير عُنّايا بعد إذن رؤسائه ١٨٧٥ - ١٨٩٨، قضى سنوات استحبابه يركع على طبق من قصب ذي حروف شائكة يلبس المسح على جلده ينام قليلا ويصلي كثيرا ويعمل في الحقل بموجب قانون الحياء، انتشر عرف قداسه فأخذ الناس يقصدونه للتبرك ونيل المكرّمات، مرض في المحبسة ١٨٩٨، نقل إلى الدير حيث توفي في ٢٤ كانون الأول (ديسمبر) ليلة عيد الميلاد ١٨٩٨، فتح قبره ١٨٩٩ حيث وجد جثمانه سليما فنقل إلى منفن آخر، قُضت دعوى تطويبه ١٩٢٥، بدلت دراسة الدعوى ١٩٢٦، نقل جثمانه إلى ضريح ثالث وحرّر محضر طبّي عن حالته ١٩٢٧، رفعت دعوى التطويب إلى روما ١٩٢٨، فتح القبر رسميًا وجرى عليه كشف طبّي وعرض الجثمان للزور ١٩٥٠، وقّع البابا على قبول دعوى التطويب ١٩٥٤، فتح القبر مجدّدًا للتحقيق ١٩٥٥، وفتح مجدّدًا أمام لجنة كنسية وطنية ١٩٦٥، أعلنه البابا بولس السادس طوباويًا في ٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٦٥، فتح القبر أمام لجنة كنسية وطنية ١٩٧٥، رفعه البابا إلى مرتبة القداسة في ٩ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٧، تحتفل الكنيسة بعيدة في ١٨ تموز (يوليو)، مركزه الأسامي في دير مار مارون عُنّايا التابع للرهبانية المارونية اللبنانية، جرت بشفاعته مكرّمات كثيرة.

٢ - صغير الأب بولس، "مجلة الفصول اللبنانية"، العدد ١، شتاء ١٩٨٠، ص ١٢٦ - ١٣٣.

رَهْبَانِيَّات الرُّهْبَانِ الْمَوَارِنَةِ

تتميّز الكنيسة المارونيّة بغناها بالرهبانيّات العريقة الحيّة التي أعطت الأبرار والقديسين والمربين والمناضلين والمرسلين، من الجنسين، ولا تزال. وبالمؤسسات التربويّة الكبرى التي نشأت على أيدي بطاركة وأساقفة ورهبان ومرسلين، جعلت أبناء هذه الكنيسة يتميّزون، عموماً، بتراث ثقافيّ سام. وقد عزّز الاكليروس المارونيّ، في القرن التاسع عشر أدياره العائدة إلى الرهبان والراهبات، ونشأت فيها وحولها مدارس حديثة نسبياً إتّبع بعضها نظام المدارس الفرنسيّة، حتّى بات لهذه الكنيسة سلسلة من المدارس الكبرى التابعة لعدد من الرهبانيّات، يفوق تلك التي للإرساليّات الأجنبيّة مجتمعة. كما نشأت لهذه الكنيسة مؤخّراً جامعات ثلاث، يتبع كلّ منها لأحدى رهبانيّاتها: اللبنايّة (البلديّة)، والمريميّة (الحليّة) والأنطونيّة. ولا يخفى على أهل المعرفة أنّ النهضة العربيّة التربويّة العلميّة والأدبيّة والصحافيّة تدين، بالجزء الأكبر منها، لموارنة مشهورين سواء في لبنان أم في مصر وسائر بلدان الإنتشار. كما خرّجت تلك المعاهد العريقة عدداً لا يستهان به من أتباع كنائس أخرى، ومن مسلمين ودرّوز لبنانيين. وهي اليوم تستقبل في بعض جامعاتها عرباً من كافّة الأقطار.

وسوف نحاول، في ما يلي، استعراض تاريخ الرهبانيّات والمؤسسات الرسوليّة والتربويّة التي أنشأها الموارنة ولا تزال سائرة على دروب الحضارة مواكبة العصر من دون توقّف، متّبعين بذلك التسلسل التاريخي، بادئين برهبانيّات الرهبان، يليها رهبانيّات الراهبات.

نشوء الرهبانيات المارونية

تجلت حيوية الكنيسة المارونية، في أواخر القرن السابع عشر، بتأسيس الرهبانية اللبنانية بفرعيها اللبناني والحلبّي سنة ١٦٩٥، وتأسيس الرهبانية الأنطونية سنة ١٧٠٠. فساعدت هذه الرهبانيات الثلاث في نموّ الحياة الروحية، وازدهار الاقتصاد اللبناني، كما أسهم العديدون من أبنائها في إنعاش النشاط الرسوليّ في القرى والأرياف النائية. وفي الربع الأوّل من القرن الثامن عشر، تنادى عدد من خريجي المدرسة المارونية إلى تأسيس رسالة مارونية عمّت نشاطاتها معظم قرى لبنان وسورية وفلسطين وجزيرة قبرس^١.

فبعد رهبان دير مارون على العاصي، وحياة النسك التي عاشها رهبان وكهنة متوحّدون، يبدأ تأسيس الرهبانيات المارونية على أيدي ثلاثة شبّان من وجهاء حلب الموارنة هم: جبرائيل حوّا الحلبّي (ت ١٧٥٢)، وعبدالله قرآليّ الحلبّي (ت ١٧٤٢)، ويوسف البتن الحلبّي (ت ١٧١٤)، قدموا منها إلى جبل لبنان في أوّل شبّاط (فبراير) سنة ١٦٩٤ حيث انضمّ إليهم جرمانوس فرحات (١٦٧٢ - ١٧٤٢) ابن مدينتهم، ومثلوا بين يدي البطريرك إسطفانس الدويهي في دير قنّوبين، وطلبوا منه الإذن والعون على أن يقيموا رهبانية تتضمّن إلى قانون خاص وضعوا مبادئه الرهبانية الجديدة. فلمّا تأكّد البطريرك من عزمهم، سرّ بذلك، وابقاهم عنده. وفي اليوم العاشر من شهر ت ٢ (نوفمبر) ١٦٩٥، ألبسهم الإسكيم الرهبانيّ في كرسيه بدير قنّوبين، على سبيل التجربة. وبعد حين أعطاهم دير "مرت مورا" قرب إهدن فاصلحوه وأقاموا عليه رئيساً جبرائيل حوّا، مختبرين بصعوبة قانون رهبانيّتهم التي عاشوها برويا المؤسّسين

١ - صغير، الكنيسة المارونية، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

في ذلك الدير. ودعوا مؤسستهم الجديدة "الرهبانيّة الحليّة المارونيّة". فأخذت هذه الرهبانيّة تنمو، وتعدّد الذين انتظموا فيها وقد ثبتّها البطريرك الدويهي سنة ١٧٠٠ التي فيها نذر رهبانها النذور الثلاثة التي تضمّنت الفقر والعفة والطاعة، وساروا على قانون القديس أنطونيوس^١ التي سيصدر البابا إكليمنضس الثاني عشر براءة بتشيّتها سنة ١٧٣٢، وبذلك أصبحت هذه القوانين المرجع الأول والوحيد لسائر قوانين الرهبانيّات الشرقيّة اللاحقة.

قبل ذلك التاريخ، وتحديدًا في سنة ١٦٩٦، أسست الرهبانيّة ديرها الأول على اسم مار أليشع في وادي بشرّي، على أنقاض دير قديم خرب. وفي خلال عشر سنوات، أصبح للرهبانيّة أربعة أديار، إذ أسست ديرها الثاني على اسم مار يوحنا في "رشميا"^٢ سنة ١٧٠٦، والثالث على اسم سيّدة اللويزة في زوق مصبح كسروان سنة ١٧٠٧، والرابع على اسم القديس أنطونيوس الكبير، شفيح الرهبانيّة، في قرية "سير" من أعمال قضاء عاليه في جبل لبنان، سنة ١٧٠٧ أيضًا^٣.

أمّا دير سيّدة اللويزة فكان الشيخ "سلهب الحاقلاني" قد بناه سنة ١٦٨٢ في منطقة اللويزة بخراج زوق مصبح، ووقف له الأملاك، وجعله لسكنى الرهبان العبّاد. ثم ترهّب فيه ولده القسّ اغناطيوس^٤. وفي سنة ١٧٠٧، تسلّمت الرهبانيّة المارونيّة هذا

١ - راجع: بليل الأب لويس، تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة للمارونيّة، طبعة يوسف كوى (مصر، ١٩٢٤) جزءان؛ سفير الأب لويس، تاريخ الرهبانيّة المارونيّة للمريميّة ومشاهير رهبانها، نشر الأبّاتي بطرس فهد (١٩٩٣)، فهد الأبّاتي بطرس، تاريخ الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة بفرعها الحليّ واللبنانيّ (جونيّه - لبنان، ١٩٦٨)؛ دريان، نبذة تاريخيّة في أصل الطائفة المارونيّة، ص ١٩٦ وما يليها؛ الكفرنيسي، تاريخ عقلة الخوري تادي، مرجع سابق، ص ٣٩٤ - ٣٩٨.

٢ - العنيطوريني، مرجع سابق، ص ١٥٣.

٣ - الحتّوني، المقاطعة الكسروانيّة، مرجع سابق؛ اللبس، الجامع المفصل، مرجع سابق، ص ٢٣١ - ٢٥٨.

الدير من القسّ "اغناطيوس الحاقلاني" المذكور^١. وفي تدوين في مذكرات أحد مؤسسي الرهبانيّة: عبد الله قرآلي، الذي ترأس الرهبانيّة قبل أن يصبح مطراناً، جاء التالي:

في أواخر سنة ١٧٠٦ راسلني القس اغناطيوس (الحاقلاني) ليسلمنا دير اللويزة، وسبب ذلك كان صغر نفسه من رهبانه. وكان عنده أربعة رهبان رسميين وغيرهم مبتدئين، فسلمنا ديرهم بعد مشورة المدبرين وكتب لنا فيه حجة نتصرف فيه التصرف الكامل، وأنّه ملك الرهبنة ملكاً ثابتاً. فبعض رهبانه دخلوا شركتنا والبعض شردوا. وكان للدير عقار وافر، ولكنه كان فقيراً بالبنيان والأمتعة اللازمة وكان عليه جملة ديون^١.

بعد تسلمها دير سيدة اللويزة، أنشأت الرهبانيّة فيه مدرسة كان فيها يومها حوالي ٨٠ طالباً جلّهم من زوق مصبح^١. ثمّ قام الرهبان بهدم ما لزم هدمه، وبنوا مكانه أقبية من حجر وبنوا كبيرة لجمع المياه. وأخذوا في توسيع نطاق الدير وزيادة أملاكه سنة فسنة، إلى أن صار من أعظم الأديار في ذلك العصر. فجعلته الرهبانيّة منذ سنة ١٧٢٣ مركزاً لرئاستها العامّة، ورُتبت فيه مكتبة نفيسة جمعت من الكتب عدداً وافراً خطيّة ومطبوعة، عربيّة وسريانيّة ولاتينيّة ويونانيّة وغيرها ممّا لا مثيل له في البلاد الشرقيّة. وفي سنة ١٧٣٦ وضعت الرهبانيّة الدير تحت تصرف آباء "المجمع اللبناني" *، ما من شأنه أن يفيد عن أنّه كان أهمّ الأديرة المارونيّة على الإطلاق في تلك الأيام. وفي سنة ١٧٤٩ أودعته الرهبانيّة رفات أبرز مؤسسيها المطران عبد الله قرآلي، وذلك في مدفن رخامي وراء مذبح الكنيسة الأكبر. وحفظت مكتبة الدير صندوقاً من زجاج يحوي طابيّة^٢ قرآلي ونسخة أصليّة من قانون الرهبانيّة الذي وضعه بنفسه، وهو بالكرشوني * وممهور بتوقيعه وخاتم البطريرك إسطفانس الدويهي.

١ - فهد، تاريخ الرهبانيّة، مرجع سابق. ٢ - الطابيّة: عدد الموارنة، ما يليه الخوري والأسقف على رأسه، من الإيطاليّة.

الرهبانية المارونية المريمية

سنة ١٧٦٨، انقسمت الرهبانية المارونية إلى رهبانيتين^١: الأولى حملت اسم الرهبانية الحلبية وبذل اسمها مؤخراً إلى الرهبانية المريمية، والأخرى حملت اسم البلدية ثم أصبحت تُعرف بالرهبانية اللبنانية. وإذ جرى قسمة الأديار بين الرهبانيتين، كان دير سيّدة اللويزة من نصيب الرهبانية الحلبية إضافة إلى أديار أخرى. ولا يزال دير سيّدة اللويزة، الذي أنشئت حوله مدرسة كبرى ثم جامعة هامة، يشكل إلى اليوم المركز الرئيس للرهبانية الحلبية التي باتت تُعرف اليوم بالمريمية، حيث عُقد المجمع اللبناني الشهير، سنة ١٧٣٦، كما ذكرنا، وعُقدت المجمع الكنسية الرسمية الأخرى، وما تزال تُعقد المجمع البطريركية في كل عام.

بعد القسمة، جدّت الرهبانية الحلبية المارونية كل أديارها ومراكزها ورسالاتها، وزادت عليها غيرها حتى أصبح لديها في لبنان وسواه عشرون ديراً ومركزاً، وأربعة أندية، وعدّة مدارس ابتدائية مجانية، وأربع مدارس ثانوية: في دير سيّدة اللويزة بزوق مصبح كسروان، وفي دير القمر، وفي مصر الجديدة، وفي الأوروغواي، حيث تُدرّس اللغة العربية، وجملة مدارس تكميلية في الوطن والمهجر.

وللرهبانية في القطر المصري، رسالة مؤلفة من ثمانية مراكز كبيرة عامرة؛ ورسالات في كل من: الأرجنتين؛ وأكرا ب "غانا" الأفريقية؛ وكندا. ولها في روما دير معروف ترسل إليه طلابها ليتلقوا العلوم الجامعية في مدرسة "لاتران" الحبرية،

١ - ذكر الأب عمانوئيل خوري، مجلة "الفصول اللبنانية"، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص ١٢٨ - ١٣٢، أن القسمة حصلت سنة ١٧٧٠، وأنّها لتت على أثر خلاف حول تسميتها وغيبتها، إذ إن مجيذي الفرع الحلبى شاورها رسولية، ونوي الفرع اللبناني شاورها نسكية. ومع الزمن، وتجاوزاً مع الإلهامات الروح القدس وحاجات المؤمنين، تحدثت غايّة الرهبانية المارونية الأولى "لنفسك والانتفاع عن العالم، الزهد والصلاة"، والغاية الثانوية "الرسالة التبشيرية يقوم بها الرهبان لخير المؤمنين". وقد أعطت كل منهما غايّة ثمرتها وشهادتها.

وتخرج أجيالاً من حملة الشهادات العليا، يُتقنون اللغة الإيطالية، ويطلعون على المخطوطات النادرة في مكتبة الفاتيكان.

تضمّ الرهبانيّة المريميّة اليوم نحو مئة وستين راهباً بين كاهن ودارس إكليزيكيّ ومبتدئ. ومن هؤلاء الكهنة، حوالي خمسة وعشرين راهباً يؤمّنون الرسائل، والرياضات الروحيّة، والتعليم المسيحيّ، والإرشاد في حركات الشبيبة، وما إليها من الأندية، والسهرات الإنجيليّة، والباقون يعملون في الأليرة ويقومون بالصلاة الخورسيّة.

على الصعيد الاجتماعيّ عملت الرهبانيّة على بيع قطع من أملاكها الواسعة من شركائها^١، بأسعار مخفضة، فأصبح الشركاء بالتالي مالكين، وبعضهم مستأجرين لآمد طويلة.

على الصعيد التربويّ، تساعد الرهبانيّة العائلات المستورة والفقراء والمؤسسات الخيريّة، بقدر المستطاع، وتفتح أبواب مدارسها للتلامذة المعوزين، وتجري حسومات كبيرة لعدد لا يُستهان به منهم، وتقبل كثيرًا من أولاد الفقراء مجانًا. وفي عام ١٩٧٨ دشنت الرهبانيّة معهد سيّدة اللويزة العالي، الذي يضمّ أجهزة تربويّة تتناول: التعليم الرسميّ الكلاسيكيّ والاختصاص الجامعيّ، والتوجيه الجامعيّ والتوظيفيّ، ودراسة اللغة الإنكليزيّة، ومركز التنشئة المسيحيّة الراعويّة المجهّز بمكتبة روحية وتسجيلات وأفلام، ونادي الرياضة والفنون^٢.

١ - الشريك: في هذا المجال، هو المزارع الذي كان يستثمر الأرض مرابحة في العهد الإقطاعي.

٢ - الأبّاتي بطرس فهد، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العدد٤، خريف ١٩٨٠، ص ١٣٤ - ١٣٥.

الرهبانيّة المارونيّة اللبنانيّة

عندما حصلت قسمة الرهبانيّة المارونيّة سنة ١٧٦٨ إلى بلديّة وحليبيّة، فإنّ الرهبانيّة البلديّة، التي باتت تُعرف بالرهبانيّة اللبنانيّة، قد حصلت يومها على أديرة عدّة، وجعلت مركزها الرئيس أولاً في دير مار أنطونيوس قزحياً في قنّوبين، ثمّ نقلته إلى دير سيّدة طاميش في قضاء المتن، ثمّ إلى الكسليك جونيّه، وأخيراً إلى دير مار أنطونيوس خشبو بجوار غزير، وافتتحت جامعة عامّة كبرى في دير الكسليك - جونيّه.

إضافة إلى أعمال الرهبان التقويّة المنحصرة في خدمة الله والتعبّد له، ما أفرز من هذه الرهبانيّة قديسين أبراراً، أمثال القديس شربل الذي سبق التعريف بسيرته، والطوباويّ نعمة الله الحرديني^١، والأخ إسطفان نعمة اللحفدي^٢ الذي يحضّر اليوم ملفّ تطويبه، والطوباويّة رفقا التي سيأتي الحديث عنها في مجال التعريف بالرهبانيّة

١ - للطوباوي نعمة الله الحرديني (١٨٠٨ - ١٨٥٨): راهب لبنانيّ، هو يوسف بن جرجس بن سلهب بن عماد بن كنعان بن غالب كسّاب، دخل دير مار أنطونيوس - حوب ١٨١٦ - ١٨٢٢، كان في عداد المبتهكين في دير مار أنطونيوس - قزحيا ١٨٢٨ حيث اتخذ اسم نعمة الله، وتطلم صناعة تجليد الكتب، لبرز نوره الاحتفاليّة ١٨٣٠، سيم في دير كفيفان ١٨٣٣، انتخب منبراً عامّاً للرهبانيّة في ثلاث دورات ١٨٤٥ - ١٨٤٨، و ١٨٥٠ - ١٨٥٣، و ١٨٥٦ - ١٨٥٨، بقي ملازماً فنّ تجليد للكتب وهو في مقام المنبريّة، علّم في مدارس الرهبانيّة وخاصّة في مدرسة دير كفيفان، من تلاميذه الأخ شربل مخلوف الذي أصبح للقديس شربل ١٨٥٣ - ١٨٥٨، توفّي في دير مار قبريانوس ويوسينا في كفيفان ١٨٥٨ إثر مرض عضال لمّ به، نُقل جثمانه السليم ١٨٦٢ إلى حجرة شرقيّ الدير نظراً لإلحاح الزوّار الكثيرين ويُلَمَر من البطريرك بولس مسعد، رُفعت دعوى تطويبه إلى الكرسيّ الرسوليّ في عهد البطريرك الحويّك ١٩٢٦، أعلن مكرّماً ١٩٨٩، تمّ الكشف عن جثمانه ١٩٩٦، أعلن طوباويّاً ١٠ أيار (مايو) ١٩٩٨ في احتفال رسوليّ في الفاتيكان حضره لوف اللبنانيّين من لبنان والمهجر، تحتفل الكنيسة المارونيّة بعيده في ١٤ كانون الأوّل (ديسمبر) من كلّ سنة.

٢ - الأخ إسطفان نعمة (١٨٨٧ - ١٩٣٨): راهب لبنانيّ بار، ولد في لحفد بلسم يوسف، دخل للرهبانيّة ١٩٠٥ في دير كفيفان، ثمّ نوره بلسم إسطفان تيمناً بالقديس إسطفان شفيح القرية، رئيس الحلقة في كفرنياد وسيّدة ميفوق، توفّي ودفن في دير كفيفان، تجري بشفاعته شفاءات وآيات يشهد بها المؤمنون في سجلّات الدير، فُتحت مقبرته ١٩٥٠ فوجد سالماً من الفساد وجسمه يحفظ حرارته بمنطق شهادة الأطباء، قُمت دعوى طلب تطويبه ٢٠٠٢، من آثاره في لحفد "ببع الغرير" الذي اكتشفه وهو يلحق بحيوان للغرير.

النسائية، قامت الرهبانية منذ نشأتها بتعليم الأحداث تحت سنيانة الدير وبمجانّة الإنجيل. وبعد أن تشعب الرهبان في البلاد، افتتحت الرهبانية مدرسة حيثما دعت الحاجة. وأصبح الإسم المرادف للراهب "المعلم". وقد اشتهر من بين مدارس الرهبانية، معهد سيّدة ميفوق في بلاد جبيل، ومعهد سيّدة مشموشة في قضاء جزين، اللذان فتّحا بعد الحرب العالميّة الأولى. ثمّ كانت مدارس: مار جرجس عشاّش في قضاء زغرتا، ومار مارون بير سنين في رشميا قضاء عاليه، والمعهد اللبناني في بيت شباب المتن، ومدرسة شكّا في قضاء البترون، ومدرسة الجيّة في قضاء الشوف، ومدرسة المتين في قضاء المتن، والمدرسة المركزيّة في جونيه. وتوجّ هذا النشاط التعليمي للرهبانية اللبنانية المارونيّة إنشاء جامعة الروح القدس في الكسليك عام ١٩٥٠، وقد اعتبرتها الدولة من مؤسسات التعليم العالي سنة ١٩٦٢، ولها اليوم فروع عدّة منها في الشمال وزحلة. وتصدر الجامعة منشورات علميّة، ومجلّة علميّة كلّ سنتين. وهذه الجامعة تمولّها مؤسسة رهبانية خاصّة من دون أي دعم أو مساهمة من الدولة اللبنانية أو أيّ دولة أخرى. وفيها أسست "جبهة الحرّيّة والإنسان" التي انبثقت عنها "الجبهة اللبنانية"^١ في خلال الحرب اللبنانية.

ويرتبط تاريخ الرهبانية اللبنانية المارونيّة بتاريخ المطبعة الأولى في لبنان، التي عُرفت باسم "مطبعة دير قزحيا"^٢، ومنها تحتفظ الرهبانية بالكتاب الأوّل من سنة ١٦١٠، وهو كتاب المزامير، الذي طُبِع بالسريانية والكرشونية. بعد ذلك انتقلت إلى هذا الدير أيضًا مطبعة دير مار موسى الحبشي في قضاء المتن عام ١٧٨٩. كما اشتهرت أيضًا مطبعة دير سيّدة طاميش في قضاء المتن. سنة ١٨٥٥، وذلك يوم

١ - خوري الأب عثانويل، مجلّة الفصول اللبنانيّة، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص ١٢٨ - ١٣٢.

٢ - نسبة إلى دير قزحيا في وادي قزوين من أعمال قضاء بشري في شمال لبنان.

كانت المطابع لا تزال نادرة. أمّا في العصر الحديث، فقد كان للرهبانيّة مطبعة في مدينة جبيل، احترقت، ومطبعة في مدينة بيروت^١، توقّفت سنة ١٩٧٢.

على صعيد آخر، اهتمّت الرهبانيّة اللبنانيّة بخدمة الطبابة، فباشرتها في مستشفى صغير جدّاً، وقد كبر وازدهر، وهو مستشفى سيّدة المعونات في جبيل. وأسّست في البترون مستشفى مار شربل ثمّ باعته من الدولة مجهّزاً عاملاً؛ وأسّست في غوسطا - كسروان مستشفى مار شربل الذي تحوّل اليوم إلى دار نقاهة وبيت عجزة؛ كما رعت الرهبانيّة الأيتام، فأنشأت في كلّ مدرسة ميّماً، ولها أيضاً في حريصا "ميّتم سيّدة لبنان"^٢.

على صعيد الرسائل الرهبانيّة في الخارج، واكب الراهب اللبناني، بحضوره، لبنانيّ قبرص عام ١٧٣٥، ولبنانيّ فلسطين ومصر ١٧٤٥، ولبنانيّ دكار في السنغال ١٩٤٩، ومندوسا الأرجنتين ١٩٥٢، وأبيدجان في الشاطئ العاجي، وساو باولو - البرازيل ١٩٥٤، وباماكو في المالي وعاصمة المكسيك ١٩٥٩، والتوكومان في الأرجنتين ١٩٦٠، وسيدني في أستراليا ١٩٧٢. وفي جميع هذه البلدان أصبح للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة بيوت رهبانيّة وكنائس يؤمّن فيها الرهبان، للرعايا المارونيّة وللجاليّات اللبنانيّة، الخدمة الروحيّة والوطنية، والخدمة المدرسيّة، كما هي الحال في دكار وأبيدجان وأستراليا^٢.

تميّزت الرهبانيّة اللبنانيّة بالقيام بدور وطني على مدى تاريخها، فبرز منها أساقفة ورؤساء عامّون كبار عملوا بإخلاص من أجل الوطن وإنسانه، كما عملت الرهبانيّة

١ - في دير مار لطفونيوس - شارع لبنان - عبد الوهاب الإنكليزي - الأكرقية.

٢ - خوري الأب عثانويل، مجلّة الفصول اللبنانيّة، مرجع سابق.

ككل في شتى الأزمان من أجل الحفاظ على التراث الإنساني الاجتماعي الذي ولدت منه وفيه. وبالإمكان مراجعة نماذج من تلك الأعمال في تاريخ الرهبانية الغني بالإنجازات الكبرى على الصعيد الوطني والرهباني^١. ولا يخفى على أحد ما قامت به الرهبانية اللبنانية المارونية في خلال الأحداث اللبنانية الأخيرة، إن من حيث العمل مع المؤتمر الدائم للرهبانيات اللبنانية في الحقلين الوطني والاجتماعي، أو من حيث توجيه الرهبانية لكي تكون، رهباناً وأدياراً، خيرات وممتلكات، في خدمة الكنيسة والشعب اللبناني. وشاركت الرهبانية الشعب في تكبد الخراب والدمار وتعطيل المواسم الزراعية والتشريد. وكان لها حصّة الأسد في هذا كله: فمن دير مار جرجس جنين إلى مدرسة سيّدة القلعة، إلى دير مار جرجس عشاش، إلى مدرسة شكّا، ودير مار مخايل بنابيل، ومدرسة مار يوسف المتين، ومار نقلا المروج، ومار الياس الكحلونية، ومن دير مار جرجس الناعمة وأرزاقه إلى مدرسة الجيّة. ونتوقّف هنا على الدور التعليمي والتوجيهي الذي ما فتئ يذكر به أبناء الرهبانية ليكونوا في حالة استنفار دائم، وذلك تمثيلاً مع تقاليد الرهبانية في مثل هذه الظروف الصعبة وتجاوباً مع نصوص وروح قوانينها الرهبانية... وإن جميع الخدمات والأدوار التي حققتها الرهبانية اللبنانية المارونية بواسطة أفراد لم يصل عددهم يوماً إلى أكثر من ألف راهب، من كل لبنان، جغرافياً ومذهبياً، وهي لا تزال اليوم تواصل الخدمة في لبنان والمهجر، بواسطة نحو ٣٠٠ كاهن وأخ مساعد، وتعدّ للكهنة عشرات الإكليركيين في جامعة الروح القدس - الكسليك، والمبتدئين في دير مار قبريانوس - كفيفان، و٦٠ طالباً في دير سيّدة طاميش^٢.

١ - راجع: خوري الأب عمتونيل، مجلّة الفصول اللبنانية، مرجع سابق.

١ - خوري الأب عمتونيل، مجلّة الفصول اللبنانية، مرجع سابق.

الرهبانيّة الأنطونيّة^١

أسست الرهبانيّة الأنطونيّة في دير مار إشعيا - برمانا، سنة ١٧٠٠، بعناية البطريرك جبرائيل البلوزاوي* (١٧٠٤ - ١٧٠٥) الذي كان آنذاك مطراناً على حلب، والأبوين "سليمان المشمشاني" و"عطالله كريكر" من جماعة دير سيّدة طاميش الذي كان قد أسسه البلوزاوي سنة ١٦٧٥ كمركز لمطرائيّة حلب ودير للحياة الرهبانيّة. وفي سنة ١٧٠٥، اختارت الرهبانيّة الجديدة قانوناً لها، هو قانون القديس أنطونيوس الكبير، والذي كان قد اتّبعه قبلهم الرهبان اللبنانيون. وبعد أن أثبت البطاركة الموارنة هذا القانون، تبنّته الكرسيّ الرسوليّ سنة ١٧٤٠.

انتشرت الرهبانيّة الأنطونيّة خلال ثلاثة قرون انتشاراً واسعاً في لبنان وبعض البلدان العربيّة وأميركا، وأعطت الكنيسة بطريركاً وأساقفة وكهنة ورهباناً علماء وقديسين، وساهمت بإخلاص في خدمة القريب عن طريق العيشة الديرية، والمحبة، والمدارس، والرعايا، والرسالات، والزراعة.

الأديار الأنطونيّة: ١ - دير مار إشعيا - برمانا، أسس سنة ١٧٠٠، هو الدير الأم، وفيه مركز الابتداء، ويقوم رهبانه بخدمة الرعايا، وفيه مكتبة غنيّة بالمخطوطات والمطبوعات؛ ٢ - دير مار عبدا المشمر، أسس سنة ١٧١٦، مزار شهير، خدمة الرعايا؛ ٣ - دير مار الياس - إنطلياس، أسس سنة ١٧٢٣، مزار شهير، رعية، مركز راعوي؛ ٤ - دير مار سركيس وباخوس - إهدن، أسس سنة ١٧٣٩، خدمة الرعايا؛ ٥ - دير مار جرجس - عوكر، أسس سنة ١٧٤٠، خدمة الرعايا؛ ٦ - دير مار يوحنا القلعة - بيت مري، أسس سنة ١٧٤٨، خدمة رعايا، مركز الرئاسة العامّة للرهبانيّة

١ - عن أبو فاضل الأقبليّ مخابل، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص ١٣٦ وما يليها.

صيفاً، دير أثري شهير؛ ٧ - دير مار الياس - قرنايل، أُسس سنة ١٧٤٩، رعية؛
 ٨ - دير مار سمعان - عين القبو، أُسس سنة ١٧٥٦، خدمة الرعايا؛ ٩ - دير مار
 بطرس وبولس - قطين، أُسس سنة ١٧٦٠، رعية؛ ١٠ - دير مار أنطونيوس - بعبدا،
 أُسس سنة ١٧٦٤، مركز الطالبيّة الأنطونية، خدمة رعايا، المعهد الأنطوني، جامعة؛
 ١١ - دير مار روكز - الدكوانة، أُسس سنة ١٧٦٧، مركز الرئاسة العامّة شتاء،
 رعايا؛ ١٢ - دير مار يوسف - زحلة، أُسس سنة ١٧٧٣، رعية، مركز راعوي،
 مدرسة؛ ١٣ - دير مار أنطونيوس - جزين، أُسس سنة ١٧٧٤، خدمة رعايا؛
 ١٤ - دير مار الياس - قَبّ الياس، أُسس سنة ١٧٧٥، رعية؛ ١٥ - دير مار أدنا -
 النّمورة، أُسس سنة ١٧٩٢، رعية؛ ١٦ - دير مار نهرا - قرنة الحمراء، أُسس سنة
 ١٨٢٧، خدمة رعايا؛ ١٧ - دير مار روكز - حوش حالا، أُسس سنة ١٨٤٨، مدرسة،
 رعية؛ ١٨ - دير السيّدة - المينا - طرابلس، أُسس سنة ١٨٥٠، رعية، مدرسة؛ ١٩ -
 دير مار يوسف - بحر صاف، أُسس سنة ١٨٥١؛ ٢٠ - دير مار سرقيس - زغرتا،
 أُسس سنة ١٨٥٤؛ ٢١ - دير ماريوحنا - عجلتون، أُسس سنة ١٨٩٧، مصيف دير
 عوكر، مدرسة حديثة؛ ٢٢ - دير مار يوحنا مارون - روما، أُسس سنة ١٩٢٤، وكالة
 الرهبانيّة لدى الكرسيّ الرسوليّ، ومدرسة مار إشعيا، مركز للدارسين الفلاسفة
 واللاهوتيين؛ ٢٣ - كندا: وندرز وتورنتو، رعيّتان، أُسسنا سنة ١٩٧٥.

جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة^١

أسست هذه الجمعية سنة ١٨٦٥، في دير الكريم - غوسطا على يد الخوري يوحنا الحبيب سعادة^٢، الذي أصبح في ما بعد مطراناً. عرفت جمعية الرسالة اللبنانية، منذ نشأتها، ومن نصّ قانونها وروحها، بأنها مؤسسة رسولية موقوفة على خدمة الكلمة، غايتها تقديس أعضائها بالعمل على حفظ إيمان الموارنة وتنميته بمختلف الوسائل الرسولية، كما يشير إلى ذلك كتاب قوانينها في فقرته الأولى حيث يقول:

إنّ الغرض من تأسيس جمعية المرسلين اللبنانيين الموارنة أن يجري بناؤها في قصد طريق الكمال، ويبدلوا جهدهم في أمر خلاص القريب ونفعه الروحي بالكراسة بالإنجيل المقدّس، وبالأنداز والإرشاد والتفقيه بالأمور الدينية ومباشرة أعمال الرسالة وتعليم الأولاد العلوم الكنائسية والأدبية التي تؤول لنفع القريب. وذلك لمجد الله العظيم.

وفي الفصل الخاصّ "في الرسالة ومباشرتها" في تفصيل الغاية والأهداف يقول:

إنّ جلّ الغرض من تأسيس جمعيتنا مباشرة الرسالة. أمّا أعمال الرسالة فمتعدّدة: الوعظ والأنداز والتعليم والإرشاد وسماع الاعترافات والسترويض بالرياضات الروحية وشرح التعليم المسيحي للأولاد وغير المتفقهين بأمور الديانة. وفي الجملة إمداد الناس بكلّ عمل روحي يفيد خلاص نفوسهم.

١ - سعادة الأب اغناطيوس، مجلّة "الفصول اللبنانية"، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص ١٣٨ - ١٤١.

٢ - المطران يوحنا الحبيب الخوري (١٨١٦ - ١٨٩٤): بيّنت دراستنا أنّ المطران يوحنا الحبيب ليس من آل سعادة كما جاء في المرجع المذكور، بل هو من آل الخوري المتحزّين من الأسرة المشروقة (راجع: مفوّج، بنو المروقي، مرجع سابق) فهدر يوحنا لين بطرس الخوري العنكسوري نسبة إلى عين كسور في الشوف، ولد في بيت الدين وتوفّي ودفن في دير الكريم، عرف بلسم يوحنا الحبيب، تخرّج من عين ورقة، سيم كاهنًا ١٨٤١، أسقف الناصرة ١٨١٦، تعلّم الفقه الإسلامي مع الشيخ بشارة الخوري الفقيه وتولّى حكم القضاء ١٦ سنة، أنشأ جمعية المرسلين اللبنانيين ١٨٦٥، ذهب مترجماً مع البطريرك بولس مسعد إلى روما ١٨٦٧ فيلريس فالأسنة، نال الوسام المجيدي، من آثاره تعريب "للاهوت الأبدي" للأب يوحنا الخوري اليسوعي.

بعد وفاة المؤسس سعى المسؤولون إلى أن يتخصّص معظم أبناء الجمعية في الجامعات الغربية ليضعوا معارفهم في خدمة الرسالة. فقد امتاز المرسلون اللبنانيون، بالعلم الغزير المقرون بالغيرة التي تستسهل الصعاب وتتنقاد لصوت الله والكنيسة. فآلفوا ووعظوا وحاضروا، وجابوا قرى لبنان وسوريا وفلسطين ومصر وقبرص، حيث هناك موارنة. وأسّسوا في القارة السوداء مراكز للرسالة ومدارس لتعليم الأولاد، عملاً بما جاء في قانونهم:

رسالة جمعيتنا ليست محصورة في جبل لبنان، بل تمتدّ إلى كلّ جهة يوجد فيها جماعة مارونية... وإنّ وجوب مباشرتها ليس بمقصود على المرؤوسين غير المتوظّفين... بل يتناول الرئيس العام نفسه عند الاقتضاء.

إعتاد بطاركة الطائفة المارونية، منذ القدم، وحتى يومنا هذا، على انتداب المرسلين اللبنانيين، لإرشاد السادة الأساقفة في رياضاتهم السنوية في بركي؛ كما فوضوهم رسمياً بالإشراف على الإدارة الروحية لراهبات العائلة المقدسة المارونيات منذ تأسيس جمعيتهم على يد البطريرك الياس الحويك؛ وبطاركة الطائفة السريانية يطلبون إليهم، من وقت إلى آخر، بأن يلقوا عليهم وعلى المصنف الأسقفى المواعظ والإرشادات في مقرهم بدير الشرفة. ويشرف كهنة الجمعية المتخصّصون، على إرشاد حركات الشبيبة على أنواعها، وينظّمون المخيمات الرسولية في القرى، ساحلاً وجبلاً، يعاونهم في ذلك تلامذتهم المرشّحون للكهنوت. تجدر الإشارة هنا إلى أنّ رئيس أساقفة القاهرة الماروني، المطران يوسف مرعي، هو أحد أبناء هذه الجمعية.

يملك المرسلون اللبنانيون أدياراً ومدارس ومراكز رسالات في الوطن والمهجر، هي: دير الكريم في غوسطا، يضمّ رفات المؤسس ورفات تلامذته الأولين واللاحقين؛ دير القديس يوحنا الحبيب في جونية، يرجع إنشاؤه إلى سنة ١٩٠٠، يضمّ كنيسة،

والمركز الوطني للنشاطات البابوية الإرسالية المناطة إدارته بأحد أبناء الجمعية؛ مركز صيفي في ميروبا كسروان، يرقى إلى أيام المؤسس، أضيفت إليه، أواسط القرن العشرين، مدرسة صيفية للأولاد.

وكانت الجمعية قد تولّت إدارة مدرسة الحكمة (١٩١٩ - ١٩٣٠) بتكليف من المطران اغناطيوس مبارك، ثم مدرسة عين ورقة (١٩٣٥ - ١٩٣٩) بطلب من البطريرك أنطون عريضة؛ إلى أن قرّرت تأسيس مدرسة خاصة بها، فأنشأت، سنة ١٩٣٩، معهد الرسل في جونية؛ وشيّدت، سنة ١٩٦٦، مدرسة قدموس مع ميتم قرب مدينة صور، وهي مدرسة ثانوية معظم طلابها من الطوائف غير المسيحية. كما أنها تتولّى، بتكليف رسمي من البطريركية المارونية والسفارة البابوية، إدارة معبد سيّدة لبنان في حريصا، منذ أن شُيّد هذا المقام عام ١٩٠٤، وهي التي أشرفت أيضا على بناء البازيليك الكبرى فيها.

عام ١٩٦٧، بنت الجمعية في جونية مدرستها الإكليريكية الكبرى والصغرى لتلاميذها، وجهّزتها بمكتبة عامرة بالمؤلفات النادرة والنفيسة. وترقى نواة هذه المكتبة إلى أيام المؤسس نفسه الذي حرص على شرائها من ماله الخاص. وفي عام ١٩٢٩ اشترت الجمعية مطبعة خاصة بها، وجذّبتها تباعا حتّى أصبحت من كبريات المطابع اللبنانية. وقد صدر، ولا يزال يصدر عنها، آلاف الكتب والمنشورات التي تعالج شتّى المواضيع. وقد دشنتها، يوم اشترتها، بطبع "كتاب القوانين". وعلى أثر ذلك، أنشأت مجلة "المنارة" العلمية، لسان حال البطريركية المارونية... وأنشأت إلى جانبها مجلة "سيّدة لبنان" (١٩٣٣ - ١٩٧٣)؛ وصدرت عن معهد الرسل مجلة "الرسالة" الأدبية، ثم استُبدل اسمها باسم "الرسل" وهي لا تزال تصدر إلى اليوم. كما أن مدرسة قدموس في صور تُصدر نشرة خاصة تحمل اسمها.

وكانت باكورة أعمال المرسلين اللبنانيين في ديار الإنتشار اللبناني، عام ١٩٠١، تأسيس رسالة في بوانس أيريس - الأرجنتين، قوامها كنيسة للجالية على اسم مار مارون، ومدرسة ثانوية، وشيّدوا كاتدرائية ضخمة وُضع الحجر الأساس لها أوائل سنة ١٩٨٠. واشترت الجمعية هناك مطبعة أصدرت عنها جريدة "الرسل" باللغتين العربية والإسبانية ١٩١٣ - ١٩٥٩، ثم استأنفت إصدارها في صيف ١٩٧٩ بشكل نشرة دورية باللغة الإسبانية. وفي عام ١٩٢٧، أنشأ المرسلون اللبنانيون في جوهانسبرغ - أفريقيا الجنوبية، كنيسة على اسم سيّدة لبنان. وفي ١٩٣١ انتقل بعض الآباء من الأرجنتين إلى ريو دي جانيرو في البرازيل وأسّسوا كنيسة فخمة على اسم سيّدة لبنان أيضاً، كما افتتحوا مدرسة وداراً للعجزة من أبناء الجالية.

وكانت الجمعية قد أقامت، في أزمنة متعاقبة، ثلاثة مراكز في أميركا الشمالية، إلّا أنّها اضطرت إلى إقفالها بعد مضيّ ما يزيد على الأربعين عاماً على وجودها، لتعذر تأمين المرسلين للقيام بالخدمة الرسولية. كما عُهد إليها تأسيس وإدارة المدرسة المارونية التابعة لجامعة سلامنكا في إسبانيا سنة ١٩٤٧، بأمر من البطريرك عريضة، واستجابة لبادرة الجنرال فرنكو نحو الموارد، وقد أُقفلت سنة ١٩٦٩ بعد أن تخرّج منها عدد كبير من أبنائها ومن كهنة الموارد^١.

١ - سعادة الأب اغناطيوس، مجلة "الفصول اللبنانية"، العدد ٤، خريف ١٩٨٠، ص ١٣٨ - ١٤١.

رَهَابِيَّات الرّاهِبَات المَوارِنَة

قبل انعقاد المجمع اللبناني عام ١٧٣٦، كانت أديار الراهبات تقوم إلى جانب أديار الرهبان، فيشارك الجمهوران في الكنيسة والمائدة. ومع المجمع اللبناني الإصلاحية للكنيسة المارونية، تقرر الفصل بين الجمهوريين.

الرّاهِبَات اللبنانيّات المَارونيّات^١

نشأت جمعية الراهبات اللبنانيات المارونيات ببراءة رسولية سنة ١٧٣٣ تم تنفيذها بقرار "المجمع اللبناني" الذي قضى بتجديد الحياة الرهبانية النسائية في الكنيسة المارونية. وتعرف الراهبات اللبنانيات المارونيات اليوم بالفرع النسائي للرهبانية اللبنانية المارونية. ولكي ينجح تدبير المجمع اللبناني الإصلاحية للكنيسة المارونية الذي عقد سنة ١٧٣٦، وكان من جملة مقرراته الفصل بين جمهوري الرهبان والراهبات، ويصبح قاعدة عامة للسيرة الرهبانية في لبنان، قرر القاصد الرسولي المطران يوسف سمعان السمعاني*، الذي تولى رئاسة المجمع اللبناني باسم البابا، أن يفرز ديرًا ويخصه لهذا العمل الإصلاحية. وقد اتفق على ذلك مع المطران عبدالله قرألي، أحد مؤسسي الرهبانية المارونية، فتم اختيار دير مار الياس الراس، قرب جعيتا - كسروان، فرمّم ووسّع وحصّن لهذه الغاية. وتسلمته الرهبانية المارونية لكي تشرف على سير الحياة الرهبانية النسائية فيه. ومن علامات نجاح تلك الحياة في ذلك الدير، أنه تفرّع عنه أو انضم إليه سائر أديار الراهبات اللبنانيات: دير مار ساسين في بسكنتا ١٧٥٦؛ دير مار سمعان العمودي في قرن أيطو زغرنا ١٨٤٦؛ دير مار مارون القنيطرة في

١ - خوري الأب عمّونيل، مجلة الفصول اللبنانية، العددان ٥ و ٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ٢٠٤ - ٢٠٥.

بيت شباب ١٨٩٤؛ دير مار يوسف الظهر في جربتا البترون ١٨٩٧؛ دير سيّدة النجاة بصّا ١٩٦٢ الذي انتقل جمهوره ١٩٧٢ إلى مستشفى مار شربل في غوسطا. وبينما انتقل غيرهنّ من الراهبات اللبنانيّات، المارونيّات وغير المارونيّات، من حالة المتوحّدات إلى ممارسة أعمال الرسالة خارج الدير، فقد بقيت الراهبات المارونيّات اللبنانيّات على وضعهنّ القانوني، أي راهبات متوحّدات، ينصرفن إلى الصلاة والعمل في داخل أسوار الدير. وقد حاولت الرهبانيّة اللبنانيّة، بشخص رؤسائها العامّين، ابتداء من عام ١٩٣٩ إعطاءهنّ نهجاً جديداً، فكان الإجماع دوماً على البقاء على حالتهم التوحديّة أو الديرية. وفي خلال السنوات الأخيرة وُضعت لهنّ قوانين ورسوم هي قيد الاختبار، حافظن فيها على هويّتهنّ التوحديّة حسب المفهوم الشرقيّ لهذه الحالة. وعند الحاجة الملحة كانت الرهبانيّة اللبنانيّة تطلب إليهنّ القيام ببعض الخدمات الاجتماعيّة في مستشفياتها ومياتمها ومدارسها، وأخيراً في جامعاتها؛ وكلّ مرّة كان يقتضي لذلك إذن صريح من المراجع الكنسيّة المختصة. وهذا برهان واقعيّ عن انتمائهنّ القانونيّ الأصليّ إلى الفرع التوحديّ في الكنيسة الكاثوليكيّة. وقد جاء في قانون راهبات هذه الجمعيّة:

تقوم السيرة الرهبانيّة التي تتبعها الراهبات اللبنانيّات المارونيّات ضمن جدران الأديار، على الشهادة للإنجيل بممارسة النسك والتأمل والخلوة حسب التقليد الرهبانيّ عامّة والسريانيّ خاصّة، فبلغن بواسطتها كمال المحبة... (قانون ١٢)؛ إنّ الرئيس العامّ للرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة هو رابط الأسرة الرهبانيّة الموحّدة بين الرئيسات، وإنّه المرجع الوحيد لهنّ ولدى السلطات الدينيّة المختصة، ما عدا ما نصّ عليه الحقّ العامّ (مادة ٨ من الرسوم)...

تضمّ مدافن الرهبانيّة اللبنانيّة رفات الرهبان والراهبات الأتقياء. وقد أعطت هذه الرهبانيّة القديس شربل*، والطوباويّ نعمّة اللّه كساب الحريّني* المعروف بقديس

كفيّان، والقديسة رفقا الرّيس^١. وهناك ملفّات رهبان آخرين تدرس حاليًا لتقديم دعاوى تطويب أصحابها، منها ملفّ الأخ إسطفان نعمة اللحفي* الذي قطعت دعوى تطويبه خطوات عمليّة كما سبق وذكرنا.

الراهبات الأنطونيّات^٢

يعود تأسيس جمعيّة الراهبات الأنطونيّات إلى النصف الأوّل من القرن الثامن عشر. في سنة ١٧٤٨ كان لهنّ دير مار الياس في غزير، وسنة ١٧٧٤ دير مار أنطونيوس في جزين. وكانت الراهبات الأنطونيّات المارونيّات محصّات، أي منعزلات عن العالم، منصرفات إلى الصلاة والعمل. وكان قانونهنّ هو نفسه الذي اعتمده الرهبان الأنطونيّون والذي أثبته الكرسيّ الرسوليّ سنة ١٨٤٠، كما اعتمدن قانون راهبات مار أنطونيوس الذي أعدّه العلامة "المطران يوسف شمعون السمعاني"،

١ - القديسة رفقا (١٨٣٣ - ١٩١٤): هي وحيدة أهلها بطرسيّة لينة صابر الشبق الرّيس المولودة في ٢٩ حزيران في حملايا المتن، والدتها رفقا الجميل، عاشت السنوات العشرين الأولى من حياتها في البيت والمدرسة والكنيسة والطبيعة ودمشق، دخلت جمعيّة المريمات في بكتيّا أوّل كانون الثاني (يناير) ١٨٥٣، قلّمت نذورها الرهبانيّة في دير غزير ١٠ شباط (فبراير) ١٨٥٦ ومكثت فيه خمس سنوات، انتقلت إلى مركز جمعيّتها في دير القمر ١٨٦٠ - ١٨٦١، أرسلت إلى مدرسة جمعيّتها في جبيل ١٨٦٢، وإلى معاد جبيل حيث علّمت ١٨٦٤ - ١٨٧١ بناء لطلب رجل الخدمة لطفون عيسى المعادي، دخلت الرهبانيّة اللبنانيّة في دير مار سمعان - لقرن في ليطو ١٢ تمّوز (يوليو) ١٨٧١، لبست الإسكيم للرهبانيّ ٢٥ آب (أغسطس) ١٨٧٣ ودُعيت الأخت رفقا: تكرّست نهائيّ للمحبّة والألم، أرسلت إلى جبيل حيث قلّع الطبيب عينها اليمنى من دون تخدير وعادت إلى مار سمعان - ليطو تحتمل أشدّ الأوجاع، نُقلت إلى دير مار يوسف الضهر جربتا لبترون ٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٩٧، فقتت بسرّها تمامًا ١٨٩٩، أخذ لها الفنان الأخ نعمة الله المعادي صورة شمعيّة بأمر من رئيسّها ١٩٠٤، بعد معاناة الألم المبرّح ٤١ سنة توفيت في دير جربتا ٢٣ آذار (مارس) ١٩١٤ ودُفنت في مقبرة الدير القديمة، أعلنتها الكنيسة طوبويّة وشفيعة للمنتظرين قداسها، أعلنتها روما قديسة في احتفالات كبرى جرت في الفاتيكان بين ٩ و١٢ حزيران (يونيو) ٢٠٠١ وفي قلّس جبريّ في كاتدرائيّة القديس بطرس بروما على المنبح البابوي برئاسة البطريرك الماروني الكردينال مار نصرالله بطرس صفير وحضور ممثّلين عن الرؤساء الزمانيّين والروحانيّين اللبنانيّين وحشود من اللبنانيّين. نسبت إليها مكرّمات كثيرة.

٢ - سكاف الأم ماري كزافييه، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ١٩٢ - ١٩٤.

والذي سارت عليه جميع الراهبات المارونيّات، كالراهبات البلديّات وراهبات دير مار يوحنا حراش، وغيرهنّ.

بعد الحرب العالميّة الأولى، راحت الرهبانيّة الأنطونيّة تساهم في تجديد حياة الراهبات الأنطونيّات، نظراً لتطوّر أوضاع لبنان الدينيّة الاجتماعيّة، التربويّة والرسوليّة. في سنة ١٩٢٩، قرّر الرئيس العام، مع مجمع المدبّرين، توجيه الراهبات المحصّنتات إلى العمل الرسوليّ تجاوباً مع رغباتهنّ الرسوليّة. وفي سنة ١٩٣٢ أُخلي دير مار ضوميط في رومية المتن من المبتدئين، ليصبح ديراً للمبتدئات ومركزاً لتجديد حياة الراهبات الرسوليّة، وترأسّت الرهبانيّة الأمّ إيزابيل خوري (١٨٨١ - ١٩٥٣) التي كانت عابدة في دير جزّين، والتي بفضلها، صار تجديد هذه الرهبانيّة، مع رعيّل من أخواتها الفاضلات. وفي سنة ١٩٤٠، سمح الكرسيّ الرسوليّ للراهبات الأنطونيّات بأن يمارسن الحياة الرسوليّة على أنواعها، وأمر بتجديد قوانينهنّ.

تتنمي الراهبات الأنطونيّات إلى الروحانيّة السريانيّة المارونيّة المشرقيّة. ففي النصف الأوّل من القرن الثامن عشر، قمن بحركة رهبانيّة تجديديّة داخل الكنيسة المارونيّة، اعتمدت النظام والقانون والحدّات الرسوليّة في الحياة الرهبانيّة. وفي النصف الأوّل من القرن العشرين، قمن بحركة تجديديّة جديدة ظلّت مرتبطة بأصول الحياة الرهبانيّة المارونيّة المشرقيّة، أخذت بعين الاعتبار التجنّد الكنسيّ والرهبانيّ والحضاريّ، وبقين مرتبطات بالينابيع الرهبانيّة: الإنجيل والتراث الرهبانيّ المشرقيّ، مشدودات بالروح إلى التجنّد الكنسيّ الدائم.

سنة ١٩٥٣، استقلّت الراهبات الأنطونيّات عن الرهبان الأنطونيّين، وصرن جمعيّة رهبانيّة تبرز النور الرهبانيّة البسيطة. إنّما ترتبط بالرهبانيّة الأنطونيّة ارتباطاً بالإخوة بالعائلة الأنطونيّة الواحدة، ارتباطاً أخويّاً، روحيّاً وأدبيّاً.

ومن ثمّ انصرفت الراهبات الأنطونيّات إلى أعمال الرسالة في الدير وخارجه، في مختلف المناطق اللبنانيّة وفي عالم الاغتراب اللبنانيّ، وبنوع خاصّ المارونيّ منه: في الولايات المتّحدة الأميركيّة، وفي قبرص وأستراليا. وذلك من أجل العمل الرسوليّ المتنوّع، كالتعليم والاهتمام بالمرضى والعجزة والمعاقين، وفتح بيوت ضيافة وراحة وصلاة، وغير ذلك من الأعمال.

في السابع عشر من كانون الثاني (يناير) ١٩٥٨، تُبَّت رسومهنّ الجديدة من قِبَل المجمع المقدّس للكنائس الشرقيّة، فأُلْفن جمعيّة رهبانيّة حبريّة، وفقاً للمرسوم بروتوكول رقم ٧٨ / ٥٤ الصادر عن هذا المجمع.

وانطلاقاً من توجيهات المجمع الفاتيكانيّ الثاني، عقدت الراهبات الأنطونيّات مجامع عدّة سنة ١٩٦٥، ١٩٧١، ١٩٧٧، ١٩٨٠، رغبة منهنّ في التعمّق بروحانيّة الكنيسة الكاثوليكيّة عامّة والمشرقيّة خاصّة، وفي التعرّف إلى حاجات العالم والكنيسة، وفي تقييم الحياة الرهبانيّة في العالم المعاصر... وأعادت الرهبانيّة النظر برسومها، فجذّرتها أكثر من الماضي بالينابيع الرهبانيّة: الإنجيل والتراث الرهبانيّ المشرقيّ، وركّزت على حياة التأمل والصلاة وعلى العمل الرسوليّ في كلّ مجالاته، إيماناً منها، بأنّ رسالتها في لبنان تفرض تجديد إيمانها به وبشعبه وأرضه، والتعرّف على مكانته ورسالته في الشرق والغرب معاً، وإيماناً منها بأنّ رسالتها في الكنيسة المشرقيّة اليوم، تقوم على التعرّف على نضالها ودفاعها عن الإيمان الصحيح وتعاليمها وقديسيها مدى العصور والحضارات...

وفي عام ١٩٨١، مضى مئة عام على ولادة الأمّ إيزابيل خوري؛ وفي عام ١٩٨٢، مضى خمسون عاماً على مسيرة الراهبات الأنطونيّات الرسوليّة، وعدد الراهبات الأنطونيّات حوالي ١٧٠ راهبة.

للراهبات الأنطونيّات في لبنان والعالم: مركزان متخصصان لتربية النشء
الرهبانيّ والصلاة وللإدارة العامّة في دير مار ضوميط - رومية المتن؛ ١٩ مؤسسة
تربويّة: ٣ مدارس ثانويّة (رومية المتن، زحلة، الحازميّة)، ٦ مدارس تكميليّة
(الدكوانة، النبطيّة، زغرتا، عيتيت، بيروت، مجدل المعوش)، ١٠ مدارس ابتدائيّة
(عين سعادة، كفرشما، رشميا، بحدون، المنصوريّة، بعدا، غزير، عشقوت، جديدة
زغرتا). ١٥ مؤسسة اجتماعيّة: مستشفى ودور عجرة (رومية، عين سعادة)، ميّتم،
بيت الأطفال (بيروت، عين سعادة)، مؤسسة للمعاقين الأطفال (مؤسسة إيريس
فرنجيّة، جديدة زغرتا)، ٥ بيوت ضيافة، راحة، صلاة (بيروت، عين سعادة،
بحدون، بكفيا، إهدن)، ٥ مستوصفات (مجدل المعوش، رشميا، رميش، دبل، عين
الرمّانة مطرانيّة اللاتين في لبنان، حدث بيروت).

في الخارج: مركز سيّدة لبنان (نشاط ديني، ثقافي واجتماعي في خدمة المغتربين
اللبنانيين) في نورث جامكسون أوهايو، ومركز راعي واجتماعي في فرجينيا الولايات
المتّحدة الأميركيّة؛ مركز مار مارون (مركز للعناية بالنشء المارونيّ وتعليم اللغة
العربيّة) ومركز راعي في نيقوسيا - قبرص؛ مركز للاهتمام للمغتربين اللبنانيين من
الناحية الاجتماعيّة والدينيّة والثقافيّة في ملبورن أستراليا^١.

١ - سكاف الأمّ ماري كزافييه، مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ١٩٢ - ١٩٤.

جَمْعِيَّة رَاهِبَات الْقَلْبَيْنِ الْاَقْدَسَيْنِ^١

يرقى تأسيس رهبانية قلبي يسوع ومريم الاقدسين إلى عام ١٨٥٣ على يد الآباء اليسوعيين بموازنة الخوري يوسف الجميل من بكفيا. فبعد أن أعيدت الرهبانية اليسوعية، رجع مرسلوها إلى لبنان ومنهم الأبوان "بول ريكادونا" الإيطالي، و"ريمون استيف" الفرنسي. وبعد تنقلات في الجبل للرسالة والتبشير استقرّ الأول في رحلة والثاني في بكفيا. وإذ كانا مدرّكين لأهمية المرأة ودورها في تطوير المجتمع دينياً وأخلاقياً، فكراً بإنشاء مدارس للبنات، لتكون حجر الزاوية في بناء رسالة فعّالة. وكان الأب استيف صاحب المبادرة الأولى، إذ طلب إلى "الخوري يوسف الجميل" أن يسعى في إيجاد معلّّات يُعهد إليهنّ تلقين الفتيات مبادئ القراءة والدين. ولم يكن الأمر بالسهل نظراً لضآلة عدد المدارس آنذاك وانحصارها في المدن الكبرى. وكلّلت مساعي الخوري الجميل بالنجاح بعد أن وُفق إلى جمع بضع فتيات تمرّن على القراءة والكتابة وبعض الأشغال اليدوية التي تؤهّلن لتلقينها بدورهنّ للتلميذات. وهكذا نشأت نواة لجمعية رهبانية كان تحقيقها في الأول من كانون الثاني (يناير) ١٨٥٣ وعُرف أعضاؤها بالمريمات. وتعاون على إدارتها الأب استيف والخوري الجميل، فاهتما بشؤونها وسهرا على تخريج الطالبات الروحي والأدبي.

وقام الأب ريكادونا بدوره بمثل هذا المشروع في رحلة، فجمع عدداً من الشابات قمن معه، وتحت إشرافه، بعمل الرسالة والتعليم. ونزولاً عند إلحاحهنّ سمح لهنّ بإبراز نذور رهبانية فردية سنة ١٨٥٧ وعُرفن باسم "بنات قلب يسوع".

١ - عن أمانة سرّ رهبانية القلبيين الاكذمين، مجلة "الفصول اللبنانية"، العددان ٦ و ٥، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ١٦٥.

ولما كانت الغاية واحدة من الجمعيتين القائمتين، ارتأى رؤساء الرهبانية اليسوعية ضمهما في جسم واحد، تكررّس باسم "رهبانية قلبى يسوع ومريم الأقدسین" وذلك سنة ١٨٧٤. على أن الرهبانية الجديدة لم يكن لها وضع كنسى قانوني إذ لم تكن قد حصلت بعد على تثبيت من الكرسي الرسولي، فما كان من خلفاء الأبوين استيف وريكادونا إلا أن قرّروا إلغائها. فتبدّد شمل أعضائها ولم يبقَ منهنّ سوى القليل. وهذا ما أحدث فراغاً في صفوف النشء، فأمر رؤساء الرهبانية اليسوعية بإعادة الرهبانية وتثبيتها على أسلوب يتلاءم وحاجات العصر، خصوصاً بإعطائها وضعاً قانونياً لا تستطيع معه الأيدي العابثة أن تتلاعب بها. فتمّ ذلك في ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٤. ومنذ ذلك التاريخ والرهبانية تواصل جهودها في مختلف الحقول التعليمية والاجتماعية والمهنية والتمريضية، وهي تهدف إلى خدمة الإنسان أيّاً كان مذهبه، أو وضعه الاجتماعي، أو جنسه.

لجمعية راهبات القلبين الأقدسین في لبنان ٤٧ ديراً. وتضمّ مدارسها حوالى ٣٢,٠٠٠ طالباً وطالبة، منها ٢٢ مدرسة مجانية فيها نحو ١٢,٠٠٠ طالب مجاني. إضافة إلى مدرستين مهنتين. وللرهبانية ميمان، ومستشفیان خاصتان، ودار لعجزة الرهبانية. وتساهم راهبات القلبين الأقدسین في إدارة مستشفيات حكومية في بعلبك وزحلة، ومستشفى "تل شيحا" في زحلة، ومستشفى "أوتيل ديو" في بيروت. كذلك تساهم في عدة مستويات للصليب الأحمر اللبناني، ومستوصفات أخرى خاصة. فضلاً عن المساهمة في أنشطة الأبرشيات والمنظمات الخيرية ومصلحة الإنعاش الاجتماعي والتعليم الديني.

ألحقت الحرب اللبنانية أضراراً جسيمة في أديار للرهبانية لا يقلّ عددها عن ٢٣. والأكثر تضرراً في: طرابلس الشمال، والمروج المتن (ميتم ومدرسة مجانية)،

ومرجعيون، والدامور. وللرهبانية، فضلاً عن عملها في لبنان، مؤسسات في سوريا والشمال الأفريقي (المغرب والجزائر) وفي التشاد وباريس وروما. ولها ١٤ ديراً في سوريا. وكانت مدارسها في سوريا مزدهرة شأنها في لبنان إلى أن أمتها الدولة السورية واستولت على الجزء الأكبر من ممتلكاتها فاقصر شغل الرهبانية هناك على تلقين التعليم المسيحي وخدمة اجتماعية وتمريضية. أما النشاط الرئيسي لكل هذه المراكز فهو التعليم الديني فيها وفي القرى المجاورة، وإحياء السهرات الإنجيلية، والقيام بأعمال الانعاش الراعوي والخدمات الاجتماعية والصحية.

جَمْعِيَّة رَاهِبَات

العائلة المقدسة المارونيّات^١

أسس جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيّات، البطريرك الياس الحويك* الذي رأى أن لبنان يحتاج إلى مؤسسة رهبانية وطنية تعمل على تربية الفتاة اللبنانية وتنقيتها وفقاً لحاجات العصر والبلاد وحسب مبادئ الإنجيل. وكانت الفكرة تراوده منذ زمن بعيد، وإذ كان يقوم بزيارة رعائية في كفيفان، قضاء البترون، وكان آنذاك لا يزال مطراناً، نزل في ضيافة "عساف البيطار"، الذي عرض على "المطران" الحويك زيارة راهبتين مقيمتين حديثاً في القرية. فلبى البطريرك الحويك الدعوة مستغرباً وجود راهبتين في كفيفان لعلمه أنه من النادر أن توجد راهبات خارج ضواحي بيروت. وخلال الزيارة عرض عليهما البطريرك فكرة تأسيس الجمعية، فوافقت الأختان، وبعد إجراء المراسيم القانونية، باشرت مع غبطته بتأسيس جمعية راهبات العائلة المقدسة، وكان ذلك سنة ١٨٩٥. فأصبحت الأم "روزالي نصر" الرئيسة العامة الأولى ومعاونتها الأم "استفاني كردوش". وسكنت الراهبات أولاً في دير جبيل، وفي سنة ١٨٩٦، انتقلت

١ - مجلة "الفصول اللبنانية"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

الجمعية الجديدة إلى "عبرين" من أعمال قضاء البترون في جنوب شمال لبنان حيث بوشر ببناء الدير الذي أمسى مهد الجمعية والبيت الأم.

يختصر قانون الرهبانية "دستور حياة" أهداف الجمعية كما يلي:

١ - السعي إلى حياة الكمال الرهباني؛ ٢ - الاهتمام بتربية النشء وتنقيفه، وفقاً لحاجات العصر والبلاد، ولا سيما الفقراء؛ ٣ - العناية بالمستشفيات والشؤون الاجتماعية، إجابة لنداء الرحمة المسيحية؛ ٤ - نشر بشرى الخلاص عن طريق شرح التعليم المسيحي في الأوساط الفقيرة، وإدارة الأخويات، وتنظيم العمل الكاثوليكي، تحت تدبير كهنة الرعايا^١.

في سنة ١٨٩٨، كان عدد الراهبات: ٨ نازرات، ٤ مبتدئات، ٣ طالبات. وقد أصبح بعد مئة عام نحو ٣٥٠ راهبة. وقد أرسلت الجمعية ولا تزال، عدّة راهبات للتخصّص بسائر فروع التعليم في أوروبا وكندا. ويتابع عدد كبير من الأخوات الدروس الجامعية في لبنان. وتشترك بالتدريس في الجامعة اللبنانية الأخوات الحاصلات على الدكتوراه من جامعة السوربون - باريس. وانتشرت مدارس الجمعية في مدن وقرى الساحل والجبل في لبنان، وفي سوريا وأستراليا.

ففي لبنان: ١١ ثانوية؛ ٧ تكميليات؛ ٢٥ ابتدائية؛ إدارة ٨ مدارس في الأبرشيات؛ ٩ مستشفيات؛ ٥ مستوصفات؛ ميثمان؛ مدرسة لحادقات الأطفال بالتعاون مع البعثة الثقافية في لبنان؛ مدرسة للتمريض. وفي أستراليا: مدرستان. وفي سوريا: إرساليّتان، كانت مدرستين سابقاً. وتضمّ مدارس الجمعية نحو ٣٠ ألف تلميذ وتلميذة.

١ - قانون جمعية راهبات العائلة المقدسة المارونيات "دستور حياة"، ص ٣.

جَمْعِيَّة رَاهِبَات الصَّلِيب

أسس الأب يعقوب حدّاد الكبوشيّ جمعيّة راهبات الصليب سنة ١٩٣٠، للعناية بالمرضى والأيتام والعجزة، ومن هم "أشدّ بؤساً وحرماناً". وقد دوّنت اتّجاهاتها الروحية في كتاب "الرسوم" وهو دستورها الأساسي. وجاء فيه:

بدافع من حبّ الآب الذي يرى في الخفية، أننا ننطلق بسخاء نحو الخدمات التي تلاقي أقلّ رغبة دون أن نتباهى بسبب هذا الاختيار... (رسوم ١٥٨)؛ لنبذل العناية بالمرضى من أيّ دين كانوا، ولنتابع عمل ربّنا الذي يقول للتعساء: تعالوا إليّ يا جميع المتعبين والثقيلي الأحمال وأنا أريحكم". لنعتبر أنّ هؤلاء الفقراء المهملين يأتون إلينا كما إلى المسيح يسوع المصلوب (رسوم ١٦٩)... وكان التجاوب مع الاحتياجات الملحة، ولا يزال رائد جمعيّة راهبات الصليب في الثلاثينات عند تأسيسها وكانت الاحتياجات الملحة: ١ - إيواء الكهنة العاجزين عن متابعة القيام برسالتهم من جرّاء المرض والشيخوخة؛ ٢ - العناية بالتعساء من عريان ومقعدين ومختلين وشيوخ حتّى المصابين بداء عياء، وقد تخلّت عنهم عائلاتهم والمستشفيات؛ ٣ - العناية بالأيتام ذكوراً وإناثاً؛ ٤ - وأخيراً، عند الاقتضاء تأدية الرسالة بواسطة المدارس والتعليم الديني. (رسوم ٥).

في عهد الأب يعقوب، نمت أديار الجمعيّة بسرعة وكانت: مستشفى الصليب للأمراض العقلية في جلّ الديب؛ مستشفى مار يوسف في الدورة من ساحل المتن؛

١ - الأب يعقوب حدّاد (١٨٧٥ - ١٩٥٤): راهب كبوشي، ولد في غزير - كسروان من أبوين مارونيين، أبرز نخوره الرهبانية ١٨٩٤، سيم كاهناً ١٩٠١، تسلّم إدارة للرهبانية الكبوشيّة ورسالة الوعظ حتّى بدء الحرب العالميّة الأولى إذ عُيّن رئيساً بالوكالة، بنى مزار دير الصليب وسيدة البحر في بقايا فوق جلّ الديب من أعمال ساحل المتن ١٩١٩ - ١٩٢٥، وحوّله مقرّاً للكهنة، ثمّ مستشفى للأمراض العصبية والنفسية، أسس جمعيّة راهبات الصليب ١٩٣٠، توجّ حياته ببناء دير يسوع الملك على تلة نهر الكلب في زرق مصبح كسروان، لا تزال معاملات إعلان تطويبه ملارية من قِبَل الكنيسة، وقد افتّحت للدعوى الباباويّة رسمياً في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩.

مأوى العجزة في إنطلياس؛ مدرسة مار فرنسيس في جلّ الديب؛ ميّتم البنات في دير القمر؛ مدرسة مار الياس في برمانا؛ - كنيسة سيّدة البئر في بياقوت بقرب الزلّقا ساحل المتن؛ معبد المسيح الملك في زوق مصبح من ساحل كسروان؛ بيت المتسولين في الجميزة بيروت؛ بيت العناية الإلهيّة للبنات المهملات في الجميزة بيروت؛ المدرسة الساروفيميّة للآباء الكبّوشيين في بيروت؛ رعيّة مار لويس ورعيّة مار فرنسيس في بيروت؛ السفارة البابويّة في بيروت.

وبعد وفاة المؤسّس، اهتمّت الجمعيّة بإنشاء: ميّتم الآباء الكبّوشيين في عبيه؛ المستشفى العسكريّ في تبنين؛ المستشفى الحكوميّ في قبر شمون من أعمال قضاء عاليه؛ مصحّ ضهر الباشق في المتن؛ المدرسة الابتدائيّة المجانيّة في حراجل كسروان؛ وابتداء من سنة ١٩٧٢، تسلمت الجمعيّة أو أنشأت مشاريع جديدة تلبية لحاجات جديدة وملحة فكان: مستشفى زغرّتا؛ المستشفى الحكوميّ في بعبدا؛ مستشفى دير القمر؛ مركز معاقي الحرب في بيت شباب؛ السفارة البابويّة في دمشق؛ مقام مار بولس في دمشق؛ الوكالة العامّة للجمعيّة في روما؛ بيت بشعله من أعمال أعالي قضاء البترون في شمال لبنان؛ المدرسة الابتدائيّة المجانيّة والمستوصف في شرتون - عاليه؛ مشغل الأعمال اليدويّة في اجدير - البترون^١.

١ - مؤسّسة الصليب بعد ٥٠ سنة، (جلّ الديب - لبنان، ١٩٦٩)؛ مفزّح طوني، الموسوعة اللبنانيّة المصوّرة، الجزء الأوّل، مكتبة لبستان (بيروت، ١٩٦٩)؛ مجلّة "الفصول اللبنانيّة"، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ٢٠٠ - ٢٠١.

جمعية راهبات

القديسة تريزيا^١

أسس جمعية راهبات القديسة تريزيا الطفل يسوع المارونيات الخوراسقف أنطون عقل^٢، في ١٧ أيار (مايو) عام ١٩٣٥، وهو تاريخ إعلان قداسة الطوباوية تريزيا الطفل يسوع. وقد اختار المؤسس هذه المناسبة ليضع الجمعية تحت شفاعة القديسة تريزيا. وهي جمعية بطريركية مارونية، حدد لها المؤسس دستوراً بقوله: "يا بناتي، ليكون الإنجيل دستوراً لحياتكن". فعكفت الراهبات اللواتي لا يتجاوز عددهن المئة على التقيّد بهذا الدستور، والتركيز على الصلاة والأعمال التقوية، والتضحية في خدمة الإنسانية، بالتفرغ لأعمال الرسالة بإشراف الأخوات اللواتي تسلمن المسؤولية بعد وفاة المؤسس عام ١٩٥٨. ولما كانت غاية الرسالة نشر ملك المسيح على الأرض، تشعبت نشاطاتها للعمل في مختلف الميادين الرسولية، وحيثما تدعو الحاجة وتتوافر الإمكانيات.، إذ تؤمّن الخدمات التالية:

على صعيد التعليم والتربية والتعليم المهنيّ: للجمعية مدارس في الجبال والساحل، إثنان منها ثانويّان. معظمها شبه مجانيّة. وقد لحق بالعديد منها، إبان الحرب اللبنانية، أضرار مختلفة، ولا سيّما المدرسة الكائنة في فرن الشباك التي تمّ إصلاحها أكثر من مرّة. وقسم من هذه المدارس في شماليّ لبنان: في أميون، دار

١ - عيد الأم جوزيف، مجلة الفصول اللبنانية، العددان ٥ و٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ٢٠٦ - ٢٠٧.

٢ - الخوراسقف أنطون عقل (١٨٩٠ - ١٩٥٨): هو أنطون بن أسعد حبيب عقل، ولد ببيروت في عائلة من جديدة غزير، درس في كلية الآباء اليسوعيين ببيروت، سيم ١٩١٤، تولّى خدمة الرعايا أكثر من عشرين سنة، رئيس كهنة كاتدرائية مار جرجس في بيروت، أسس الأخويات، والنادي الماروني للشبان، ومستشفى مار الياس في بيروت، وراهبانية القديسة تريزيا الطفل يسوع للراهبات وبنى لها ديراً في القليعات، ومستشفى القديسة تريزيا في حداث بيروت، وملوى العجزة للماروني في فرن الشباك، ومجلة "رسالة السلام"، حامل لوسمة الاستحقاق اللبناني والمعارف الفرنسي والتاج الملكي الإيطالي.

بعشتار، حدشيت، والقسم الآخر في كسروان والفتوح: القليعات، سهيلة، جورة الترمس. أما في الساحل، فمدرسة فرنّ الشبّاك؛ وفي أميون فرع لمدرسة القديسة تريزيا لتعليم السيّدات والفتيات الخياطة والأشغال اليدويّة والتدبير المنزلي. وفي القليعات كسروان مشغل للخياطة وفرنّ التفصيل وصنع الزهور؛ وخُصّص في مدرسة أميون فرع للأيتام لم ينجُ من أذى بعض القذائف في حوادث ١٩٧٦.

وتقوم راهبات القديسة تريزيا بخدمة العجزة في مأوى العجزة المارونيّ في عين الرمانة بضواحي بيروت. هذه المؤسسة حديثة البناء ومجهّزة تجهيزاً كاملاً ومنمّما. تتّسع لمئتين وستين سريراً وتُعنى بالمحتاجين من مختلف الطوائف. وقد لحقت بهذه المؤسسة أضرار جسيمة عامي ١٩٧٥ و١٩٧٦، وأجرت الراهبات الإصلاحات مرّات عديدة. وفي عام ١٩٧٨، مُنيت المؤسسة بأضرار جسيمة من خراب وتهديم. ولمّا لم يعد المأوى صالحاً لإيواء العجزة، اضطرتّ الجمعيّة لعرض أمرها على البطريك خريش، الذي أوعز إلى المدرسة الإكليريكيّة المارونيّة في غزير بأن تفتح أبوابها لإيواء أكبر عدد من العجزة، وبقي القسم الآخر في المؤسسة في عين الرمانة، لأنّ حالتهم الصحيّة لم تكن تسمح آنذاك بالانتقال. فتطوّعت بعض الراهبات لخدمة هؤلاء العجزة المرضى بالرغم من دويّ المدافع، ولخدمة الجرحى في مستويات المنطقة. وفي حقبة هدوء أمنيّة، أصلحت الجمعيّة قسماً من الغرف لإعادة العجزة إليها، ومن ثمّ أعادت بناء جناح الرجال الذي كان قد تهدّم كليّاً.

إلى جانب مأوى العجزة في عين الرمانة، تخصصّ الجمعيّة مستوصفاً للاستقبال اليوميّ والمجانّي، وتقديم الخدمات الطيّبة. وتقوم الراهبات بخدمة المرضى في مستشفى مار الياس في العاصمة بيروت الذي تعرّض في حرب ١٩٧٥ و١٩٧٦ للسرقة والنهب، وأصيب بقذائف ثقيلة ألحقت أضراراً في البناء والأثاث، ولم تسمح

الحالة الأمنية آنذاك للراهبات بالعودة إليه لمتابعة رسالتهم الإنسانية. إضافة إلى ذلك، مُنيت الجمعية، في العام ١٩٧٥، بخسارة راهبة استشهدت ضحية رصاص القنص في أثناء قيامها بواجبها في المستشفى المذكور، وهي الأخت فيلومين خوري من بلدة كفرشخنا شمالي لبنان؛ وفي مستشفى القتيصة تريزيا في الحدث، جنوبي شرقي بيروت، حيث يتسع المستشفى لستين سريراً، معظمها للأطفال، ولا سيما الفقراء منهم. ومنذ عام ١٩٧٥ كان المستشفى عرضة للرصاص والقذائف، وقد أجريت فيه إصلاحات عدة متتالية. كما تعرض لعمليات سرقة ونهب. غير أن الجمعية أصرت على إصلاحه وترميمه إصلاحاً جذرياً، وباشرت الراهبات باستقبال المرضى ومتابعة خدمتهم في الحادي عشر من آب (أغسطس) ١٩٨٠؛ وإلى جانب المستشفى المذكور آنفاً، كانت الجمعية قد بدأت، منذ العام ١٩٧٣، بناء مستشفى جديد مؤلف من ثماني طبقات، يتسع لمئة وخمسين سريراً، ومعدّ لاستقبال المرضى في مختلف فروع الطب. أنجز البناء وتم تركيب الأجهزة المركزية والمتفرعة منها من كهرباء وماء وهواء. وكانت الجمعية قد استوردت من الخارج الآلات الضخمة والخاصة بتجهيزات المستشفى في جميع فروعها وأودعتها الطابق السفلي منه استعداداً لحين إتمامه في غضون ستة أشهر، وعند اشتعال الحرب عام ١٩٧٥، توقفت الجمعية عن إنجاز المستشفى بسبب وجوده على خط النار. وبقي طوال الحرب معرضاً للرصاص والقذائف ولحققت به أضرار جسيمة ونُهبت التجهيزات والمعدات، حتى التي كان قد ركزت في أمكنتها لاستعمالها؛ وقد اضطرت الجمعية، جرّاء ما تعرضت له مؤسساتها الإنسانية من كوارث ونكبات، إلى إيجاد مشروع بديل عن المشاريع المهمة، وإذا كانت تسعى لاستئجار بناء يصلح كمستشفى تتابع فيه رسالتها الإنسانية، ساهم في تحقيق حلمها هذا، المحسن الكبير "جورج بشاره متى"، من بلدة عجلتون - كسروان، إذ

قدّم للجمعية قطعة أرض تبلغ مساحتها ستة آلاف متر مربع صالحة لبناء المستشفى، الذي أطلق عليه اسم "مستشفى سان جورج". وقد اضطرت الجمعية للاستعانة بقرض ماليّ لمدة عشر سنوات لإكمال مشروع بناء هذا المستشفى.

جمعية راهبات

القربان الأقدس المرسلات^١

أسّس جمعية راهبات القربان الأقدس المرسلات، الأب "إميل جعارة"^٢ من بلدة "هابيل" التابعة للأبرشية البطريركية في جبيل، وذلك في السنة الثانية لسيامته. ففي أثناء ممارسته الخدمة الروحية ما يناهز الخمس سنوات في رعية مار لويس للأباء الكبوشيين في بيروت، إطلع الأب جعارة على الواقع المؤلم والفادح، والضرر الذي تعيشه الكثيرات من فتيات القرى اللبنانية بهبوطهنّ إلى المدينة لكسب لقمة العيش، وهنّ غير مؤهّبات لمجابهة أخطار العصر. لذا فكّر الأب جعارة بتأسيس جمعية رهبانية تحمل اسم القربان الأقدس وتأخذ على عاتقها تجنّيب فتيات الوطن كلّ هذه المآسي المريرة. وكان لا بدّ من تأسيس اجتماعي آخر يمهد لنشوء تلك الجمعية، فظهرت إلى الوجود "مؤسسة فتاة لبنان الاجتماعية" واتّخذت مبدأ لرسالتها: "الوقاية

١ - مفرّج طوني، الموسوعة اللبنانية المصوّرة، مرجع سابق، الجزء الثالث؛ مجلة "الفصول اللبنانية"، العددان ٥ و ٦، شتاء وربيع ١٩٨١، ص ١٩٧ - ١٩٩.

٢ - المونسنيور إميل جعارة: مرسل لبنانيّ، مربّ، ولد ١٩٢٤، دخل مدرسة عين ورقة ١٩٤٥ حيث تلقّى علومه العالية وتربّيته الاكليريكية، سيم كافناً ١٩٥٢، علّم في مدارس عدّة، أنشأ "مؤسسة فتاة لبنان الاجتماعية" في مبنى معهد عين ورقة ١٩٥٧، سافر إلى روما ثلاث مرّات وحظي من البابا ١٩٦٥ على إذن بإنشاء "جمعية راهبات القربان الأقدس المرسلات" التي أسّسها في عين ورقة ١٩٦٦، أنشأ مركزاً رئيسياً لها في "بيت حبال" ١٩٦٩ وهو يضمّ مدرسة كبرى تُعشت المنطقة والجوار، تفرّعت مؤسسته إلى مراكز دينية وتربوية في كرم المهر زغرّتا وكفر مسحون جبيل، أنشأ مستوصفاً طبياً في بيت حبال ١٩٩١، منحه البطريرك صغبر رتبة مونسنيور بجميع امتيازاتها ١٩٩٩.

خير من العلاج"، وغايتها: "صون كرامة الفتاة اللبنانية"، وشعارها: "تقوى وطهارة، علم وعمل"، وحقل نشاطها: القرية اللبنانية. وبين جدران مدرسة عين ورقة، بأشر الأب جعارة بوضع المداميك الأولى لمؤسسته الجديدة، وكان ذلك في ربيع ١٩٥٧. وكانت الانطلاقة خيرة فأخذت تنمو تدريجاً، وعملت المؤسسة من جهة، على صرف فتاة القرية عن الهجرة إلى محيط المدينة، ومن جهة أخرى، عُنيت بتثقيتها وتنقيتها وتهذيبها وإعدادها في جوّ القرية الآمن لتغدو محفوظة الكرامة، عالية الأخلاق، متّقية الله، جديرة بأن تكون أمّاً مثاليّة للأجيال الطالعة.

ولازمت الأب جعارة فكرة تأسيس جمعية "راهبات القربان الأقدس المرسلات"، لأنّه كان يرى فيها وسيلة ضروريّة لقيام المؤسسة وإطّراد نموّها واستمرار رسالتها النبيلة. وفي ٢١ شباط (فبراير) ١٩٦٥ عرض على البطريرك مار بولس بطرس المعوشي قصده بتأسيس رهبانيّة جديدة، فاستحسن البطريرك الفكرة ووعدّه بالاهتمام بالأمر.

في ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٥، رفع البطريرك المعوشي إلى الكرسيّ الرسوليّ قضية تأسيس الرهبانيّة، فوافق البابا وأصدر سماحه بتأسيس هذه الجمعية الرهبانيّة في ٢١ تمّوز (يوليو) ١٩٦٦. وفي ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٦٦، أقام المطران يوحنا شديد، النائب البطريركيّ العام، في كنيسة عين ورقة البطريركيّة، قدّاساً احتفاليّاً ألبس في خلاله، بتفويض من البطريرك المعوشي، الثوب الرهبانيّ للمبتدئات الثماني الأوليات في "جمعية راهبات القربان الأقدس المرسلات" الناشئة. وبتاريخ ٣ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٦٨، نذرن الراهبات الثماني نذرهنّ الأول بحضرة البطريرك الحاليّ الكاردينال مار نصرالله بطرس صفير، الذي كان آنذاك مطراناً، ونائباً بطريركيّاً عامّاً. وإحتفلت "راهبات القربان الأقدس المرسلات" في ١٤ أيلول (سبتمبر) ١٩٨١

بالذكرى السنوية الخامسة عشرة لتأسيس جمعيتهم، وقد بلغ عدد راهباتها ٢٨. وعدد الراهبات بالترهب ناهز العشرين.

تمدّ راهبات القربان الأقدس المرسلات يد المساعدة للفتيات اليتيمات والمحتاجات وسائر من يلتمس العون والرحمة، سواء كان في مركز عين ورقة في غوسطا، أو في مركز رسالتهم الرئيس في بيت حباق من أعمال جبيل، الذي أسس عام ١٩٦٩، وفيه تقوم مدرسة مجانية تفيد منها عشرات القرى المجاورة. أو في ومدرسة كفر مسحون جبيل ومدرسة كرم المهر في قضاء الضنية من شمال لبنان حيث افتتحت المؤسسة فرعين مؤخرًا.

ومن أهمّ النشاطات التي تمارسها الراهبات: التعليم المسيحي في الرعايا والمدارس، تهيئة الأولاد للقربانة الأولى، مساعدة المؤمنين على الاشتراك في الذبيحة الإلهية، تأمين الصلوات الجمهورية في الكنائس والسهر على نظافتها وحفظ الملابس والأواني المقدسة فيها، تنظيم السهرات الإنجيلية، العناية بالمرضى، إسعاف العائلات الفقيرة حسب الحاجة. كما أنهم يعاون المنظمات والمؤسسات الخيرية في تأمين المخيمات الصيفية للأولاد ذوي الأوضاع الاجتماعية الخاصة. وإبان اشتداد الحرب اللبنانية، استقبلت الراهبات العديد من العائلات المهجرة وقدمن لها مختلف المساعدات الروحية والمادية.

